المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة



قصص
الأمير مرزبان
على لسان الحيوان

تأليف / مرزبان بن رستم بن شروين

ترجمة / يوسف عبد الفتاح فرج

212

المشروع القومى للترجمة

قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان

تـأليف
مرزبان بن رستم بن شروين

ترجمة
يوسف عبد الفتاح فرج

مراجعة وتقديم
محمد علاء الدين منصور



٢٠٠٠

هذه ترجمة عن الفارسية لكتاب :

مرزبان نامه

ل : مرزبان بن رستم بن شروين

تصــــدير

من كـتب النصـيحـة والحكمـة التى ألفت على هدى من الكتـاب المشهور (كليلة ودمنة) وعلى غراره كتاب (مرزبان نامه) من تواليف الأمـير الطبـرى مـرزبـان بن رسـتم بن شـروين من أبنـاء أوائل القـرن الثـالث الهـجرى غالباً وأحـد ملوك طبرستـان من آل باوند ، أنشـأ هذا المؤلف فـريدته العـذراء بلغتـه الطبـرية ، وظلت فـى أثمالهـا الطبـرية وراء ستور النسيان أربعمائة عام ونيف حتى عادت على يد المنشىء البارع والكاتب البليغ سـعـد الدين الوراوينى شـابه فـى أوائل القـرن السـابع الهـجرى . والوراوينى من فـضـلاء العـراق العـجمى وينتسب إلى قـرية وراوى وهى بلد صغير فى جبال آذربايجان بين أردبيل وتبريز ، ويستنبط من مـقـدمـة الكتـاب وخـاتمتـه أنه كـان من خـاصـة الوزير أبى القـاسم ربيب الدين هارون بن على وكان وزيراً للأتابك أزبك بن محمد بن إيلدكز أحـد أتابكة آذربايجـان والذى وليـهـا بين عـامـى (٦٠٧ و ٦٢٢) من الهجرة (١٢١٠ ، ١٢٢٥ م) . وقد سبق محمد بن غازى الملطى ، من أهل ملطـيـة إحدى بلاد آسـيـا الصـغـرى وتقع شـمـالى حلب وجنوب سيواس ، صاحبنا الوراوينى فى نقل مرزبان نامه إلى الفارسية ، وكان الملطى وزيراً لسليمان شاه بن قلج أرسلان بن مسعود من ملوك سلاجقة الروم فى أواخـر القـرن السـادس الهـجـرى ، وأتم ترجـمـتـه عـام ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م وأسـمـاها (روضـة العـقـول) بيد أن (روضـة العـقـول) - يقول محمد بن عبد الوهاب القزوينى مصحح مرزبان نامه - يختلف عن مرزبان نـامـه اختـلافاً كبيـراً فى عدد أبوابه وترتيب حكاياته ومن حيث الزيادة والنقصـان وهناك حكايات كثيرة فى روضة العقول لم ترد فى مرزبان نامه . ويبلغ روضة العقول ضعف مرزبان نامة فى حجمه . مع

هذا فإن مرزبان نامه . كان ما آثره الناقلون إلى التركية والعربية ، إذ ترجم إلى التركية أولاً ، ثم نقله عنها إلى العربية شهاب الدين أحمد بن عربشاه المتوفى ٨٥٤ هـ/ ١٤٥٠ م وقد طبعت هذه الترجمة العربية بالقاهرة عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠ م طبعة حجرية وصادف القزوينى إحدى نسخها محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس .

وقد ورد فى مقدمة الكتاب أن واضعه المرزبان الموسوم بالفضل والحكمة قد أنشأه مشتملا على لطائف الحكمة وفوائد الفطنة لكى يتخذه الناس عامة دستوراً لمعاش دنياهم ومعاد أخراهم ويرجع إليه الملوك ليستأنسوا به ويستفيدوا بمطالعته ويستكملوا منه سياسة السلطنة ويستخلصوا من زواجر وعظه ونصحه أخلاق المسايرة وحكمة المعاملة ونكرى سير الأيام وانقلاب الدهور والأعوام ، فألفه على ألسنة الوحوش والطيور والإنس والجن والشياطين ، وجاء الملطىُّ فأنس من هذا الكتاب عُرياً من حلية العبارة وجواهر الألفاظ الحجازية الزواهر ودُرر غرر الأمثال والأشعار العربية ، فكسا مناكب مثالب عبارته بجلابيب مواهب خاطره ، لتزداد فى مطالعته رغبة مستفيدى الأدب ومقتبسى ألفاظ العرب من متعلمى صنعة الإنشاء والبلاغة والفصاحة ، وقد نهج الوراوينى نفس المنهج فنقل الكتاب بدون تغيير اسمه وتصرف فى عبارته رزينها بالأشعار والأمثال العربية والفارسية حتى يعد فى صورته الحاضرة من حيث سلامة العبارة وسهولة اللفظ وسلاسة البيان وبما حفل به من تشبيهات واستعارات نموذجاً عالياً للإنشاء الفارسى فى عصره قل أن يدانيه فى ذلك كتاب .

وليت شعرى هل كان من خط الوراوينى أن يلقى كتابه هذا همة الزميل النابه الفخم اللفظ والجزل الجهد الدكتور يوسف عبد الفتاح

فينقله إلى العربية نقلاً أميناً ويحفظ مع هذا على عبارته جمالها ولفظه سلاسته ، أم من خط الدكتور يوسف أن يصادف كتاب الوراوينى فيهتبل سانحته ويستصفى زبدته ويستخلص خلاصته ويغدو كالنحلة تمتص رحيق الزهور والورود لتخرجه شراباً مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس ، أم أن الخط للاثنين معاً أن اقترن أحدهما بالآخر فأخذ هذا من حسن ذاك وقبس ذاك من جمال هذا واستغرق أحدهما الآخر واسترق ، كالزجاجة والخمر حين يستوعب أحدهما ثانيهما فيتشابهان :

رق الزجاج وراقت الخمر ∴ وتشابها فتشاكل الأمر ؟ !

إنما الحكم للقارىء الكريم ود، أن يذهب بعد أن يقرأ قصص الأمير مرزبان أو مرزبان نامه - مذهبا أو أن يخالفه . . .

محمد علاء الدين منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد والثناء لمن تفوح روائح ذكره مثل ثنايا الصبح على رائحة فم الورد ؛ والشكر والتحية لمن تهب فوائح نشره مثل نسيم الصبا على طرة الحسان المجعدة ؛ وللذات الطاهرة الكريمة التى ضاق النطق عن نطاق الإحاطة بلطائف كرمه ؛ وللقديم الذى لم يتقدم العقل خطوة واحدة فى بلاط كبرياء قدمه ؛ وللبصير الذى لا يمكن للبصر أن يدرك بمصباح الإدراك[1] نور جمال حقيقته فى المشكاة الزجاجية ؛ [2] وللسميع الذى لايمكن سماع صوت منادى عظمته فى دهليز السمع من فوق قبة منزل الوهم والخيال . وللذى نظم الزواهر العلوية مع الجواهر السفلية فى خيط ترتيب وجردها الواحد ؛ الذى ألقى بآدم – الذى هو العالم الأصغر – من سلسلة مخلوقاته إلى مرتبة الأخرى ، [3] جل جلاله وتعالى وعم نواله وتوالى .

والسلام والتحيات والصلوات التى تتنزل من مهب أنفاس الرحمن مع نفحات رياض القدس ؛ على الروضة المطهرة والتربة المعطرة لسيد الوجود ونخبة كل ما هو موجود ، الذى تكون الرحمة من سَدَنَة قبر استراحته : والذى يكون الرضوان من خَزَنَة خلوة قصر سلوته ؛

(١) إشارة إلى قوله تعالى « لا تدركه الأبصار » سورة الأنعام الآية ١٠٣

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ...... » النور الآية ٣٥

(٣) إشارة إلى قوله تعالى « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ... » سورة الأعراف الآية ٢٤

وتضيء الرحمة مشعلة النور كل ليلة ، وينثر رضوان غبار نعليه على ذوائب الحوار على تعاقب الأيام المتتابعة والمتوالية .

سَلامُ الصَّبِّ كُلَّ صَبَاحِ يَوْمٍ عَلَى تِلْكَ الضَّرَائِبِ وَالشَّمَائِل
سَلامٌ مُرتَجٌ لِلشَّوقِ حَتَّى يَمِيلَ مِنَ اليَمِينِ إلى الشَّمَائِلِ

ثم على آله وأحبابه وعترته وأصحابه من الطاهرين والطاهرات والطيبين والطيبات أجمعين .

أما بعد ، فليس خافياً على أرباب القرائح السليمة والطبائع المستقيمة أنه يتعذر الجمع بين صناعتي النظم والنثر ، وهكذا يكون وجه هذا المطلب فى بردة الامتناع عند أغلب الطلاب ، ويقصر الطبع عن إيفاء حق كليهما.

وإنْ سَرَّ مِنْهُ جَانِبٌ سَاءَ جَانِبُ

وأنا العبد سعد الوراوينى منذ بادئ الأمر أى من أوائل غرة الشباب حتى يومنا هذا أى أيام الكهولة ، كنت آتى بالعقود المنظومات فى عقد اعتبار الفحول الأفاضل ، وكنت أصنع النقود المنثورات التى هى سكة قبول الملوك والأكابر حتى ارتقيت - قدر وسعى - بهاتين الكريمتين فى حجر الترشيح والتربية بحيث كانت تتحرك بواعث الرغبة لدى الراغبين والخطباء لطلبهما ، وبعد أن اطلعت على كلام أهل العصر والسابقين القريبى العهد بهم ، وعرفت غور المحاسن والمقابح كلها بمسبار الاستقصاء ، وأبعدت الخبيثات عن الطيبات ، وميزت الأبكار من الثيبات ، وأحطت علماً بالركيك والرقيق والجليل والدقيق ،

ووجدت بعضاً منها كتب أسماء وحكايات ؛ مزينة بالسياقات المهذبة ، والعبارات المستعذبة ، امتزجت فيها الألفاظ العربية بالفارسية بحسن تركيب وترصيف مثل (كتاب) كليلة[1] الذى هو اكليل فوق مفاخر البراعة ، والمرصع بغرر الألىء والدرر المتلألأة ؛ وكتاب « سندباد نامة »[2] التى تحرك رياح قبوله النامية الرغبات فى الطبائع وتحرض على قراءته ، فاستحسنته طائفة من القراء ؛ ولكنه عندى لا طائل تحته ، وكتاب « مقامات حميدى »[3] التى كانت حمامة طبعها تنشد السجع ، ويمتزج فى أقداحها المدح بالقدح ، والتى جعلت كل القراء يتناقلونها

(١) يقصد كتاب « كليلة ودمنة » الذى ألفه بيدبا الفيلسوف الهندى وترجمه فى صدر الدولة العباسية عبد الله المقفع ، وقد سبق الحديث عنه فى الدراسة .

(٢) سندباد نامة من القصص الهندية القديمة التى كتبت باللغة البهلوية ، وقد عده المسعودى وابن الرزيم من أسماء وأحاديث الهنود ، وهو من بين الكتب الهندية التى ترجمت إلى العربية .

ترجمة إلى الفارسية الإسلامية بأمر الأمير نوح بن منصور السامانى الخواجة العميد أبو الفوارس فناروزى ، وقد هُذِّب مرتين ، واحدة منهما تمت على يد شمس الدين محمد بن على بن محمد الدقائقى المروزى الشاعر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، والثانية على يد الظهيرى السمرقندى .

انظر ط. زهراى ناتل خانلرى ، فرهنك أدبيات فارس درى ص(٢٧٨ ، ٢٧٩) انتشارات بنياد فرهنك إيران وقد ترجمة نسخة الظهيرى السمرقندى الدكتور أمين عبد المجيد بدوى بعنوان « سندباد الحكيم » وقد طبعت فى مصر بالاشتراك مع مؤسسة الثقافة الإيرانية ، ونشرته مكتبة النهضة المصرية .

(٣) من كتب النثر الفارسى المشهورة فى القرن السادس الهجرى ، وهى من تأليف القاضى حميد الدين عمر بن محمود البلخى ، الذى أنشاها تقليداً لمقامات الحريرى .

انظر د . زهراى خانلرى ، فرهنك أدبيات ص ٤٧٤

مسجعة ؛ ومن قبيل الرسائل مجموعة من مكتبات منتجب بديعى[1] الذاخرة ببدائع وروائع الكلمات والنكات ، والتى تمتزج فيها اللطافة بالمتانة ، والجزالة بالسلاسة ، وسماها « عتبة الكتبة » ولقد قبل الكتّاب المحققون تلك العتبة ، ولم يصلوا إلى مراقى غاياته ، وسماه جماعة منهم « خود غُنيه » ، لأن المغنى هو الأسلوب (وسمى بذلك) لطلبه غوانى أفكار الكاتب ؛ و « فرائد القلائد»[2] لرشيد الدين الوطواط التى تتزين بها أذن وجيد الآفاق ، وتمتلىء خواطر ذوى الألباب ملء الإهاب من فضلات فضلها .

و « ذرة الشارق » لزين الدين بن سيدى الزنجانى[3] المشهور كالشمس السائرة فى الشرق والغرب ، والذى يفخر بحمل مكاتباته

(١) هو التابك منتجب الدين بديع الأب الجوينى ، وهو خال للجد الأعلى لعطا ملك الجوينى مؤلف تاريخ جهانكشاى ،وقد تولى رئاسة دار الإنشاء للسلطان سبخر ، وكان من مشاهير المترسلين ومن أفاضل المنشئين ، وله عدة تصنيفات فى الترسل وصناعة الكتابة ، وقد كتب هذه الرسائل بأمر الوزير نظام الملك الطوسى .

انظر : منتجب الدين بديع أنابك الجوينى ، عتبة الكتبة ، بتصحح واهتمام علامه فقيد محمد قزوينى وعباس إقبال ص ١ - ى

(٢) اسم الكتاب هو « جواهر القلائد وزواهر الفرائد » ويشتمل على مائة كلمة من كلمات رشيد الدين باسم « طغرل قلج اسفهسالاربك أبى شجاع محمد بن الحسن بن عبد الرحمن عماد أمير المؤمنين .

أما رشيد الدين الوطواط فهو الأمير الإمام رشيد الدين سعد الملك محمد بن عبد الجليل العمرى الكاتب المعروف بـ « خواجة رشيد الدين الوطواط » وهو من أحفاد عبد الله بن عمر ابن الخطاب .

انظر : رشيد الدين الوطواط ، حدائق السحر فى دقائق الشعر ص ٣ ، ٦٤

(٣) هو زين الدين المظفر بن سيدى الزنجانى ، عمل فى بلاط السلطان ملكشاة بن محمود ، ورسائله وأشعاره مشهورة ، وله قصائد فى مدح الخليفة المسترشد والمقتفى والمستنجد رحمهم الله ، انظر محمد روشن ، مرزبان نامة جـ ٢ ص ٥٥٨

منارق عظماء الدين والدولة ، مثلما قال الصدر سعيد جمال الدين خجندى - سقى الله عهده فى جواب رسالته العربية إن قاضى القضاة أفضل الدين أحمد بن عبد اللطيف التبريزى[1] وهو البحر الغزير أدباً والحبر النحرير كلاما ومذهبا فضلاً عن سائر العلوم ، أرسله إلى « مرند »[2] للخدمة ،وكان يعرض بذكره[3] أثناء إبداء عذره ، وبورود نتائج فكره[4] وقد ضمنها ثلاثة آلاف دينار ليظهر الافتخار به - فى الوقت الذى كان قد أرسل إلى خدمة صدر سعيد الدين خجندى - وكان يكتب ولو كنت بأصفهان لسهل علىّ الأمر وهان ، وإذا كنت أحذو حذو الصدر السعيد صدر الدين بوأه الله أعلى الجنان حين صاغ صدر زنجان لأسماع دهره الشنوف فنثر عليه الألوف، أو كنت الوزير أنوشروان لما نظم قاضى أرجان فى مدحه الدُّر والمرجان لكنى مسافر نهب عن كل شىء حتى العصا ؛

ولو أنَّ ما بِى بِالْحَصَى قَلِقَ الْحَصَى[5]

(١) مرند : اسم مدينة بين تبريز ونهرارس . انظر ط . شتا المعجم الفارسى مج٣ ص ٢٧٤٠

(٢) يقصد ذكر زين الدين .

(٣) الضمير يعود على قاضى القضاة .

(٤) الضمير يعود على زين العابدين .

(٥) الشطر الأول من بيت لابن الدمينة يقول فيه :

ولو أن مابى بالحصى قلق الحصى ★ وبالريح لم يسمع لهن هبوب

سبق تخريج هذا البيت فى الدراسة .

ورسالات بهاء الدين البغدادى[1] - كاتب خوارزم - المعروفة برسالات بهائى ، ولو تثمن رسالات بهائى بثمن ، فكل جوهر ثمين من الممكن أن يبدو رخيصاً وبلا قيمة أمام حصيات يجدونها فى مجارى أنهار بيانها ؛ وترجمة اليمينى [2] التى لو أقسموا بالأيمان المغلظة أن مترجمها صاحب ثروة لفظية لم يكن - ذلك - حتماً ، وبرغم أنه صار نادماً كالفردوس من خسران صفقته بسبب تركه للمقالة وتملصه من تخلّص الكتّاب ، ولأنه نثر البذرة فى أرض مالحة ، وزرع غصناً فى أرض قاحلة ؛ فلم يجد ثماراً وقال :

يَمِينِى أَجْـرَمَت شُلَّتْ يَمِينِى   فَقَدْ ضَيَّعْتُ تَرْجَمَةَ الْيَمِينِى

وكان يقرأ على تلك الصحيفة المليئة باللطائف : أما الزمان لَاشُلَّ بَنَانُه ولا كَلَّ لِسَانُه ؛ ونوع آخر مثل « نفثه المصدور »[3] من تأليف الوزير المرحوم شرف الدين أنوشروان خالد الذى خلَّد ذكره بسبب ذلك الكتاب ، والحق أنه بسبب تقلب الزمان الذى كان قد مرَّ بالصدور [4]والأحرار فى العهود السابقة واللاحقة وحكاية تلك النكاية

(١) هو بهاء الدين مؤيد البغدادى كاتب علاءالدين تكش خوارزم شاه ، وقد سمّى هذه الرسائل بنفسه باسم « التوسل إلى الترسل » ولا نعرف مراد سعد الدين من الورادينى من « مرسالات بهائى » أهى هذا الكتاب أم أثر آخر لبهاء الدين ؟

انظر محمد روشن ، مرزبان نامة ، جـ٢ ص ٥٦٠

(٢) صاحب ترجمة اليمينى هو أبو الشرف ناصح بن ظفر بن سعد المنشى الجرفادقانى معاصر السلطان طغرل آخر ملوك سلاجقة العراق ، وقد ترجم تاريخ العتبى من العربية إلى الفارسية ، وسماه تاريخ اليمينى بأمر الوزير أبو القاسم على بن حسن وكانت بداية ترجمة الكتاب سنة ٦٠٣ هـ انظر ، ملك الشعراء بهاء ، سبك شناسى جـ ٢ ص ٣٨٦

(٣) ذكر حاجى خليفة فى كشف الظنون ، ثلاثة كتب باسم « نفثة المصدور » .

(٤) الصدور جمع صدر وهو لقب من ألقاب العظماء انظر د.شتا . المعجم الفارسى الكبير ، مج٢ ص ١٨١١

التى حدثت للملوك ذوى التيجان والسلاطين المتمردين من غدر هذا الغاش الغدار ،والتى لم تبق شيئا ً على سبيل الاختصار ، والإيجاز فى إيراد ذلك الكلام ، أنه يبدو من باب الإعجاز ، وذيل « نفثة المصدور » هذا الذى ألفه نجم الدين أبو الرضا القمى يشير فيها بإشارة لطيفة - من منقطع عهدهم حتى نهاية عمره - إلى كل ما كان قد سمعه وشاهده من تقلب أحوال أهل الزمان ، الأفاضل والأماثل والوزراء والأمراء والملوك والصدور ، ويذكر نبذاً عن رذائلهم وفضائلهم ؛ وقال فى نفسه عن ذلك الذيل « لو أذيل ذلك الذيل بشرح خصائصه فإنه يستمر على امتداد الأيام ، ذيل ملىء بيواقيت النكت ودرر الأمثال ، الذيل الذى عسلت أطرافه بماء العبارات العذبة ، ولم يلوث غبار التكلف والتعسف محيطه ، وطرائق أخرى مختلفة ومتباينة كانت لأكابر الفضلاء والبلغاء ؛ لو اخترت من كل واحد نموذجاً لطال الأمر .

أما الطريقة التى امتلكها الخواجة الفاضل ظهير الدين الكرجى ؛ التى لو أراد كتاب العجم النسج على منوالها لما استطاعوا « ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[1]

ونوع آخر ولو أنه خرج من عادة الكتاب فإنه يشبه نفثات سحرالكلام[2] ومجاجات أقلام الأمير خاقانى ؛ الذى كان الخاقان الأكبر على خيل فصحاء أهل زمانه ، وكان فى ذلك الميدان ثلاثة أطفال يمسكون ببنانهم قطعة من الغاب ويركبونها فخطف منهم جميعاً

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨

(٢) إشارة إلى منشآت أفضل الدين بديل بن على الخاقانى شاعر القرن السادس الهجرى المشهور .

قصب سبق البراعة ، وشق غبار خطو حصانه الأصغر أوهام السابقين إلى حلبة الدعوى ، ولقد كنت محظوظاً بالإطلاع على الرسائل الأخرى والرقاع والفصول من شتى الأنواع ، وبعد الوقوف على حقائقها ، صعدت إلى دقائق مبدعاتها ، واستنشقت من نسيم كل واحدة بمشام الرغبة ، وجلست كالنحلة على كل زهرة من أزهار أفنان العبارة وحملت فى خلية الخاطر كل ما هو من خلاصة اللطافة ومُصَاصَة الحلاوة ، حتى امتزجت مفردات أجزائها المركبة امتزاج العسل الذى يستحيل تمييز الكل من الجزء فيه .

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَاقَتِ الخَمْرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الأَمرُ

وعندما مارست هذا الفن زمنا ، أردت أن أترك عائدة لعمرى من هذه الفائدة ؛ وأبدع كتاباً يزين الكلام فيه ، فثارت فىَّ نواهض هذه العزيمة لمدة طويلة حتى استقرت النوازع الداخلية فىّ على ذلك ؛ وعثرت على عرائس فكر مخترعات السابقين المخدرة المعطلة من زينة العبارة حتى أنسج بيدى كسوة مزينة لها ؛ اضع فيها قريحتى وأحيك - له - لباساً من صنعة وصياغة خاطرى ، واجتهدت كثيراً فى البحث والاستقراء حتى لاحت طلائع فجر السعادة ذات يوم ، قد نبه الإلهام جانب إرادتى من وراء ستر الغيب ببنائه فقلت :

أيها الحبيب لقد قلت أين قلبك فانظر إلى خصلات الشعر ولاتنظر بعيداً

ذلك هو كتاب « مرزبان نامة » الذى وضع على لسان الحيوانات

الخرســاء ولم يؤلف كتــابٌ عند العــجم - مثله - مــشحون بــغرائب الحكمة ، محشو برغائب العظة والنصــيحة عدا كتاب « كليلة ودمنة » ؛ وقد وضع هذا الكتــاب فى تسعة أبواب ، كل باب مشتــمل على عدة حكايات كتــبت باللهجة الطبرية ، والفــارسية القديمة ، وقــد نُثر ذلك العالم من المعنى فى لغة هابطة سوقية أمام أعين الحقراء ،

كالدُّرِ فِي صَدَفٍ وَالْخَمرِ فِى خَزَفٍ .·. والنُّور فِى ظُلَمٍ وَالْحُورُ فِى سَمِلٍ

فقلت لنفسى تخيل هذه العروس الجـميلة التى بقيت خلف ستر الخمـول ، ولم تسافر مـثل الجوارى المنشـآت الأخرى [1] فى البحر والبر ، ولم تحظ بشــهرة لائقة ، ولهــذا السبب - أيضــاً - لم تظهر زينتهــا ، ولذلك لم تتحرك دواعى الرغــبة من داخل القراء لتحــصيل ذلك المتــداعى ، فإن كانت لــديك الرغبــة - وليست شهــوة عنين - فاشتغل بافتضاض هذه البكارة ولا تضع أى عذر أمام خاطرك .

فأعمل فإن الفكرة ليست أعجب من هذا ، وإلا ضاعت من خاطرك [2]

فصار صدرى منشرحاً لشرح هذا الكلام .

وَقُلْتُ لِنَفْسِي جدِّى الآنَ واجْتَهدى * وَسَاعدِينِي فَهَذَا مَا تَمَنَّيتُ

(١) إشارة إلى قوله تعالى « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » الرحمن / ٢٤ .

(٢) هذه ترجمة بيت لظهير فاريابى ، من قطعة مطالعها :

بناه أهل هنر بيشواى روى زمين * تراست چرخ نكوخواه وبخت نيك أنديس

لكنه أبدل مكان « شكرف ترن » « صوابتر » .

ديوان ظهير فاريابى ، به كوشش كفى بيتش ص ٣٢٥ .

وقرنت بين الزمن وبلوغ الهدف ، ولم استرح حتى أتيت ببيت كنز الثروة إلى يدى ، وقلبت زواياه وجوانبه ، وتفحصت خبايا أسراره بنظر الاستبطار ،وفككت طلاسم تركيبه عن بعضها البعض وصنعت ملخصاً من ذلك كله ، وألقيت الباقى كفضلات أقداح رددن على الساقى ، ومضيت على صيغة الأصل نفسها ، عندئذ عدت أمام هذا الهدف أو المراد « متشمراً عن شاق النية سافراً عن وجه الأمنية ، وقد أوردت هذا الغرض فى معرض المقدمة بهدف صد كل سهام الاعتراض عن ناصيتى ، وما كل من نشر أجنحته بلغ الإحاطة ولا كل من نثر كنانته قرطس .

والخلاصة : أننى عندما عاودت التفكير فى بداية العمل ونهايته ، لاحت - فى التو - سلالة آخر العمل فى مشيمة أول الفكر ، ورصدت طالع الوقت فرأيت عين سعادة العطاء من مشترى السماء جلالاً وفضلا ؛ أعنى الخواجة سيد العالم ، الصاحب الأعظم ، نظام العالم ، ملك وزراء العصر وأجلهم كمالاً وأفضلهم إفصالاً ربيب الدنيا والدين معين الإسلام والمسلمين ، أعلى الله شأنه وأظهر عليه إحسانه ، فاتصلت به ، وعلمت أن تأثير نظره يصل إلى أى مكان ؛ فيغير منظور أهل الدنيا ، وبعد ذلك وضعت صحيفة الأصل ؛ وأخذت أنقل عباراتها ، واطلقت مشاطة الفكر الماهرة فى تزيين الحسان الحلوة الشمائل ، ويعلم الله عالم السر والعلانية أننى لم أخف فى نفسى أى فكرة لصاحب هذا الكلام ، ورأيت العرى خيراً من الثوب المعار ، وأخرجت كل الدرّ الذى وضعته فى جيب الفكر والكلام من درج مفكرتى ، كما استخرجت كل المرجان الذى نثرته فى كم رداء العقل من حافظتى .

لَمْ يكُنْ أمَامى دَفْتر أو دَوَاوِين مِثْل عِيسى لاَ عَقَاقِير ولاَ هَاوَن[1]

وعندما وضع « كل ذلك » على قد هذه العذراء صار مثل الحرير المزين ، ثم طرّزتها باسم الملك وألقابه المباركة ، فأفنيت ديباجة شبابى فى ذكر بعض من مفاخر ذاته ومعالى صفاته ، وذكرت فى نهاية كل باب ملخصاً آخر بدعاء وثناء على زاهره ، أطاب الله نشره وأبقى على الدهر ذكره .

ولو أن عين البصيرة تتفحص ملياً اليوم فى جميع أنحاء وأرجاء الدنيا لا سيما عرصة العراقيين ؛ فإنها يمكن أن تجد من أكارم العالم وأكابر الأمم وأفاضل ملوك العرب والعجم « من هو » درة عقد عظيم وفريد عهد العظمة ؛ لأن الفضل معهم زينة كرم وافر وأثر من آثار معالم العلم ، فلو أشاروا اليوم فلن يقبل سوى كرسى السيادة ووسادة العظمة ، ولا يجوز أن يبيعوا مثل هذه البضاعة إلا فى يوم سوق دولته ، ولا يجوز لمثل هذه التحفة أن توضع إلا على بساط جلاله ، نعم هذا لهذا ، وأما قدم عبوديتى له فكان باعثاً ثانياً على تقديم خدمتى هذه ، وبسبب ذلك المقام رفعوا اسمى من ديوان إنشاء الفطرة إلى « ديوان » قلم التكليف ، وضربوا الرقم العقلى الذى هو مظنة التمييز على ناصية حالى ، حتى هذا الزمان الذى وصلت فيه

(١) هذا البيت من قصيدة لخاقانى الشروانى بعنوان « در شكايت وعزلت وتخلص به مدح پيغمبر أكرم » خاقانى شروانى به كوشش دكتر ضياء الدين سجادى ص ٣١٧

إلى هذه المرتبة من مـراتب السن ؛ لأننى لم أرب إلا فى كنف جناب صـاحب المجد والمكارم فأوصلت طفـل البلاغـة إلى حـد البلوغ فى حضانة تربية هذا البـلاط الملكى ، ولا يمكن أن يكون وراء هذا إجحاف ؛ لأنه يجب إتحاف كتابى - أنا العبد - بمثل هذه العظمة ، لأن كل رقعة من نتائج طبعـة هى كتاب فى حساب كتـاب العالم ، وكل رسالة من منسوجات قلمه هى أنموذج للنقاشين فى تحرير وتحبير الرسائل .

إنْ قَالَ فالدُّر الثَّمينُ مَنَظَمٌ ∴ أَوْ خَطَّ فَالْوَشْىُ الْبَدِيعُ مُنَمْنَمُ

يَا مَنْ يَرَىَ فِى مِرآةِ الروحِ دَائماً تسعَةَ أَوْجُه لِكَمَالِ الحَدِيثَ

انظر فى أحد دفاتر إنشائه انظر إلى جمال الخط وجمال الكلام

وهكذا كل من يعلم طرف من هـذه التحف لأنهـا تكون واسطة تقريب إلى حضرته مثلما قال القائل :

أَهْدِى كَمُسْتَبْضِعٍ إلى هَجَرٍ أَوْ حَامِلِ أبرادٍ إلى اليَمَنِ

فى أثناء القصيدة التى وشحتها بالثناء العطر ، يأتى بيت فى هذا السياق :

إن الجواهر التى تتناثر من مـداد قلمه تحملها اليـد إلى يده لتزين جيد الحوار .

ولو تعاد قراءة صحائف الـلطائف التى نقشت بقلم عالم غرائب الغيب ، والمحفـوظة المكنونة فى خزائن ملوك الدنيا فيجب فـيما يبدو أن يسمع لسان الحال بسمع الإنصاف وهو يقول :

يَا مَنْ يُطيلُ كَلامًــا فى مَدَايـحه   أَمْسِكْ فَحَصْرُ نجوم الليلِ مِن حَصْرِ
تَنفَّس الدَّهْـرُ مِنْ ذِكْـراه عَنْ أرجٍ   تَتَنفُّس الرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ فِى السَّحرِ

والخـلاصة : من البـداية إلى النهـاية أننى فـكرت فى فكرة هذا الاختـراع وهممـت باقتـراع هذه البكرة التى جاءت من وحى الغـيب وعثرت على كل ثراء للمـعنى وزينة لرباط الفضل ووجدتهمـا مرغبين ومحرضين على إتمام ذلك ورأيت من الواجب التخلى عن عرض لائمة « حمـيت مما أشويت » ، وزاد حرصى على التـعرض لنفحة التـوفيق التى جادت من مـهب الكرامة الإلهيـة ، وفى تلك الأثناء التى حدثت فيها ثورات فى العراق بسبب اللحن غير المناسب الذى خرج من خلف ستار فلك السفلة ، فأشـركونى مع الجيوش وإن كنت على منقلب من الأحـوال ومـضطرب من الأهوال ، إلا أننى كـنت أدافع أيام الفـشل بمجالسة ومناقشة أهل تلك البقعة التى تعـتبر ملك لأقاليم السبعة رغبة فى ترتيــب أحـوالى ،وشـغلت نـفس باجـتناء الفـوائـد فى المدرسـة النظامية [١] من أنفس هؤلاء الذين كان بعضـهم من المحدثين فى عالم المعنى ، والبـعض الآخـر هم بقيـة السلف الأفـاضل ، وكنت أسكن سَوْرة الخمـار الشديدة بكأس مجـالستهم ،وكنت أعرض على أسـماع هذه الطائفـة جزءاً أو جزأين مـن هذه الأجزاء[٢] فإننى لو أعـبر عن الاستحلاء الذى حصل لمذاقهم جميعـا من قراءتها جميعاً والاستطراف

(١) هى المدرسة التى بناها الوزير السـلجوقى نظام الملك الطوسى فى أصفهـان ، وجعل رياسة التدريس فيها فى أسرة الخجنديين .

(٢) يقصد أجزاء الكتاب .

الذى أبدوه على هذا النمط فـإننى قد أبدى تكلفاً فى صـورة التصلف دون حـاجة أو داعٍ . وكـان أحـد هـذه الـطائفـة الذى كـان واسطة عقـدهم - يمتاز بين أهل هذه الصناعـة بلطف الطبع وسلامـية الذوق ودقة النظر وكـمال البراعـة ؛ لم يكن ليسبغ مطـلقاً من الاطلاع على مسوداتها ، وإذا وجد لفظًا مستهجنًا يردده على لسانه ويقول : « حق له أن يكتب بسواد القلب على بيـاض العين » وفى أحد الأيام نفث - مجـدداً - الريح فى نيران رغـبتى فأشـعل خاطرى بإنشـاء هذا البيت الجميل حيث قرأ علىّ .

إذَا سَنَحَ الـسُّـــرورُ فَــأىُّ عُــذْرٍ   لِذِى الرَّأىِ الْمــسُـدَدِ فِى التَّــوَانِى

ومع أن عوارض الزمان ، وتوارد اختلاف أدواره ، كانت تبقيننى قلقًـا بين الطى والنشر ، فـإننى ما من وقت وجـدت فيـه فسـحة لو للحظة يقظة حـالة من عين مـثقلة بنـوم الذهول ، خلسة من الزمـان وفرصة مـن الحدثان وأخليت حجرة القلب الخـربة من تواتر الأحداث المتـواليـة إلا وأقـدمت مـدة بقـدر الإمكان ، على تحـرير فـصل من الفصول ، ولو لم يحدث لهذا العجـول المتمهل وهذا الملول المشوق ما وقع فيه من مـباعدة ومساعدة ، ولو لـم يكن قد وقع لدواعى الهمم ومسـاعى القلم ما وقع من التراخى لأمكن الفـراغ منه (الكتاب) فى أقل وقت ، ولوصـل الفـكـر من مـزل القـوة بعـيد الأمـد إلى حـد الفعل ، والآن أمـا وقد تم جانب من أواخـر الكتاب [الذى لم يكن ناضجًا وقد بقيت عقدة انتكاس الأيـام] وانتظم عقد مبانيه ، فإن هذا العبد الذى يلهج بالثناء يتوقع ومـجال أمله يتوسع فى أن يبيع الكتاب

فى عرض الأقاليم فى وقت قريب بحيث تنثر سرعة سير غبار الغيرة على مجموعة كواكب الصبا والدبور بما يتمتع به ملك العالم ضاعف الله معاليه وأضعف معاديه من حيث يشتمل العالم كله ، ويجعل نار الحسد تضطرم فى مجمرة الشمال والقبول ويبقى اسمه العظيم مخلداً ومؤرخًا على صفحة الزمان فى ديباجة « مرزبان نامة » وتستنير عين أهل الزمان بما فيه من سواد وبياض ، ولا تستحيل جدته خلقا لفعل اختلاف الجديدين واتفاق الفرقدين ، وأن يحال بين من لم يشرب من كأس الإنصاف الصافى ؛ ومن لم ينتش من هذا الشراب المختلف الألوان ؛ وبين أن يذوق شيئاً منه ، إذ من الممكن أن يخلف مذاق حاله إدراكًا عكسيًا عنده ،

وَمَنْ يَكُ ذَا فمٍ مُرٍ مَرِيضٍ يَجِدْ مُراً بِه الماءَ الزُّلالا

وأرجو الله تعالى ألا يطالعها إلا المبرؤن عن أدناس خيالات الخلد ، ولايمسها إلا المطهرون عن أنجاس وساوس السخط والحسد ، وليشرف الله تعالى أفواه أهل الدنيا بأطايب ذكر مناقب ومآثر ملك وسيد الدنيا صاحب أعظم مطيب ومشرف ؛ وليشنق ويزين أسماع وآذان الدنيا بجواهر محامده ومفاخره ، فمحاسن آثار كرمه باقية حتى قيام الساعة ، وأقدم هممه تترقى فى مراقى العلو ساعة بعد ساعة بمحمد وآله .

فهرست الأبواب

الباب الأول

فى تعريف الكتاب

وذكر المؤلف

وبيان أسباب تأليف

مرزبان نامه

هكذا يجب أن يعرف أن هذا الكتاب « مرزبان نامه » منسوب إلى مؤلفه مرزبان ابن شروين ، وشروين أحد أبناء كيوس أخى الملك العادل أنو شروان ، وكان « شروين » ملكاً على طبرستان ، وكان له خمسة أبناء ؛ يتمتعون جميعاً برجاجة العقل ورزانة الرأى وأهلية الملك ، لديهم الاستعداد للسلطة ، وعندما تُوفى شروين ، بايعوا الابن الأكبر بالملك ، وتمنطق إخوته الآخرون بمنطاق الانقياد له ، وبعد فترة ظهرت دواعى الحسد بينهم وصار كل واحد منهم طالباً للسلطة ، أما مرزبان فبحكم أنه كان متميزاً عن جميع إخوته بفضيلة الفضل فقد عزف عن حكام الدنيا ، وقصر همته على كسب السعادة الباقية ، فاعتقد أنه - بما يدور فى خَلَد الملك أنه - أيضا - يخوض فى مشروع مخالفة الأخوة ، فلم يرغب أن يعلق غبار هذه التهمة فى ثوب معاملته ، فنظر فى مرآة رأيه ، فرأى وجه الصواب هو أن يلوى عنان الحركة صوب هدف معين ، وأن يخرج عن دائرة مملكته إلى ركن ، وهناك بنى مسكناً حتى لا يتعكر مورد الصفاء بينه وبين أخوته ، وحتى لا تصير معاقد الألفة واهية ولا يجد الوهن طريقاً إلى قواعد الأخوة ، وعندما وقف جمع من أكابر الدولة وأشرافها على هذه الحال التمسوا منه : أن - عندما يتحقق رحيلك من هذا المكان - ألّف لنا كتاباً مشتملاً على لطائف الحكمة وفوائد الفطنة نجله دستوراً لحالنا فى معاش الدنيا ومعاد الآخرة ، فيمكن التوسل بقراءته والعمل به إلى السعادتين والفوز والنجاة فى الدارين ؛ وتبقى على صفحة الأيام آثار

فضـائل ذاتك ومحاسن صـفاتك بواسطتـه ؛ ووصل إلى سمع الملك بعض رواجر الوعظ وكلمات النصيـحة ، التى تذكره بطبع الأيام السىء ، فأصـغى إلى هذا الكلام ، وأوقف إمـضاء عزيمـته الناتجة عـن تقديم ملتمـاستـهم على إذن وأمر الملك ، ونهض عن مـوقف التردد وذهب إلى بلاط الملك وقدم تقريراً إلى الملك بذلك الذى يضمره فى قلبه من الذهاب إلى مكان آخر وتأليف كـتاب يتضـمن فصلاً فى النصيـحة ، على سبيل الاستئذان .

فـتوقف الملك عن الجـواب كالمتـردد ، وعندما غـاب الأميـر ، وحضر الوزير فقـال له على سبيل الاستشارة : مـاذا ترى فى سماحنا بهذه المعانى التى قصر أخونا همته ورغبته عليها ؟

فقـال الوزير : إن السماح له بالانتـقال من هذا المكان إلى مكان آخر ، هو نتيجة رأى صحـيح وقضية فكر صائب ، لأنه ربما نقص - بذلك - عدد من أعداد المُلك وخرجت شوكة من قدم الدولة ، واعلم أن مراده من وراء تأليف ذلك الكتاب هو أن يظهر سيرة مملكتك قبيحة تحت ستـار التعريض ، ويصـبح ذلك سمراً فى أفـواه الخلق فى سائر آفاق الدنيا وذلك لأنه يريد أن ينصحك فيضع مرتبته فى العلم والرأى بجوار مرتبـتك ، وأما المنع فيجـعله يأخذ القرار فى نفـسه ، ويصبح عارياً من حلية المال التى كـان بيديها ، ويبطل فكره ، لكن الرأى هو أن يأمر الملك بأن يقول - الأميـر - ذلك الكلام فى حضورى ، حتى أظهر للملك فضـول طبع الأمير ونقصـانه وفضيحتـه فى فصول تلك النصيحة ، واكتشف الـلثام والغطاء عن وجه عمله ، حتى يعلم الملك أين موقـعه (الأمـير) بين العلمـاء ، وأين موقـعه فى الفـضل الذى يجعل له زهوه وتكبره فى هذه الدنيا .

طِبَاعُكَ فَالْزَمْهاً وخَلِّ التَّكلُفَا .·. فإنَّ الذى غَطَّيْتَه قَدْ تَكَشَّفَا

حوار الأمير مع الوزير

وفى اليوم التالى الذى خرجت فيه الشمس[1] الأعلام الخفاقة على سقف السماء الرابعة وأخذت النجوم الثوابت مواضعها من هذا البساط الأزرق ثانية ، جلس الملك فى قصر الخلوة ، وأمر بأن يأتى إلى حضرته مع الأمير والوزير جمع من كفاة السلطنة ودهاتها ، كل واحد من هؤلاء حكيم زمانه ، وأقاموا مؤتمراً كما طلب الوزير ، وقال الملك للأمير مرزبان : يا أخى إن كل ما تقوله هو خلاصة الفكر الطيب ونقاء الحفاوة والرحمة ، وإلا لا يمكن تصوره من فرط المماحضة والمخالصة ، والآن تملى دواعى المصلحة كل شىء ، لأنه يجب أن تتم أوعية الضمير ، فالكلام المحكى ودُرّ الحكمة المنظوم أولى من كل شىء .

فبدأ الأمير الكلام ، وأوصل بحديثه الأكثر لباقة من السنة الفصحاء ؛ وبعبارة أكثر جاذبية من خلُق الكرام ، حق الثناء والدعاء للملك وبلاطه ومجلسه .

بكَلاَمٍ لَوْ أنَّ للدهرِ سَمْعَا قَالَ مَنْ حُسْنِهِ إلى الإصغاءِ

وقال : الآن وقد أتحت لى الحديث ، أحسن الإصغاء إلىَّ ، لأن لوائح النصح لا تتلاءم مع الطبيعة الإنسانية قال تعالى : « لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين »[2]

(١) الترجمة الحرفية ملك النجوم السيارة وهى كناية عن الشمس .

(٢) الأعراف / ٧٧ .

وإن لم تَعْلُ برعـومة القول ورق اللـطف ، حينما لا تـتربى فى صدق الإصغاء فلن يرجى من ذلك نفعٌ .

شعر عربى

إذا لَمْ يَعن قَـوْل الـنصيحِ قَـبـولٌ فـإن تَعـارِيضَ الكَلام فُـضُـولُ[1]

إعلم أيهـا الملك أن أطهـر جوهـر انتقل من عـالم الوحـدة إلى مركبـات العناصر ، هو العقل ؛ وأن أعظم نتيجـة من نتائج العقل ، هى الخلق الحسن وقد أعطى أشرف الموجودات شرف الاختصاص بهذا الخطاب ، ومن أعظم ما يتلى فى ذلك قوله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم » ،[2] لأنه يمكن التـوسل بفضـيلة الخلق الحـسن إلى السعـادة الأبدية ، والملوك هو أحـوج الناس إلى الخلق الحـسن والجـوهر النقى الطاهر ؛ لأن الملك إذا مـا كان حـسن الخلق ؛ فإنه لا يسلـك سوى طريق العدل والصـواب الذى هو من مقتضيـاته ، ولا ينتهج إلا السنة المحبـوبة والشريعـة المرغوبة ، وعندما يكون انتـهاج سـيرته على هذا المنهاج . فإن أتبـاعه ورعاياه جميعـاً فى كل أنحاء المملكة يهنأون فى

(١) البيت من قصيدة لمؤيد الدين الطغرائى فى مدح مؤيد الملك بن نظام الملك انظر ديوان الطغرائى ص ١٨

(٢) سورة القلم / ٤

كنف الأمن والسلامة ، وتتخلق كافة الخلق بأخلاقه ، ويحافظون فيما بينهم - طوعاً أو كرها ، خوفاً أو طمعاً - على عادة الإنصاف وأسلوب الحق ، وتتبدل صفتا الاختلاف والتنافى - وهما من الطباع التى تتطبع عليها البشر - إلى الاتفاق والتصافى .

واعلم - أيها الملك - أن من أقبح عادات أولئك الملوك التى ليس هناك أقبح منها هى :

الأولى : هى الوضاعة أو الحقارة ، لأن الرجل الوضيع الحقير لا يتوصل - بحق - إلى عمل أى شيء حسن ، ولا يستطيع أن يصل بنفسه إلى الزعامة بين الخلق .

أَتَرْجُو أَنْ تَسُودَ وَلَسْتَ تُغْنِي ... وَكَيْفَ يَسودُ ذُو الدَّعَةِ البَخِيلُ[1]

الثانية : الإسراف فى إنفاق المال لأن الملك حارس لأموال الرعية . ويجب أن يكون تصرفه فى ماله بحساب فضلاً عن أموال الآخرين بخاصة .

ويصقل جمال هذا الكلام نص من منبع الصدق ؛ يستلفت حسنه الأنظار وهو قوله تعالى « **. . . ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين** »[2]

(١) هذا البيت لحبيب بن عبد الله الهزلى الأعلم وقد جاء قبل هذا البيت قوله :
وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلعها طويل انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين جـ١ ص ٢٧٥
(٢) سورة الأنعام / ١٤١ وقد وردت خطأ فى المتن الفارسى (. . . إن الله لا يحب المسرفين) .

وحديث النبى ﷺ « لاخير فى السرف » مشهور بدرجة لا يحتاج معها إلى التكرار والتذكار ، ولا يجوز للملك أن يصدر أمراً دون تأمل وتثبيت لأن مضاء أمره بمثابة نازلة القضاء التى تهبط من السماء إلى الأرض لايمكن التفكير فى دفعة بأية وسيلة[1] وأمر الملك الذى يتم بدون مقدمات تدبير يشبه سهم القدر الذى يخرج من قبضة المشيئة لا يمكن دفعه بأى درع واق ، وتظل عاقبة الأمر فى ذمة جريمة العقل ويقول بلسان الندم « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء »[2] ولا يجب على الملك أن يتأبى على النصيحة أو ينفر من الناصحين ، حتى لا يكون مثل المريض الذى يرفض تناول الشراب المرّ - أثناء انحراف المزاج عن نقطة الاعتدال - من يد الطبيب الحاذق حتى يعتدل مذاق حاله فى النهاية ، ومن ثمّ يعود شراب الصحة ، وينبغى أن يكون للملك فضاء لعرصة الهمة يتسع لقضاء جملة حوائج الملك وقت الاضطرار والاختيار ، حتى إذا ما حدث أمر وظهور الحاجة ، فإنه يجب عليه أن ينفق مالاً وافراً من أجل الإصلاح الكلى ، ولا يضع يد المنع أمام خاطره ، وإننى عندما طالعت صحيفة أحوالكم ، وجدت قاعدة مُلككم مختلة ، ورأيت قضية العدل

(١) إشارة إلى قوله تعالى « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال » الرعد / ١١

(٢) سورة الأعراف / ١٨٨

مهملة ، ومن ثم فتح حاشيتك أيديهم فى إشاعه الجور وإضاعة مال الرعية ، وتجاوزت أقدامهم الحد المقدور لهم .

فكسدت سوق العقلاء ، وانقلب حال الجميع فصار العبيد سادة ، وصار السادة عبيداً ، فقلت لنفسى :

إن من أقبح المقابح فى عهد الملك أن يكون الذئب على العرش ويوسف فى البئر .

إذا فسد القلب فسد الجسد وظلم الجيش يكون من جور الملك[1]

وهذه الشيمة بعيدة كل البعد عن النسق الذى أرساه أسلافك ، كما أنه لا يليق بأصلك الطاهر ومحتدك الشريف ومنبتك الكريم مطلقاً ،

وإنَّ الظُّلمَ مِنْ كُلٍ قَبِيحٌ وأَقْبحُ مَا يَكُونُ مِن النَّبِيهِ

وقد كنت حتى اليوم صامتاً ، لأنهم قالوا « لا تتحدث مع الملوك فيما لم يسألوك فيه ، ولا تفعل ما لا يأمرونك به » .

أمَّا اليوم فقد وجدت إذن الملك فى ذلك جملة ؛ ومن ثم فإننى سوف أتحدث بما أعرف ؛ وهذا غيض من فيض ، ومن الوفاء بحقك

(١) البيتان لسنائى الغزنوى ، الأول جاء تحت عنوان « در عدالت وستم ناكسرذن » والثانى تحت عنوان « اندر دل وجان ودرجات آن » - إلا أن رواية البيت الثانى مختلفة حيث جاءت كلمة « ضعف » بدلا من « جور » التى فى مرزبان نامه » .

وهو يشير إلى الحديث النبوى الشريف « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهى القلب » رواه الإمام أحمد . مسند الإمام أحمد جـ٤ ص ٢٧٠ ط القاهرة ١٩٤٦

- أعنى الأخوة - الذى يفـوق كل الحقوق ، أظهر بعض التـحرر فى كـلامى لأنهم قالوا : إن حـبل الأخوة لا يمـكن السيف أن يقطعـه ، وعلاقة الأخوة هى تلك العـلاقة التى لايمكن أن يوجد لها بديل على مر الزمان ، وقـد قالت مثل ذلك امرأة تدعى « هنبـوى » فقال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية هنبوى مع الضحاك[1]

قال الأميـر سمعت أن فى عهـد الضحاك الذى كان قـد صعدت على كـتفيـه حيَّـتان ، وكـانو يقبضـون كل يوم جديد عـلى شاب ، ويصنعون من مخه طعاماً لهاتين الحيتين .

وكان هناك امـرأة تدعى « هنبوى » ذات يوم جاءت قـرعة الحظ السيء على ابنها وأخيها وزوجها .

فقبضوا على الثلاثة جميعاً حتى ينقذوا ذلك الظلم المعقود عليهم ، فذهبت المرأة إلى بلاط الضـحاك ، ناثرة تراب التظلم على رأسـها ،

(١) أحد ملوك « شاهـنامه » الفردوس ، وقد اختلفـت الروايات فى نسبته ؛ فـمنها ما يجعله فارسياً ، ومنها ما يجعله عربياً

يقول أبو تمام : ما نال قد نال فرعون ولا * هامان فى الدنيا ولا قارون

بل كان كالضحاك فى سطواته * بالعالمين وأنت أفريدون

ومما يقال أن الضحاك تمثال العداوة بين البرانيين والأشوريين ثم الكلوانيين

ومن المؤرخين من يقـول أن نمرود هو الضحاك د.عـبد الوهاب عـزام ، حواشـيه على ترجمه الشاهنامه جـ ١ ص ٢٥ ، ٢٦، ٢٧ الحاشية ط الهيئة المصريه العامة للكتاب ؛ سنة ١٩٩٣ م

وكانت تفـوح بألم (قائلة) إن العادة كـانت أن يخرج كل يوم رجلٌ من أحـد المنازل ، فلمـاذا خـرج ثلاثـة رجـال من منزلى ؟ فـوصل صراخها إلى إيوان الضحاك ، فسمعه ثم سأل عن تلك الحال ، فرووا له تلك الواقعة كما كانت ، فـأمر أن يخيروها واحداً تريده من هؤلاء الثلاثة ، فيعفونه ، ويرجعونه إليها .

فأخذوا « هنبـوى » إلى باب سجن القصر ، فوقـعت عينها أولاً على زوجها ، فتحرك حبُّ المؤالفة والموافقة ، واختلجت مشاعر شفقة الزواج فى ضميرها ، فأرادت أن تختـاره ، ثم وقع نظرها ثانية على الابن . وكان قـريباً منهـا (أى الزوجة) فَهَـمَّت بأن تضع يدها على ولدها ، وتطرح فـخلب عقـاب الآفـة عن فلذة كبـدها ، وتخرجـه بالسلاقة لكنها فجأة رأت الأخ أسيـراً فى نفس القيد ، فألقت بنفسها على الأرض والشعـور بالحسرة باد عليهـا ففكرت فى نفسهـا قائلة : هكذا سقطت فى ورطة الحيرة ، ولا أعرف أيهم أختار ؟ من أجل نور العين وراحـة القلب ورفـاهيـة العـيش ، ولا أدرى مـاذا يقـرر قلبى المضطرب ؟ ولكن مـاذا أفعل لأن قطع عروة الأخـوة لا يعطى القلب لها أى رخصة .

كيف يفضل من يستعاض عنه على من لا بديل له ؟

إنى امرأة شابة ، وأستطيع أن أتزوج زوجاً آخر ، ويمكن أن يأتى منه الولد الذى أطفـأ بماء وصاله نار فراق ذاك تدريجـياً ، وأداوى سم

فوات هذا بترياق بقائه ،لكنه ليس من الممكن أن يتأتى لى آخ آخر من الأم والأب اللذين رحلا لألقى عليه كل هذا الحب ، وأمسك عن الابن والزوجة عاجزة غير مظفرة ، وأخذت بيد أخيها وخرجت به من السجن ، فوصلت هذه الحكاية إلى سمع الضحاك ، فأمر أن يهبوا « هنبوى » الابن والزوج أيضاً .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى يعلم الملك أنه لا يوجد من يعوضنى عن ذاته المباركة على مرِّ الزمان ، ولن أسعد بغرض آخر سوى بقاء عمره ، وأعتقد أن من وبال هذا الخُرْق الذى يشرع فى خَرْق سنن الآباء والذى يوصل حبل النسل - عياذاً بالله - إلى الانتقاض الذى ينهى عهد الدولة إلى الانقراض ، كما قال ع- زَّ مَنْ قائل - « **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** »[1]

قال الملك : تصور صحيح ، وسوف أقرأ هذه الدعوى من لوح عقيدتك ، وأعلم أن ذلك الذى تظهره ليس رياء ، ولكننى أريد أن تسمع عن طريق المحاولة - وليس المجادلة - رأى الوزير فى هذه الأبواب ، ويدور بينكما حوار مشبع مستوفى عن طريق السؤال والجواب ، حتى يذهب الزبد[2] عن فكرتك بالتمحيص ، وأقف على ذلك .

(١) الأنعام / ٤٥ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « فأما الزبد فيذهب جفاء ...... » الرعد / ١٣ .

قال الأمير : لا ضير لأن الوزير إذا كان يريد - بما أوتى من فصاحة اللسان وحصافة الرأى ودهاء الطبع وذكاء الذهن - أن يزيف كل حقيقة ، ويجعل كل إيجابى سلبياً ، وكل طردى عكسياً ؛ لكن الشفاعة لا تتمشى باللجاج ولا النصيحة بالاحتجاج ، وإننى وضعت قدمى على هذا الطريق قدر وسعى ، وأمطت حجاب الاختفاء عن وجه حقيقة الأمر ، فإذا ما رغبت أن تضع قولى موضع القبول « قد تبين الرشد من الغي »[١] وإن لم ترد فعلى حسب ذلك الأمر « لا إكراه فى الدين »[٢]

خطاب الوزير إلى الأمير

بدأ الوزير الكلام فى لباسة الملاينة والمخادعة وقال : أيها الأمير العالم ، الخبير عميق الفكر ، بعيد النظر الحكيم ، المثقف : إن كل ما تقوله ، تقوله من أجل إحكام عقدة الدولة ونظام عقد المملكة ، وهذه النصائح تفضى إلى مِنَح التأييد الإلهى وتخليد آثار المملكة ، ولكننا نعلم أن حفظ وحراسة هذا الملك يمكن أن نقوم به بمثل هذه السياسة ، وسلوك هذه الطريقة مطابق لشريعة العقل لأن عدم الأمر بمعاقبة المجرم يشبه معاقبة

(١، ٢) البقرة / ٢٥٦

البرئ ،[1] ومما أثر من كلام أردشير بن بابك[2] ، ومعقولات حكمته : أن كثرة سفك الدماء تمنع من كثرة سفك الدماء ، وتصح الأجسام بكثرة العلل .

لَعلَّ عُتْبُكَ مَحْمودٌ عَواقِبُه وَرُبَّما صَحَّتِ الأجْسامُ بِالعِلَلِ[3]

وانظر فقد جاء هذا المعنى موافقاً للكلام المجيد ، قال الله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة** »[4] ، وينبغى معرفة أن مزاج أهل هذا الزمان فاسدٌ ، حيث صرفوا نظرهم عن طاعة السلطان ، وجعلوه مقصوراً على خداع الشيطان ، وقد باض شيطان الفكره المحالة والرغبة فى الاستقلال بيضة جنون الهوس فى رأس كل واحدٍ منهم، وأفرخ

(١) هذا المضمون موجود فى الشعر الفارسى والشعر العربى

يقول سعدى الشيرازى ماترجمته :

إن الإحسان إلى المسيئين كالإساءة إلى المحسنين انظر : محمد روشK ، تعليقاته على مرزبان نامه جـ ٢ ص ٥٧٥

ويقول المتنبى : ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا * مضر لوضع السيف فى موضع الندى

المتنبى ، الديوان ، ط ص ١٩١

(٢) هو أردشير بن ساسان ، وبابك جده لأمه ، حكم إيران من سنة ٢٢٦ إلى سنة ٢٤١ م ، وقد وصلت قصته فى شاهنامه الفردوس إلى ٦٦٠ بيتاً انظر : د . عبد الوهاب عزام . حواشيه على تراجمة الشاهنامه للبندارى ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١

(٣) هذا البيت للمتنبى من قصيدة يستهلها بقوله :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طبب * دعا فلباه قبل الركب والإبل المتنبى ، الديوان ، جـ ٢ ص ٧٢

(٤) البقرة / ١٧٩

فراخ الطمع فيـه ، وقد ثبت هذا التصور فى عقـولهم وهو أن العظمة والحكم تأتى بلا معـاناة وبمجرد الطلب والإجتـهاد ، وأن الإضطراب والخفقان يمكن أن يوصلا يد الإدراك إلى طرف ذيل الدولـة وهيـهات « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » [1] ،ولا يعلمون أن الملوك مختـارون من قبـل الله ، محـاطون بعنايته ، لأنَّه قسَّم المواهب الأزلية ، وأمضى ولاية القدرة الإلهية [2] ،

وفى البـداية ألقى طائر الهـمـا [3] بظله على الرسل ، ثم على الملوك ، ثم على العلماء ، والناس يظنون أن ولاية خـداع التفكير من العلم ، ويعـدون الكذب والنفـاق مع الملك مـن بعد الـنظر ، لكنهم عندما يسيرون فى هذا الطريق ، فإنه يتـحتم علينا الإجتهاد اللائق فى ضبط أمور السياسة ، وجذب قـوس المصلحة لحصهم على تمام الخضوع ، وعندمـا يسير صـلاح مفـاسد الملك على هذا النحـو يرجع الملك إلى الإستقرار الأصلى .

(١) النساء / ١١٩

(٢) يعلق العلامة القزوينى على هذه العبارة قائلاً : إن المقصود من هذه العبارة غيرمعلوم ، وجميع النسخ مـبهمة ومضربة ، وهى مطابق للمتن انظر ، واشى القـزوينى على مرزبان نامه ط ليدن ص ١٩

(٣) هو طائر خرافى لكل من يظله يصير ملكاً د . شتـا ، المعجم الفارسى الكبير جـ٣ ص ٣١٩٩

لأن المرآة تعكس كل اختزال قد رتبوه ، وكل انخلال قد ركبوه ، كقرطاس يُنقش بنقشٍ خسيس فيؤدى حذفه إلى خرقه أو فساده .

خطاب الأمير إلى الوزير

قال الأمير : إن الملك مثل الشمس المشرقة ، والرعية مثل السراج الوهاج ، فإذا ما أشرقت الشمس على صفحة السيف ، فأى نور يبقى للسراج ؟

وأمام الأنوار الذاتية يتقهقر النور المستعار ، وهكذا عندما يظهر الملك سجاحة خلقه ، ويبدى اهتمامه برعيته ، فإن تخلقهم بعاداته أمر محقق ، وعموماً فالخلل صفة خاصة بطباع العوام ، وقد قالوا : إن الزمان ينظر فى قلب الملك حتى يرى نفسه وكيف يكون ؟ فيميل إلى كل ذلك الذى يميل إليه الملك (وقد قيل) إذا تغير السلطان تغير الزمان ، وقد قالوا : إن الله تعالى لا يسلب هبة أعطاها لقوم مالم يزل عنهم اهتمام ملكهم ، مثلما وقع لـ « خرّماه » مع بهرام كور. [1]

(١) بهرام كورا هو بهرام الخامس تربى فى الحيرة بين العرب وولى (٤٢٠ - ٤٣٨) م ، وقدأطالت الأساطير حكمه وسيرته ، كما فى الشاهنامه ، إذ كان ملكاً شجاعاً محبياً إلى رعيته فاخترعوا له قصصاً تبين مكانته فى نفوسهم ، ساس رعيته عادلاً لا يحابى ، ولم يمنعه حب اللهو والصيد أن يؤدى ما عليه ، ومات عن فارس وهو فى أوج عظمتها ، ولذلك فإن قصته فى الشاهنامه بلغت عشرين وتسعمائة بيت ، وقد سمى كذلك لغرامه بصيد حُمُر الوحش « كور معناها حمار وحشى »

الفتح بن على البندارى الترجمة للشاهنامه جـ٢ ص ٨٠ ، د . شتا المعجم الفارسى الكبير جـ١ ص ٤٢٢ .

فسأله الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية خرّه نماه مع بهرام كَور

قال الأمير سمعت أن بهرام كور خرج ذات يوم للصيد ، فهطل المطر فى مكان الصيد ، وأصبحت الظلمة أكثر سواداً من ليل انتظار المشتاقين إلى وصال جمال الحبيب ، وكان المطر أغزر من هطول دموع عين العشاق على فراق المعشوق ، ولمع البرق بين السحاب ، وارتفع دخان الضباب سريعاً منبعثاً من مهب المهابة الإلهية وغابت أشعة الشمس ، وتغطت فتحة الهواء بغطاء الظلام ، واسودت الدنيا كلها [1]

فالشَّمسُ طَالِعةٌ فِى حُكْمِ غَارِبةٍ والرَّأدُ فِى مُستشارِ النَّقعِ كَا الطَّفلِ

وتفرق حشم الملك كل واحد عن الآخر ، بسبب هذا الظلام الدامس ، وقصد الملك ضيُعْه من ضِياع تلك النواحى ، وكان هنالك دهقان من أغنى الدهاقين يدعى « خرّه نماه » كثير الثروة والمال من الناطق والصامت والخيول والمواشى ، كأنه امتلأ واديه من ثاغية الصباح وراغية الروح .

فدلف الملك بيت هذا الدهقان متنكراً ، ولم يعرف الدهقان المسكين من هذا الضيف ؟ ! وبالتالى فإنه لم يقدم القرى اللائق لكرم الملوك ،

(١) الترجمة الحرفية أظلمت الحجرة ذات الجهات الست . وهى كناية عن الدنيا .

ولـم يقـم بالخـدمـة التى تجـب للملـوك، وبهـرام كور وإن لــم يظهر أى شىء إلا أنه تغير فـى باطنه فتحرك لذلك خاطـره بدون التفات وفى المسـاء وعندما وصــل الـراعى من الصــحراء ، أخبـر « خرّه نماه » بأن لبن الشياه قد نقص اليوم عن الذى اعـتادت عليه ، وكان للدهقان « خرّه نمـاه » فـتاة جمـيلة الطبع ، نقيـة السريرة تحـاكى نظافة الطبق ولـطافة الشراب ، ينبىء جمـال صورتها عن كمال المضمـون ؛ فقالت له : من الممـكن أن تكون نيـة ملكنا قد سـاءت تجاه الرعـية - اليـوم - وانقطع حـسن نـظره واهتمـامه عنَّا ، الأمر الذى يتسبب فى قطع لبن الشياه ، (لأنه) إذا هم الوالى بالجور على الرعـايا أدخل الله النقص فى أموالهم حتى الضـروع والزروع ، والأمر الأقرب إلى الصواب هو أن نبـعد عن هذا المكان ونبحث عن مقام آخر .

قـال الأب : أصـبت ؛ يجب علينا أن نـرحل عن هذا المكان وأن نطلب مكاناً آخر ، فقالت الفتـاة : إذا ما رغبت فى مثل هذا ، فإن لك فى البـيت القـدر الكبـيـر عند نقله مـن هنا إلى مكان آخـر ، ومن ثم فالأولى أن تنـفق شيئـاً من ذلك فى سبـيل هذا الضيف ، فـاستـجاب الدهقـان لذلك ، وأمر فصنعوا ، بتكلف مـائدة طعام ، ووضعوها أمام « بهراكم كور » ، وقدموا بعـد الطعام شراباً تتخيل أن لونه الوردى لون خدود حـسان ، ثم قدموا تمراً تقـول إن حلاوته حلاوة قبلة الحـسان ، فعلوا ذلك بهذا الترتيب ، على هذا الأسلوب خدم الدهقان « بهرام كور » ثم شرب الدهقان كأس خمـر وأعطاه كأساً ، وأمضى الوقت فى العطاء والأخذ وقال : لكل كاسٍ حاس ، لنكن قرب الحظ هذه الليلة ،

هذه الليلة حبلى فماذا تلد ؟[1]

وبعدما شرب كأسين أو ثلاثه ، أزال تأثير الشراب جلباب الحياء عن سر مطربة الطبيعة ، واقترب من إخراج سر خاطره من تحت الستر مثل العشاق ،

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا وَفِي الزُّجَاجَةِ شَاقٌ يَطْلُبُ الْبَاقِي

وفى أثناء المناولات وتضاعيف تلك الحالات ، قال بهرام كور للدهقان : إذا كان لديك جارية جميلة الوجه نتمتع بمشاهدتها فقط ، وتخلص النفس من وحشة الغربة بمؤانستها ، وهذا ليس غريباً عن لطفك ، فنهض الدهقان ، ودلف إلى حجرة حرمه ، فعلم أن لديه فتاة أكثر تحلياً من الجارية بوقاية النفس وصيانتها ، فلو قامت بهذه الخدمة فلن يصيبها ضرر ، ولن توصم عين وجه عصمتها مطلقاً .

ومُقَرطَق نفثاتُ سحْرِ لحاظه أَعْيَيَن كلَّ مُعزمٍ وَطَبيبِ
أَخْلاَقُهُ يُطمِعَن فِيه وَصَونُه يُغْنِيه عَنْ مُتَحَفظٍ ورَقِيبِ

(١) هذا المثل شائع فى الأدبين العربى والفارسى ، فقد ورد عند فخر الدين أسعد الجرجانى ، وفرخى ،حافظ الشيرازى ونقله أبو الفضل السكزى المروزى إلى العربية حين قال :
أفضل ما فى الليل شىء وجد الليل حبلى ليس تُدرى ماتلد ؟
انظر : محمد دروش ، حواشيه على مرزبان نامه جـ٢ ص ٥٧٦ ، ٥٧٧

ومن ثم أمر ابنتـه قائلا : يجب عليك أن تجلس ساعـة أمام هذا الضيف حـتى تهدأ وتستقـر رغبته بـنظرة من لقائك ، فانقادت الفـتاة للأمر وذهبت إلى الملك مثـلما أنشقت الشمس على إيوان جمـشيد[١] أو ، كأنما وقع نظر بهـرام على كوكب الزهرة ، فـرضيت نفس الملك بتنزه النـظر فى ذلك المنظر الروحـــانى ، واســتـراح من عـناء الدهر بلطائف مشافهتها ، وترنم لسان حاله قائلاً ومنشداً :

أنت فى متناول يدى لكنهـا لا تستطيع الظفر بك واحـسرتاه لأنه يجب على الظمآن أن يموت فى الماء[٢]

فنزل الملك إلى أعتاب القلب بالياقوت الأحمر الوردى - لأن الدهقان لا يمكن أن يخرجها إلا بعد أن يأخذ الياقوت بالجاروف -[٣] كما طلا عين الشمس بهذا الياقوت أيضاً ،وأخفى علامات عشق تلك الزهرة ، فربما يلتـفت خاطره إليها ، قائـلاً إننى عندما أذهب إلى منزله ، سـوف يدخـل هـذه الفـتاة فى حـبائلى ،[٤]وأكـرم والدها مـقابل هـذه الخدمة .

(١) اسم ملك ايرانى من العـصـر الأسطورى د . شتـا ، المعـجم الفـارسى الكبيـر جـ١ص ٨٤٦

(٢) لعل الشاعر الفارسى قد أخذ هذا المعنى من الشاعر العربى الجاهلى حيث يقول :

واشد ما لقيت من ألم الجـوى * قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيس فى البيدا يقتلها الظما * والماء فوق ظهورها محمول .

(٣) علق الأستاذ القزوينى على هذه العبـارة قائلاً : والمقصود من هذه الجملة على وجه يرضاه الطبع غيرمعلومٍ القزوينى ، مرزبان نامه ط ليدن حاشية رقم (١) ص ٢٢

(٤) كناية عن عزمه على الزواج منها .

ومع الفجر طُليت شامة الليل السوداء بلبن شعاع النهار ، وعاد الراعى من الصحراء ، وحكى عن كثرة لبن الشياه ، فوضع السامعون إصبع الحيرة على أسنانهم ، فقال الأب وابنته : لعل كوكب السعد قد وجه عاطف المَلَك نحونا ، وعكس قضية سوء العناية وإلا فما موجب نقصان لبن الشيَاه أمس من عادته ثم عودته اليومَ ، كانا يقولان هذا دون أن يعلما أن سبب زيادة اللبن وسبب نقصانه فى بيتهم ! ، وبأى صداق سوف تُمهر به عذبة الشفه إلى مخدع الملك !

لا يَبْـرحُ الدَّهْرُ تَأْتِينَا عَجَائِبهُ   مِن رائحٍ غَيرِ مُعْتادٍ ومُبْتكرِ

وعندما عاد بهرام كور إلى مقر حكمه ، أمر فكتبوا مرسوماً بإضافة عدة قرى إلى هذه القرية باسم هذا الدقهان مكافأة له على تلك الضيافة ، ثم أحضروا ابنته للملك بالإكرام والإجلال فى لباس التمكين وجلال التزيين بعد عقد الزواج .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن الزمان يتبع نية الملك بهذه الكيفية ، وأن الملك الذى لايتعامل مع الرغبة بطبع فيه قلة الأذى وحسن الفعال ، وذلاقة اللسان وبشاشة الوجه ، تفرق به السبُل ، ويتناوب عليه الخوف والرعب ، وانظر إلى المصطفى - ﷺ - الذى كان فى أكمل الكمالات وأفض الحال كيف خوطب بهذا الخطاب **« ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »**[1] وحينما يوسم أحد الناس بالذنب لا يأمر (الملك) بتعميم العقوبة ، قال تعالى

(١) آل عمران / ١٥٩

(٢) الاسراء / ١٥ .

« **ولا تزر وازرة وزر أخرى** »[٢] لأن حال الرعية سوف ينتهى حينئذ إلى التواكل وينجذب كلية إلى الاستئصال لأنهم يأخذون قرية بذنبٍ بيت ، مدينة بذنب قرية ، وإقليماً بذنب مدينة ، ولو كان الملوك والسلاطين السابقون يسيرون على هذا النسق لانفرط عقد أمور المملكة ، ولم تصل الدنيا من المتقدمين إلى المتأخرين عامرة ، ويجب على الملك أن يراعى شروط العدل ، وأن يولى على أركان الملك وزيراً يغلب الرفق والمداراة على أخلاقه ، حتى لا يجعل نفسه أسيرة الطمع مغمورة بالهوى يفكر دائماً فى العواقب ، ويجب أن يُعلم أنه لا غنى للملك عن مثل هؤلاء الحكماء ؛ لأن الملك - مثلاً - بمثابة الرأس ، و هم بمثابة الجسد ، وبرز أن الرأس أشرف عضو فى الأعضاء ، إلا أنها أحوج عضو للأعضاء ، لأنها إن لم تجد - فى كل وقت - آلة منفذة من الأعضاء فلن يتحقق أى غرض لها أبداً ؛ وما لم تحرك القدم ركاب الحركة ؛ لا يمكن للرأس الذهاب إلى أى مقصد وطالما أن اليد لا تملك عنان الإرادة ، فإن الرأس لا تستطيع أن تسعى لتناول أى غرض ، ومثلما يشترط سلامة الجوارح وصحتها لتحقيق أغرض الرأس ، وقد خصص لكل جارحة عمل من بداية الخليقة ، فكذلك الملك يلزم له خبراء مختارون صحيحو الرأى ، صادقون ، معطلون للثواب ، محبون للثناء ، بعيدو النظر مقدرون للعواقب ، مقيمون للعدل ، متلطفون بالرعية ، يستقر كل واحد منهم على جادة الإنصاف راسخ القدم ،ويشغل كل واحد نطاق عمله ، لكل واحد منهم مقام معلوم ومقياس محدود لكى لا يمد قدمه أكثر من لحافه [١] ولا يضطرب نظام أسباب الملك بسهولة .

(١) يشير إلى المثل العامى « على قد لحافك مد رجليك » .

والملك الكريم العراق اللطيف الأخلاق الذى لا يكون خدمه وحشمه على هذا النحو يشبه العسل المصفى الذى لا يمكن الوصول إليه خشية لسع النحل من حوله .

رُضَابُه الشَّهدُ لكنْ عَزَّ مَوْرِدهُ   وخَدُّه الوَردُ لكنْ جَلَّ مَجْنَاه

وعلى كل حال ، ينبغى على الملك المحافظة على سبيل رشاد الآباء وسنن اعتيادهم وكل من يمتنع عن ذلك يصيبه ما أصاب الذئب من المغنى صديق الراعى فسأل الملك ، كيف كان ذلك ؟

حكاية الذئب والمغنى صديق الراعى

قال الأمير سمعت أن ذئباً استوطن غابة فى وقت من الأوقات ، وذات يوم كان يدور فى أطراف ونواحى مكان الصيد الذى كان فيه رزقه ، وكان يبحث عن الصيد فى كل ناحية بكل الوسائل ، حتى يتسنى له أن يوقع صيداً فى شراكه ؛ فلم يتيسر له هذا ، وفى ذلك اليوم كان هناك راعٍ يرعى قطيعه بالقرب من موطن فرآه الذئب من بعيد ، ومثلما تأخذ الخروف الغصة من الذئب ؛ كانت قد أخذت الذئب من رعاية الراعى للقطيع ، ولم يتعد نصيبه سوى غبار فى عينه ، وكان يعض أسنان العجز قائلاً :

أَرَى مَاءً وبِى عَطشٌ شَدِيدٌ   ولكنْ لاَ سَبِيلَ إلى الورودِ[1]

(١) أورد ابن القيم هذا البيت مع بيت آخر ونسبهما إلى عبد الله بن المبارك ، وهذان البيتان هما :

أرى ماءً وبى عطش شديد * ولكن لا سبيل إلى الورود

تهجر الصاديات الماء لما * رأت أن السلامة فى الصدود

ابن القيم ، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٣٦٣ دار التراث القاهرة .

شعر فارسى

ليس ثمة ما هو أندر من هذا على الإطلاق فأنا ظمآن وأمامى الماء الزلال جارٍ

وحينما كان يسوق الراعى القطيع من الصحراء إلى البيت ليلاً ، تخلف جدىٌ ، فوقع بصر الذئب عليه ، فظن ربط غزالة روض الفلك على سراج جواد مقصوده ، ثم هيأ قيداً لاصطيادها ، وعندما وجد الجدى نفسه أسيراً فى أنياب النوائب علم أن وجه الخلاص لا يمكن أن يتأتى إلا بلطف الاحتيال ، وفى الحال استقبل الذئب بقدم التجاسر ، وتقدم إليه مكرها لابطلاً ، وقال له إن الراعى قد أرسلنى إليك ، ويقول لك : إنه لم يصلنا اليوم أىُّ أذى منك ، ولم تمارس عادة خطف الذئاب مع قطيعنا ، وهذه ثمرة تلك السيرة الحسنة وحسن التصرف ، والحياء التى لديك نحونا ، وهى أنه وضعنى أمام عين مرادك كحلم على وصم مهيأ ومهناً ، وأمرنى أن أغنى ، وأبدأ بالغناء العذب حتى يحدث لك نشوة وسعادة ذلك الغناء أثناء التهامك لى بما يلائم ذوقك ويكون الأفضل لطبعك فدخل الذئب فى جوال غموض الجدى ، وصار عيياً كحيوان الضبع ، وأمره أن يفعل ، فرفع الجدى عقيرته بالغناء بصدر مكلوم تحت تأثير ما حدث له حتى وصل صدى ذلك من الجبل إلى أذن الراعى ، فرفع (الراعى) مطرقته صلبة ،حينئذ ركض الذئب مسرعاً كالريح ، واضطرمت النار فى ساحة أمنيته وفرَّ من هناك حيث انزوى فى زاوية ثم وضع الرأس على ركبة التفكير خائباً خاسراً قائلاً : كيف وقعت فى أمثال الجهلاء وإهمال المخرفين ؟

إن الناى والعود الذى يملكهما القط لا يصلحان أبداً لرقص الفأر [1]

لماذا أتحت للجدى فرصة كى يهزل بى ويحتال بمثل هذه الوقاحة والتزوير ؛ وأن ينتزع - عنوة - عنان الرغبة والنهمة من يدى ، ويحبس شيطان عزيمتى فى قمقم [2] . ومتى كان والدى يجد الطعام هكذا ، أو يصل إليه بهذه الكيفية ، وأنى له بهؤلاء المطربين حسنى الصوت والمغنيين المتغزلين الذين يعزفون أمامه أعذب الألحان ، وينشدون الغزل الملكى على مائدته ؟

وَعاجِزُ الرأى مِضْيَاعٌ لِفُرْصَتِه   حَتَّى إذا فَاتَ أمرٌ عَاتَبَ الْقَدَرَا

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن العدول عن عادة الأسلاف صفة ذميمة ، وهى سياسة لذوى الملك الموروث ، وليست لذوى الملك المكتسب ، لأن الملك المكتسب يكتسب بقوة الساعد ، وينبع ماء شجرته من نبع السيف ، مما يجعل موارد ومصادر هذا الأمر معروفة ، ومقتضيات حاله ومآله معلومة ، بل ربما يكون ذلك إغلاق وفتح ، وأخذ وعطاء ورفع ووضع وراتق وفاتق للأمر ، فالذى يصل إلى الملك بلا معاناة طلب ولا مقاساة تعب من حيث لا يكتسب ولا يحتسب ، ثم يلغى بصنيع الآخرين وأدائهم المهيأ فى ذيل مراده ، ويضع مفاتيح أمور الدولة فجأة فى كم ثوب تدبيره ، ويتخطى رسوم وحدود الأسلاف ، ويبعد عن جاده طريقهم بخطوة ، فإن الخلل يجد له طريقاً فى أساس ملكه ودولته ، ولابد أن يلازم كثرة الخراب فى أساس مملكته بسبب قلة مبالاته فى ذلك التغافل والتوانى .

(١) هذا البيت لسنائى الغزنونى   انظر : سنائى الغزنوى ، الحديقة ص ٣٨١

(٢) هذا المضمون ورد أيضا فى كليلة ودمنه انظر كليلة ودمنه ، ط ١ ستاد مينوى ، ص ٦٥

وَمَا لِعُضَادَاتِ الْعُرُوشِ بَقِيَّةٌ   إِذَا اسْتُلَّ مِنْ تَحْتِ الْعُرُوشِ الدَّعَائِمَ

خطاب الوزير إلى الأمير

أصاب حجر العجب أسنان الوزير من هذا الكلام ، واستحالت نيران غضبه إلى لهب من الغيظ فأطال لسان انتقامه وقال : لقد جمع الأمير أمثال تلك الحكايات المزورة والمزيفة من أجل إخجال حالى وتقرير مقاله ، فيجب أن نعلم أن أعداء الملك صنفان : أحدهما ضعيف خفى ، والثانى قوى واضح ، والضعيف الذى ليس له قوة المقاومة أو قبضة الملاكمة يظهر نفسه أمام الناس فى لباس التدين وقلة الأذى والمحافظة وحسن الفعال ، حتى يجعل حرارة حب الملك فى قلوب الرعية باردة ، ويشعل حرارة غرضه ، ومن ثم فعلى الملك أن يعلم أن خللٍ وجود هذه الطائفة غير مرتبط ببقاء ملكه ، فليطهر ذيل عصره من شرٍ صحبة مثل هؤلاء الأشرار .

خطاب الأمير إلى الوزير

إن من يبدى تدينه ويبحث عن ترويج سوقه ، فهو يفعل ذلك إمّا لأن أسباب معيشته غير كافيةوليس له أى ذكر فى الوجاهة بين وجوه الناس وأعيانهم ، ومن ثم جعل التشبع والتصنع[1] شراكاً لمراده ، وإمّا أنه يرى الجريمة على صحيفة أعماله ، ويعلم أنه أحدث جرحًا غار على صفحة وجهه ، ولا يستطيع أن يمحو ذلك إلا بعلامات

(١) بمعنى التظاهر والنفاق ومنه الحديث الشريف « المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبى زور »

التدين والتنسك ، وإما من خوف عدو لا يستطيع دفع سلاح طعنه إلا بإظهار الصلاح ، وبحـمد الله فإن طهارة ذيلى ونقـاء جيبى من هذه المعانى ثابتـة ومقررة ، كما أن عـرضى مستغنٍ عن مـعارض وملابس التلبيس .

ولكننى عندمـا أتأمل فى بداية هذا العـالم ونهايتـه ، وأفكر فى الرجوع إلى رب العـالمين فإننى أعتبـر أن إزالة الملك للحرص والطمع المتوغلين فى جذور العـقل ورأس قضاء الشهـرة التى تطل من فضول الحاجة أولى عـسى ألا يكون من جمله منكسى الرأس الأذلاء فى يوم الحساب « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »[1]

وأنا لا أقصـد من هذه الفصول سـوى تثبـيت أصول الملك الذى مابنى أسـاسه إلا على رفـاهية الرعـية ، والملك عالم بـأن ذلك يمهد لقاعدة الخـوف والرجاء بالنسبة للرعية ، حـتى تترك المذنب فى خوف دائمٍ ، فـيملك زمـام أمره ، ويراقب مـواطن سخط الملك ، وتجـعل الخيِّر دائم الأمل فى مجازاة الخير فيسلك طريق الخدمة القويم ويصدق فى حبه ، ويعلم نجح مساعيه فى تقديم مراضى الملك .

وينبغى على راعى الخلق أن يصقل المنشـار حتى يقسم الأمر بينه وبين الرعية قسمة صحيحة ، حتى إذا ما قطع عنهم منفعة ماله فتح لهم منه طريق الملاينة والمساهلة ، والذى يعلم أن هذا المعنى صحيح هو من قال :

إن الراعى الذى يسرق المال من الرعية يقتلع الجدار من الأساس ويجصص السقف[2]

وعندما تكون أساس معـيشة الملك من الرعية فهـو كالبحر الذى يطلب الماء من الجدول

(١) الشعراء/ ٨٨

(٢) هذان البيتان لسنائى الغزنوى ، انظر سنائى الغزنوى ، الحديقة ص ٥٧٣ ، ص ٥٧٤

فخراب المُلك وعمـارة خزينة المَلك لايكون إلا عن طريق الظالمين ولكن عندما لا يتمرس الوزير على مراسم العدالة على هذا النحو فإنه لا ينتج عنه سوى انفصام عروة الملك وانهيار عرى الدولة والملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم .

خطاب الوزير مع الأمير

عندمـا رأى الوزير فيـضاً من فـتح باب البيـان ، وسمع فـصل الخطاب من كـلامه علم أن مـيزان امتـحان « يكرم الرجـل أو يهان » سوف يتجه مؤشر رجحانه نحو الأمير ، وسوف تشعل من نار العذاب فى داخله على لسـان العفة ، وقـال : إن المغالبة أوصلت الأمـير إلى المبالغـة فى الحديث ، وانتهت مكاشـحته إلى مكافـحة ، ويعتـقد أن سبب الإغـماض على عشـرات هذيانه مهارة فنه وغـزارة علمه ، لكن عظمة حشمة الملك وتجنب مـواضع سوء الأدب يضعان خاتم الصمت على لسانـى ، ولقد قالوا : إن قـوة الحال لاتكون فى الجـرأة وحسن الوجه لها يعنى الملحة ، والشجـاعة ليست فى منازلة الخصم ، والثراء ليس فى إبداء الجود ،والعلم ليس فى جهل مقـام التحرز ، وصاحب النسب الذى لا يتزين بحسب الثقافة لايجد نفعاً على الإطلاق .

فَـأخْـلاَقُـهم بالمُـخْـزيات رَهَائنُ وأعـراضُـهُم للمـرديات حَـصَـائدُ

تقَهْـقَرُ عَنْ نَيلِ المَـعَالىِ خُطَاهُم فَسِيـانٌ سَاعٍ لِلمعَالِـى وقَاعدُ[1]

(١) هذان البيتان من قصدة للطغرائى مطلعها :

فؤاد على كرِّ الحوادث مارد * وعزم على جور النوائب قاصد الطغرائى ، الديوان ص ٤٦ ، ص ٤٩

خطاب الأمير مع الوزير

قال الأمير : إن الوزير إزاء استماع هذا الكلام الذى عليه إجماع الأمم واتفاق عقلاء العالم ، يشبه الحصان الحرون الذى يظهر أنه غير حرون حتى لا يضرب سوطاً فى هذه الخصومة ، ويشبه الطفل الذى يجلس القرفصاء خوفاً من سوط المعلم ، وعندما يخرج يمزق عقال العقل ، ويعود مرة أخرى إلى طباع الطفولة ، ويشبه الحمار الأعرج الذى يأكل العلف الكثير فى الراحة ، ويستريح على المربط بلا عمل ، فيبدو معافاً سليماً ، وعندما يشعر بتعب قليل من حمله لحمل الأسفار فإنه يظهر عيب العرج .

وحتى الوقت الذى لم يكن قد كشف القناع فيه عن أحواله ، كان يظهر كل الثبات والرزانة ، وعندما تزول القدم عن حد الحياء سوف يظهر مزاج التأبى الذى وجد على ذلك التربى ، وعندما نفلق طريق التسامح والتصالح سوف نتحدث حديثاً أكثر وضوحاً ، ووزراء الملك الذين لا شرف لهم ذاتا وصفاتاً بعيداً عن خدمة الملك ؛ يجلسون يوم عزلهم مثل تلك المرأة المتجمله المكتحلة التى يظهر قبح وجهها عندما يزيلون عنها الزينة المستعارة ؛ ويشبهون ذلك الجدار الذى يحير العين بانعكاس تصاويره ، فإذا ما غسلته بقليل من الماء فإنك لا ترى منه سوى الطين الأسود ، وقد قالوا لا تمدحن خسيساً بمرتبة نالها من غير استحقاق فإنها تحطه عما كان عليه ولكن بعد أن كثرت ذنوبه وظهرب عيوبه وصار مُوَاليه مُعادياً ومادحه هاجياً ، والملك الذى يربط رباط التعامى على عين بصريته عن مقابح أحوال

وزرائه ومخـازى أعمالهم ، ويريد أن يتعـامل بالتمحل والتـعلل فإنه يشبه ابن آوى راكب الحمار الذى قتل بالجهل ، فقال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حـكـاية ابن آوى راكـب الحـمـار

قال الأمير : سمعت أن ابن آوى اتخذ بيتاً بجوار حديقة ، وكان يدلف إلى الحديقة كل يوم من فتـحة جدار فيها ، وكثـيراً ماكان يأكل ويتلف من العنب وكل أنواع الفاكهة حتى ضجر منه البستانى ، وذات يوم أخذت ابن آوى سنة من النوم ، فأغلق البستـانى فتحه الجدار التى كان قـد اتخذها منفذاً ، وألفـى بابن آوى فى شراك البلاء ، وأفـقده الوعى من جـراح عصـاه ، فتظاهر ابن آوى بالموت ، ومن ثم حـمله البستانى وألقاه خارج الحديقة ، وأنشد قول الشاعر :

إنَّ ابنَ آوى لَشَـدِيدُ الـمُقـتَـنَص وَهُوَ إذَا مـا صِيـد رِيحٌ فى قَـفَص

فلما تماسكت أجزاؤه مرة أخرى بـعد تلك الصدمة ، وترك جوار الحديقة خوفـاً من جور البستانى ، وكان يسـير وهو يعرج ويحجل ، ومـضى إلى ذئب كانت له مـعـرفة به ، فـوصل عنده ، فمـا إن رآه الذئب حتى سـأله عن سبب هذه العلة والضـعف ، ولماذا هذا النشيج فقال ابن آوى :

جَنَاحى إن رُمْتُ النُّهوضَ مَـهيضُ وحَبَـةُ قَلْبى للهـمـومِ مَـغـيَضُ
فلـو أنَّ مَـــابى بـالحـــديـدِ أَذَابَه وبالصَّخْرِ عَادَ الصَّخْرِ وَهُوَ رَضَيضُ

ثم قص هذا الضائع ما حدث له من أحوال لا طاقه لسمع الأصدقاء بها ، بل إننى لو أقرأ ما حدث لى على قلوب الأعداء القاسية الذابت مثل الشمع واحترقت لأجلى ، ومع ذلك كله فلم يعد شىء مما قد حدث لى يعادل شوق رؤياك ، لأن لحظات العمر فى ظل مشاهدتك تذهب ما على قلبى من منغصات ، ومن ثم فإن هاتف الاشتياق جاء لى بعد تحمل آلام الفراق ، فقال الذئب :

إنَّ الحَبيبَ إذا لَمْ يُستَزِرْ زارا[1]

أى شىء أفضل للصديق من رؤية الصديق ؟

جئت سعيداً ، وأتيت بالسعادة معك ؛ وأى هدية سماوية وأى وارد روحانى فى مقابلة هذه السعادة وموازنة هذه الخيرات ، لأنك أبديت المفاجأة الجميلة المباركة وأزلت تجاعيد الحزن عن جبين مرادنا .

أحْيَاكُمُ اللهُ وحَيَّاكُمُ ولا عدا الوابلُ مُغناكُمُ
فما رأيْنَا بَعْدَكُمْ مَنْظَراً مستحسناً إلاَّ ذَكَرْنَاكُمُ

وهكذا كان يلاطفه بأنواع الملاطفات ، وظهر بين الجانبين التعاطف الذى ينبعث من تعارف الأرواح فى عالم الأشباح ، قال الذئب : لقد كنت صائماً عن الصيد منذ ثلاثة أيام ، واليوم بما أنك وصلت وأنت ضيف عزيز ، ولا يوجد لدىَّ ما أقدمه لك ، فلابد أن

(١) هذا المصراع للشاعر العباسى ابن الأحنف وتمام البيت :
نزوركم لا نكافيكم بجفوتكم * إن الحبيب إذا لم يستزر زار
العباس بن الأحنف ، الديوان ، ص ٧٣

أخرج إلى الصحراء كى أصيد صيداً فى قيد المراد « وشبع الفتى لؤم إذا جاء ضيفه » ، فقال ابن آوى : لى معرفة بحمار الخداع فى مخالب قهرك عسى أن يكون طعاماً لنا لعدة أيام ، فقال الذئب لو تكفلت بهذا دون تكلف ، فبسم الله .

انطلق ابن آوى من هناك ، ثم وصل إلى قرية ، فرأى حماراً واقفاً على باب طاحونة ، أُنزل من فوق ظهره حمل ثقيل ، قد تحطمت قوائمه من ثقل الأحمال ، فدنا منه ، وسأله عن متاعب دنياه ، ثم قال له : أيها الأخ حتام تظل مسخراً لابن آدم ، وتظل روحك مسحوقة فى هذا العذاب ؟ فقال الحمار ك لا أعلم لى حيلة إزاء هذه المحنة ، قال ابن آوى : إن لى وطنًا بمرعى فى هذه النواحى تنكس صورة خضرتها على قبة الفلك الخضراء ، فهو متنزه أحلى من العيش فى السعادة ، وصحراء أزهى من قوس قزح فهو مثل دوحة جنة طوبى وأشد خضرة من حلة الحوراء .

تأزر فيه النبتُ حتى تخايلتْ رباهُ وحتَّى ما تُرى الشَّاءُ نُوما

وهذا المكان خالى الأطراف من آفة الحيوانات المفترسة والشراك ، وفارغ الأكناف من الفساد وتزاحم السباع والسوائم ، فلو توافق ؛ نذهب إلى هناك ونعيش سوياً تجمعنا المصاحبة والمصادقة على رغادة العيش ولذاذة العمر ،فوقع هذا الكلام على مذاق الوفاق من الحمار ، وشايع ابن آوى وتابعه فى الطريق .

فقال له ابن آوى : لقد ابتعدنا عن طريق ، فياليتك تحملنى على ظهرك ساعة حتى أستريح ونصل سوياً إلى هدفنا على نحو أسرع ،

فانقاد الحمار لرأيه ، فقفـز ابن آوى على ظهره ومضى حتى اقتربا من تلك الأجمة ، فنظر الحمار من بعيد ، فرأى ذئباً ، فقال :

تأْتِي الخُطُوبُ وأنْتَ عنها نائِمُ

أيها النفس الحـريصة أتقـبلين على الموت بقدميك ، تـتعلقين فى شراك الهلاك بيديك ؟

إذا فكر القلب فى الخلاص من التفكير فيك فإن العقل يسرع إلى قمة التفكير فيك فمن يلوى العنان ويصل إلى هناك يسحقنى ويسحقك بألف غم .

لقد وضع تسويل وتخـييل ابن آوى القيد والعـقال على يد وقدم عقلى ؛ وقذف بى فى ورطة الخطر ووصل الاخـتلاب ، فلأبحث عن حـيلة لى ، فـوقف فى مكانه وقـال : يا ابن آوى ها هى آثار وأنوار تلك الأجمة أراها مـن بعيد ، وتنبعث رائحة أزهارها وريـاحينها إلى مشـامى ، ولو كنت أعلم أن لك مأمناً وموطـناً على هذه الدرجة من النضـارة والطـراوة لأقـبلت علية دفـعة واحـدة ، لكننى سـوف أعود اليوم ، وغداً أستكمل بقية المهمات ، ثم أقصد هذا المكان على اليمن والبركـة ، فقال ابن آوى : ياللعـجب من شخص يضـيع نَقْدَ الوقت بنسية التـوهم ، فقال الحمار : أصبـت ، لكننى ورثت عن أبى وصية مليـئة بالفــوائد رهى مـعى دائما ، وأضعـها باستمـرار تحت وسادتى ليلاً ، وبدونها أرى أحلاماً سيئة وخـيالات فاسدة ؛ أحملها وآتى بها بنفسى ، ففكر ابن آوى أنه إذا مـا ذهب وحده فلن يرجع ، ولا يمكن دفعه وتحريـضه على المجىء ، لكن ينبغى مجاراته وموافـقته فى ذلك الذى يقـوله ، وأنا بــدورى أعـود مـعه ، فـألوى عنان عـزيمتـه إلى

الطريق ، ثم قال : أحسنت ، إن الحديث على نصيحة الوالد ووصيته دليل الكفاية ، فإذا كنت تذكر من تلك النصائح شيئًا ، فلا تحجب عنى فائدة استماعها وإبلاغها ، فقال الحمار : إنها عبارة عن أربع نصائح : الأولى لا تفارق هذه الوصية مطلقاً ، والثلاث الأخرى لا أتذكرهن الآن لوجود خلل فى ذاكرتى ، وعندما نصل إلى هناك أقرأ عليك الوصية ، فقال ابن آوى : نرجع الآن وغداً نعود إلى هذا المقر ، فتوجه الحمار إلى الطريق ، ولوى العنان بسرعة مثل الناقة السريعة ، فقد كان يسير مثل الطائر ممزق الشباك حتى وصل إلى باب الطاحون ، فقال الحمار : حضرتنى الثلاث نصائح الأخرى ، أتريد أن تسمع ؟ فقال ابن آوى : تفضل فقال النصيحة الثانية هى : عندما تعرض لك نائبة فاخش ما هو أسوأ منها ، الثالثة هى : لا تفضل الصديق الجاهل على العدو العاقل ، أمّا الرابعة فهى : كن على حذر من مجاورة الذئب ومصادقة ابن آوى كليهما .

عندما سمع ابن آوى هذا الكلام ، علم أن هذا ليس مقام توقف وقفز من فوق ظهر الحمار وولى هارباً ، فانطلقت كلاب الطاحون خلفه ، وأرقوا دم المسكين .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن القلب لا يخلو من الأضرار والإخلال بتماديه فى الفكر الباطل والتسويف والانحراف عن سبيل الرشد وإصراره على ذلك ، ولا يجوز للملك أن يطلق يد التصرف والتمكن الكامل للوزير فى أعمال الملك أو يأمن له بعهدة الأمانات مرة واحدة ، لأنه بذلك يكون قد شارك فى الملك حتماً فتتولد الآفات والفتن الكبرى .

وعندما كشف الأمير كنانة الخاطر عن مكنون السر ومكتوم القلب وأطلق كل سهم كان يحتفظ به فى جعبة الضيمير ، وكشق عن سوء جعبة الضمير ، وكشف عن سوء عيب الوزير ، أدرك الملك بألمعية ثاقبة ورؤية صائبة أن كل شيء قاله الأمير كان صدقاً وطلب له طريق النجاة والنجاح ، وصار إظهار نقصان الوزير وقصوره نعمة محققه فى الوفاء بحق شكره ، وقال « الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ [1] وعسعس الباطل ، ثم أمر بأن يعزلوا الوزير من الوزارة ويلقوه تحت الأقدام ذليل الروح حقيراً ، ويضعوه فى سجن المجرمين الذين يهملون حقوق منعمهم ، وغمر أخاه بلطائف الإكرام والتوقير والاحترام وقال : بما أنك وضعت اليوم مائة ألف من درٍ ومرجان المعنى - بلا ثمن على سبيل الهداية - فى جيبنا وطرف ثوبنا ، وبسطت علم العدل والمعرفة ، وميزت عيار إخلاصك عن مغشوش الخصم ومغلوله ، فإننى أريد الآن أن تدير قرعة الاختيار على رقعة ممالك الأب واجعل البقعة التى تعلم أنها أكثر إعماراً ، وأكثر شهرة بلطف الماء والهواء وطناً لك ، واتخذها مستقراً ، حتى تؤلف الكتاب الذى تريد تأليفه ؛ وتخرج ما فى التفكير من طى الإمكان إلى حيز الوجود ،حتى يصبح عليل الحكمة شفاءً ، ويصير غليل العلم قانوناً[2] وإننى من وقت إلى

(١) يوسف / ٥١

(٢) يشير الكاتب إلى كتابين لأبى على بن سينا ، الأول الشفاء فى الفلسفة والآخر القانون فى الطب ، الأول فى الحكمة الالهية وهى الفلسفة والثانى فى الحكمة الطبيعية وهى الطب .

د . مهدى محقق : بيست كفتار در مباحث آدبى وتاريخى وفلسفى وكلامى وتاريخ علوم دار سلام ، طهران ١٣٦٩ ص ٣٣

آخر ، إذا ما أتيحت لى الفرصة ، سوف أستأنس بمطالعته وأستفيد به ، وأستكمل سياسة المملكة من ذلك ، فأجعل ميزان الملك على حال الاعتدال ؛ ويصير فى حفظه صحة وحزم فكرى قانوناً للأمور ، ويصبح نموذجاً لإخلاص العالمين ، فلا تتوقف أبداً ، ولا تقف عند أى مقدمة ، ولا تترك جلد الفكرة خاماً ، لأنك « إذا كويت فأنضج ».[1]

فأسرع الأمير يحكم الأمر إلى بيت خلوة حضور القلب ، وأخرج (المرزبان) هذه الخريدة العذراء التى - بعد أربعمائة عام ونيف ، كانت فيها وراء ستار الخمول ، وقد أثر فيها ذبول عدم الذكر تأثيراً فاحشاً - تعود شابة فى أيام دولة مولاى سيد العالم وتأخذ من حلية قبول حضرته جمالاً ناضراً وتكتسب طراوة جديدة فليجعل الله تعالى هذا البلاط العالى الذى هو منشأ المكارم والمعالى ، متوفراً على إشادة معالم العلم وإحياء رمقه ، وإعادة دوارس المعرفة وإبداء رونقها ، ووفر الله له حظوظ السعادة ، ورزقه الظفر على أعداء الدين والدولة بمحمد وآله

(١) مثل يضرب فى الحث على إحكام الأمر وقد ورد فى مجمع الأمثال هكذا « إذا كويت فأنضج ، وإذا مضغت فأدقق » .

الباب الثاني

قصة الملك

الموفق والوصايا

التى وصى بها بنيه

عند موته

قصة الملك الموفق والوصايا التى وصى بها بنيه عند موته

قال الأمير : يحكى أن ملكاً من ملوك السلف كان له ستة أبناء ، وكانوا جميعاً مذكورين وموصوفين بسماحة الطبع وسجاحة الخلق ونباهة القدر ونزاهة العرض ، فأما الابن الأكبر فقد كان داهية القوم وواسطة عقدهم ، وكانت الأسرار الإلهية تشرق فوق جبينه ، وكان نور النظر الإلهى يلقى بظلاله على الآفاق من خلال منظره ، وكان طرف إصبع إيماء العل يشير إليه قائلاً :

هَذا ابنُ خَيرِ مُلُوكِ الأرضِ قَاطبةً فإنْ حَسبْتَ مَقَالى مُوهِما فَسَلِ

وعندما أشرف الملك على الموت وطوى فراش عمره هذان الخادمان الزنجى والروسى اللذان كان يضربان ستارة كبريائه على العرش ، وجاء الوقت الذى يرحل فيه عن الدنيا ، ويترك التبعة للآخرين ، دعا الأبناء وأجلسهم وقال : اعلموا أننى حصلت على نصيبى من الدنيا ، ونلت ما قسم لى منذ الأزل ، ورأيت تقلبات الأيام وذقت خلوها ومرّها ، وجعلت - دائما - نصب عينى قوله تعالى « ولا تَنْس نَصِيبَك مِن الدُّنيا ».[1]

وسعيت بقدر طاقتى فى زرع الحسنات ليوم الحصاد ، واليوم أفل نجم بقائى ، ووصل يوم العمر إلى نهايته ، وتحدد لى الطريق الذى لامفر من قطعه ، بالرغم من أنهم قالوا :

حينما يقطعون الطريق إلى نهاية شوط فيه فإن أرواحهم تقبض فى أول منازله

(١) القصص / ٧٧

لكن هذا الذهاب يبـدو سهـلاً حداً عليّ ، لأننى أترك للـذكرى أبناء جديرين بالاحـترام ، فضـلاء ، مثقفين ، علمـاء ،ذوي طموح مثلكم ، والآن أريد منكم أن تهتموا بوصاياى فى قضايا أمور الدنيا ؛ وتعلموا أن أجمل وردة تتفتح فى بستان الأخلاق ، وتعطر مشامً العقل بعبيـرها هى الشكر والحمد ، فالشكر مجلبـة لمزيد من النعم ، ومُزيد لهبات الله تعـالى شأنه ، فأشيـعوا هذه الصفات فيـما بينكم لأن الله تعالى يقـول فى جزاء أعـمال العبـاد « إن تقرضـوا الله قرضـا حسنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورحليم »[1]

أشكر من أجل الزيادة (أشكر) عالم الغيب والشهادة[2] والتعبير عن شكر النعمة يتم بلا مداد أو قلم أو فرجار .

ولقد قالوا : كن شـاكرا : حتى تستحق الخـير فمن شكر القليل استحق الجزيل ، واعط الحق حتى من نفسك حتى لا يحاسبك الله ؛ ولا ترض من نفسك عن كل شىء تفعله حـتى لا يتخذك الناس عدواً لأن من رضى عن نفسـه كثر الساخطون عليـه ، ولا تحسبن الإسراف والتبـذير جـوداً وسـخاءً قـال تعالى « إن المبـذرين كانوا إخوان الشياطين »[3] (ولا تظن) أن البـخل والإمـسـاك من السيـادة واعـتـدل بين هاتين الصفتين ، ولو أنهم قالوا :

(١) التغابن / ١٧

(٢) البيت الأول لسنائى الغزنوى ، الحديقه ص ٩٩

والبيت فيه إشارة إلى قوله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » إبراهيم / ١٤

(٣) الإسراء / ٢٧.

فَلا الجُودُ يُفْنِي المالَ والجدُّ مُقبلُ   ولا البخلُ يُبْقِي المالَ والجدُّ مُدْبِرُ

لأن الله تعالى قد ترك أمر الإنفاق لك ، وأعطاك أيضاً ميزان تسوية هذين الأمرين فقال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط »[1] ولا تطلق اسم الجحود على الصبر .

وحُلمُ الفَتَى فِى غَيْرِ مَوْضِعه جَهلٌ

ولا تقنع بالضعف والسذاجة لأنهم ربطوا عالم الحدوث بفكرة الجبر والقدرة [2] لكنك مالم تبد جهداً فى الأمور المنغلقة والمفتوحة فلن يتحقق لك أى أمر .

در حول نهر جيحون لأنه لا يمكن صيد سمك من الإناء

فبالرغم من أن الإنسان قيم على الزمان إلا أن الشيطان الناضج خير من الإنسان الساذج [3]

ووازن بين القول والعمل ، ولا تسود وجه حالك بوصمة الخلاف وسمة الكذب ، واعلم أن الكذب مظنة الكفر وضميمة الضلال ، حيث قال عز من قائل « إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله »[4] وتيقن بأن العيب الذى يثبت بسبب قول الكذب مرة واحدة لايمحى

(١) الاسراء / ٢٩

(٢) إشارة إلى قضية الجبر والاختيار ، غير أنه عبر عن « الاختيار » ب « القدر» انظر : د . مهدى محقق : بيست كفتار ، ص ١٨

(٣) البيتان لسنائى الغزنوى انظر الحديقه ص ٣٨٢ ، ص ٧٣٠

(٤) النحل / ١٠٥

بألف مرة من الصدق ، ومن نُسب إلى الكذب لا يصدقونه وإن قال الصدق .

فمن عرف بالكذب لم يجز صدقه[1] واسلك طريق الإحسان مع الصديق والعدو حتى تُزيد من الصداقة وتنقص من العداوة .

جامل عدوك ما استطعت فإنه   بالرفق يطمع فى صلاح الفاسده[2]

ويا أبنائى لاتصادقوا الأشرار بأى حال ، حتى لا يصيبكم ما أصاب الفلاح من الثعبان ، فقال الأمير الأكبر الذى كان دُرة تاج المُلكِ وقرّة عين المَلِكِ : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفلاح مع الثعبان

قال الملك : زعموا أن فلاحاً تصادق مع ثعبان قاطنٍ فى سفح جبل ، ولعله كان يعلم أن أبناء الزمان جميعاً قد اتخذوا صفة اللونين فى لباس تلوين النفاق ، فهم يشبهون ثعبان السمك فى النقصان ، وعندما وجد (الفلاح) طبيعة الثعبان على وتيرة وسيرة واحدة فإذا ما طلب ماهيته لم ينسبه إلى حقيقة أخرى غير الثعبانية لذلك نفض ذيل التعلق من الأصحاب الناقصين ، وتعلق بذيل صحبته لهذا الاعتبار .

(١) هذا المثل ورد فى مجمع الأمثال هكذا : من عرف بالصدق جازَ كذبه ، ومن عُرف بالكذب لم يجز صدقه . الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ٣ ص ٣٢٥

(٢) هذا البيت للطغرائى الأصفهانى   انظر : الطغرائى ، الديوان ص ٦٥

والخلاصة : أن الفـلاح كلما وصل إلى هناك كان الثعـبان يخرج من الجحر ويزحف على الأرض غـير هياب ، ويلتقط فتـاتات طعامه من على الأرض ، وذات يوم ذهب الفـلاح حـسب عـادته ، فـرأى الثعبـان قد التف على نفسه فجـعل الرأس على الذنب من فرط برودة الهواء ، وسقط ضعـيفاً عاجزاً فاقد الوعى ، فـتحركت داخل الفلاح سوابق الصـداقة وبواعث العهـد الطيب ؛ فأخذ الثـعبان ووضـعه فى زنبيل وعلقه فى عنق الحـمار حتى يدفأ من تنفس الحمار وتـعود حالته إلى طبيعتها ، وربط الحمار فى ذلك المكان وذهب ليحتطب . وحينما مضت ساعة وأثر الدفء فى الثعبان ، وعاد إلى طبيعته ، استرد خبث الجبلة وشر الطبيـعة ولدغ الحمار بالسم الزعاف فى شفـته فلقى الحمار حتفه واختفى الثعبان فى الجـحر ، حرام على النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيـا حتى تسىء إلى من أحسـن إليها ، وقـد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن كل من صادق الأشرار ، صار الشر صديقه لا محالة .

لم أر الخسيس سلامة فلو رأيته بلغه منى السلام

فيـا أيها الأبناء ، يجب أن تتـحدوا فى أيام النعـمة على سـبيل المواسـاة ، حتى إذا أتت المحـنة صـار كل واحد قـسيـماً للآخـر فى المعـاناة ، والوحـدة واجبـة لدفع الشـدائد والمكائد لأنهم قـالوا : إن الذليل الذى ليس له عضد ، بمعنى أن (الإنسـان) يحتاج إلى أعوان الصدق وإخـوان الصفـاء الذين (يُعتـبر) وجودهم مـن ذخائر الأيام وعـواصم جـرح الآفـة ؛ وانظر مـاذا يحـدث لجسم الفـيل وهيكل الجاموسة عندما تتحد عدة لدغات الذباب متآزر ومتعاون ؟

كُونُوا جَمِيعًا يا بَنِيَّ إذا اعتَرى   خَطْبٌ ولا تَتَفَرَّقُوا أحَادَا
تَأبَى القِدَاحُ إذا جُمِعن تكَسُّرًا   وإذا افْترَقْن تكَسَرتْ أفرادًا (١)

واعتمدوا على الأصدقاء القدماء الذين اختبرت خصالهم فى طيب الأحوال وسيئها ، ولا تصطفوا الأجانب لأنهم قالوا : إن الشيطان المجربَ خير من الإنسان الغُفل ، « خير الأشياء جديدها وخير الإخوان قديمها ، واجعلوا سعادة الآخرة أساسًا للدنيا ، واكتسبوا السعادة الباقية فى هذه الدنيا الفانية ، واعملوا اليوم عمل غدٍ مثلما فعل غلام التاجر ، قال الأمير كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية غلام التاجر

قال الملك : زعموا أن تاجراً كان له غلام عارف ، حاد الذكاء موفق ، وكان يؤدى كثيراً من حقوق العبودية لسيده فكتب على صحائف الأيام مقامات مشكورة وخدمات مقبولة مبرورة ، وذات يوم قال السيد للغلام : أيها الغلام : إن سافرت سفر البحر هذه المرة ورجعت حررتك من عبوديتك لى ، ثم أعطيك رأس مال وافراً حتى تجعل من كفافه زينة عفافك ، فتسند ظهرك لحائط رائحة البال طيلة حياتك ، سمع الغلام هذا الإقرار من السيد فأقبل على العمل بوجه التقبل والتكفل ، ووضع متاعه فى سفينة واستقر فيها ، وشق طريقه فى البحر يومين أو ثلاثة ، وفجأة هبت ريح معاكسة من كل ناحية ،

(١) هذان البيتان من مقطوعة للطغرائى الأصفهانى الغرائى ، الديوان ، ص ٧١

فقلـبت السفـينة ، وتحطـمت زجاجة أمله ، وغـرقت السفينة بكل ما عليها ، فعثر على سلحفاة بحرية ، فتعلق بها ، وألقى بنفسه على ظهرها حتى وصل إلـى الجزيرة التى يكثر بها النخـيل ، ومضى عليه هناك عدة أيام كان يقتات من ذلك الطـعام المتاح له ، وقد نصب عينه متـرقباً طريق الغيب ، ومـتأملاً : كـيف أن لطف الله - عز وجل - أخرجنـى من غـمرة البـلاء تـلك ، ولم يتركنى فى ورطة الهلاك هذه « لُطف الله غـادٍ ورائح » وفى نهـاية الأمـر لبس حـذاءه وانطلق فى الطريق ، وظل يسِيـر عدة ليالٍ حتى جاء الوقت الـذى وصل فيه إلى أطراف مديـنة ، فَلاحَ أناس أجّـمل من صورة الفـردوس البيـضاء ، وأجمل مـن السواد على بيـاض الـعين ، فقـد خرج عالـم من رجال ونسـاء تلك المدينة ، وألقت زلـزلة المواكب فى الأرض وحـمحـمـة الفرسان بأسـباب اللهو والسعـادة ومختلف أنواع التجـمل والتبرج ، وملأ صوت الـناى النحاسى وأصداء الطبول دمـاغ الطنين ، وحملت الراية على عيوق[1] حتى وصلت إلى منزل الشمس ، فقال الغلام : ماذا تريدون ؟ قالوا : نريد أن نقـيم على عرش المملكة السلطان الذى أُقطع هذه المدينة من ديوان قدَم البركة ، وسوف يصل هذه الساعة من بلاط سلطنة الأزل حصان العَزم الذى يطيـر حول جهات الدنيا الأربع ، ويهبط فـى هذه اللحظة من منازل بادية الغيب ويضـرب خيـمة فى عالم الظهور والحقيـقة ، وهذا الذى تراه كله ، هو شعار مملكته وآثار سلطنته ، والغلام فى هـذه الأمور المثيرة للدهشة كـان مثل الغارق فى النوم الذى يستيقظ فيفرك عين الحيرة بيديه ويقول :

(١) عيوق : اسم نجم فى طرف المجرة حسن عميد ، فرهنك عميد .

هذا الذى أراه فى يقظة يارب أو فى منام ؟ أن أرى نفسى فى مثل هذه النعمة بعد طول عذاب .

ثم قدم عليه بعض هؤلاء ذووا المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة وأدوا فروض الطاعة أمامه ، وقبلوا يده كالعبيد ، قدموا له منْ تلك الخيول السوداء السريعة التى كانت تقطع عرصة الخافقين فى بضع خطوات ، واختاروا له من خيول السباق البيضاء السريعة التى تسبق الوهم فى ميدان الضمير فرساً تقولُ إنها ترعى فى مرعى جدول الفردوس أو تربت فى أطراف حديقة القدس مع البراق ، لها مقبض سرع مرصع وسرج مغرق بتعاويذ معنبرة ، يشبه نسيم النسرين الطيب الرائحة ، ومزين بقلائد الذهب مثل منطقة بروين المكوكبة ملجمة بلجام جميل تنطلق فى جولاتها كالريح ،

استدارة الكفل تشبه كرة الصولجان على جسد يشبه زحل وجبين كأنه الزهرة

فوضع الغلام قدمه فى الركاب ماسكاً عنان الإقبال ، واندفع به حتى وصل إلى القصر الذى يعجز القلم عن وصف تماثيله وتصاويره . الذى إن وصل مانى[1] إلى معرضه لعض على بنان قلمه غيظاً ، وانسابت الدموع المعصفرة على وجهه الشاحب ، وكان بستان قصره نموذجاً من رياض النعيم ، وجدول غديره من حياض الكوثر والتسنيم « كأنه انتقل من جنة إلى أخرى » ، فأنزلوه هناك ونثروا عليه من

(١) مانى يعرف بـ « مانى » الزنديق ظهر بإيران سنة ٢٤٢ م وادعى النبوة وتبعه خلق كثير وهم الذين يسمون المانوية د . حامد عبد القادر ، قصة الأدب الفارسى حـ١ ص ٥٤ ط مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥١

* لكن يبدو أن مانى المقصود هنا هو النقاش الصينى الشهير .

الدنانير والدراهم الذى يـفيض عن كم الزمان وذيله ؛ وأشـعلوا عدداً من عيدان البخـور والعنبر التى تجاوزت رائحتها طبقـات الفلك السبعة وأقامـوا له كل ما كان من عـادة الاحترام والإعظام ، وقـالوا جميـعاً بلسان واحد :

قَـدِمْتَ قُـدُومَ البَدْرِ بَيْـتَ سُعُـودِهِ   وأمْـرُكَ عـالٍ صَـاعِـدٌ كـصـعـوَدِهِ

أيها الملـك أنت سلطان ونحن جمـيعاً عـبيد ، أنت تـأمر ونحن جميـعاً نطيع ، فليكن لك التاج والعـرش ، ولتكن موفقاً فى الـعمر والحظ ، فَمُرْ بكل ما ترى ، فنكر الغـلام فى نفسه قائلاً : كيف يأتى آلاف من الأحرار ويعطون أنفسهم لغلام ، ويضعون حلقة الطاعة فى أذنهم ، يجب علىّ أن أفـتح عين القلب ، وأتأمل ملياً فـى وجه هذا الأمر ، حتى أرى كيف حدث مـثل هذا الاتفاق السماوى ، وإلى أى مدى ولد الليل الحبلى بالحوادث دائما مثل هذه النعمة ؟ ثم ذهب إلى سرير السلوى وعرش السلطنة .

فجلس وفى رأسه ألف فكرة مختلفة وآلاف أحلام لكيقباد فى عقله

ونصب كل واحد على عمل وألحقه بـطاعته ، وشُغل هو بترتيب الخيل والخدم والجيش والحشم ، ثم اختار لنفسه واحداً من المقربين كان يلمح على وجهه آثار حُـسن الحفاظ وأمارات السيرة الحـميدة ، وكان يشاهد مـخايل الرشـد فى شمائلـه ، وجعل منصبـه أعلى من نظرائه وأبناء جنسه فصار محسوداً ومغبوطاً منهم .

وذات يوم دعاه وأجلســه فى مقابلته ، وأخلى المكان مـن الأغيار وقال له : الآن علمت برسوخ قـدمك على طريق الصدق والإخلاص

وعرفت شمول شـفقتك على أحوالى ، وزاد اعتمـادى واعتضادى فى حفظ مناظم الحال وضبط مصالح المآل على قولك وفعلك ، إنى أريد أن تخبرنى بحقيقة الأمر حتى أعلم ما هى صورة الحال ؟ ولماذا أعطى أهل هذه الولاية زمـام قـيادهم لإمـرتى دون أدنى واسطة لوسـيلة أو رابطة لذريعة ؟ وكـيف أطلقوا يد اسـتيلائى وسـيطرتى على مملكة لا يمكن فتح طرف منها بالسيف البتار والسنان المتوهج والجيوش الجرارة ؟ وما موجب هذا الاختيار والإيثار ؟ فقال الرجل : سقطت على الخبير أيهـا الملك ، اعلم أن كل عام فى هـذا الوقت يظهر من هذا الجـانب الذى جئت منه واحـد وبنفس هذه الصفـة فيأتون به ويجـلسونه على عـرش هذه الدولة ، وعندما تمـضى سنة على سلطنتـه يضعـون قيـد الإكـراه فى عنقـه ، وشاء أم أبـى يحملونـه إلى طرف هذه المدينة ، وهناك بحر هائل يفصل بين المدينة وبين الصحراء ، ويلقون به فى هذه الصـحراء ، فـيهـيم على وجهـه ، ويضرب الرأس والقـدم فى قلق واضطراب .

خَـلَعُـــوا عَـلَـيْـــه وزينّو ه ومَـــرَّ فى عـــزٍّ ومَـنْعَـــة
وكَـــذاكَ يُـفَـــعلُ بـالجَـــزُو رِ لنَحْــرِهَا فى كـلِّ جُـمْــعَـةِ

فأطرق الغلام رأسه برهة يفكر .

ضاع التدبير وأخطأ الظن

وفى محـاولة البحث عن الحيلة ، كان يرسل خـاطره الجوال فى كل ناحيـة ، وكان يسرع العَـدو تحري جهـة قِبله الصواب فى جـميع

النواحى التى أمامى عين البصيـرة ؛ وكان يطلب وسيلة لإدراك مخرج للأمر فى كل ناحـية ، حتى استعـاد طرف حبل التدبيـر الذى كان قد فقـده الآخرون ، فرفع رأسـه وقال : أيها الخـادم ، يا من يحل رأيه مبهمـات الأمور ، لقد أمسكتُ بزمام الأمر لكن بفـضل مساعدتك ، فلو توفى رسم الخدمة يتم الأمر ، فتـأهب الخادم لتنفيذ ذلك الأمر ، قال الغلام : أصغ إليّ ولا تهمل أو تؤخر ما آمرك به ، وبقدر تحمّل مشـاق ذلك ، سوف تصل إلى مذاقك الحـلاوة التى تطلبهـا فى نهاية الأمر ، فاجعل عين القلب ساهرة ، حـتى يتكشف وجه المقصود عن حجاب التعذر بسهوله .

عَسَى اللهُ يَقضِى ما نَهُمُّ بِنَيلِه   فيختم بالحُسنَى ويُفْتح بَابَا

واعلم أنه لا يمكن الخـروج من عظائم الأمور إلا بالألم ومـثابرة الذل والمكابرة مع دوران الأيام ،

عندما يرغب النمر فى الصيد فإنه يجعل قامته نحيلة .

ويحكى أمام العالم لسان شدة البرودة قصة راحة الربيع ،

والآن يجب وضع سفن كثيرة عند شـاطئ هذا البحر ، وإحضار عدد من الأسـاتذة الحاذقين والصناع المـهرة والمهندسين الأذكـياء ، من سكان هذه المدينة أو المدن الأخرى ، وإرسالهم إلى هذه الصحراء عن طريق البحر ، حتى يظهروا هناك عـمارة ويبنوا مدينة ، حتى إذا حان وقت الرحلة من هنا ، نرحل إلى هناك ونقيم ، ونصل فى هذا المكان العزيز إلى عيش رغيد وحظ وافر ، ويختارون من تلك العرصة أرضاً طاهرة ومنبـتاً جـوهرياً تستـأهل العيش فـيهـا ؛ ثم يذهب إلى هناك الجمـاعة الـتى تعلم صناعة الحـراثة والفلاحـة ، وتتقن رسـوم الزرع

والغرس ، ويضعون فى السفن كل ما يلزم أصحاب الحرِف من آلات وأدوات وأسباب ، ويوماً فيوماً وساعة فساعة ، يوصلون إلى هناك كل ما يلزم الحاجة ، وكل ما تتوقف عليه الأمور على التواتر ، ومهما صرف فى مصارف المهمات من أموال ، يأخذونها من الخزانة ، ويضعون أمام خاطرهم « لأسرف فى الخير » ، وليقرأوا على زمانهم « وحبذا مكروه أدى إلى محبوب ومرحباً بأذى أسفر عن مطلوب »، فتقدم الخادم بقدم القبول صادق العزيمة نافذ الصريمة مستعداً ، وحمل طوائف الصناع والحرفيين ، على اختلاف الطبقات فى السفن ، وذهب إلى هناك ؛ وأمر الأساتذة أن يبنوا مقاماً مخصوصاً ، ويقيموا بعد ذلك سوراً للمدينة ثم يشيدوا أبنية مرتفعة وقصوراً عالية ويزينوها بالمناظر الخلابة فيجعلوا لها سقفاً مزخرفاً وطاقاً مقوساً ، ويجعلوا جدرها الملونة والمتداخلة كمرآة السماء ملونة باللون الأحمر والأصفر ، ويحضرون لها الغرس الفيروزية واللاجوردية ، أما فى الساحة التى كانت مهبَّ النسيم المنعش فقد بنوا قصراً خاصاً بالملك ، فكان مضيئاً مثل قرص الشمس ، ورفعوا قبته إلى عنان السماء ، وجعلوا شرفات إيوانه مساوية لمطامع المشترى وزحل ، وقرأوا عليه :

دار على العزِّ والتأييد مَبْناها وللمكارم والعَلياء مَغْنَاهَا
لمابنى النَّاسُ فى دُنْياك دُورهُمُ بَنَيْتَ فى دَارِكِ الغرَّاء دُنْياها

وصلت إلى المكان الذى لايراه المحيطون بك ، ولو ارتفع الفكر صوب الفلك أعواماً

وفى اليوم الذى يرفع الدهر فيه بناءك ، تعزف الزُّهرة فيه أنغاماً وتتفاءل به الشمس ، ثم أشار فجعلوا فى كل مكان من أطراف المدينة

مزرعة وضيعة ، وبذروا كثيرا من البذور فى الأرض ، وزرعوا كثيراً من أنواع الحبوب فيها ، وأنشأوا حديقة فى حديقة وبستاناً فى بستان ، وأجروا الأنهار العذبة زلالية الماء التى تقول إنها تفجرت من قدم الخضر أو إنها تقاطرت من إصبع معجزة موسى متدفق فى مجاريها ومساريها ، وشذبوا الحدائق والمراعى ، وزينوا الأنهار بالأشجار ، وغرسوا أغصان الصنوبر وفسيل السرور والعرعر على أطراف كل جدول ، وأتموا البقعة التى هى الربع المسكون من الأقاليم السبعة والذى يشبه الربيع بالنسبة للفصول الأربعة فى لطف المزاج واعتدال الطبع ، كما حملوا إلى تلك المدينة العديد من المفارش والمطارح والآلات والأمتعة والمطعوم والمشروب والمنكوح والمركوب ، التى لم توصل الأيام يد التباهى إلى إمدادها وإعدادها ، وقد صار كل هذا مهيأ ومرتباً وفق المصلحة وعلى مقتضى الرغبة ، وجاء آخر يوم فى السنة ، وأتى وقت زوال شمس الملك ، فاجتمع أهل المدينة فى بلاط الملك ، حتى يبعدوه عن عرش السلطنة مثل الآخرين طبقاً للقاعدة السالفة ، وعندما سمع خطاب ذلك الإلزام والإرهاق ، لكنه - وإن كان قد اغتم قبل وقوع الواقعة ، ورأى قبل التحرك مكان النجاة - استطاع انتزاع وتد مؤالفة ومؤانسة هذا العام الذى كانوا قد غرسوه فى ذيل ذلك الموطن بصعوبة .

أقمنَا كارِهِينَ بها فَلَمَّا　　　أَلِفْنَاها خَرجْنا مُكْرهِينا

وفى النهاية حملوا الغلام وأجلسوه فى سفينة ، وأوصلوه إلى شاطىء الوادى عن طريق البحر ، وأقبل فى الحال جميع العبيد الذين

كانوا يتطلعون بأبصارهم إلى طريق قدوم الملك ، مستعدين لاستقبال ذلك الإقبال ومترقبين له ، وأدوا رسم الخدمة والعبودية ، ونزل الملك بذلك الميدان المريح ، ووصل من خلال متنزهات تلك المواضع والمراتع إلى مستقر السعادة ، حيث كان عين الأمل مضيئة ؛ وهواء المراد صافياً ؛ ولباس الأماني مجدداً ؛ وبساط الدولة ونصرها ممهداً ؛ وكان لابد أن يفعل [1] مثل هذا .

مَنْ كَانَ يَأمل عند الله مَنْزِلَةً تُنيلُه قُربَ الأبرارِ والزُّلَفَا
أو كَانَ يَطْلُبُ دِيناً يَسْتَقِيمُ به ولا تَرَى عوَجاً فيه ولاجَنَفا

والآن استمعوا أيها الأبناء وركزوا الخاطر على تفهم رمز هذه الحكاية واعلموا أن ذلك الغلام الذى جلس فى السفينة ، هو ذلك الجنين الذى يصير من مبدأ تكوين النطفة إلى تلوين الحالات ، تسعة أشهر فى أطوار الخلقة ، مثلما يخبر القرآن الكريم « **ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً** » [2] إلى أن يصل مرتبة تمام الصورة وقبول النفس الناطقة ، ويصبح - بكمال الحال- مستعداً لخلعة الخلق الآخر . « **ثم أنشأناه خلقاً آخر** » [3] يعنى حلول الروح داخل القالب الجسمانى ؛ وتحطم تلك السفينة ، والوصول إلى الجزيرة ثم إلى شاطئ المدين ، ومجئ الناس الكثيرة لاستقباله ، إشارة إلى تلك المشيمة التى هى مستقر الطفل أثناء وقت الحمل ، والتى لابد أن تتمزق وتتقطع أجزاؤها عن بعضها حتى يرحل

(١) فاعل هذا الفعل هو من الموصولة فى البيت العربى .
(٢ ، ٣) سورة المؤمنون / ١٤

المولود لحدود الخلق وعندما يصل إلى بوابة الحدوث ، يقوم على تربيته فى تلك الحال عـدة أشخاص ثم الأب والأم والداية والمربيـة والحاضنة والمرضعة . . وهلم جرا، حـتى يصل فى التربية إلى ذلك المقام الذى يربى فيه فى كنف رعـايتهم وحجر حمايتـهم وحفظهم . ويترقى من مرحلة الجـبر والاضطرار إلى منزلة الفعل والاختـيار .[1] فلو كان الحظ الأبدى قائده والتوفيق الأزلى رائده ، مـثلما كـان مع الغلام ، فلابد أن يعتقد أن رحـيلى عن الدنيا يوماً ما أمر لازم ، ويكون المكان الآخـر هـو الموئـل والمآب ، ثم يوسـع سـعيه بـكل ما فى الإمكان ، ولا يدخـر جـهـداً عن بنـاء ذلك المنزل وإعـداد الأسبـاب التى تلزم للدار الباقية ،

ولحظة فلحظة يرسل ذخائر السـعادة الخالدة من قبل حـتى إذا ما جاء اليـوم الذى ينتهى به عمـره ، ويلقون به من هذه الدنيـا عارياً ، ويحملونه إلى تلك الدار ، الـتى هى عبرة عن الدار الآخرة ، فـيرى منزلاً مشـيداً وفق رغبته ، قـال تعالى : « **وإذا رأيت ثم رأيت نعيـماً وملكاً كبـيرا** »[2] ولو ظل - والعياذ بالله - فى ثمـالة شراب الغُرور بسبب خداع سراب الشيطان الغَرور فيهبط إلى إيوان وطاق يشبه ستارة قوس قزح الملونة مؤقـتاً ، ويُخدع بخيمة مقطعـة الأطنابِ تشبه مظلة السحاب المليـئة بالنقوش المقطعة الأطناب ، ومن ثم فدائمـا ما تقصر همته على تطلب الحال ، ويتخلف عن الاستعداد والتأهب لأمر المآل ، ولذلك فإنه عندما يصل إلى هناك ، لايجـد سوى هاوية الهوان الدائم مكاناً له ،

(١) إشارة إلى قضية الجبر والاختيار ، وهى إحدى قضايا علم الكلام المهمة .
(٢) سورة الإنسان ، آية (٢٠) .

ويظل أبد الآبدين ودهر الداهرين أسير سعى اليد والقدم ، قال تعالى : **« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين »** .[1] قال الأمير بهذه الكلمات الفصيحة الناصحة التى تشبه أنفاس كلمة الله المسيح[2] صارت قلوبنا - التى كانت قد ماتت من قبل - حبة غضة ، وتقاطرت - بها - ماء حياة حكمة فى حلوقنا مثل الخضر ، لكننى لن أعتمد على إخوتى - وإن كانوا علماء أذكياء - لأننى « أخشى سيل تلعتى »[3] لأنهم سوف يهبطون إلى جسد الكنز - من بعدك - دون تحمل أى مشقة للسير وذلك بمساعدة الحظ ، وسوف يصلون فجأة إلى العيش الهنئ والنعمة السنية ، وأخاف أن يصبح عالم محبتهم سبباً فى عداوتنا . ولو اختفت اليوم هذه المعانى فى مكامن نفس كل واحد ، فإن غداً تلد أم الملك العقيم فتناً غير متوقعة ،

والظُّلمُ مِنْ شِيَمِ النُّفوسِ فَإنْ تَجِدْ * ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ[4]

والملك الآن فى يده زمام التصرف ، فينبغى ألا يتركنى فى يد تصاريف الأيام ، بل يظهر المقام فى تولية الملك ويسوى بيننا ، ويظهر

(١) البقرة / ١٦

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم » آل عمران / ٤٥

(٣) التلعة : مسيلُ الماء من السند إلى بطن الوادى ، ومعنى المثل : أنى أخاف شرَّ أقاربى وبنى عمى ، ويضرب هذا المثل فى شكوى الأقرباء ، الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ١ ص ٥٥

(٤) البيت للمتنبى فى قصيدة يمدح بها أبا العشائر ويهجو إسحق بن كيغلغ .المتنبى ، الديوان ، جـ٢ ص ٣٨٣

المحجة التى هى حجة فارقة علينا جميعاً ؛ حتى يثبت أقدامنا على مسالكها ، ولقد قال العلماء : من يستطع رفع الصريع ولم يرفعه ، يصبه ما أصاب الفأر من « العُقاب » الذى كان الغزال محتاجاً إليه ، فقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الغزال والفأر والعُقاب

سمعت أن صياداً خرج للصيد ذات وقت ، ونصب الشراك ، فوقع غزال فيها ، وأخذ المسكين ينتفض ويتلوى حول نفسه ، ويتلفت فى كل ناحية ، حتى وقعت عينه على فأر كان قد خرج من الجحر فشاهد حاله ؛ فصاح الغزال على الفأر قائلاً : لو لم يذهب ما بيننا من سابقة الصحبة ورابطة الألفة ، فلن أتوجه بأى حق من حقوقى عليك التى من شأنها أن تلزمك بالوقوف بجانبى وتدارك حالى ، ولكننى أرى أن آثار حسن سيرتك الباطنة من طبع حسن ، ونضارة وجه ظاهر عليك .

فَجَعلتُ عُنْوانَ السَّماحِ طَلاقَةً ... وكَذَا لِكُلِّ صَحيفةٍ عُنوانُ[1]

فأتوقع منك أن تساعدنى على سقطة صدمة النوائب ، وتحل عقدة هذه المحنة عن قدمى بأسنانك ، حتى إذا ما تم خلاصى بسبب أسنانك فسأكون طوع أمرك طيلة حياتى ، وأطوق عنقى بطوق طاعتك ، وأرسم وشم الرقِّ على ناصية حالى ؛ ويصير لك ذخيرة عظيمة من الشهرة وارتفاع الشأن ، وتثبت على صحيفة الحسنات .

(١) البيت لمؤيد الدين الطغرائى فى مدح مجد الملك أسعد بن محمد الطغرائى ، الديوان ، ص ٤١

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيرَ لاَ يَعدَمْ جوازيه لاَ يَذهبُ العُرفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ[1]

فقال الفأر الذى كان له دناءه وخيمة وخلق لئيم : ليس من الحكمة عَرض الرأس غير المعتلة على الطبيب[2] وأنا أعلم حقارة نفسى ؛ وأعرف جسارة الصياد . فلو اطلع على عملى فسوف يخرب بيتى وأصبح من زمرة أولئك الجهال الذين قال الله تعالى فى حقهم « **يخربون بيوتهم بأيديهم** »[3] ، وإننى لأتذكر دائما وصية أبى : « لا تكن أجهل من فراشة » ،[4]

لا تعمل العمل الذى ليس من عملك ولا تسلك طريقا غير طريقك .

ثم أشاح بوجهه عن الغزال ، وتركه (هكذا) مقيداً مسلسلاً فى قيد البلاء ، وعندما خطا خطوتين أو ثلاثة ، وأراد أن يزحف نحو جحره ، هبط عقاب من مسكن (له) بالجبل ، والتقطه بمخلبه ، ثم جاء الصياد فوجد الغزال الذى لا يمكن وصف تشبيب عشق جمال لحظاته ودلال خطراته بألف قصيدة غزل ونسيب[5] مقيداً فى شراكه ،

(١) البيت من قصيدة مشهورة لجرول بن أوس العبسى الشهير بالحطيئة ، فى هجائه للزبرقان بن بدر ومدحه لبغض بن عامر بن شماس ، ديوان الحطيئة ، ط الشنقيطى ص ٥٥ . د . ت

(٢) الترجمة الحرفية : ليس من الحكمة حمل الرأس غير المحطمة إلى الدواء .

(٣) الحشر / ٢

(٤) « أجهل من فراشة لأنها تطلب النار فتلقى نفسها فيها » الميدانى . مجمع الأمثال جـ١ ص ٣٣٥ ط عيسى ١ حلبى سنة ١٩٧٨

(٥) التشبب والنسب من أنواع الغزل الذى هو أحد أغراض الشعر ، وفيه يذكر الشاعر للمحبوب وأحواله ، ومن شعراء الغزل فى العربية كثير عزة ، ومجنون ليلى ، وجميل بثينة . . . إلخ .

أحياناً يُرى في عينيه خيال غمزة الحسان وأحيانا أخرى يُعقد على عنقه الآسر زينة حُسن الحسان .

فكر الصياد فى نفسه قائلاً : إن التراب جنس هذا الحيوان أفضل من دم ألف سافل من بنى الإنسان ، وأنا أطمع فى مسك بطنه .[1] دون أن أريق دمه ، ثم حمل الغزال على كتفه ، وقصد السوق فقابل رجلاً صالحاً فى الطريق ، وقعت عينه على ذلك الغزال جميل العين ، طويل الجيد ففكر قائلاً : إن ترك مثل هذا الجيد فى قيد البلاء ، وعدم حفظ مثل تلك العين من عين جرح الآفة يبدو بعيداً عن مذهب المروءة ، وإن كان ذلك مما أحلته الشريعة .

فأى طبيعة سليمة وأى سجية كريمة ترغب فى إراقة دم حيوان ؟ وبخاصة إذا لم يكن يستطيع التعدى بشر أو بضرر ، واشترى الغزال من الصياد بدينار ، ثم حرره ، ونَجاه من الهلاك ، وقال : إن من ينجى البرىء من القتل لا يقتل بريئاً .

وقد قلت هذه الحكاية حتى يدرك الملك أمرى قبل فوات الفرصة ، ويسند أمر مصالح أحوالى - من بعده - إلى صديق مجرب ، حتى تظل منضبطة ، وحتى لايَقطع ما بيننا - نحن الأخوة - من حبال الموالاة والمحبة وروابط المؤاخاة الملازمة فى حروب المنازعات .

قال الملك : لى من الملوك الأقوياء العظماء والسلاطين المتوجين كثير ، الذين لا يبيحون التقصير فى إنعاش حالك وارتياشه عند

(١) الترجمة الحرفية : الترب الذى فى البطن .

مضايق الحاجة ومصارع الآفة ، ولا يمنعون مدد الإعانة والإغاثة فى وقت الشدة ، غير أن لى صديقاً فى خراسان ، ساح فى الدنيا ورأى الناس ، مجرباً للأمور ، محمود الأخلاق ، محبوب الخصال وفياً رحيماً ، موصوفاً بأصناف العلوم ، موسوماً بأوصاف الفضائل .

فلو رغبت ، أوصلتك به ، وأوكلت أمرك إلى كفايته فى مهمات الحوادث وملمات العوارض .

قال الأمير : إن أقسام الصداقة متشعبة ، والأصدقاء متباينون ، فالبعض منهم طامع فيك حتى توصله إلى هدفه ، فإن لم توصله ، أعرض عن تلك الصداقة ، أو ربما يوصلها إلى العداوة مثلما حدث من ذلك الطامع مع « نوخرّه » فقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الرجل الطامع مع نوخرّه

قال الأمير : سمعت أن ملكاً فاضلاً ، محباً للعلم ، لبقاً كان فى بلاد الشام ، وكان له - من بين ندماء حضرته - نديم يدعى نوخرّه ، وكما هى عادة الزمان ، فبالرغم من أنه كان متأخراً عن الجميع أهلية ؛ إلا أنه تقدم على الجميع برتبة القبول .

وذات يوم سعى لخدمته شخص باش الوجه ، جميل المحيا ، ظريف ، مرح ، عذب الحديث ، ذرب اللسان ، لطيف المعاشرة ، جدير بمجالسة الملوك ، وقد جاء برغبة صادقة وشوق غالب من إقليم بعيد على شهرة محاسن ومكارم الملك ، حتى يجد مكاناً فى ظل هذه الدولة ، ويبقى محروساً مصوناً فى جوار مأمون من آفة الحوادث .

أُريدُ مكَاناً مِنْ كَريمٍ يَصُونُنِى　　　وإلاَّ فلِى رِزْقٌ بِكُلِّ مَكَانِ

ونزل على « نوخرّه » وأظهر تمام الصدق فى مصاحبته ، وعاش سنة أو سنتين من عمره عيشة آمنة ، وأمضى الوقت فى ملازمته ومصاحبته ، وكان دائما مايصرح فى معاريض حديثه قائلاً : إن مقصودى من هذه الصداقة هو التوصل ، لأننى أبحث بواسطتك عن مكان فى بلاط الملك ، والتوسل هو طريق إدراكى هذا الغرض ، فربما أنال شرف خدمته بواسطة اهتمامك ، وأنضم إلى زمرة الحاشية والخدم .

وكان « نوخرّه » يسمع ، ويظهر التغافل ، وعندما مرَّ عام ولم يفد ذلك السعى ؛ يأس الرجل الطامع منه ، وتركه ، فأضرم النيران فى حط المنة ، وأطلق لسان الهجاء[1] والوقاحة قائلاً :

دَعوْتُ نَداكَ منْ ظَمأ إليه ... فَعنَّانى بقيعتكَ السَّرابُ
سَرابٌ لاحَ يُلمَحُ فى سِبَاخٍ ... وَلاَ مَاءٌ لَدَيه ولا شَرابُ

لقد أصير شمسا لظلك فيا صديقى : لا تجعلنى يائساً هكذا

ثم كتب للملك القصة كلها من رأس غصة عبنه (يقول فيها) : إن هذا « النوخرّه » - حاشا للسامعين - معلول بعلة من العلل

(١) نجد هذا المعنى عند الشيخ سعدى الشيرازى فى حكاية « الملك والأسير » وقد استشهد فيها على هذا المعنى بقول الحكماء : كل من يغسل يده من الحياة يقول كل ما فى قلبه .
وكذلك قوله : إذا يئس الإنسان طال لسانه * كسفور مغلوب يصول على الكلب
السعدى الشيرازى : كلستان ؛ ترجم د . أمين عبد المجيد بدوى ص ٥٧ ط المركز للصحافة سنة ١٩٨٣

المشهورة التى يأمر أطباء هذا الزمان (بسببها) بعزله ، وتجنب مجالسته ومؤاكلته .[1]

وعندما قرأ الملك القصّة أمر بألا يدخلوا « نوخرّه » على حضرته مرة أخرى ، وأن يبعدوا عار حضوره عن القصر ، ومن ثم عندما جاء « نوخرّه » إلى باب القصر وضعوا يد المنع على صدره فرع وربط حجر الصبر على قلبه لمدة عام ، يعانى فيها الحرمان من سعادة التقرب وهجران بلاط الخدمة ، وكان يختبر نقد عناية الملك على حجر الثبات حتى يفهم السبب الأصلى الموجب لإبعاده ، وكيف أحكموا رسم خريطة الوشاية فى حقه .

وفى النهاية عندما اطلع على حقيقة الأمر ، أحضر جمعاً من ثقات وأثبات المُلك ، وأمناء وجلساء السلطانية الذين كانوا محل اعتماد الملك ، ونزع ملابسه أمامهم ، وأظهر لهم كل أعضائه فلم يروا علمة نقصان فى أى مكان على الإطلاق .

فنقلوا حكاية الحال إلى الملك ، وأطلعوه على المكيدة التى كان العدو قد دبرها فى حق « نوخرّه » حتى رفع الخيال الذى كان قد وضعه أمام خاطره ، وصار الغرض الذى تولدت مادة هذا الفساد من أجله معلوماً . غير أن الملك قال : لقد صدقوا عندما قالوا : « عندما تضرب الطين على الجدار ، يبقى أثره محالة حتى لو سقط » ، وإننى عندما أشاهد « نوخرّه » أتذكر فيه هذه التهمة ، وتظهر النبوة والنفرة

(١) إشارة إلى الأمراض المعْدية التى يأمر فيها الأطباء بعزل المريض ، حتى لا ينتشر المرض ، وهذه الإشارة خاصة بعلم الطب . انظر : د مهدى محقق ، السابق ص ١٨

منه فى طبعى . فيجب محو تلك الكراهية بتمام التمحل « وإذا احتاج الزِّقُّ إلى الفَلَكِ فقد هلك » [1] ثم أمر أن يرسلوه إلى منطقة نائية ،

وَمَا بكَثيرٍ ألفُ خِلٍّ وَصَاحبٍ   وإنّ عَدواً واحداً لَكَثِيرُ

وقد قلت هذه الحكاية حتى يعلم الملك أن صداقته لو كانت من هذا القبيل فلا حاجة لنا إليها ، قال الملك : إن صديقى صاف من شوائب الأغراض والأطماع ، وهو فى طريق الإخلاص مثلما قال الشاعر :

الذى إنْ حَضَرتَ سِركُ فى الحى   وإن غِبْتَ كَانَ أذْناً وَعَينَا

قال الأمير : هناك نوع آخر من الصداقات بين الأقارب والعشائر ، ومثل هذه القرابة تفضل كثرة المال والجاه - مثلاً - على القرابة ، فالناقص فى المال يريد السيطرة على الكامل ، والكامل يريد أن يزيد فى نقصان الناقص « وما النار للفتيلة أحرق من التعادى فى القبيلة » [2] حتى ينهض كلاهما بالعداوة للآخر ، وينتهى الأمر بالمناوءة والصراع مثلما وقع بين ملك بابل والأمير ، فقال الملك:كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) صفة الفلك جمع فلكة المغزل فحرك للازدواج ، ويضرب لكبير يحتاج إلى الصغير . الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ١ ص ١٠٣

(٢) ورد فى مجمع الأمثال : ما النار فى الفتيلة بأحرق من التعادى فى القبيلة . الميدانى ، مجمع الأمثال ؛ جـ ٣ ص ٢٩٣

حكاية ملك بابل مع الأمير

قال الأمير : سمعت أن ملكاً ببلاد بابل ، كان له ولد صغير . وعندما أمسك فتقاضى الأجل بتلابيب وذيل أمله ، واقترب وقت نزول القضاء ، ونَقْله من دار الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية ، دعا أخاه ، وأوصاه بأنَ يقوم مقامه فى أمر السلطنة ثم جعل مُولًى وموصّى فى ترقيح حال الملك وتمشيته ، وترشيح الولد وتربيته وقال له : إننى أسلمت لك زمام القبض والبسط ، وعنان التولى والتملك فى مجارى أمور الملك ، وهذا مربوط ومشروط بشرط هو : أن تقيم ولدى على الملك إذا بلغ مربية البلوغ والدراية ، ونهض له حكم التحكم وقيد الولاية ، وظهر عليه إيناس الرشد والتهدى ، ثم تطيعه وتذعن لأمره ، ولاتظن أن حكمه عليك من باب الظلم والإجحاف ، فتظهر التأبى على طاعته .أما إذا أمرك شيطان الحرص بوسوسة الخيانة أن تهتك ستر الديانة ؛ فاجعل خطاب الله عز وجل « **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** »[1] نصب عينيك ، وأخذ على ذلك عهداً أكيداً وميثاقاً غليظاً ، ومات الأب ، وبلغ الولد رشده ، ووصل إلى مقام المزاحمة على الملك والمطالبة به ، وكان عشق السلطة قد أخذ بمجامع الملك ، وملك عليه ثلاثمائة وستين وريداً ، واختلطت لذة السلطة بمذاق الطبع تماماً ، وفكر فى نفسه قائلاً : إن هذا الولد قد أخذ مرتبة الأبوة وحصل على الخبرة والدربة ،وسوف ينهض عن قريب لاسترداد حكم المملكة ، ثم يستقر عشق الاستبداد فى عقله فإذا واجهته ودافعته حينئذٍ فسوف يتحاشانى رؤسا ء المملكة وقادتها فى

(١) النساء / ٥٨

أطراف الولاية وحواشيها ، ولن أستطيع - بأى حيلة - أن أجعلهم متفقين ومتحدين .

ومن ثم فالحيلة هى ألا أكون متهماً بهلاكه ، ومن هنا اجتث مشكلة وجوده من طريقه .

وذات يوم خرج قاصداً الصيد ، واصطحب الأمير معه أيضا ، وعندما وصلوا إلى منطقة الصيد ، وتفرق الجنود فى كل ناحية ، بقيا فى موضع خالٍ فأنزل الأمير عن فرشه ، وانتزع بيده عينيه اللتين تريا العالم ، ثم عادّ من هناك .

وبرغم أن عين السكين الظاهرة قد كـفَّت عن مطالعة عالم المحسوسات ، إلا أنه كان يقرأ بعين الباطن صحائف أسرار القدر ، وكان يرى شرح صنعة القدَم على يد إعجاز عيسى بن مريم ، وكان يسمع بسمع العقل « وأبرِئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى »[1] من خلف ستر ممكنات القدر ، ويقول :

ولاتَيْـاسنَّ منْ صنُعِ رَبِّك إنَّنى ضَمينٌ بأنَّ اللهَ سَوفَ يُديل

ألَمْ تَرَ أنَّ الشَّمسَ بَعْدَ كُسُوفِها لها صَفْحَةٌ تُغشى العيونَ صقيلُ

والخلاصة أنه عندما شعَّ نور اليوم على أطراف العالم ، وطويت ستارة الليل على رواق الأفق ، وعقمت أم الليل عن إنجاب الفتنة ، وحمل الليل بنتائج التقدير ، وأظهر المنجمون ألواناً مختلفة من خلف

(١) آل عمران / ٤٩

ستر السماء ، كان ذلك المسكين يختفى فى زاوية مسكن حتى تحسس بيده شجرة ؛ فصعد عليها خشية الحيوانات المفترسة ، وأمسك فرعاً منها ، وجلس مترصداً واردات الغيب .

حتى ينظر ماذا يخرج الفلك من تحت الستر ؟

وفجأة جاء ملك الجن الذى يسكن تحت تلك الشجرة ، فى ذلك المكان الذى كان مهجع الجن ومجمعهم ، فجاء وجلس فى موضعه ، والتف جن العالم حوله ، حيث كانوا يمضون الليل فى المسامرة والمساهرة مع بعضهم البعض ، وكانوا يخبرونه عن مستجدات الأحداث ، ويكشفون له خبايا الأسرار فى أقطار وزوايا العالم حتى قال واحد من بينهم : كاد ملك بابل اليوم للأمير ، وأجاز لنفسه مثل هذا الغدر .

وربَّ أخٍ ناديتُه لملمةٍ فألفيتُه مِنْها أجلَّ وأعظَما

فقال ملك الجن : لو فقه الأمير ما لورق هذه الشجرة من خواصٍ ، لقطع ورقة منها ، ومسح بها على عينه فيبصر ، (وبالمناسبة) هناك فى الصحراء الفلانية نبات له جذور بهذه الصفة ، وهناك مقر لثعبان كبير ، تنين عندما يلتف حول نفسه ، يخرج سم النموسة من عقدة الرأس والذنب على المريخ وزحل [١] فهو الثعبان الذى أكل عصا

(١) يقال إن المريخ وزحل كوكبان من كواكب النحس ، فزحل يمثل النحس الأكبر ، والمريخ يمثل النحس الأصغر ، ويقولون إن إحدى صور الفلك على هيئة ثعبان برأس وذنب . انظر : د . مهدى محقق : السابق ص ٢٠ ، ٢١

موسى بدلاً من سحر ومكر سحرة فرعون [١] فطالع وادة ذلك الثعبان وذلك الملك واحد وقـد وقعا على نقطة تحرك واحـدة ، وعندما يصل الكوكب القـاطع إلى درجة طالعـه ، فإن هلاكـه (أى الملك) يكون جائزاً ، فلو استطاع الأمير أن يقتل ذلك الثعبان ، فسوف يكون مقتله وموت ملك بابل واحد .

وأن جـسـيمـاتِ الأمـورِ مَنوطةً بمسـتـودعـاتٍ فى بطونِ الأسـاورِ

وعندما سمع الأمـير هذا الحديث ، أخذ ورقـة من تلك الشجرة ومسح بهـا على عينه فارتد بصيـرا ورأى صورة القدرة الإلهيـة بعينى الرأس وقالك :

الحمد للخالق القدوس الذى جعل التراب ناطقاً مبطرا

وكان يردد مايسمـعه بأذن العقل « **من يحيى العظام وهى رميم** » [٢] ثم يتلو فى كل لحظة قوله تعالى « **قل يحييهـا الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** » [٣] .

وعندما ظفر بمثل هذه السعادة نقداً وفـوراً ، أسرع بتحصيل قرينة السعادة الأخـرى ، وعندما أماط قرص الشـمس عن فم المشرق سواد

(١) إشارة إلى قصة نبى الله موسى مع سحرة فرعون ، والتى أشار القرآن إليها فى أكثر من موضع ، ومن تلك المواضع سورة طه حيث يقول جل ذكره فيها « وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . . » طه / ٦٩

(٢) يس / ٧٨

(٣) يس / ٧٩

ثعبــان الليل ، هبط من فوق الشجـرة ، وذهب إلى مواطن الثعبان ، (وقـتله) ، فـأسـلم ملك بابل - فى الحـال - روحـه إلى قـابض الأرواح ، والملك إلى قبضة الأميـر ، ووصل جريح الحوادث (الأمير) إلى عاصمة الملك ومنشأ الدولة ، وجلس على عرش السلطنة .

وقد قلت هـذه الحكاية حتى تدرك أنه إذا كـانت محبـتك له من قبيل هذه المحبة ، فلا تسلمنى إليه .

قال الملك : إن حبتنا بعيـدة عن هذه المعانى ،قال الأمير : هناك نوع آخـر من هؤلاء الأصدقـاء الذين إن نزل بهم بلاء ، يطلبـون نجاة أنفسهم بابتلاء الأحباب ، مثلما فعل ذلك الحداد مع المسافر .

قال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الحداد والمسافر

قال الأمير : سمعت أنه فى وقت مـا ، جاب مسافر بساط الدنيا وطوى بساط الخافقين .

أخـو سفـرٍ جوابِ أرضٍ تقـاذفَتْ   به فَلواتٌ فَـهُـو أشـعثُ أغـبـرُ

وذات يوم وضع القدم فى ركاب السير ، ولوى عنان العزيمة إلى قصد من المقاصد ، فوصل إلى أطراف قـرية ، فرأى هناك بئراً عميقاً مظلمـاً كليل مـولد المحنة المدلهم ، أسـود من دخـان وقود دركـات السعير ، قيل : إنهم وضعوا فـيه كل الحجارة (التى طحنتها طاحون الفلك) وأُنزل فيه كل الوقود الذى كان فى مـوقد جهنم . فهو مظلم مثل رأى الجهلاء ، كالح مثل وجه السفهاء.

وكان قد وقع فيه شيطان ، واجتمع عدة أطفال حول حافته مثل الشهب التى ترجم الشياطين ،وأخذوا يلقـون الأحجار على رأسه مثل الأمطار . والعفريت المسكين أسير فى قـعر تلك المغارة كالعفريت فى قمقم السحرة .[1]

فقـال المسافـر فى نفسه : بـرغم أن العفريت من أشـرار خلق الله ، وكان يلقى مـائة ألف سالك لطريق الحقيـقة فى بئر الظلام وغـار الخيال ، فيضعـهم فى يد غلول الاغتيال ، إلا أن العفـو عن المجرم الذى لم يفعل جرماً خاصا ، ورحمـة المسئ الذى لم يلحق سوءه بك ، أمر مقبول لدى العـقل ومحـمـود فى العرف ، حينئـذ جاء مثل ملاك الرحـمة على رأس البئر ، وأنقذ الشيطان وخلصه من حفرةّ العذاب .

فتعـجب الشيطان من مبـاينة الطين ومنافاة الطبيعـة التى بين الشيطان وبنى آدم ،

لقد رقَّ لى حتَّى النسيمَ على السُّرى وسـاعـدَنى بالشـجـوِ وُرقٌ تَنَغَم
فَمِنْ غيْـرِ مَأْلُوفٍ تَعَاطفُ مُـسْعدٍ وَمن غـيـرِ جنسٍ رقـةٌ وَترحم

وقال أيها الأخ إنك عندما أظهـرت هذا الفضل ، وقدمت بوجه هذه المروءة والفتـوة ، وأوجدت صـداقة بين العفـريت والناس بالرغم من أن ذلك ممتنعاً لدى العقلاء كمزج الماء والنار .

(١) وضع العفريت فى قـمقم نوع من السحر الذى يأتى به المشعوذون مـحمد روشن ، مرزبان نامه جـ ٢ ص ٦١١

وأنا بدورى سأقوم الآن بشرط الوفاء ، لأننى اعتقد أن جزاء هذا الاحساس فـرض على . فيجب عليك إن رأيت نفـسك أسيراً - ذات يوم - فى شـرك مثل هذه الداهيـة ، أن تجرى اسمك على لـسانك ، حتى أتيك فى الحال ، وأخلصك من تلك الآفـة ، ثم مضى العفريت من ذلك المكان ، وانطـلق المسافر إلى الطـريق حتى وصل إلى مدينة « زامهران » ، وكان له صديق حداد فيها ، فنزل فى بيته بحكم الدالّة والصحبة السابقة .

وكـان من عـادات تلك المدينة أنه فى يوم مـعين من كل عـام ، يجعلون الغريب الذى يصل إلى المدينة قرباناً ، وإن لم يجدوا غريباً ، يصير كل من تقع عليه القرعة من أهل المدينة بدلاً من الغريب .

وفى هذا اليوم كـان الحداد هو هدف سهم البـلاء ؛ لكن عندما رأى الضيف ذهب إلى باب قصر رئيس الشـرطة ، وأخبر ذوى الشأن عن وصوله ، فـجاءوا وأخذوا الضـيف إلى ساحة الإعـدام ، ووجد المسكين نفسه متورطاً حتى عنقه فى طين المحنة .

وأخيراً تذكر مواعدة العفـريت ومعاهدته ، فأجرى اسم العفريت على لسانه ، فكشف العفريت حجاب الاخـتفاء عن وجـه ، وحضر ، وعرف مزاج الحال ، وعلم ما هو وجه العلاج .

كان لملك هذه المدينة ولد هو عين مصـباح العالمين ، وكان الأب يرى الدنيا بعينيه ، فدخل الشـيطان فى جسمه فى الحال ، وجرى فى مجارى عروقه وأعصابه ، وصار سرٍ حديث « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم » واضحاً . وخرّ الولد فجـأة من ستر العافية مثل المجنون ، وأتى بحركات قبيحـة وهذايانات مشوشة من القول والفعل

كمن يتخبطه الشيطان من المس[1] وكان العفريت الخناس يتردد مثل كنّاسٍ فى تجاويف قناة أعضائه ومنافذ جوارحه ، فتارة كان يجلس على صوره مثل الوسواس ،[2] وتارة كان يغلق الطريق على صُعداء الأنفاس ، وأخرى كان يقع مثل الخيال فى الرأس ، وكان يطفأ مصباح البصيرة فى زجاجة الفطرة .[3] حتى إن إنسان العين - فى الشبكية الزجاجية - كان يرى جميع الأشياء تمويهات باطلة ، وتارة يحيك براجمه وأنامله فى حبل التشنج ، وأحياناً يضع عذاب الألم فى كل فصوصه ومفاصله ، حتى كان الخوف يقطع حبل أوتار وأربطة القلب من شدة التقلصات ، فيتقاطر دم العضلات بدلاً من فضلات العرق من مسامٍ وفوهات العروق .

فاجتمع الجيش مع الرعية ، وجلسوا فى مأتم ، حتى يعلموا ما موجب حدوث تلك الحالة ، وكيف صار مثل هذا الغلام الملائكى الصورة عفريت الصفة ؟

وأصبح كبد الأب محترقاً من حزنه على فلذة كبده ، فبكى دماً صافياً بدلاً من الدموع ،وعجز عن حيلة فى أمر الولد ، فاستدعى الأطباء الحاذقين والمداويين المحققين ، فيأمر كل

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . . . » البقرة / ٢٧٥

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس » الناس / ٤ ، ٥

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : « . . . . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة . . » النور / ٣٥

واحـد منـهم بعلاج بمقـدار علمه ، فلا يفيـد ، وعندما وصل الأمر إلى حد الصعـوبة ، وبلغ حزن القلوب النهاية ، صـاح العفريت من داخله : إن شـفاء هذا المعـلول مرتبط بخـلاص ذلك الرجل الغـريب الذى حُبس للقـتل دون سبب . فأمـر الملك فخلصـوه من السجن ، فخرج العفريت من جسمه ثم قال للغريب المسافر .

لقد جئت لأمرك هذه المرة « وإن الكذوب قد لا يصدق » ، لكن لا تأمل فى خير منى بعد ذلك ، واعلـم أننى برغم خروجى من البئر برسن اعتـمادك واعتـصامك ، لكنه لا ينبغى لابن آدم أن يصـعد من البئر برسن العفريت « وما كنت متخذ المضلين عضدا » .[1]

وقد قـلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه لـو كانت صحـبتك بـهذا الرجل الخراسانى من هذا النوع ، فاحترس من توصيته بى .

قال الملك : لقد سمعت كل ما قـررته ، وتحرير ذلك جدير بأن يسجـل فى أعاجيب أسمـار الأعـتبار ، أما الموالاة التى بيننا ، فهى لا تتلوث بهذه العلل .

قـال الأميـر : تلك صداقـة أخرى تنهض عن هواء الطبـيعـة ، ومقـتضاة الشهوة ، وهذه الصداقه تقبل الفتور لأدنى سبب ، ويمكن أن تنتـهى بالقطيـعة الكاملة ، مـثلما حـدث بين البطة والثعلب ، فـقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) الكهف / ٥١

حكاية الثعلب مع البطة

قال الأمير : سمعت أن زوجاً من البط قد اتخذ بيتاً على شاطىء جدول ، واتخذ ثعلب مسكناً في مجاورتهم ، مرض الثعلب بعلة داء الثعالب فصار ضعيفاً وهناً ، وسقط لحمه وشعره ، وتعلقت الروح بشعرة لا وجود لها « كخرقة بالية بالت عليها الثعالب » ، فسقط فى زاوية المنزل ، فجاءت سلحفاة لزيارته ذات يوم ، وشغلت نفسها بأمره والبحث عن سبب علته . ثم قالت له : إن كبد البطة مفيد فى مداواة هذه العلة ، فإن استطعت الحصول على قطعة منه لأصبح نافعاً جداً لإزالة هذه العلة .

ففكر الثعلب فى نفسه : إن كيف أحصل على كبد البطة ؟ فلحم ذلك الطير أشد تعذراً عليّ من لبن العصفور !! فلا حيلة إلا أن أجلس على حافة هذا الشاطىء واترصد حضور تلك البطة كيما أشدها بواسطة الإغراء فى شرك الاحتيال .

وذهب بهذه الفكرة إلى هناك فتصادف أن وجد بطة هناك ، فدلف إليها على سبيل المناصحة ، فبدأ بالملاطفات على عادة الأصدقاء الصادقين المهمومين المشفقين ، وقال لقد ارتاح قلبى كثيراً لمجاورتك ، فلقد رأيت فيك المهارة وحلاوة المعشر ، ووجدتك فى إدارة البيت وشئونه نظيفة الطرف أريجة العرف دائماً . كما علمت أنك قائمة بحقوق زوجك ؛ لكنى سمعت - اليوم - أنه قد أبعد القلب عن عرش محبتك ، وأرسله لخطبة من هى أحب إليه ، وضرب بحلقة الرغبة باباً آخر ، فصرت بهذا بالنسبة لزوجك مثل مفتاح على الطاق (بلا فائدة) ، وحلقة على باب مانى ، ومن ثم عندما يراها ، فلن يلتفت إليك مطلقاً ،

إن من يجعل التفكير فيك توأم روحه ، يضع كل من سواك على الطامة مهملا .

وقد أبديت لك هذ المعنى حتى تعلمى جيداً ،

أنت عـينى وليس من حق عـينى غض أجفانهـا على الأقـذاء[1]

فـعنـدما سـمـعت البطة هذا الكلام منه ، تـألمت قليلاً ، لكنهـا قالت : إن الحق جلّ وعـلا جعل النساء فى أمـور المعاشرة محـجورة بحكم الازواج مجبورة على طاعتهم ، كـما قال عزّ من قائل « الرجال قوامـون على النساء » فمـاذا عساى أن أفـعـل وزنا بدورى - وفق أحكام الشرع - يجب أن أضـع أذنى فى حلقة الانقيـاد له ، وأن أكون وفق رغبته .

فقال الشـعلب : أحسنت القول ، ولكن لو تفضلين عليه آخـر كما فضل عليك أخرى فلا ضير .

أما وقد صار عيار جانبه معك مغـشوشاً ، وميزان رغبته فيك مائلاً نحو أخـرى ، يلاحظها بعين القلب ، ويـلقى بالمحافظة على حـقوقك خلف ظهره ، فليتك تشيمين بوجهك عن موافقته ، وتقطعين حبل تلك الألفـة والزوجيـة الذى ربطك بزوجك لا يشـيرون إلى شـبيـه له على الأرض ، وقد قيل « النار ولا العار » .

(١) البيت لابن الرومى من قصيدة له يعاتب فيها أبا القاسم التوزى الشطرنجى ، ومطلعها :

يا أخى أين ريع ذاك اللقاء أين ما كان بيننا من صفاء

إبراهيم عبـد القادر المازنى ، ابن الرومى : حيـاته وشعره ، شكل بحـثه واختار شـعره كمال أبو مصلح ص ١٢٥ ، ط المكتبة الحديثة بيروت سنة ١٩٨٧

فى الذى يستعـدى جور الضداد الفجائى ، والصبـر على مضرة الضرائر والعيش مع الرفاق السفلة الخائنين على خلاف الطبع ،

فِي طَلَعة الشَمسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحلِ[1]

فقالت البطة : كل ما تقوله قضـية وفاق ، هو منك نتيجة الكرم والإشفاق ؛ لكن الـرجل مباح له فى عقد الزواج حـتى أربع نساء ، وهو متمـسك فى هذه العزيمة برخصة الشرع « فـانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »[2] وهو رجل عاقل بعيد النظر صافى الرأى ، وهو من العالمين بسر إشارة « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة »[3] . وإن لم تعلم إمكـانيـة الجمـع بين الضـدين ، والتـزام طريق العـدالة والنَّصَفه ، وما لم تثق فى موافقـتنا وفى استقامك فاطرح هذه الفكرة جانـباً ، فـبإمكانهم ضـرب كلتا يدى أشـجع الشجـعان بالسـيف ، وبإمكانهم شرب كأس مزدوجـة بالمزاج القوى ، أما من لا يقوى على محاربة نفسه ، لا يحارب خصمين ، ومن لا يكون جسوراً فى مجال السباحـة لا يربط جرتين على رجليه فى مـعبر نهر جيـحون ، وعلى

(١) هذا المصراع هو شطر بيت للمتنبى من قصيدة مطلعها :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل   دعـــا فلـــباه قبل الركـــب والإبـل

أما البيت فهو :

خذ ما تراه أودع شيئا سمعـــت به   فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

المتنبى ، الديوان بشرح البرقوقى جـ ٢ ص ٦٣ ، ٦٨

(٢) النساء / ٣

(٣) النساء / ٣

سبيل المثال لو جاءت - من يجعلها قرينتى - بمضادات الأقران وسلكت معى طريق الظلم والتحامل فإنى أرى تحمله واجباً ، والتحلى بالمثل « إذا عز أخوك فهن » .[1]

فقال الثعلب : عندما لا يفيد التعريض والتلويح ، ينبغى أن تقال حقيقة الحال صراحة ، يجب أن تعلمى أن هذا الزوج يتهمك بأنك تميلين إلى شاب آخر أكثر نضارة منه ، وهو يتخيل أنك استوليت على قلبه ، ومهما أبديت له طهارة عرضك ، وحاولت إزالة خبث تلك الصورة دون جدوى ، فإنه كما قيل :

إذا سَاءَ فِعلُ المرءِ ساءت ظُنُونُه   وَصَدَّقَ ما يَعْتَادُه تَوَهُّمِ

ثم وضع (الثعلب) حطبا آخر من هذا النوع كل ساعة تحت نار طبيعتها ، إلى أن صبَّ كثيراً من زيت الحيل واللطافة على الشمعة حتى صارت لينة ورضيت ،

شيئان يعجزُ ذُو الرئاسةِ عنهما   رأىُ النساءِ وإِمرةُ الصبيانِ
أما النساءُ فميلهنَّ إلى الهوى   وأخو الصبي يجرى بغير عَنَانِ

(١) قال أبو عبيد : معناه مياسرتك صديقك ليست بضيم يركبك منه ، فتدخلك الحمية به ، إنما هو حسن خلق وتفضل فإذا عاسرك فياسره .

وكان المفضل يقول : إن المثل لهذيل بن هبيره التعلبى ، وكان أغار على بنى ضبة فغنم فأقبل بالغنائم ، فقال له أصحابه : أقسمها بينا ، فقال : إنى أخاف إن تشاغلتم بالاقتسام أن يدرككم الطلب ، فأبَوا ، فعندها قال : إذ عز - أخوك فهن ، ثم نزل فقسم بينهم الغنائم ، وينُشد لابن أحمر :

دبيت لها الضراء وقلت : أبقى   إذا عز ابن عمك أن تهونا

الميدانى : مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٤ .

ثم قـالت : أيها الأخ إن مـا تفـضلت به ، إنما تقـوله من باب الشفقـة ، والتدين ، ورقة القلب والرحمة ، وأنا أرى مـخايل صدق هذا الكلام على شمائل زوجى ، وأنا أعرف مـقدار صداقتك المخلصة وحسن مـعاملتك ، وأعلم أن شـوائب الخيانة بـعيدة عن مـشارع.[1] ديـانتك ، وأنك لا تفعل إلا ما هو من مـقتضى الوفــاء والأمــانــة « والرائد لا يكذب أهله » .

والآن قل لى : بأى وجـه يكون خـلاصى منه ميـسـراً ؟ فقـال الثعلب : لقد أحضروا لى نبتاً من نباتات أرض الهند ، يسمونه موت البط ، فـإذا أعطيتـه منه حصل مـقصـودك ، فامـتنت البطة لذلك ، وأغراها ذلك النبات وكأنه سكر ، وذهب الثعلب حتى ينجز ما وعده فغاب يومين ، ومكث فى منزله ، ولحظة فلحظة تزداد بواعث الحرص فى البطة على مجىء الثعلب وإحضاره للدواء .

كباحثٍ مُديةٍ فِيها رَدَاه

ثم نهضت وذهبت إلى بـيت الثعلب ، حتى تعلم مـا هو سبب تقاعده عن مزارها وتباعده عن مـهد ملاقاتها ، وبأى مانع تخلف عن الوفاء بوعده السابق ؟ وعندما وضعت قدمـها على عتبة الباب ، وجد الثعلب المكان خالياً والفرصة مواتيـة ليفتح على روحها كمين الغدر ، فـمـزق كبـدها وصـار من المعلوم أن كبـد البط مـثل جناح الطاووس وريشه ، وبدأت حياته من منبع مماتها ،

(١) مشارع جمع مشرعة ، والمشرعة هى مورود الماء . المعجم الوسيط .

لو كنتُ أجهلُ ما علمتُ لسرني جَهلى كما قَد ساءنى ما أعلمُ
الصعود يَغُر آمنا فى سِربِه حُبسَ الهَزارُ لأنه يَترنَّمُ

وقد قلت هذه الحكاية حتى يعلم الملك أنه لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الصداقة .

فقال الملك : يا بنى إن سبب صداقتى معه غاية الفضل وكفاية وغزارة العلم - والكياسة والخلال الحميدة والخصال المجربة فيه ، وقد اصطفيته على العالم بفضيلة العلم ، كما اختار ذلك الرجل التاجر

فقال الأمير : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية التاجر مع الصديق العالم

قال الملك سمعت أن تاجراً كان له ابن مقبل الطالع ، جميل الطلعة ، عالى الهمة ، يفوح كلٍّ الكون برائحة الرشد والنجابة من حركاته ، ويلوح لون العظمة والفراسة على وجناته ، وذات يوم قال له الأب ناصحاً : أى بنى إن كل الناس فى هذه الدنيا يحتاجون إلى كل شىء ، وعندما تنزل الدنيا مصيبة فالصديق هو الأولى بالنفع .

خذ ألف دينار من مالى ، وسافر ، وابحث لك عن صديق مخلص ، وطُف حول الأرض كالقمر عسى أن تعثر على صديق له سيرة المشترى فى منازل السير ، يمنحك السعادة بنظر المودة ، ومن ثم تجعله ذخيرة لعمرك ، وتجعله مفتاحاً لعقدة الحوادث ، وتحتفظ به كمرهم لجرح الأيام .

أخاكَ أخاكَ إنَّ مَنْ لا أخَا له كساعٍ إلى الهَيْجا بغيرِ سِلاحِ

ولا شبهة فى أن المراد من الأخ هنا هو الصديق الموافق ، والحبيب المخلص ، وإلا فما الجدوى من أخوة الأخ الصلبى الذى هو بعيد عن المحبة !! ولذلك قالوا « رب أخ لك لم تلده أمك ».[1]

أخذ الابن المال وذهب بأمر أبيه ، ثم عاد بعد قليل ، فقال الأب : فبالرغم من أن عادة الفجور بعيدة عن طبعك . ونزاهة خلقك بابتعادك عن دنس الفسق مشهورة ، إلا أننى أعلم أنك قد أنفقت المال فى غير مصارفه الصحيحة ، ومن ثم تراجعت بهذه السرعة عن هدفك ، وعُدت . والآن قل : كيف ضيعت هذا المال من يدك ؟ وكيف حصلت على الصديق ؟ .

قال الابن : حصلت على خمسين صديقاً ، لدى كل واحد منهم مائة ثقافة ، وهو صدر فى الدنيا ، وزان دِين نصيحتك من ذمة عقلى .

قال الأب :أخشى أن تكون قصة أصدقائك مثل ذلك الدهقان ، فقال الابن : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الدهقان مع ولده

قال التاجر : سمعت أن دهقاناً كان لديه كثير من العقارات والمال والضياع والمتاع الدنيوى ، وكانت مخازن الثروة مليئة بعقود النقود

(١) يروى هذا المثل للقمان بن عاد ، وذلك أنه أقبل ذات يوم ، فبينا هو يسير إذ أصابه عطش ، فهجم على مظلة فى فنائها امرأة تداعب رجلاً ، فاستقى لقمان فقالت المرأة : اللبن تبغى أم الماء ؟ قال لقمان : « أيهما كان ولا عداء » فذهبت كلمته مثلاً ، قالت المرأة : أما اللبن فخلفك وأما الماء فأمامك ، قال لقمان : « المنع كان أوجز » . . . ثم قال لها : من هذا الشاب الجالس إلي جنبك فقدعلمته ليس ببعلك ؟ قالت : هذا أخى ، قال لقمان « رب أخ لم تلده أمك » فذهبت مثلاً . الميدانى : مجمع الأمثال ، جـ ٢ ص ٣١ ، ٣٢ .

كامتلاء النهر إلى حافته بالماء ، وكامتلاء جيب المنجم بالذهب والفضة ، وكامتلاء البستان بالأزهار فى الربيع ، وكالغصن العامر دائماً بالأوراق فى فصل الخريف ، وكان دائماً ينصح ولده بالنصائح الطيبه المفيدة ، وكان يبالغ فى توصيته بالحفاظ على المال ، والمحافظة على دقائق الدخل والخرج وحسن تدبير المعيشة ، وفى مباشرة البذل والإمساك ، كما كانت الصداقة فى وصاياه بمثابة أول الكلمات فى القاموس ، وكان يعتقد أنها أهم المهمات ، وكان يقول :

أى بنى لا تبذر فى إنفاق المال حتى لا تندم بعد ذلك ، واختر الصديق عن طريق العقل حتى لاتصير عدواً للعقلاء ، واجتهد فى تحصيل العلم حتى لا تنفق عمرك فى غير فائدة ، لأن الدنيا بأسرها قاذورة وُضِعَت فى هذه القارورة الشفافة ، فإذا مانظر شخص بعين الاستقامة مَتأملاً فيها لعرف مزاجها ،ولعلم أن ما ينفعه فى عاجله هو الصديق ، وأن ما ينفعه فى آجله هو ذلك الذى لا زوال له وهو العلم .

تِلْكَ المكارمُ لا قُعبانَ من لَبَنٍ شِيبا بماءٍ فَعادا بعدُ أبوالا

وعندما مات الأب ، ترك كل شيء للابن ، فأطلق الابن يد الإتلاف والإسراف ، وبسط سماط الإفراط ومائدة مع جمع من إخوان الشياطين ،[1] فخسر فى أيام معدودة خسراناً بلا حدود .

وكان له أم عالمة ، حسنة الرأى ، بعيدة النظر فقالت له : احفظ وصية الأب ، ولا تضيع ما آل إليك عبثاً ، فإنك تعطى حينما لا يلزم العطاء ، فإذا لزم العطاء فلن يوجد ما تعطى ، ولا تعدن أىّ صديق

(١) إشارة إلى قوله تعالى « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . . »
الاسراء / ٢٧

صديقاً مـالم تختبر أوصافـه فى بوتقة التجارب ، ولا تتخـذه صديقاً حتى تعرف مما خضته من مماذقته.[1]

كثـيراً ما يكـون الصديق فى معـاقرة الشراب لـكن قل أن يوجد الصديق المشارك فى الألم .

وما أشبه عهد الجوعى الشرهين بمصباح الأرامل الذى لا زيت فيه .

فالشريف والوضيع كلاهمـا على علم بالوضاعة لكن أطلق كلمة الرجولة على من يستحق .

فظهـرت لدى الابـن من هذا الكلام رغـبـةٌ فى اخـتـبـار حـال الأصدقاء ، فذهب إلـى أحد الأصدقاء ، وقال على سبـيل الامتحان فى بيتنا فـأر يخرب كثـيراً ولا يقدر أحـد على دفعـه ، وفى منتصف الليلة البارحة ظفر على ملىء الهاون عشر مرات وأكلها جميعاً ، فقال الصديق : ربما كـان الهاون دسمـاً ولا يخفى حـرص الفأر على أكل الدسم ، فزاد اعتماد الابن على أصـدقائه لذلك التصديق الذى أبدوه ، وجاء إلى أمه نشوان ، وقال : لقد اختـبرت الأصدقاء ، فقد قلت خطأ جسيمـاً ، فلم ينشغلوا بالاستهزاء بى ،ولم يكذبونى حـياء وخجلاً ، وأخذوا كذبى على أنه صدق ، فضحكت الأم من ذلك الكلام .

وربَّما ضَـحك المكروبُ من عجبٍ   فالسنُّ تضحكُ والأحشاء تضطرب

ثم قـالَت : أى بنى إن العـقَل يسـخـر من هذا الكلام ، ولكن يجب أن تبكى على نفسك بألف عين ، لأنك لاتملك عين البصيرة ، حتى ترى وجه الصداقة والعداوة فى مرآة العقل .

(١) المماذقة فى الود ضد المخالصة (لسان العرب) .

إن الصديــق هو الــذى يصدق مــعك لا الذى يصــدق كذبك « صديقك من صدقك لا صدَّقك »[1]

ولأن الابن كان فى غاية الغباء والشـقاء قال : صدق من قالوا : لايجب اتخاذ النساء مكاناً للسرِّ ، أو إعطائهــن مقام الإصغاء فى كل الكلام ، وهكـذا ضـيع الابن كل تـراث الأب جـملة بريح الـهـوى والهـوس حتى وصله يومــه إلى ليل الإفـلاس ، وانقلب حاله فـمن ملبس الحرير والأطلس إلى ملبس الفقراء ، وأجلسـته ريح الفقر على تراب المذلة ، وذات يوم ذهب إلى ذلك الصديق نفسه وهو يجلس بين أصدقـاء آخرين ، وأخـذ يحكى أمره وهو مـضطرب ، فجـرى على لسانه أثناء الكلام « إننــى فى الليلة الماضية كـان لى رغيف على المائدة فجاء فأر وأكله كله » .

فقال ذلك الصديق - الذى كان قد ألبس مموهات أكاذيبه وترّهات أقاويله لباس الصدق وجعل القبـول على منزلتين لاستقبال الأباطيل - على سبيل الهزل : أيها الناس اسمعوا هذا العجب وانظروا هذا المحال كيف يستطيع فأر أن يأكل رغيفًا فى ليلة ؟ !

وقد قلت هذه الحكاية حـتى تعلم أن الأصدقاء يهـتمون باللقـمة والخرقة أكثر من اهتمامـهم بالحياء ، ويعلمون أن مالك هو منبع النفع

(١) « أخوك من صدقك النصيحة » يعنى النصيحة فى أمر الدين والدنيا ، أى صدقك فى النصيحة ؛ فحذف « فى » وأوصل الفـعل ، وفى بعض الحديث « الرجلُ مرآة آخيه » يعنى إذا رأى منه ما يكره أخبره به ونهاه عنه ، ولا يوطئه العشوةَ .

الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٦

والضرر ومطمع الخير والشرّ ، وعندما لا يرون إسعاد التوفيق معك ، ويعلمون أن الاستعداد الذى كان لديك قد فسد وزال ، جعلوا صدقك كذباً ، وكفروك ولو نطقت بجميع كلمات الإيمان .

وعلى سبيل المثال لو كان لديك إبريق مليئاً لطبعوا القبلات على فمه وشفتيه فإذا ما فرغ طرحوه أرضاً ،

ألستَ ترى الريحانَ يُشتمُ نَاضراً   ويُطرحُ فى الميضا إذا ما تَغيرا

يابنى إنى أخشى أن يكون أصدقاؤك - والعياذ بالله - من هذه الطائفة ، لأننى أفنيت ثمانين عاماً التى هى مدة عمرى فى تجربة أحوال العالم فى أمر الصداقة والعداوة حتى ظفرت بصديق ونصف ، ارتشفت فى سبيل ذلك كدرَ الأيّامِ وصفَوها . فكيف اتخذت خمسين صديقاً فى عدة أيام ؟ فتعالى إذن وأرنى أصدقاءك حتى أريك مقام كل واحد منهم ، وإلى أى مدى وصل فى مراعاة جانب الصداقة ومداراة رفقاء طريق الصحبة ، فاستجاب الابن .

وعندما أقبل الليل ذبح التاجر خروفاً ، ووضعه ملطخاً بالدم فى قطعة من القماش ، ولفّه فيها ، ووضعه على ظهر حمالٍ ، وجعل الابن فى المقدمة وأمره أن يذهب إلى باب أحد الأصدقاءً ، وينادى عليه من خارجِ البيت قائلاً : أن هذا رجلاً فى مشاهير رجال المدينة قد هجم على هذه الليلة وهو سكران ، وتعلق بى فضربته بالسكين فى فى مقتله ، فهوى صريعاً على يدى ، والآن وفى مثل هذه الوقائع توضع ودائع الأسرار أمام الأصدقاء ، وأتوقع منك أن تدفن هذه الجيفة فى التراب ، وأن تظهر ذيل أحوالى من دمه .

فمضـوا حتى وصلوا إلى باب قصر لصديق قـد عرفه ، ثم طرق الابن البـاب ، فخـرج الصديق ، وكـرر الابن الكلام مثلمـا تلقنه ، فأجاب الصديق : إن البيت ضيق علينا بسب زحمة العيال والأطفال ، فلا تكـاد تجد مكاناً تخـفيه فـيه ، ولى جـيران يبـحثون عن الـعيب ويطلبون العثرة ، فهم جميعاً مـشغولون بالغمز والنميمة علىّ . ومن ثم فالأمر ليس فى يد إمكانى .

فـرجعـوا ولم يضرب أحـدٌ يداً على صدر القـبول لهم ، وقـد طاشت كل أسهم التمنى .

فقال الأب : لقد اختبرتُ أصدقاءك ، وعلمت أنهم جميعاً مجرد نقش جدار ، وشـجرة شوك الخـيبة ، لا يحـمل غـصنها ثمراً لمنفـعة حتى يـطيبـوا بهـا الفم ، ولا تحمل أوراقـاً يلقى بظل الـراحة الذى يأوى المتعبين .

إذا كنـتَ لا تُرجي لدفعِ مُـلمـــةِ ولم يَكُ للـمـعـروفِ عنـدكَ مطمعُ
ولا أنتَ ممن يـســتـعــانُ بجـاهه ولا أنتَ يومَ الحـشـرِ ممنْ يشَـفعُ
فـعيـشُكَ فى الدنيـا وموتُك واحـدٌ وعــودُ خــلالٍ من وصـالـِك أنفعُ

والآن هيا معى حتى تختـبر الأصدقاء الرجال ، وذهبوا أولاً إلى باب النصف صديق ، ونادوا عليـه ، فخرج ، قال له التـاجر : انظر ماذا فـعل بى القضاء ؟ وماذا قـدَّم لى القدر ؟ لقد قُـتل شخص على يدى ، ولا أدرى حيلة لإخفاء ذلك سوى عرض الأمر عليك ، بل يجب أن تخفى كلينا (أنا والقتيل) حتى نرى إلى أين يصل خيط هذا الأمر ، وهذا التكرم والتفضل ليس غريباً عن كريم عهدك وحسن حفاظك .

قال النصف صديق : أنا رجل مفلس ، ولا أخشى من مؤاخذة الجناية ، ولن أبخل بهذا التنازل ، لكننى أملك بيتاً أضيق من قلب البخلاء ويد المفلسين ويمنع تزاحم الأطفال الصغار من الذكور والإناث وتراكم المتاع والأثاث من إمكانية اختفاء الاثنين ، أما لو جئت أنت ، أو أعطيتنى المقتول فهذا مقبول ،فضع واحداً من الاثنين مثل سواد البصر فى العين ، وسويداء القلب فى الصدر ، فقال له التاجر سأذهب وربما أعود .

فرجعوا ، وقال الأب للابن هذا هو النصف صديق ، الذى شرحت لك حاله ، فهيا بنا حتى نذهب إلى الصديق الخالص فضرب نقد ولائه على محك الاختبار ،فذهبوا ، وعندما وصلوا إلى باب قصره ، وأخبروه ، خرج الصديق من قصره وقد تهلل وجهه بشراً ، رابعاً لحزام السماحة فى أذيال العجلة ، متعثراً فى أذيال الخجل ، مستعداً لحقوق وزيارة الوقت المتأخر ، فألقوا عليه السلام والتحية ، وساقوا إليه حكاية القتيل وإخفاءه . فعندما سمع القصه ، وضع إصبع القبول على العين قائلاً :

ما لم تطرح كل شىء عندك وكل من هم لك ، فإن حديث العشق منك خطأ .

إن إصلاح أحوال الأصدقاء ،وترجيح جانبهم على جميع مصالح ومناجح آمال وأمانى هذه الدنيا واجب فى مذهب الفتوة وشريعة الكرم . أمّا الامتناع عن تلافى الخلل الذى يتطرق إلى شأن الأصدقاء فهو محظور أمام مفتى العقل ، وعندما لا يُنتفع ممن يُسَمَّون بالأخوة بعضهم من بعض اليوم فسوف يأتى ذلك اليوم الذى يفحص الحال

« يوم يفـر المـرء من أخـيه وأمـه وأبيـه »[1] ،حيث لا يمكن تصور أيًّ فائدة من أحد للآخر ، فلا يجب أن نجعل للخوف أو الانكسار طريقاً إلى الخاطر ، حتى لو قصـرت كل قوة البشرية عن كتمـان ما يقتضى الكتمان ،

فـلا أنا عـمًّـا استـودعـونى بِذَاهلِ ولا أنا عـمًّـا كـاتمونِى بفـاحصِ

إننى سأخـفى هذا المقتول تحت الأرض طيلة حـياتى كإخفـاء سر المعشوق عن الـرقيب ، وكإخفـاء نيـة المكيدة عن العدو ، وكاخـتفاء كل العمر فى سـتر التراب ،[2] أو مثلما يخـتفى سرًّ الأنجم والأفلاك عن العالمين .

وسـوف أخلى الحجـرة من حـضـور الأغيار ، كـإخلاء الجنة من الأشواك ، حـتى لا يشغلون مكان جلوسك ، ويظفرون بكل أسـباب الفراغ والراحة .

فعندما وجد التاجر لدى الصـديق كلَّ هذا الحب والبشاشة وكرم الضيافـة وحسن الشمائل ، صـدق معه فى حديثه ، ووضع مـقصود الأمر ومصـدوق الحال أمامه وقـا ل: اعلم أننى برىء من هذه الجريمة التى ألحـقـتـهـا بنفـسى ، والغـرض من هذا الاخـتبـار هو قـيـاس درجةصداقتك ، ومعرفة جـوهر ضميرك ، فعلمت إلى أى مدى أنت فى محاسن الأخلاق ومكارم الأوصاف !! وأظهرتها على هؤلاء الذين لا يعلمون . ثم نظر إلى الابن وقال : أى بنى ، إننى اخترت صديقاً

(١) عبس / ٣٤ ، ٣٥

(٢) كنايه عن اختفاء الإنسان فى قبره .

عالماً ، وارتقيت بمعيار الصـداقة عن طريق العلم ، وغربلت كل الدنيا بغربال الخبرة ، حتى عثرت على هذا الصديق المصطفى والمفضل .

لو كان العالم عدو روحك فهو أفضل من صديق جاهل

وأنا بدورى قد أرشدتك إلى ذلك الصديق ، حتى إذا تعلق دائن الحوادث بتلبيـتك ذات يوم ، اعتصمت بذيل عصمـته ، وجعلت رأيه فى مدخلات الأمور قـدوة لك ، وإذا ما وقع بينكم - أنتم الأخوة - مشكلة يكفى أن يمد يده لإصلاحها فيصفى موارد ألفتكم وأخوتكم من شوائب المنازعة .

يَـرى لـلـزائـريـن إذا أتَـوه ... حـقـوقـاً غـيرَ واهيـة عُـراها
إذا نَزلـوا بسـاحـتِـه يـراهُم ... قَـذًى فى عَـيْنِهِ حتَّى قَـضَاها

ثم انتقل الملك من دار الغرور إلى قـصر سرور الآخرة ، وخلف عرش الملك لأبنه الأكبـر والتزم كل ابن من الأبناء مقام توليـته حسب وصيـة الأب ، ونزعوا النفاق والشـقاق من بينهم ، حـتى بقى الأمر وفق الإصلاح بيـمن وفاقهم ، واستـقرت السلطنة عامرة ، واقـترنت البداية بالنهاية ، وبعد ، فلينظم الله تعالى حبات سلك أحوال العالمين برأى فـاتح العالم ، صـاحب العظمـة ، معين الإسـلام والمسلمين ، وليصن ولـيعصم - سـبحـانه وتعالى - غـرة حلاله من وصـمة عين الكمال ، وليمهد له بساط المكارم ، وليـجعل الله ذكر مآثره ومفاخره مخلداً . بمحمد وآله وعترته الطاهرين .

الباب الثالث

فيما كان من أمر الملك
أردشير والعالم مهران به

فيما كان من أمر الملك أردشير والعالم مهران به

قال الأمير : سمعت أن الملك أردشير الذى كان متقدماً على قدماء الملوك وعظماء السلاطين فى خصائص العدل والإحسان ولم تلد أم الأيام ولداً فى حكمته وعلمه . كان له فتاة حسناء ؛ حتى أن كل من ينظر إلى محياها يجرى على لسانه «ما هذا بشرا»[١] ، وكل من يرى لحظة من لحاظ دلالها يقول «أفسحر هذا»[٢] . فصورتها لا يمكن تصورها على لوح المخيلة ، وجمالها لا يُرى له نظير فى مرآة التصور.

روحها لطيفة وجسمها طاهر ، حتى تظن أنها ليست من عالم الأخلاط .

وجهها كبستان فى فصل الربيع ، لم يزرع فلاح سرواً يطاوله[٣]

وهى قمرية الوجه تختلس الشمس النظرة إليها من خلال فتحة فى خدرها ، أماً حارس عصمتها فهو زحل ، ومن ثم فلم يصل إلى طرتها سوى يد المشط ، ولم ير جمالها سوى وجه المرآة ، وقد احتفظ فرجها حتى الآن بخاتم العذرية ، ومازال عِذَارها الفضى مغطى تحت نقاب الصيانة .

(١) يوسف/ ٣١ .

(٢) الطور/ ١٥ .

(٣) البيت الأول لأبى القاسم الفردوسى : أبو القاسم الفردوسى ، الشاهنامه ، ط موسكو ، ج ، ص١٧٤ .

غزالٌ له مرعى من القلبِ مخصبٌ وظلٌّ صَفِيقُ الجانبين ظَليلُ
فكالشمسِ تَغْشَى الناظرين بِنُورها وليس إليـها للأكفِّ سَبيلُ

وعندما وصلت إلى مرحلة النضوج امتدت جواذب رغبة أشراف الملوك من شتى بقاع الأرض لخطبتها إلا أن طَرَف قناعها لم يلق بظله على أى رجل ، حتى طالت الأيام «والبيض قد عنست وطال جراؤها»[1]

وذات يوم قال الملك لها : أى بنيتى ، هل تعلمين أن الزواج زينة النساء ، وصون حالهن ، وزينة أيامهن ، فبرغم أنك ابنة فخر الأمهات والآباء ، فإن الإباء عن الزوج وإظهار الممانعة والرفض يبدو بعيداً عن الصواب فى هذا الباب ، كما أن طول مكث البنات فى بيوت الآباء يجعله مثل الماء الزلال الذى يمكث فى الإناء أكثر من المعتاد ، فيصير - لا محالة - نتن الرائحة ، وصاحب الشريعة الذى علم عاقبة حالهن عدّ الموت لهن أفضل من الحياة ، فقال صلوات الله وسلامه عليه «نعم الختن القبر» ،

كان سئ الطالع من كان له ابنة خلف الستر[2] ولو كان ملكاً متوجاً .

(١) الجرو : ولد الكلب ، وولد كل سبع ، ومن المجاز قولهم : جرو البطيخ ، والرمان، والحنظل : للصغير منها . والمراد هنا : أن رمان ثدى الفتاة قد كبر ، وتشبيه الثدى بالرمان موجود فى الأدبين العربى والفارسى بكثرة . انظر الزمخشرى ، أساس البلاغة مادة «ج.ر.و» وانظر محمد روشن : مرزبان نامه ؛ ج، ص٦٢٢

(٢) المقصود : عانس .

فالأولى أن ترضى بالزواج من الأمير «فلان» الذى لديه كفاءة الحسب والنسب ، فأريح خاطرى من التفكير فى همك. قالت الفتاة: «البنات محن والبنون نعم ، فالمحن مثاب عليها ، والنعم مسئول عنها».

فالأبناء نعمة ، ونعمة هذه الدنيا سبب الحساب والمؤاخذة، والبنات محنة ومحنة هذه الدنيا مظنة المغفرة والثواب ، ولابد للآباء من الصبر عليهن والمثابرة على شدائدهن من حيث العقل والشرع. وإمعان النظر فى تزويج البنت، واختيار الزوج هو شرط الولاية وحقها، أما الإجبار الذى أوجبه الآباء هو من قبيل كمال شفقة الأبوة وخبرتهم بدقائق طباع البنوة التى كانت باعثاً على الاحتياط والاستقصاء فى طلب مصالح البنات، غير أنه من الأولى عدم الزواج من الزوج غير المناسب للفتاة ، فالابن الذى لا يأتى الخير بمولده فإن الأفضل هو عدم مجيئه .

فإذا بحثت عن الكفاءة فى الملك والمال فهذا بعيد عن الكفاءة ولربما كان كفوى ذلك الشخص الذى لا ينظر إلى الدنيا الفانية ، ولايعتريه نقص فى خصاله، لأن المال مهما يكن كثيراً فى الدنيا، فهو فى معرض التلف وفى طريق سيل الحادث والوارث، كما أنه خال من المنفعة الحقيقية ، والنسب هنا بدون ضميمه الحسب لايدخل فى حساب العقل، كما أنه لاجدوى له فى الآخرة «فلا أنساب بينهم يومئذٍ»[1]

(١) المؤمنون/ ١٠١

فقال الملك : أنت أميرة وزوجك لابد أن يكون سليل الملوك ،

وَحُسنُ اللآلى فى النظامِ ازدواجها

قالت الفتاة : إن الملك شخص مسلط على نفسه غيْره

قال الملك : إذن فمن ذلك الذى يملك هذه الصفة؟

فقالت الفتاة : ذلك الذى يكظم غيظه ، ويسحق الطمع بقدم العقل ، وتطيعه نفسه ، بل ويعرض عن البحث فى عيوب الآخرين حتى لايبحثوا عن عيبه ، وحتى يكون آمراً لغيره .

ومن ثم ظل الملك فترة طويلة يسعى للتوصل إلى مثل هذا الشخص حتى دلوه على شخص مستجمع لهذه الخصال ومتحلياً بهذه الصفات ، نظراً لأنه أعرض عن زخارف الدنيا ونأى بنفسه عن الصفات الرذيلة التى تبدو مستهجنة من حيث العقل والحكمة . ولهذا صان نفسه ورأى فى العلم أساس السعادة الحقيقية ، وهو العالم «مهران به» الذى يقيم فى المدينة الفلانية ، فاستقر رأى الملك وابنته على أن يزوجها لهذا الشخص ، فأرسلوا له رسولاً ، فتمت الموافقة بين الطرفين ، وعُقد عَقّدُ زواجها ، وزفت من حجرة الصون والعفاف إلى بيت زوجها .

وعندما مرت عدة أيام سأل الملك عن حال ابنته وزوجها ، واستفسر عن مزايا وعيوب خلُقُ الزوج واحدة واحدة ، فعلم يقيناً أنه أكثر سعادة بالقياس إلى السعدين[1] ، وأعلى شرفاً من النيرين[2] فى

(١) ، (٢) السعدان : هما المشترى والزهرى ، فالمشترى السعد الأكبر والزهرة السعد الأصغر ، والنيران هما الشمس والقمر ، انظر د. مهدى محقق ، السابق ص٢١

أوجهـما ، وأن طعم وفاق كليهـما قد وقع على مـذاق الآخر . عند ذواق العسـيلة ، وأطلق الزمان عليهمـا بسبب تلك الموافقـة والمطابقة قولته «وافق شن طبقة»(١)

وذات يوم نهض أردشير بدافع من الشفقة وصلة الرحم ، وتوجه إلى منزل ابنته وسـألها عن حالهـا قائلاً : كيف تعـيشين مع زوجك؟ وهل طريق التعايش مقترن بالرضا من كليكما أم لا؟ فقالت الابنة: لم أر منه ومن عاداته وأخـلاقه إلا كل ما يرضينى ، ولم يَبْـدُ لى منه ما ينفرنى منه أو يـبعدنى عنه ، سـوى أنه يضع طعامنا وملبـسنا وفراشنا كله فى مكان واحد ، وهذا أمر بعيد عن الصواب والنظام .

قال الملك : هل ينصرف عن هذا الأمر غـير المألوف إذا التمستُ منه هذا؟ قالت : نعم .

حكاية الملك «أردشير» مع العالم «مهران به»

اختلى الملك أردشير بالحكيم مـهران به وطلب منه أن يفصل بين المأكـولات والملابس ، وأن يخـصص لكل مـأكـول أو ملبـوس مكاناً خالصاً .

= وقد يأتى استخـدام هذه الكواكب بغير هذه المسميات ، فتـأتى الزهرة باسم «ناهيد» والمشترى باسم «هرمز» يقول الشاعر :

بهاى لشكرش ناهيد وهرمز   به پيش لشكرش مريخ وكيوان

ادوار بروان ؛ تاريخ أدبى در إيران ، جلداول ترجـمه على باشا صـالح ص٦٧٢ تهران سنة ١٣٣٣ .

(١) يضرب للمـتوافقين ، وقد اخـتلف فى مورده ، ولم يختلف فى مضـربه الميدانى ، مجمع الامثال جـ٣ ص٤١٨ .

فقال الحكيم مهران به : اعلم أننى قد جمعت متاع هذه الدنيا فى مكان واحد وختمتها بخاتم القناعة فلو فرقتها ، فإن كل متاع منه يحتاج إلي مكان ومارس بمرتب ، ومن ثم يكثر عدد الأعوان ويصعب الأمر عليّ ، وأكون بذلك قد أيقظت ثعابين الشهوات النائمة والتى تسمى الحرص ؛ فتنفث سمومها القاتلة فى المكان .

قال أردشير : لا تفكر فى ضيق مقامك ومأواك لأننى أملك العديد من القصور الجميلة المزينة بمئات الآلاف من المرايا والصور ، والتى تشبه بيت رسام الصين. حيث أفنيتها الواسعة ، وأسقفها التى هى أعلى من نظر العقلاء، وحجراته مضيئة مثل رأى الحكماء، طروبة مثل وجه الأصدقاء . فاختر أيها شئت وانزل بما تطيب نفسك منها، وسوف أمنحك إياه ، حينئذ يفرشون لك الفرش اللائقة والجميلة، ويعدون لك الأطعمة والمأكولات الملائمة ، ويقف بين يديك الغلمان والخدم ، كلٌّ فى موقعه فلقد قالوا : - «إن الدنيا سعة المنزل وكثرة الخدم وطيب الطعام ولين الثياب».

وإذا ما احتجت إلى الجيش والمحاربين والأتباع ، فلسوف يُرتَّبُ لك ذلك عندما تطلب .

فقال العالم «مهران به» : - من المعلوم أنه عندما تحل صدمة هادم اللذات فإنها تجعل مقام الملوك وقصر الأكاسرة مثل بيت الأرامل، وعندما يحل الموت بقصر القيص فإنه يفعل به مايفعل بمأوى البؤساء والشحاذين . عندما تنزل مصيبة الموت فإنها تجد لها طريقاً إلى تلك العمارات الشاهقة مثلما تجد طريقاً إلى هذه الخرابة الحقيرة ، فالموت ينزل إلى ساحة قصر الطرب وفنائه ، مثلما ينزل إلى بيت الأحزان المحقر ، فلو رُفع بناءُ بيت إلى شرفات قصر زحل لجلست بومة

الخراب على سقفه ذات يوم. ولو وصلت سُقُفُ القصر إلى أوج الفرقدين ، ومفرق المرزمين، فسوف يتلو غراب بينِ الموت لحن ألم الفراق الخفيض «أين الزمير وما فعل السرير وأين الحاجب والوزير» ويقول :

يا منزلاً لعبَ الزمانُ بأهله طوراً يجودُ لهم وطوراً يمنعُ

أين الذين عهدتهم بكَ مرةً كان الزمانُ بهم يضرٌ وينفعُ

وقد حكى نفس الحال ذلك الصوفى الذى قال :

ملك لقمان كوخاً ضيقاً كأنه حلق الناى وصدر الربابة[1]

فألقى عليه فضولى سؤالاً : أى بيت هذا ذى الست والثلاث خطوات؟! فقال الشيخ بحسرة وبعين باكية : هذا لمن يموت كثير .

إننى حينما أعمر بيت الطين ، فقلبى حينئذ قارئٌ لـ «أينما تكونوا»[2]

أما المبالغة فى الاستلذاذ بالشراب والطعام والتنعم بالملابس والمفارش التى تعرضها ، فاعلم أن للنفس عنصرين غير مستقيمين هما الحرص والشهوة ، اسم أحدهما النهم وهو جالب للمرض ، واسمه الآخر «الغرور» وهو العجب بالنفس ، فلو حققوا للبطن ما تشتهيه كل يوم ما قنعت لأنها لاتعرف الشبع «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» ولو صرف العمر كله فى مصانع الأفلاك السبع لإعداد ملابس التبختر والغرور كى تتأنق به ، فإنها تلبس (النفس) وتطلب المزيد «والمؤمن لا يكون وباصاً ولا شحاباً» فلا بد من الإمساك بعنان

(١) هذه الأبيات وردت جميعاً - وإن كانت غير مرتبة - فى قصة لقمان للشاعر الفارسى سنائى تحت عنوان «فى ذم الدنيا الفانية وقصة لقمان» سنائى ، الحديقة ، ص٤١٦ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» النساء/ من الآية ٧٨

اختيــارهما حتى يمضيــا على طريق الاقتصاد الذى هو مــسلك سالكى طريق الحقيقة ، فلو تأملت جيداً ترى أن حراس كنز القدرة مقتصدون فى أمور المعيــشة ، ومن ثم فإنهم يضعون الـقدم على جادة الطريق ، ولن يجد ثـقب الزوال أو نقب الاحتـلال إلى كنزهم سبـيلاً «لا زلت غنياً ما دمت سوياً».

واعلم أيها المـلك أن لدى جيشـاً ونعمة أفـضل مما تملك أنت ، فقال الملك : كيف ذلك؟

فقــال مهران به : إن هذه النعـمة التى تملكها ، هل تبـقى معك عندما تنفقها؟

قال الملك : لا .

قال مهران به : هل تحتاج إلى حارس إذا أردت أن تودعها الخزينة؟

قال الملك : نعم .

قال مهران به : إذا تعرض لك شخص أقوى منك ، هل يستطيع أن ينتزعها منك؟

قال الملك : نعم.

قال مــهران به : هل تستطيع أن تحـملها معـك عندما تمضى عن هذه الدنيا؟

قال الملك : لا .

قال مــهران به : أيهــا الملك تلك النعـمة التى أملكهـا هى العلم والحكمة، أنفق أكثرها لنفع العبـاد ، ولا نقص بكثرة إنفاقى منها على الطلاب ، وليـست هنـاك حـاجـة إلى حـارس أو أمين على خـزانة

حــافظتى، ولا تصل يد متــغلب جــبار أو جــائر إليهــا ، ولايتصــور الانقطاع أو الافــتراق عنها وقت الـرحيل عن هذه الدنيــا وفى الآخرة تزداد ثمار نفعها كثيراً .

فقال الملك : هذا أفضل .

فقال العالم الزاهد : إن هذا الجيش الذى تملكه بإمكانه أن يطلب منك أشياء بلا حدود ، فإذا أنقصت شيئاً من رواتب نفقاته أو ضيقت عليه مجال الطمع هل يطيعونك؟

فقال الملك : لا .

قال مهران به : وعلى سبيل المثــال : إذا رأوا عدواً متغلباً عليك هل يمكن أن يفضلوه عليك، ، ويتحولوا عنك وينحازوا إليه؟

قال الملك : نعم .

قال العالم الزاهد مهران به : إن جيش الصبر والقناعة يطلبان أى شئ منى بوقت مـعين، وبحـدود معـينة، فـإذا كنت أملك هذا الشئ فأعطيتــهما شكروا ، وإن لم أكن أملكه فلم أعطهم صبـروا وفرحوا. ولو أن جميع أهل الأرض صاروا أعدائى ، ما عصونى ولا لووا عنان متابعتى .

قال الملك : هذا أفضل .

فقال العالم الزاهد : اغسل يدك من بخاسة وخساسة هذه الدنيا، وانثر التراب على رأسها .

ترجمة مصراع فارسى .

بل إنها لا تستحق ذلك التراب لأنك تمر عليه .

فماذا تفعل بصداقة من إذا عنيت بها لا تلتفت إليك ولا تشكرك وإذا ما ذممتها لا تملك لذلك رداً ، تعطى بلا سبب وتأخذ غدراً بلا عقل أو حكمة «تقبل إقبال الطالب وتدبر إدبار الهارب ، تصل وصال الملوك وتفارق فراق العجول. لا يجب أن يملّ في وفائها بالوعد الذى وعدت به ، ولايجوز توقع الثبات فى عقد الصداقة التى عقدته» .

أيها الملك لا تجعل لذلك الصديق المنافق - الذى له قلب عدو أعنى به الحرص والذى تنبت أسنانه فى المعدة - سبيلاً إلى نفسك، لأنه إذا ما داخلك فلن تكتمل غايته إلا بالقضاء عليك .

واعلم أن سطوته عليك أقوى من سطوة أى عدو تعرفه ؛ لأنه عندما يقهرك خصم تستطيع الهروب منه ، وإذا ما طلبت الأمان منه أمنك، وإذا قدمت له هدية على سبيل الاستعطاف تحول إلى صديق ، أما الحرص فإنه عندما يستولى عليك فلا مفر منه ولا مهرب ، فهو مثل الظل يأتيك من الأمام والخلف ، وإذا ما أخرجته من الباب أتاك من النافذة مثل الشمس. . وإذا صارعك فَصحت أو صرخت كثيراً لا يتركك أو يرجع عنك ، فإن لم يهلكك عاد إليك مثلما فعل بالشركاء الثلاثة.

فقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية؟

حكاية الشركاء الثلاثة قاطعى الطريق مع بعضهم

قال العالم الزاهد : سمعت أنه فى وقت من الأوقات ، اشترك ثلاثة صعاليك من قطاع الطرق مع بعضهم ، وظلوا عدة سنوات ينصبون الفخاخ على مدراج طرق المسلمين بلا رحمة . ينزلون - مهل نوائب الدهر - الدمار بقوافل البشر .

وذات يوم وصلوا إلى أطلال خرابة بأطراف مدينة فيروزية كانت عوادى الأيام قد خربتها ، فأصبح بابها وجدارها مثل السكران المتهالك الذى وضع رأسه على قدمه ، ففتشوا جيداً فيها حتى عثروا على صندوق صغير ملئ بالذهب فسعدوا وفرحوا ، واختاروا باتفاق واحداً منهم للذهاب إلى هذه المدينة وإحضار طعام حتى ننهض بالعمل . فأبدى المسكين استعداده للذهاب ، ثم ذهب واشترى طعاماً، واستولى عليه الحرص القاتل آكل الجيفة فخلط بعضاً من السموم القاتلة فى الطعام . وعلى هذا يأكل الاثنان فيهلكان ، ويبقى المال له بمفرده. وحرض دافع الرغبة فى المال الصاحبين على التخلص منه حينما يعود، ويقتسم كلاهما ما وجدوه .

وعندما عاد وأحضر الطعام ، نهض كلاهما ، وخنقاه وأهلكاه، ثم جلسا إلى الطعام ، فأكلا فماتا فى الحال وفى نفس المكان ، ولسان الحال يقول : «هى الدنيا فاحذروها».

لا تطلب ديَّة من أحد لأنك أنت القاتل ، ولا تبحث عن المال فاللص فى داخلك.

وقد قلت هذه الحكاية حتى تقنع نفسك بالقليل ، ولاتطلب الكثير، وحتى لا تتركها فى مرتع اختيار الطبع دون ضابط .

فالنفس الإنسانيه قابلة للتخلق ، كما أنها تصير فيما تجعلها فيه(١)

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبتَها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تَقْنعُ

(١) البيت لسنائى الغزنوى ، باختلاف فى المصراع الثانى على أكبر وهخدا : أمثال وحكم جـ٢ مجلدة چاب دوم ص٧٥٣

وقد قـال الحكماء : إن الأمل هو شـراك الشيطان ، فـاحذر من حبـه حتى تحافظ على نفـسك ؛ لأنه طرد الآلاف من طواويس العقل «وهما»[1] الهمة بصفير الوسوسة من فوق غصن القناعة ، وأنزلهم من أعلى درجات الاستغناء إلى أسفل وقيـدهم فى قيده حتى لايجدوا منه فكاكا . قال الحكماء: «لاتفكر فى الجوع عندما تشبع» لأننا رأينا كثيراً من الشبعى الذين ماتوا قبل أن يجوعوا ، ولا تأس إذا ما سُتِر الجسد، لأننا رأينا كـثيراً من العـرايا ماتوا قـبل أن يلبسـوا ، ورأينا كـثيراً من لابسى الثياب مـاتوا قبل أن يصيروا عرايا، ولم يلبـسوا سوى الكفن، ولا تجعل التـفكير فى تكاليف الحياة يـستولى عليك ، فكثيـراً ما رأينا أناساً غالوا فى طلباتهم ولم يتكسبوا إلا النذر اليسير .

ومنْ يُنفقِ الساعـاتِ فى جمعِ مالهِ مخـافةَ فقـرٍ فالذى فَعلَ الفـقرُ[2]

واعلم هذه اللطيفة وهى : إن مقـدر الأقوات ومدبر الأوقات قد جعل القـوت علة الحياة ، ولاينفصل المعـلول عن العلة مطلقاً ، ومن ثم فإن من الواضح أنه لايمكن حياة بلا قـوت «فقد فرغ الله تعالى من أربعة : الخَلْقِ والخُلُق والرزق والأجل» .

ماذا تفعل بعالم قد صنع ، فقد فرغ الخالق من صُنعه[3]

(١) هُمـا : طائر البُلح : «اسم طائـر خرافى كل مـن يظلله يصـيـر ملكاً» انظر : إبراهيم شتا : المعجم الفارسى الكبير جـ٣ ص٣١٩٩

(٢) البيت للمتنبى فى قصيدة يمدح فيها على بن أحمد بن عامر الأنطاكى مطلعها :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولى كذا ومعى الصبر

المتنبى ، الديوان بشرح البرقوجى جـ١ ص٣٥٢ ، ٣٥٤

(٣) البيت للفردوس الطوسى فى شاهنامته قصة رستم وسهراب. أبو القاسم الفردوسى: الشاهنامه چاب موسكو جـ٢ ص٥٩٢

واعلم أيها الملك أنك كلما ونّقت علاقـتك مع الدنيا كلما كانت هذه العلاقـة أكثر سـهولة فى حلها ، وكلمـا ارتبطت بها أكثـر كلما باعدتك أكثر .

فالدنيا هى الأمين الذى يوزع ما جمعته على الآخرين، ويعطيهم ثمار الشجرة التى غرستها ، ويهدم كل أساس بنيته ، ولا يترك مشربا دون تكدير ، ولايترك مائدة طعام دون تنغـيص ، ولايترك لقمة تنزل فى حلق أى إنســان دون منغصات العَظْمِ، ولا يرغـب فى نزول شربة إلى حلق أحد دون أن يتـجرع المرارة . فلو أنك وجـدت واحداً بالمائة مما تفـعله الدنيا مـعك (دائماً) من صـديق دائم الإخلاص ، لبـدَّلت صداقته عداوة مئات من السنين ولعـرفت كيف كانت طاقته غشاءً على عينك، فأرتك المحبة فـى الظاهر وحجبت عنك هذه المعانى برغم كل هذا الوضـوح فلم تستطع إدراكـه؟ وكيف وضع سـماع البـاطل قطن الغفلة فى أذنيك فلم تسمع نداء أى نصيـحة من منادى العقل؟ «حبك الشئ يعمى ويصم»[1]

واعلم أيها الملك أن كل ما ينزل إلى هذه الدنيا هو آت من العالم العلوى، وأن كل ما يصـيب هذه الدنيا الوضيـعة من نوائب وانحطاط هو من مشيئة القدر وعوارضه، التى لا تثبت على حال فى أى لحظة، حـيث إن العناصـر الأربعة ونوازع النفس الـثمـانية بـآفاتهـا لا يمكن الخـلاص من أضرارها ؛ لأن تـركيب الآدمى والعـالم قـد يكون من أجزاء مفردات هذه العناصر، وبالتبـادل يمكـن أن يتحـول الهـواء إلـى

(١) ورد فى مجمع الأمثال بهذه الصيغة : ويضرب فى الشئ الذى إن أحببته يُخفى حبه عليك مساويه، ويُصِمُّك عن سماع العذل فيه. انظر : الميدانى ، مجمع الأمثال، جـ١ ص٣٤٩

مـاء أو يتحـول الماء إلى هواء، وأحياناً يتخـذ أشكال الرطوبة والبرودة وأحياناً تصبح البرودة حرارة .

ولن يستطيع الآدمى أن يتـخلص من آثار هذه التغيـرات مطلقاً ، ومن ثم فإنه يتجمد بالبرودة، ويـتفصد مِن الحرارة ، وينفر من المرارة ويمل من الحلوى ، ويورثه المـرضُ الضعفَ ويـذهب بطراوته ، وتزيل شيخوختـه نداوته ، ويذبل قلبه إذا اغتم قليلاً، ويئن من قليل الزلم، ويضطرب من الجوع ويلتهب من العطش .

فكل ما هو متعين ويشغل حيزاً من الفراغ، تحل به هذه التغيرات والتبديلات ولايثبت على حال، وحكمها واحد .

وأىُّ فَـتـاة لم تُـرنِّحْ كُـعـوبهـا وأى حـسـامٍ لم يصـبْـه فُلولُ
وأىُّ هلالٍ لَـم يُشنه مَـحَـاقُـه وأىُّ شِـهـابٍ لَم يَخُنْه أفـولُ

واعلَم أيهـا الملك أن الله - تعالـى - جـعلك راعياً للرعـيـة ، وحافظاً لمصالحهم، غير أن الأخذ منهم بالقهر ، وتفريقهم من حولك بالسوط يؤدى إلى فقرهم وذلهم، وهذا مورث وبالين، وموجب نكالين :

أحدهما سفالة السائلين كما قالوا :

إن السؤال استجداء سواء أكان عشـر مائدة أو كان خراجاً ،
فالحقيقة واحدة، وإن أطلقت عليه مائة اسم.

فالاستجداء ليس شيئاً آخر سوى الطلب، فكل من يطلب فهو شحاذ
ولو كان سليمان أو قارون[1]

(١) من قصيدة للأنورى ، غيـر أن الشطر الثانى للبيت الأول يأتى هكذا : «زانكه كرده نام يا شديك حقيقت را رواست». انظر : ديوان الأنورى به اهتمـام محمد تقى مدرس رضوى مج٢ ص٥٢٨ ط سنة ١٣٤٧

وثانيهـما : عهدة المسئولية التى سوف تحاسب عليـها فى ديوان المحاسـبة فـ«كلكم راع وكلكم مسـئول عن رعيتـه»، ولابد أنه سوف يترتب عليه خجل وندم «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم»[1]

واعلم أن عقلك أمـير على الأعـضاء السبعـة فى مملـكة بدنك، فـلا تجعل الحس أداة طبيعية للعقل، ولا تجعل الشهوة خادماً للجسد، واحفظ كلاً فـى موقعه، فلا تسـمح لأى منهم أن يتعدى حـدوده قيد أنملة. وطالما أن العقل لا يعينك على الشهـوة فإنه لا يصبح خادماً لك أو أميراً على جسدك .

واعلم أن زخارف الدنيا وزينتها شديدة الخداع للعقل، وشديدة السحر للعين، لكن الإنسان إذا ما أراد أن يكبـح جماح شهواته ورغبـاته فعليه أن يدقق النظر جيـداً فى المنكرات، حتى يبتعد بكل حـيله عن أخطارها. خذ على سبيل المثـال: السكير عندما يتذكـر مرارة الخمر وتقطيب جـبينه ونفرة طبيعـته، وتلوث ملابسه منهـا، وصداع رأسه فى وقت السحـر وحركات الندامة وعربدة الليـل وكسر الكأس، والعداوة والحروب، وتقـديم الملهيات وتأخير المهمات، وألم الخمار، والأفـعال السيئة، والخجل من شناعة ذلك كله؛ أثرت بشاعة كل هذا فى مذاق العقل.

وعندما تأتى صورتهـا أمام عينيه، يتراجع قدمه قلـيلاً قليلاً حتى يتوقف عن شرب الخمر تماماً.

وكذلك الصياد الذى يتـذكر - وقت حث الجواد على الجرى فى أثر الفريسة - تعـثر الحصان وسقوطه الذى فيـه مظنة الهلاك، ويجول

(١) السجدة / ١٢

بخاطره عـار تعرض الصـيد، وخـوف أظافر الفهـد، وأسنان الخنزير الوحش ، وغصة هروب الطيور والحيـوانات، ويجول بخاطره ضياع وقتـه، ويضع الضرر الكثيـر فى مقابل المنفـعة القليلة، لاشك أن هذا سوف يرطب قلبـه، وينتهى إلى الترك الكلى وينأى بنفســه عن مواقع الخطر إلى ملجأ العقل.

فتذكر أيها الملك ذبول الشيخـوخة التى هى خريف العمر، وسقوط أوراق الأمل، فأنت الآن فى أيام نضرة الشباب التى هى ربيع العمر

تمتعْ مـن شــمـيمِ عــرارِ نجـدٍ   فـمـا بعـد الـعـشِـيَّـةِ من عـرارِ[1]

وكذلك اغتنم وقت الفراغ قبل الشغل ، ووقت عز الغنى قبل ذل الفقر ، ونعمـة السعادة قبل محنة الحزن، وصحـة البدن قبل عوارض المرض وسعة مجال العمر قـبل الموت ، حتى يأخذ كل أحد حقه قبل فوات الفرصة وضياع الوقت ؛ لأن هذه الأحوال العشرة جميعاً إخوان صلب للمشيئة الذين ولدتهم السماء الثانية فى بطن واحدة، فهما توأما رحم الفطرة اللذان لا ينفصلان ، أحدهمـا عن الآخر. ويقول أفضل المخلوقـات : «اغتنم خـمسـاً قبـل خمس : شـبابك قـبل هرمك ، وصحتك قـبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفـراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل مماتك» .

(١) البيت للصمة بن عبد الله القشـيرى ، شاعر إسلامى بدوى مقل، من شعراء الدولة الأموية ، وقيل : هذا البيت قوله :

أقول لصاحبى والعيس تهوى   بنـا بين المنيفة فالضمار

انظر : أبو على المرزوقى ، شـرح ديوان الحـماسـة جـ٣ مج٢ ص١٢٤٠ ط دار الجـيل بيروت سنة ١٩٩١

أيها الملك ليس هنالك أى حق أوجب للأداء فى ذمة العقل من العمر الذى عندما يحل الأجل يكون أداؤه محالاً ، وقد قرأت فى فوائد المكتوبات أن الإمام أحمد الغزالى[1] رحمه الله، التفت ذات يوم إلى الحاضرين فى مجلس تذكير ووعظ، وقال : أيها المسلمون ، إن كل ما قلته لكم على مدى أربعين عاماً من فوق أعواد هذا المنبر قاله الفردوس فى بيت واحد ، فإن وعيتموه استغنيتم به عن كل شئ :

تفكر فى يوم الرحيل ، واحترف عبادة الله

والحديث «كفى بالموت واعظاً» يؤدى هذا المعنى[2]

واعلم أيها الملك أن هذه الأموال المنضدة التى تظهر على صورة العسجد والزبرجد هى حطب جهنم ، ونفسك حمالة الحطب التى تجمعه من أجل إحراق وجهك «يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»[3]

(١) هو الشيخ أبو الفتوح مجد الدين أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى، الأخ الأصغر للإمام أبى حامد الغزالى، ولد فى طوس ، وعندما علمه أخوه مبادئ العلوم الإسلامية ، وازدادت لديه الرغبة فى الوعظ، صاحب المشايخ ولاذ بالخلوة والعزلة حتى استقام، وثبت على التصوف، اشتغل بالوعظ فى همدان، ثم رحل إلى بغداد، ومن كتبه :

- كتاب لباب الأحياء فى تلخيص كتاب إحياء علوم الدين .
- كتاب الذخيرة فى علم البصيرة وسوانح العشاق بالفارسية .

انظر : سعيد نفيس وديكران، كارنامه برزكان إيران، ص١٦٥ ، ١٦٦

(٢) البيت للفردوس الطوسى أبو القاسم الفردوسى، الشاهنامه ط موسكو ج٣ ص٢٠٢

(٣) التوبة/ ٣٥

فاجتهد من الآن حتى تستطيع أن تتحرر من صحبة هذه العجوز المتصابية ، هذه العجوز الشوهاء التى طالما ألقت بكثير من الأزواج فى بئر الانحراف على رؤوسهم ، حتى تحصل على تلك السعادة الأبدية والنعيم الباقى .

فتمازج الملك أردشير بهذه الكلمات الحكيمة مثل اختلاط الروح بالقلب، وعلق حلقه قبول وصاياه فى أذن الباطن ثم ذهب من هناك إلى ابنته وقال لها :

فليبارك الله لك هذا الزواج المتفرد فى عالم عفة العظماء، الذى بلغ القمة فى العلم، أما هذه الطريق التى ارتادها فى آفاق طريق النجاة، وليس هنالك ثمة اعتراض على ما يفعل؛ بل هكذا يجب أن يفعل مع هذا المتاع المستعار فى هذا البيت المستأجر.

وبعد، وفى نهاية الأمر ، كان يتأمل فى حاله ويقول بلسان الاعتبار والانتباه :

لحساب من أضع هذا العمر الماضى، وعلى أية حال صرت فى نهاية سنين طويلة؟

والتزم أسلوب الاجتهاد، ووضع القدم على طريق السداد، وأبعد نفسه بقدر استطاعته عن الانقياد للنفس الأمّارة بالسوء إلى أن مات على ما عاش عليه والله الموفق لذلك والهادى إليه .

تم باب الملك أردشير والعالم مهران به، وبعده نذكر باب العفريت كاوياى والعالم الزاهد، ونبين ما هى فائدة العلم وأثر شجرته عندما تكون مثمرة بثمرة العمل؟ وكيف يلقى خاتم الخصم الجاهل فى شعب القصور الستة؟

ليوفق الله - تعالى - الملك سيد العالم معين الإسلام فى الجمع بين الحقين وتحصيل السعادتين، وليجعله الله مواظباً على الخير بمنه وسعة جوده سبحانه وتعالى .

الباب الرابع

فيما كان من أمر العفريت "كاوپاى" والعالم الزاهد

فيما كان من أمر العفريت «كاوپاى» والعالم الزاهد

قال الأمير : سمعت أن الجن التى تتوارى الآن خلف الحجب، والمحجوبة عن الأعين الباصرة، كانت فى العصور المتقدمة والدهور المتقادمة تظهر علناً، وكانت تتصل بالآدميين عن طريق المخالطة والمعاشرة، وكانوا يغوون الخلق، ويضلونهم عن طريق الحق والنجاة، ويزينون أباطيل الخيالات فى أعين الناس، حتى ظهر - فجأة - فى أرض بابل رجل زاهد متدين، اتخذ له مسكناً على قمة جبل، ورتب لنفسه صومعة[1] ، وبسط هنالك سجادة للعبادة، وأخذ يدعو الناس إلى جادة العصمة، ولم يمر على دعوته سوى زمن يسير إلا وقد مد بساط دعوته على وجه الأرض، وتبعها كثير من الناس، ونهض ما لايحصى من الأتباع وأيدوا التمسك بقواعد تنسكه. واستبدلوا شريعة الإيمان ببدعة الكفر، وأقبلوا على قبلة الله عابدين، وأعرضوا عن الشياطين وأفعالهم، وذاع صيت هذا الرجل فى أقاليم العالم، وأوشك أن يصبح سر الحديث النبوى : «سيبلغ ملك أمتى ما زوى منها» واضحاً فى حقه.

فجاء الشياطين كلهم مضطربين غاضبين - من ضرر تلك الحال - إلى كبيرهم الذى يدعى «كاوپاى» الذى كان من مردة العفاريت وفجرة الطواغيت ؛ والذى كان يهرب منه الشيطان مثلما يهرب إبليس من«لاحول» وقت الاستعاذة، وكان مثل المغناطيس فى جذب الحديد، فكان قدوة لجيش الشياطين، وقائداً للجنود الملاعين، وكبير ومقدم

(١) الصومعة : مكان العبادة عند النصارى ، ويطلق مجازاً على مكان التعبد عند المسلمين. غياث اللغة بكوشش آقاى دكتر دبير سياقى .

قافلة الضلال، وزعيم قاطعى طرق الوهم والخيال، هو الذى كان قد نقب نقباً فى خزينة عصمة آدم، وكان قد حطم خاتم سليمان، وعقد طلسم سحرة فرعون .

فاجتمع الشياطين إليه، صائحين مستغيثين بلسان واحد : إن هذا الرجل الزاهد قد جلس على الحجر، وقذف زجاجة عملنا بالحجر، ومحا هيبتنا من قلوب الخلق. فإذا لم نسد - اليوم - هذه الثغرة ، ونكشف هذه الكربة، فغداً سوف يجهرون بالصلوات الخمس أحد أركان الشريعة[1] مظلة دولته على أطراف العالم، وسوف ترتفع شمس سلطته فوق ذروة هذا الجبل، ولن يكون لنا من حيلة سوى الانقياد له واتباع مراده .

ما أشد حسرتنا مع ما لدينا من الحظ، متى نهرب من ضياء الشمس؟

وعندما سمع «كاوباى» هذا الحديث، تعجب فى نفسه متأثراً، وتأججت نيران شيطنته، وأورى ألسنة نيران الغضب، لكنه لم يلق بعنان العجلة من اليد. وقال لهم : امنحونى وقتاً؛ لأن مثل هذه الأمور لايجب التوانى والتراخى فيها، ولايجوز فيها التسرع أيضاً، وكما لم يرد احتمال التأخير فيها، فإنه لايمكن خوضها دون تقديم بفكر عميق. ثم أحضر الثلاثة شياطين الذين هم وزراء المملكة ومعاونيه يوم محنته ، وبدأ فى مشاورته مع الوزير الأكبر ، وقال : ما رأيك فى الحادثة التى حدثت؟ فقال : غير خاف على العقلاء المجربين أن شيئين لايبقيان على حال واحدة ، الأول : التوفيق فى الطالع ،

(١) إشارة إلى الصلوات الخمس المفروضة يومياً .

الثانى : الروح فى الجسد، وأن كليهما له غايةٌ معلومة وأمد معين ؛ وهكذا وفقاً لمذهب التناسخ[1] : الروح تحل فى قالب آخر غير القالب الذى كانت فيه ، وكذلك التوفيق ينتقل من طالع إلى آخر .

والناس لا يتأثرون بالنكبات فى أيام التوفيق والسعادة، ولا تختل قواعد أمورهم من صدمات الأحداث. وعلى سبيل المثال : إن الجبل لا تمزقه عرّادة[2] الرعد أو نفاطة[3] البرق أو منجنيق[4] الصواعق أوحجارة المطر العاصف أو الأمطار الغزيرة. وعندما ينتهى زمن التوفيق فإنه يشبه الشجرة التى رحلت عنها النداوة والطراوة ووجد الذبول والفتور طريقهما إليها ، ومن ثم فإن الريح تكسر غصونها بسهولة، وتقتلع جذورها بأقل جهد . وهكذا تكون دورة الزمان القدار وقاعدة الفلك الدوار :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسر

والآن لأن الأيام قد عقدت ميثاق محبة معه (أى مع العالم)، ولأن القضاء يبعد كل سهم تدبير لنا عن هدفه من أجل إرضائه ؛ وكل فكرة نعدها لإزاحة عرشه تبدو ساذجة. فينبغى علينا إعادة العلة إلى طبيعته ، وترصد ذلك الزمان الذى تغرب فيه شمس دولته، ويلقى الحظ بظله على أمرنا، ويحول الله طالعه عن بيت السعادة

(١) التناسخ : انتقال الروح بعد الموت من بدن إنسانى إلى بدن إنسانى آخر (فرهنگ معين) .

(٢) عرّادة : آلة حربية أصغر من المنجنيق ، كانت تستعمل فى الحروب القديمة (فرهنگ معين) .

(٣) إناء نحاسى يصب فيه الزيت (النفت) ثم يشعلون فيه النار ، ويقذفونه (فرهنگ معين) .

(٤) معربة عن اليونانية Maghghanikon ، والمنجنيق يشبه المقلاع الذى يعبأ بالحجارة والتراب والنيران ويلقى بذلك كله ناحية العدو . (برهان قاطع بتصحيح دكتر محمد معين) .

«وتلك الأيام نداولها بين الناس»[1] حتى إذا قمنا بمقاومته، كان الظفر والنصر حليفنا، والفشل والنكبة له .

ثم أشار «كاوباى» إلى الوزير الثانى متسائلاً : ما رأيك فى هذه القضية على سبيل الإجمال؟ فأجاب قائلاً : إن ما قاله الوزير مستحب لدى الحق وممدوح عقلاً، لكن بأى وجه ترفع اليد عن صنيعه ، فليس من الصواب وضع قيد التعطيل والتسويف على يد وقدم القدرة والإرادة، لأنه عندما يكون طالعه قويًا، ثم تقاعست عن مهاجمته ، تكون بذلك قد زدت فى قوته وزدت فى ضعفك .

وهذا الرجل العالم كلما يرى الحظ والتوفيق مسانداً للعداوة، لن يقلل من الجد والسعى فى مقاومته قدر وسعه ، ويرى ذلك القدر الباقى فى قدرته فيجتهد فى حفظه وإبقائه، مثل الطبيب (مثلاً) الذى يعجز عن استرداد صحة المريض، فيحافظ على بقايا القوى الغريزية بحسن المداواة وحيل الحكمة، لأنه لو لم يفعل هذا لهلك المريض. وبناء على هذا يجب علينا أن نتوسع ما أمكن فى هدم مبانى عمله حتى يتسنى لنا التقدم عليه .

وإن كان قد ألبس القوم مناور التقليد فى رؤوسهم، وأمسك بمقاليد حكمهم فى يده «وكل مجر فى الخلاء يسر»[2] فيجب علينا

(١) آل عمران / ١٤٠

(٢) ويروى «كل مجر بخلاء مجيد» وأصله أن رجلاً كان له فرس يقال له «الأبيلق» وكان يجربه فرداً ليس معه أحد ، وجعل كلما مر به طائر أجراه تحته، أو رأى إعصاراً أجراه تحته، فأعجبه ما رأى من سرعته، فقال : لو راهنت عليه، فنادى قوماً، فقال القوم : إن الحلبة عداً، فقال : إنى لا أرسله إلا فى خطار ، فراهن عنه، فلما كان الغد أرسله فسبق، فعند ذلك قال : «كل مجر فى الخلاء يسر» الميدانى : مجمع الأمثال ، جـ٣ ص١١

الخروج لميدان الحرب ، وعدم الخوف من الموت؛ لأن الرد على الخصم إنما يكون بحد السيف، لا بدرع السلامة الذى يحطم أمام وجه الحمية :

فحبُّ الجبانِ النفسَ أورده التُّقى وحبُّ الشجاعِ العزَّ أورده الحَرْبَا[1]

فالتفت العفريت كاوپاى إلى الوزير الثالث قائلاً : ما هو رأيك فى إمضاء أفكارهم؟ فأجاب بقوله : إن ما أشاروا به قد استقر فى خاطرك، وهذا هو طبيعة كل المخلوقات، فالذى تسمعه ويوافق طبيعتها فسرعان ما تسترسل فى قبوله، وبخاصة إذا كان الكلام فى نظم جميل وعبارة مهذبة، وألفاظ مستعذبة، فإنه يستقر سبكه فى قالب الرغبة، ولقد قالوا: مثلما لا يفل الحديد الفولاذ إلا أنواع أخر من الحديد، فإنه لا يسلب عادات القوم ويسلخها سوى الألفاظ العذبة الحلوة، فامتزاج الشعر الرقيق مع النكات اللطيفة يبدل البخلاء أسخياء ، والجبناء شجعان ، واللئام كرام ، والعاصين طائعين والسفهاء نبهاء .

وأما الرأى عندى : أن اليسر إذا صار حليفه ، فإن سفك دمه ليس من الصالح فى شىء ، وسوف تلحق بنا عاقبته الوخيمة، وهذا الفعل بعيد عن الحزم وبعد الرؤية، فلو قضينا عليه دون سبب واضح وإلزام بيِّن ، أو بلا علة ظاهرة وحجة باهرة؛ فسوف يحلون محله متدينا آخر، يجعلونه يقوم مقامه، وتظل هذه الفتنة حتى قيام الساعة،

(١) البيت للمتنبى فى قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، يقول فى مطلعها :

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربَا

المتنبى : الديوان، جـ١ ص٤٠ ، ٦٠

ويخـرج الأمر عن حـدٍّ التدارك ؛ لأن عـامة الخـلق بفطرهم يحبـون الضعفاء ويعادون الأقوياء . أما التـدبير الصالح والفكرة الصحيحة هو أن تعلم أن بالوسـوسة الشيطانيـة والهندسة السحـرية تلقى بذرة حب الدنيا فى قلبه تجعـله مشغولاً ومشغوفـاً بنقوش وزخارف دار الغرور، وتزين حائط معرض الشهوات واللذات فى عينه، وتقطر قطرات عسل الحرص من أعلى غصن الأمل - هكـذا - فى فمه، ومن ثم فلن يرى أن ثعابين الأجل وهى فاغـرة أفواهها تحت قدمه، وتـكتب على ناسية حالـه «وزين لهم الشيطان مـا كانوا يعـملون»[1]، حتى يرى جـميع الخلائق أنه مشـغول بالدنيا عن مجرد الكفاف والبـحث عن العفاف. حيـنئذ تطلق اللسـان بإظهار مـعايبـه وإفشـاء مثـالبه، فـيصدقـونك وينصرفون عنه فيكسد سوق دعوته .

وظهر هذا الكلام للشيطان «كـاوباى» بعيداً عن النفعيـة قريبًا من الصواب ثم قال لـ (الوزير المتحـدث) : أصبت رأياً حسناً، واوضحت طريقاً صحيحاً :

إذا نحـنُ أدلجنا وأنـتِ أمـــامَـنا كـــفى لمطايـانَا بِلقـــيـــاكِ هَـاديا

والرأى عندى الآنَ ، هو أن أجلس فى جـمع عـام وأقـيم معـه حواراً فى أسـرار العلوم وحقائق الأشيـاء، حتى يعجز عن مـجادلتى فأكشف عـورة جهله على الخلق، حينئذ أريق دمـه. لأننى إذا جعلت قتله مـوقوفاً علـى تمهيد هذه المقـدماتً التى تقولـها، فلن تؤدى إلى نتيجة سوى ضياع الوقت. ثم التفت إلى كبير الوزراء قائلاً : ما رأيك فى إنفاذ هذه الفكرة ؟

(١) الأنعام / ٤٣

قال : عندما يقع الأمـر بين طرفى النقيض، فإن الحكم فى تلك القضية على جانب واحد وطريقة واحدة، وليس لاختيار العقل «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم»[1]

وما أكثر الأخطاء التى يأتى بها الوهم بصورة الصواب، وما أكثر الأكاذيب التى يـأتى بها الخيـال فى لبـاس الصـدق مثـلما حـدث لابن المضيف الأحول فسأل «كاوپاى» كيف كانت تلك الحكاية؟

قصة ولد المضيف الأحول[2]

قال الوزير : سمعت أنه فى وقت من الأوقات، كان هناك رجل سخى كريم مضياف يمسك بعنان جوادهم عندما يأتونه، مفرغاً لحافظة نقوده، عطوفًا على الغرباء ، كانت كل الصفات الحميدة ملازمته لذاته إلا الإحسان فـقد فاق تلك الأوصاف، وكـانت كل الخصال الحـميدة خاصة بطبعـه إلا الإنعام الذى كان عاماً ، وقد كان مـا ينفقه من ماله المكتـسب ولـيس من مـال المظلومين ، مـثل جـميع أهل هذا الزمـان الذين يخرج الدخـان من مطبخهم حـينما يشعلـون النار فى بيت مائة مسلم ؛ ويضعون خبزاً على مـائدتهم عندما يسايسون المياه فى أساس بنيـان مائة برىء. وتصل حـفنة الملح إلى قدرهم بينمـا ينثرون حـمل حمار على جراح الفقـراء ويضعون عودين من الحطب فى تنورهم فى

(١) البقرة / ٢١٦

(٢) هذه القصة وردت عند مولانا جـلال الدين الرومى، وكذلك عند الشيخ مزيد الدين العطار، وكـذلك عند السنائى الغـزنوى. انظر : بديـع الزمان مـروز انفـر : مـآخذ قـصص وتمثيلات مثنوى ، ص٧ ، ٨ دانشكاه تهران سنة ١٣٣٣ ، وكذلك : د. رجاء عبد المنعم جبر: الحكاية والتمثيل فى حديقة سنائى .

الوقت الـذى يصل منهم مـائتـا سوط من الخـب على جـسـد العاجـزين .

لقد تعلم كـرام العالم عادة وفاضـة الكرم وبخاصة فى الضـيافة منه، فالعـقدة التى يظهرها السفـلة عند نزول الضيفان عليـهم، كانت لديه ولكنها منقوشة على كـأس ومائدة مطبخه، والخل[1] الذى يفصد عنه جبين البخلاء عـند مقابلتهم للضيفان كـان لديه ولكنه كان يسكبه فى طعامه[2] :

وَيَكادُ عِنْدَ الجِـدبِ يـجـعلُ نفس حُبِّ القِـرى حطَبـاً على النِّيرانِ

وفى وقت من الأوقات ، نزل صديق عـزيز ضيفاً عليـه، فقابله بجمـيع أنواع الإكرام وتعـظيم القدر عند القـدوم، وأظهر له مـا كان يقـضيـه الحال مـن الالتزام والملاطفـة، وبعـد زمن فرغـوا من تناول الطعام، أبدى المضيف - على سبيل الاعـتذار صعوبة إيجاد الشراب، وقال لاشك أن مرآة العيش الصـدئة ليس لها من ملمع مثل الشراب، ولايزيل الطبع المستـوحش من بين الأصدقاء - فى وقت صحـبتهم - سوى زجـاجة الشـراب، وليس ثمة مـؤنس لوفاء عهـدهم من مكاره الزمان أفضل من الشراب .

أدرْهَا وُقـيتَ الدائرات فـإنَّهـا رَحًى طَالما دَارتْ على الهمِّ والحَزَنِ
ولَـستُ أحـبُّ الـسُّـكرَ إلا لأنَّـه يُخـدرنى كـيـلا أحسَّ أذى المِحَنِ

(١) كناية عن العرق .

(٢) الطعـام الذى يوضع عليـه الخل يسـمى «آشى» ويتكون من خل وكـوشت والقـمح المجروش والفاكهة الجافة «فرهنك معين» .

ومع ذلك كله، فإن هناك زجاجة صافية باقية من ذلك الكم الذى انفقناه فى هذه الليالى مع الأصدقاء فلو رغبت أمضينا بتناولها الوقت.

قال الضيف : «والجود بالموجود نماية الجود» والأمر أمرك .

فأمر المضيف ولده : أن اذهب وأحضر الزجاجة الفلانية الموجودة فى المكان الفلانى. وكان الولد المسكين مبتلى بحول العين وخبل العقل، فذهب، وعندما وقعت عينه على الزجاجة؛ تراءت صورتها فى مرآة عين بصره الحولاء اثنان. فأتى إلى الأب وأخبره بأن هناك زجاجتين، فبأيهما أجىء؟ فعلم الأب طبيعة الحال فتصبب وجهه عرقاً من فرط الخجل أمام الضيف، لأنه ربما يدور فى خياله (أى الضيف) أنه (أى المضيف) ضن بالزجاجة الأخرى، فينسب إليه ضعف الرأى ونزول الهمة. فلم يجد حيلة سوى أن قال لابنه : اكسر واحدة وأحضر الأخرى. فضرب الابن الزجاجة بالحجر طاعة لأمر أبيه، وعندما لم يجد الأخرى، عاد إلى والده خائباً خاسراً. وحكى ما حدث. فصار معلوماً لدى الضيف أن ذلك الخلل موجود فى عين الابن وليس فى نظر الأب .

وقد قلت هذه الحكاية، حتى تعلم أن حاسة البصر برغم أنها أسلم الحواس فى إدراك أعيان الأشياء؛ إلا أنها ليست معصومة من الوقوع فى الخطأ. فكيف لعين البصيرة - وهى من حواس الباطن وترى من خلف الأوهام والخيالات - أن تخلو من مواطن الصواب والخطأ؟ .

فيجب أن تنظر فى هذا الأمر بتفكير عميق خالص، ولاتضع القدم على طريق هذه العزيمة دون تأمل وتثبت؛ لأن الله - سبحانه

وتعالى - مع أنه خلق جوهر الإنسان أطهر من جواهر جميع الحيوانات، واختصهم بصفة العلم، والنظر الثاقب، والذكاء، وجعل لكل واحد نجماً من النجوم العلوية والسفلية حارساً لأحواله، حتى يربيه مثلما تربى الحاضنات الطفل فى حضانة التربية، وجعل لكل إنسان ملكاً من عالم قدس الملكوت معلماً له، ووضع أمامه لوح التفهيم والتعليم، ومن ثم يأتى الإنسان فى أفضل صورة للموجودات «علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى»[1] ، ولكنهم عندما يضعون قدمهم فى إثر الهوى يصبحون أسرى لنا، ويصيرون مسخرين مقهورين لدينا، أما نحن فطينة خلقتنا مركبة من الدخان الأسود المظلم، والجهل المركب، فإذا ما وضعنا زمام القلب فى يد الهوى، وكففنا اليد عن التفكر والتأنى، فكيف يكون الحال مع هذا الآدمى الذى يملك هذه العداة والعتاد؟ وكيف نسيطر على المتصف بكل هذه الخصال؟ «أخو الظلماء أعشى بالليل»[2] وأخشى أن تقعوا ببحثكم عن العظمة فى حالة سيئة مثل ذلك الرجل الضيف مع رب المنزل، فقال كاوپاى متسائلاً : كيف كانت تلك الحكاية؟

حكاية الضيف مع رب المنزل

قال الوزير سمعت أن فلاحاً جاءه ضيف فى ليلة من ليالى الشتاء التى كان مزاج الهواء فيها بارداً، وكانت مفاصل الأرض متجمدة، وقد انقطعت الأمطار عن سبلان[3]، وهطلت الدموع على الطبقات

(١) النجم : ٥ ، ٦

(٢) يضرب لمن يخطىء حجته ، ولا يبصر المخرج مما وقع فيه. الميدانى : مجمع الأمثال، جـ١ ص٩٣

(٣) سبلان : اسم جبل فى آذربيجان بالقرب من أردبيل، اتخذه الناس مكاناً لعبادة الله قبل الإسلام، وسكنوه بعد الإسلام «برهان قاطع» .

الزجاجية، وامتزجت مسام القشرة الأرضية بمسامير الجليد، وتجمد الماء مثل تجمد يد البخلاء عن إفاضة الخير، وكان الهواء البارد يحاكى نفس السفلة ،

وتَرى طيورَ الماءِ فى وُكناتها تختارُ حرَّ النَّارِ والسَّفُّودا
وإذا رميتَ بفضلِ كأسِكَ فى الهَوا عادتْ إليك من العَقِيق عُقودا

فقام بعادته الكريمة، وهى القيام بواجب الأضياف وتقديم الموجود من الطعام، أوقدا ناراً طيبة، ومزجا لطف المحاورات ومفاكهات الفواكه الروحانية بالشراب الشتوى النقى الطيب الرائحة، وكان صراف الطبع ينشد هذه الأبيات كل ساعة رغبة فى قلب الشتاء :

اصهر ذلك الذهب فى التنور بلا سرف، لأن الذهب يزكى ألسنة النيران بشدة

تأمل الطاووس الذى أكل الغراب من حلقه، وهو يلتقط حبوب الكاورس[1] وبحكم المباسطة والمخالطة الماضية، جلس الضيف والفلاح وزوجته ثلاثتهم أمام التنور. فظهرت عورة المرأة من فتحة بالسروال، وكان الضيف اللص يختلس النظر ثم يسكت، فلاحظ الزوج، وفكر فى نفسه : إننى إذا تركت هذا الأمر فإن الضيف سوف ينظر ويتمزق حجاب الصيانة. ثم حمل عوداً من الخشب حتى يضعه على عورتها لعلها تنتبه.

(١) نوع من النبات له حب مر (فرهنك عميد) .

وكـان الضيف يعـلم، ويردد - فى أثناء حكاية كل وقت بحـيلة ما- هذه الـعبارة «إياك أعـنى واسمعـى ياجارة»[1] والزوج غافل عن حقيقة الكلام .

وفـجـأة وضع طرف عـود الخـشب على الموضع المخـصـوص. فارتعشت المرأة وأخرجت ريحـاً من دبرها، فخجل الفلاح وندم على الحركة التى لم تفد .

وقـد قلت هذه الحكاية، حـتى لاتظن أن عـلاج هذا الأمـر من طرف واحد، ولاتقصر حكم التفكير على جانب واحد.

فقال كاوپاى : لقـد سمعتُ ما قُلتَه، واستـقر فى نصاب الحق، ولكننا يمكن أن نظفـر بالخصم بمهارة الفن، وغـزارة العلم، ومسـاعدة العقل والحصافة، مثلما ظفر الفأر بالثعبان، فسأل الوزير : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفأر والثعبان

قال كاوپاى : سـمعت أن - فى وقت ما - فأراً اتخـذ مسكناً له فى بيت غنى ، ومن هناك اتخذ مسلكاً إلى مخـزن الحبوب، وهيأ منه طريقاً إلى الحديقة، وكان يحيا - هنـاك - فترات طويلة مستريح البال سعيداً دون بلاء مصادمة المتعرضين له ،

(١) أول من قال ذلك سهل بن مالك الغزارى عندما رأى فتاة أعجبته فأنشد

يا أخت خير البدو والحضـارة　　كيف ترين فـى فتـى فـزاره

أصبـح يهـوى حـرة معطارة　　إياك أعنى واسمعى يا جاره

وضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره . الميدانى : مجمع الأمثال ؛ جـ١ ص٨٠

كل من يملك السلمة والخبز، وله مسكن يستقر فيه

ليس خادماً لأحد، ولا يخدمه أحد، فقل له : اسعد فقد ملكت الدنيا

والذى لايعيش فى كنف حصن الأمن مع كفاية النعمة، وتيسر له الجلوس سعيداً على مسند ، فلا يليق به أن يبحث على شىء فوق هذا طعماً،

إذا الصَّحةُ والقوةُ باقٍ لك والأمنُ
وأصبحتَ أخا حزنٍ فلا فارقَك الحُزنُ

وذلك يوم جاء إلى تلك الحديقة طلباً للرزق ثعبان قبيح الوجه صاوى الشفه ملتاع الكبد، قادماً من صحراء «شورستان» فمر من هناك على بيت الفأر، فوقعت عينه على ذلك المكان الهادىء، وكان هناك باب مفتوح فى حديقة القصر الذى يشبه روضة إرم وساحة الحرم فى الجمال والأمن، فقال فى نفسه ،

انظر: فقد اتجه بفيفاء روحى نحو شفتك يوماً، ولقد أتى على رائحة الفسق فوقع على السكر

فعثر الثعبان على زاوية بيت العافيه، وجلس على رأس كنز المراد، ووضع الرأس على قدم السلامة، ولف نفسه على باب الكنز مثل الحلقة .

نعم إن كل من تنزل قدمه إلى كنز السعدة يطرق حلقة هذا الباب، أما طلاب الدنيا فإنهم يرون حلقة باب القناعة على شكل ثعبان، لأن تحريك تلك الحلقة ليس فى مقدور كل شخص، فلا جرم

أن سرور قصر الإقبال والسعادة بمثابة الحلقة على الباب،

من لم يجد عزة العـزلة؛ لم يجد شيئا، ومن لـم يروجه القناعة لم ير شيئا[١]

خلع الثعـبان حذاء السـير والطلب، وأصـبح «آمن من ظبى الحرم وآلف من حمامة مكة». وجاء الفأر إلى منزله، ونظر من بعيد فوجد فى بيته ثعباناً ملتوياً كالدخان الأسـود، فاسودت الدنيا وأظلمت أمام عينيه، وأخذ فى إخراج آهات دخانيـة من صدره، وقال : يارب دخان القلب؛ أى خصم وصل إلىّ فسود كل ما أملكه هكذا؟ ربما كانت هذه الظلمات بسبب ما فعلته من خـيانة مع خلق الله، أو ربما هى دخان النار التى قد اشعلتها فى قلوب الجيران. «ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين»

والخلاصـة : أن الفأر جاء إلى أمه كـسير القلب، مـحطم الظهر بسبب ثقل حمل الغبن، وحكى عن واقعه اسـتيلاء الثعبان على منزله ومتـاعه، وألـح على الأم فى استـرشاد طريق لدفع تغلب الـثعـبان. فـقالـت الأم: كن كالضـب يعرف قـدره ويسكن جـحـره، ولا تكن كالجراد يأكل ما يجده ويأكله ما يجده».

فربما طلبت شـيئاً زائداً على ملك القناعة والكفـاية أو مددت يد التعرض على الأشياء الخاصة بالآخرين .

اذهب واتخـذ لك مـسكناً آخـر، وعش مـسكيـناً لأنه ليس فى وسعك مقاومة الثعبـان، ولا تستطيع أن تنتزع قوس حقده، فلو كنت

(١) البيت لسنائى الغزنوى فى قصيدة له بعنوان «أين قصيدة نتيجه خاك پاك بلخ استا» سنائى : الديوان ؛ چاپ استاد مدرس رضوى. چاپ دوم ص١٧٩ تهران ١٣٤١

مغـروراً بحدة أسنانك، فـاعلم أن للثعـبان الأسنان التى تجـعل الفيل الهائج كحجر بين الأسنان ويسقط الأسد الهصور بسمها .

تكفى قطرة واحدة من السم لمائة كأس من العسل، من ذلك السم الذى يكمن فى حذر أسنان الأرمم

ولو أن بعدك عن موطنك ومـألفك، وهجرتك - مضطراً - عن مركز استـقرارك، ومشاهدتك لتمتع الآخرين بما صنعـته، هو مجاهدة عظيمة ومكابدة عظيمة ومكابدة أليمة، والله - جلّ وعلا - جعل قتل العبـاد لأنفسهم وإزعـاجهم وإخراجهم مـن سكنهم ومأواهم الأصلى متـساويين «أن اقتلوا أنفسكم أو اخـرجوا من دياركم»[1]، أما الرجل الذى يتـقـدم عند الضـرورة، ويعـقد مـحـمل العـزم على غـوارب الاغتراب، ويقطع - كـالقمر - عرصـة المشارق والمغارب، ويمضى - كالشمس - واضعاً السرج على مناكب الكواكب ،

لو أنَّ فى شرفِ المأوى بلوغُ عُلىً   لم تبـرحْ الشَّمـسُ يوماً دار الحـملِ
إن العُلى حَـدثتنى وَهْى صَـادقـةٌ   فـيـمـا تُحـدثُ إنَّ العـزَّ فى النُّقَلِ

حتى يهىء مقـراً آخر ، ليستطيع أن يأخذ حقـه فى كل ما أتلفه دوران الفلك .

فـقال الفـأر : إنك وإن كنت قـد قلت فصـلاً مـفصـلاً إلا أنه لايشبعنى، لأن حمية النفس وإباء الطبع لا يسمحان لى أن أوافق على كل رذيلة وردىء، لأن الرجـال لا يمتنـعون عن مـكافـأة ظلم الظالمين

(١) النساء : ٦٦

واعتـداء المعتدين، ولايكفـون عن مناضلة الخصم ومطاولتـه إلى آخر سهم فى الجعبة، ولا يسمحون لسلاح مهارتهم بأن يكسل .

لا تَكُ كـالجـارى إلى غـايةٍ حـتَّى إذا قَـارَبـهَـا قَـامـا

قـالت الأم : إذا أردت مقـاومـة هذا الخصم بمسـاعـدة الفئـران ومعاونتهم، فسوف تهلك سريعاً، ولن تصل إلى هدفك مطلقاً، فأنى لشـعاع الشـمس الذى يدخل من النافذة أن يصـعد إلى الـسمـاء مرة أخرى؟ وأنى لشراك نسجه العنكبوت أن يصيد نسراً طائراً؟

إلى ذاك ما باضَ الحمامُ وفرَّخا[1]

هذا العمل لا يناسبك، وأنت لا تناسب هذا العمل

قال الفأر : لاتنظرى إلىّ بعين الاستحقار «إياكم وحمية الأوقاب» واننى سوف أقضى على هذا الثعبـان عن طريق البستانى؛ بأن أحرضه على قتله بشعوذة الحيل. قالت الأم : إذا كان لديك مثل هذه المهارة، وتستطيع إظهار مثل هذه القدرة فقد «أصبت فالزم»

فذهـب الفأر، وظل عـدة أيام ملازماً لـلعمل، وجلس مـترقـباً متـرصداً وهو يفكر كيف يفـتح بنفسه كـمين مكره على هذا الخصم؟ وكـيف يلقى بالندم علـى عين حزمـه؟ . وذات يوم كـان يراقب فـإذا بالثعبـان وقد خرج من الحجر إلى الحديقة، وذهـب تحت جذع شجرة الورد التى كـان يذهب إليهـا دائماً طلبـاً للراحة، ونام وأعطى ظـهره للشمس غافـلاً عن أن الجهات الست لكعبتى التـقدير سوف تكون فى جانب الفأر، فيـجعل زوايا نرد العناصر مغلقة أمـام وجه بقائه، حتى

(١) مثل يضرب للمطول الدفاع الميدانى : مجمع الأمثال ؛ جـ١ ص٩٣

يدركوا أن الغلبة لمن يلعب اللعبة الثانية لا لمن يبدأ، فإن التلاعب بمصائر المظلومين أمر غير محمود مثل اللعبة الرابعة من لعبات النرد.

وفى هذه اللحظة، وبالمصادفة، وجد الفأر البستانى نائماً فى مكان استراحته، ووجد حظه يقظاً، فوثب على صدر البستانى، وأيقظه من النوم واختفى، فنام البستانى مرة أخرى ، ففعل الفأر نفس الأمر وأيقظه من النوم، وكرر هذا العمل بهذه الصورة عدة مرات، فاشتعلت نار الغضب فى قلب البستانى ، وانتفض من مكان كالدخان وأخفى مطرقة ثقيلة فى جانبه، وأخذ ينتظر لحظة وثوب الفأر، فوثب الفأر على بطنه بنفس الكيفية السابقة، فنهض البستانى من مكانه، وقد قلت زمام الهدوء من يده، وجرى فى إثر الفأر، والفأر يهرول حيناً ويبطئ حيناً آخر حتى وصل إلى الثعبان. فدخل إلى نفس مكانه عن طريق الجحر، فظفر البستانى بالثعبان النائم ، وحطم رأسه .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه عندما يتحكم الاستبداد فى الضعفاء، وتقصر الأعمال، يستمدون العون من قوة العقل ورزانة الرأى، ومعونة الحظ ومساعدة التوفيق ؛ حتى يحصلوا على غرضهم، وفى المثل «التجلد ولا التبلد»[١]

قال الوزير : إن تقرير هذه الفصول أمر مقبول، ولكن اعلم أن الشخص الذى قضى زمناً فى ممارسة عمل، ووصل إلى غوامض

(١) يعنى أن التجلد ينجيك من الأمر، لا التبلد ، ونصب «التجلد» على معنى الزم التجلد ويجوز الرفع على تقدير حقك أو شأنك التجلد، وهذا من قول أوس بن حارثه، قاله لابنه مالك، فقال يا مالك : التجلد ولا التبلد والمنية ولا الدنية .

الميدانى : مجمع الأمثال؟ جـ١ ص٢٤٤ ، ٢٤٥

أسراره، وصار موسوماً ومتصفاً به، فمهما تعلم شخص آخر هذا العمل، وعرف كماله ونقصانه، ولكنه غير محترف له. فالغلبة - عند المجادلة والمناظرة - سوف تكون للمتخصص. قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما ناظرت ذا فنون إلا وقد غلبته، وما ناظرنى ذو فن إلا وقد غلبنى .

فالعلم والحكمة حرفة هذا العالم، وكذلك البيان والفصاحة، فهو مطلع على جليل العلوم ودقيقها، وجليها وخفيها، أما أنت فمتردد ومتوقف فى جميع المواقف ؛ ومن ثم سوف يظهر وفور علمه وقصور جهلك إذا أقيمت بينكما مناظرة. وسوف تكون رجاحة فضله سبباً فى نجاح وسيلته، ويستقر أمره فى نصاب الكمال، ويصبح نصيبنا هو الخذلان والخسارة مثلما حدث فى حكاية بزر جمهر مع كسرى. فقال «كاوپاى» : كيف كانت تلك الحكاية؟

حكاية بزر جمهر مع كسرى

قال الوزير : سمعت أن بزر جمهر[1] كان يسرع إلى خدمة كسرى صباحاً، وكان يقول له : استيقظ مبكراً حتى تظفر بمقصودك. وكسرى بحكم أنه كان يقضى الليل فى المعاشرة والمعاقرة، وسماع الأغانى ولقاء الغوانى ، وبعد هذا يضع رأسه على وسادة التنعم مع الحسناوات من النساء حتى مطلع الشمس، فقد تأثر وتغير من كلمة بزر جمهر الثقيلة ، التى كان قد فهمها على سبيل التقريع .

(١) وزير الملك كسرى الأشروان ، ويقال إنه كان معلماً لابنه «هرمز» فى البداية، وهناك كثير من الحكايات حول حكمة هذا الوزير وعقله وكفاءته . قتل فى زمان كسرى ابرويز بأمر منه دكتور سعيد نفيسى وآخرون ؛ كارنامة برزكان إيران ص ١٩٠ تهران سنة ١٣٤٠ هـ ش .

وفى أحد الأيام، أمر كسرى خَدَمه أن إذا جاء وقت غلس الصبح الذى تكون فيه الدنيا بين ظلمات الليل ونور الصباح، ويمم بزر جمهر وجهه نحـو بلاطنا، أن يتنكروا وينزعوا عنه لباسـه دون أن يلحقوا به ضرراً. فـذهب الخدم بحكم الأمـر ، ونفذوا هذه اللعـبة تحت سـتار ظلمة الليل. فـرجع، وارتدى ملابس أخرى، وعندمـا عاد إلى بلاط الملك كان قد تأخر على خلاف عادته السالفة. فسأله كسرى: ما سبب تأخرك فى المجيء؟ فقـال : كنت آتياً فقبض علىّ الـلصوص، ونزعوا عنى ملابسى، فَشُغلت بتجهيز وترتيب ملابس أخرى.

فقال كسرى : هذا على خلاف نصـيحتك اليوميه وهى : انهض مبكراً حـتى تظفر بمرادك، ومن ثم أصابتك هذه الآفة بتـوهم النهوض ليلاً . فأجاب برز جمهر مرتجلاً : لقد نهض اللصوص قبلى ومن هنا حسن حظهم وتحقق مرادهم. فخجل كـسرى وصمت من سرعة قول الصواب وحضور الجواب .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى تعلم أن كسرى برغم أنه كان عالماً إلا أنه صار مـغلوباً أمام بزر جـمهـر وإلقائه للحكمـة التى هى ملكة لديه، فلا كانت قضية حالك معكوسَة ، فتغلب الأيام فكرك وتدبيرك «ورب حيلة كانت على صاحبها وبيلة»

فغـضب كاوپاى مـن هذا الكلام، وتخيل أنهم يقـولون كل هذا بسبب استعظام علم الرجل واستصغار جانبه. ثم قال لرئيس وزرائه : إلى أى جـهة تـتجـه إشارة رأيك؟ ومـا هو طريق الصـواب فى هذه الأبواب؟

قال الوزير : اليوم هو يوم رواج سوق دولة العالم، وزمان طاعة

أمره. وصار فلك النصر فصاً فى خاتم حكمه الذى ختم على لسان اعتراضنا، وكل من يضع قدم التعدى ويتصدى له فسوف يصير مغلوباً منكوباً إلى يوم القيامة.

لا تسعَ فى الأمرِ حتى تَستَعَد له سَعىٌ بلا عُدةٍ قوسٌ بلا وترِ

قال كاوپاى : إن ما استقر فى قلوبكم من الخوف منه هو ماجعله ينهض إلى جدالنا وقتالنا بلا تفوق حقيقى، «وقذف فى قلوبهم الرعب»[1]، لكن أمور الدولة مثل ماء النهر الذى لو ظل يجرى مائة عام لن يتوجه إلى مجرى آخر، مالم يُسد مجرى ذلك النهر. وسوف أتقدم بقدم الجرأة وأغير مجرى ماء دولته، وأجعل فى هذا النهر مرادى أنا .

وكان الوزير يسمع هذا البيان وهو يقول :

يا من صار الماء كدراً فى نهرك بسببك، ولم يتفق شكلك مع جوهرك بسبب مزاجك

يا من أراح التفات وجهك عن الآخرين عشاق الزمان، وارتاح طبعك منك

ومن هنا سلمّ الوزير زمام الاستلام إلى يد كاوپاى، قائلاً فى نفسه : إننى لو زدت على ما قلت شيئاً، وبالغت - فوق ذلك - فى نقضِ عزائمه، فلا شك أننى سوف أُتهم وأُوصم بالخيانة «وإن كثير النُّصحَ يَهجُمُ عَلَى كَثَيرِ الظِّنَّة» واستقر كاوپاى على هذا الرأى ، لأن ألف شيطان يختارونه ويستحسنونه، وربما يمزق كل واحد ألف مصيدة للمكر، ويربطون «زُنّار»[2] الإنكار على وسط كثير من الزهاد بدلاً من

(١) الأحزاب : ٢٦

(٢) بضم الأول وتشديد النون يونان Zonariom ، هو رباط كان أهل الذمة فى المشرق يربطونه بأمر المسلمين، حتى يتمازوا من المسلمين (برهان قاطع، فرهنگ معين) .

حزام الطاعة، ويلقون بكثير من العباد من زاوية القناعة إلى هاوية الحرص مكبلين بسلاسل الوساوس .

وفى النهاية ، حشر كل هذا الجمع وذهب إلى سفح ذلك الجبل الذى كانت صومعة[1] العالم فوقه، وأرسل واحداً مشهوراً بالجرأة والبسالة برسالة إلى العالم الزاهد يقول فيها : إننى زعيم وإمام شياطين الدنيا، أسترق السمع من ملائكة المساء، وإن قوله تعالى «فأتبعه شهاب ثاقب»[2] قد نزل فى شأنى. وعملى هو إضلال زهاد الأرض، وقد نزل فى شأن اتباعى قوله تعالى «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم»[3]. فكيف أنزل إلى مستوى مزاحمتك؟ فأنت الذى جئت تخطو بخطوات وسعه فى ميدان دعوى العلم، وتخدع العالمين بإظهار التورع وأمثال هذا التصنع، وبخداعك وكذبك. وتريد أن تشوه وجهه دولتنا المزين، وتشوش طرة دولتنا المتسقة .

والآن : لقد جئتُ حتى تجمعنا مناظرة تجرى بيننا فى حضور العلماء وفى مجمع واضح من علماء الفريقين وعظماء الثقلين، حتى تظهر الفصاحة والعلم لدى وعندك. فحفظ الشيطان هذا الفصل، وذهب. وعندما وصل إلى حضرة العالم، استولت عليه مهابته وعظمته، فلم يجد مجالاً للحديث «كأنه عَرَتْهُ بهتة أو أخذته سكتة». فسأله العالم : أى شيطان أنت؟ وأى شيء أتى بك؟ فقال : جئت من

(١) الصومعة : بيت العبادة عند النصارى ، ثم صارت مكان عبادة عند المسلمين .
(غياث اللغات به كوشش آقاى دكتر دبير سياقى) .

(٢) الصافات : ١٠

(٣) الأنعام : ١٢١

لدن الشيطان كاوپاى الذى جاء إلى سفح هذا الجبل فى جمع كبير من مردة العفاريت الشياطين، وعبدة طواغيت الطغيان، وقد أرسل عدة رسائل على لسانى لو أردت قلتها. فسمح له العالم، فحكى الشيطان كل ما كان قد سمعه. فقال العالم : إن كاوپاى : - بهذا العزم الذى جاء به - قد وضع قدمه فى ورطة الخطر، وساق الحمار فى الوحل، والحمامة إلى المضراب[1]، ويصدق عليه مَثَلُ الحظ السيء «أرى قدمك أراق دمك»[2] وربما قد أرادت الإرادة الأزلية أزالت خبثكم من على ظهر الأرض، وتطهير ذيل آخر الزمان من لوث وجودكم، وأن زمان إفساد الشياطين فى عالم الكون قد انتهى .

والآن : عندما تريد مثل هذه المناظرة والمنافرة فأقمها. وإن كان نصيبى من علم الإلهيات قليلاً، ولا تعدو عدة قطرات من محيط المعرفه اللامتناهى الراسخ فى أقدام النبوة والولاية «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»[3]. لكننى لدى من العلم القدر الذى لا أعجز معه عن السؤال والجواب، ولم استحوذ على خاتم العجز من صاحب التدبير، «إن تك ضباً فإنى حسله»[4] .

(١) المضراب : آلة من آلات صيد الطيور والاسماك، وتسمى الآن عند أهلها «الشبكة».

(٢) إشارة إلى بيت أنشده شيخ الإشراق عند قتله وهو :

أرى قدمى أراقى دمى وهان دمى فها ندمى

وأصل هذا البيت عند أبى الفتح البستى الذى يقول :

إلى حتفى مشى قدمى أرى قدمى أراق دمى

د. مهدى محقق : بيت كفتار ؛ ص١٢ .

(٣) الإسراء : ٨٥

(٤) يضرب فى أن يلقى الرجل مثله فى العلم والدهاء للدانى : مجمع الأمثال ؛ جـ١ ص٤٣ .

فرجـع الرسول، وقـد أحضر الأجـوبة، فسـأله كاوپـاى : ماذا وجدت بحق؟ وكيف وجدت ظاهر العالم الزاهد وباطنه؟ وكيف يمكن الاستـدلال بذلك على حسن أحوالـه أو سوئها؟ قـال : وجدته يابس الشفـه، دامع العين، أصفر الوجه، نحـيل الجسد، هيـئته كلها هيـبة وشيمته كلها لطف. وجدته يسوق الكلمات القاسية فى عبارات ناعمة لطيفة، يسقى الحق المرّ فى إناء التقريع مختلطاً بعسل التلطف،

تَمـازَج منه الحِلمُ والبـأسُ مثلمـا   يمازجُ صَـوبُ الغـاديات عَـقـار

فخاف كاوپاى جداً من حكايـة هذه الحال، وفكر فى احتمال أن يكون كل هذا عـلامات علـى الزهد ودلائل على احتـرافـه للشريعـة واتساعه فى الدين، الذى كان يبدو من عادات المتجردين والمتهجدين .

ويبدو أنه سـخَّر وحش طبـيعـته بالمجاهدة، ولـم يَعـد يُجلد فى كلامه الرسمى ، وأصبح يضرب بالسـيف فى جهاده الأكبر مع النفس الكافرة، ومن ثم لـم يعد يلبس الورع لنزالنا، لكننى ماذا أفعل ؟

لكنه عندما شرع فى الأمر، التزم به، ولـم يجد بداً من التقدم فى الأمر

مناظرة الشيطان كاوپاى مع العالم الزاهد

وفى اليـوم التالى، حـينما ظهـر طفل الصـبح من بين مشـيمـة الظلام، وتساقـطت طرة الليل من خلف أذن السَّحـر، نزل «كاوپاى» ومعه جيوش الشياطين عند ذلك الموضع، واجتمع جماهير الخلق، من شياطين وملائكة وآدميين فى صعيد واحد. وأجمعوا فى هذا الاجتماع على مواثيق العهود التالية :

- إذا استطاع العالم - فى هذه المناظرة - أن يتخلص من مضايق أسئلة كاوباى، وتمكن من الإجابة عليها، فإن جميع الشياطين سوف تتراجع وتتخذ من بواطن الأرض مسكناً ومأوى، وتستوطن المغارات العميقة، وتبتعد عن ملاحقة ومطاردة الآدميين، أما إذا هزم العالم من الشياطين أهلكوه. واستقر رأى الجميع على هذا ، وبدأت المحاورة بأن قال الشيطان: ما هى أقسام الدنيا؟ وكم عدد خالقيها؟

قال العالم : الدنيا على ثلاثة أقسام[1] : القسم الأول : مفردات العناصر والمركبات التى تتركب من أجزائها، وتلك لا تهدأ حركتها، ولا تبقى على حالٍ واحد ، بل إن التغير والتبدل من حال إلى آخر من لوازمها .

أما القسم الثانى فهو الأجرام العلوية السماوية، التى يكون بعضها ذا وجه متحرك مثل ثوابت الكواكب وسياراتها التى يطلق عليها الصعود والهبوط والشرف والوبال والرجوع والاستقامة والعلو والحضيض والاحتراق والانصراف والاجتماع والاستقبال، إلى غير ذلك من عوارض الحالات .

وتنسب - هذه الكواكب وسياراتها - إلى بطء السير وسرعته، وتأثير السعادة والنحس. أما بعضها فيكون ذا وجه غير متحرك حيث ترنُّو كل واحدة بينها فى دائرة فلك البروج، أو فى دوائر الأفلاك الأخرى التى تحيط بها فتحسبها فصوصاً ذهبية قد نقشت على الحلقة

(١) إشارة إلى تقسيم العوالم المشهور فى الفلسفة وهو : عالم العناصر ، الأفلاك ، والعقول والنفوس . د. مهدى محقق ، بيت كفتار ، ص١٦

الفيـروزية. أما الفلك الأعظم المحيط بجـميع الأفلاك والمتشـبث بها، فيدور بأمر فاطر السماوات، بطبيعته التى فطره الله عليها، وهو يحرك الجميع حـركة قسرية داخل تجـاويفه حول الكرة الأرضـية، والآخرون ثابتون وساكنون فى مراكزهم .

أما القسم الثـالث : فهو عالم العقـول ونفوس الأفلاك الذى هو جوهر طاهر من البساطة والتركـيب، وعارٍ من نسبة السكون والحركة، ومطهر عن الحـدثان وتغير الزمـان والمكانٍ، قد طهـر لباس فطرته فى ينبوع القدس والتحق بالخدمة فى بلاط عليين «فالمقسمات أمرا»[1]

أما الخـالق الواحد فهو مـبدع الكائنات، ذاته مقدسـة، لذا فهى تدخل فى إبداع وإيجـاد الموجودات «تعالـى عما يقـول الظالمون علواً كبيرا» .

قـال الشـيطان : مما يخلق الآدمـيون؟ وعلـى أى أساس جـاءت تسميتهم بـ«إنسان»؟ وكم عدد أرواحهم؟ وإلى أين يكون مآلهم؟

قـال العـالم : خلق البـشـر يتم من تركـيب العناصـر الأربعـة والأمزجة الثمانية مفردة ومركبة على سبيل الاعتدال. أما اسم «إنسان» فيطلقونه على القوة المميزة لديهم، فتعرف الحسن من السيء والصحيح من الفاسد، والحق من الباطل، والجميل من القبيح، والخير من الشر، والمعانى التـى يتصورها الإنسـان فى الذهن يخرجـها بواسطة مـقاطع الحـروف وفـواصل الألفـاظ، وذلك الجـوهر يطلقـون عليـه «النفس الناطقة»

(١) الذاريات : ٤

وروح الآدمين ثلاث حقائق قائمة بثلاثة أعضاء من الأعضاء الرئيسية :

الحقيقة الأولى : الروح الطبيعية التى تنبعث من الكبد، ويقاؤها يكون بالمدد الذى يأتى من القوة الغذائية .

الحقيقة الثانية: الروح الحيوانية، التى يكون منشأها القلب، ومنها يكون مبدأ الحسن والحركة، وقوتها مستفادة من حركة الأفلاك والنجوم النيرات.

الحقيقة الثالثة : الروح النفسانية التى يكون محلها العقل، ومنها ينشأ التفكير والتدبر ومثلما تطلب القوة النامية الغذائية فى الروح الطبيعية، فالقوة المميزة فى الروح النفسانية تنشد سعادة الدارين كلتيهما، وتتجند أسباب الشقاوة، واستمداد قواها من الأجرام العلوية والهياكل القدسية، وخلعة كمالها هى قوله تعالى «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب»[1]

أما المآب فهو إلى عالم الغيب، الذى هو مقام الثواب والعقاب، ولم تصلنا إشارة المكانية إلى اللامكان. قال الشيطان: على أى أساس نسقوا العناصر الأربعة؟

قال العالم الزاهد : هبط منها ما كان أكثر ثقلاً بطبعه، وارتفع ما كان أخف وزناً وثقلاً، فالأرض التى هى بارد يابس وأكثر ثقلاً من كل شىء ، جاءت شاملة للهواء ، والهواء شاملاً لها. والماء الذى هو بارد رطب، وأكثر ثقلاً من الهواء ، جاء شاملاً للهواء، والهواء شاملاً له.

(١) البقرة : ٢٦٩

والنار التى هى حـارة يابسة جـاء مركـزها ومـقرها أعلى من الثـلاثة السـابقـة، وقمـر مماسـها هو سـطح باطن الفلك، وبالرغم من أنهـا انفردت عن غـيرها فى أصل الخلق ومبدأ تكوين كل شىء لبـاطنها ، إلا إنها خلطت أجـزاء كل عنصر من العناصر الأربعة مع بعـضها من أجل تنظيم أمور العالم ومجارى أحوال الـعالمين وفقاً للحكمة ، حتى إنها إذا قلت فى عنصر ازدادت فى آخر، وتنتقل بتغير المزاج من حقيقة إلى حقيقة ومن ماهية إلى ماهية .

فالماء الذى هو البخار الذى يتصاعد - بسبب الرطوبة العارضة - من أجزاء الأرض بواسطـة حرارة الشمس، لهـذا نراه أكثـر لطافة من الماء، ولايستقـر فى مركز الماء والتراب بل يصـعد إلى الهواء، ويرتفع إلى أعلى ، وبقدر ما يكون أكثر ثقلاً من النار ، فإنه يتوقف عند حد معين، وعندمـا تصل رطوبته إلى ذروتها يتحلل، ويتـحول إلى مطر، وعندما تكتمل حرارته يصبح ناراً بإذن الله ولطفه .

قال الشـيطان : أى الأشياء أكـثر قرباً مـنك؟ وأيها أكثـرها بعداً عنك؟ ومـا هـو الشىء الذى لايمكن إعـادته؟ ومـــا هو الشىء الذى لايمكن امتـلاكه، ومـا الشىء الذى لا يمكن تعلمه؟ ومـا الشىء الذى لايمكن معرفته؟

قـال العالم الزاهد : أكـثـر الأشيـاء قربـاً منى - عن غيـرها - الأجل، لأنه كقادم قـد اتجه إلىّ، وأنا كمسـتقبل معـه جوادان أشهب الصبح وأدهم الليل، أتقدم إليه لرؤيته، ونلتقى سوياً .

هَذا مَـرْكـوبى وتلـك جنيبـتى   بهـمـا قطعتُ مـسـافَـة العـمـرِ

والشىء الأكثر بعداً عنى دون غيـره من الأشياء ، هو الرزق غير

المقدر لأن كسبه ليس فى مقدوره البشر، والشىء الذى لايمكن إعادته هو أيام الشباب وريعانه، لأنه ريحان بستان الأمانى، وطالما طوتها يد الزمان القوية، .ومن ثم لايمكن إعادتها إلى سابق رونقها.

والشىء الذى لايمكن امتلاكه هو السعادة التى انقضت، لأنه مثل السفينة المتحطمة التى اندفع إليها الماء من ثقوبها، وأوشكت على الغرق، وكادت تصل إلى القاع، ومن ثم فلا يجدى معها إصلاح الملاح. أو أنها مثل أوراق الشجر التى لايمكن أن يبقوا على واحدة منها على فروعها - وقت تساقط الأوراق - بكل ما فى الدنيا من حيل وبكل أنواع الإغراء .

أما الشىء الذى لايمكن تعلمه فهو الذكاء لأنه فى جوهر الفطرة، ويمنح من خزانة «يؤتيه من يشاء»، ولا يمكن تحصيله فى أى مدرسة تعليم قط .

أما الشىء الذى لا يمكن معرفته فهو كمال كنه الله وحقيقة ذاته، إذ لايستطيع أحد أن يتصور ذلك، يقول الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - وهو أعلم الخلق وأعرف البشر بكل الخفايا- عند عجزه عن إدراك الكمال وصفة جلال الله «لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»

ولما بلغ حدُّ جدالهم وحوارهم إلى هذه الدرجة، أرخى الليل سدوله عليهما، فتفرق الحاضرون كنجوم بنات النعش[1]، وتعلقت

(١) الجمعة

(٢) بنات النعش : مصطلح يطلق على نجوم الدب الاكبر وهى سبعة نجوم، ونجوم الدب الأصغر وهى سبعة نجوم أخرى، وبينهما (أى بين للمجموعتين) النجم القطبى، ويطلق عليها أحياناً بنات النعش الكبرى، وبنات النعش الصغرى .

ويضرب بها المثل فى التفرقة بعد الاجتماع يقول الشاعر :

عقــود الثريا بجـرس الجوزاء المتدلى من عـلاقة حمـائل الفلك، لوى كاوپاى عنان المعـارضة، و«أفلت وله حـصَاصٌ»[1]، وظل طوال الليل يتحسر فى لجة لجاجه، وتعوص فى بحر الندامة ذلك لأنه قد بدا نزوله منزلته عن منزلة العالم فى فنون العلم أمام جماهير الخلق.

وفى اليوم التـالى : عندما زين الله ستارة السـماء المعتمـة بأشعة الشمس الـذهبية، بدأ نمط آخـر من أنماط الكلام، وجاء كـاوپاى عند العالم الزاهد، واجتمعت حولهما طوائف الخلق.

قال الشيطان «كاوپاى» لماذا كانت مـحبة الدنيا؟ ولماذا يغلب على الناس الحرص والطمع؟

قـال العـالم الزاهد : من أجل تعـمـيـر الدنيـا، فلو لم يوجـد الحرص، ولم يعصبوا عين البصيـرة الآدمية بحجابه كى لاترى عواقب الأعمال، مـا اغتم شخص فى الدنيا بأمر غـد، وما كان لآدمى أملى قط فى تلك الفـاكهة التى لهـا مذاق الحال بالرغـم من أنها ذات طعم لذيذ. ولا غرس أحد فى الأرض غـصناً، ولا بذر بذرة من أجل قوته قط، وهو يعلم أن منها مـدد بقائه فى المستـقبل، وينقطع بذلك سلك

= وكنا باجتماع كالثريا فصيرنا الزمان بنات نعش

انظر فرهنگ معين ، فرهنگ عميد

كذلك : د. مهدى محقق ، بيت گفتار ص٢١

(١) الحصاص : الحَبَق، وفى الحديث، إن الشيطان إذا سمـع الآذان «ولى وله حصاص كحصاص الحمار».

يضرب فى ذكر الجبان إذا أفلت وهرب .

الميدانى، مجمع الأمثال جـ٢ ص٤٣٨ (وهو من أمثال المولدين) .

نظام العالم، غير أنه لم تتضح صورة أحد هذه الأشكال فى معمل الإبداع، ولم تتحطم أواصر المكونات .

قال الشيطان : ما هو جوهر الملائكة ، وما هو جوهر الآدميين؟ وما هو جوهر الشياطين؟

قال العالم الزاهد : جوهر الملائكة العقل الطاهر الذى لا دراية للسوء به قط . أما جوهر الشياطين فهو الطمع والغضب اللذان لا يولدان إلا السوء والقبح. أمّا جوهر العقل داخله تكتسى ذاته بلباس الملائكة .

وتسمع نفسه جميع التلقينات الروحانية، أما إذا استولى عليه جوهر الطمع والغضب فإنه يدخل فى صفة الشياطين، ويميل إلى الإلقاء الشيطانى فى عالم الأمر والنهى .

قال الشيطان ما فائدة العقل؟

قال العالم الزاهد : إنه يمسك بزمام ناقة طلبك، ويدفع بها فى الطريق السوى إذا ما أخطأت طريق الحق، وإذا ما لحقك الغم كان لك أنيساً. وجليسك الذى يرشدك إلى الحق، وإذا ما أنزلقت رجلك إلى مصادمات الوقائع كان معينك ومساعدك على الخروج منها، وإذا ما ألقى بك الزمن فى غيابات الفقر يوماً منحك مال الغنى من مستودع كيمياء سعادته، وإذا ما أصابك الخوف وجدت زمان فى كنف حفظه. إنه يصون الروح من الخطأ والخطل، ويحفظ القلب من النسيان والزلل.

إن كل من لروحه عقل، أدرك ماهية كل عمل.

فالعقل مرشـد ، والعقل ، هادى ، والعقل معين من أجل الداين
فـهـو المعطى وهو الآخـذ ، وهو المسـتـقـبل ، وهو الموصل
هو الوسيط بين الصورة والإدراك ، بهذه أصبح اللسان وبذلك أصبح الأذن.
إذا مـا لجـأ إليـه إنسـان جـعل السـهـا[1] بالعلم قـمـراً.
فـيـصـيـر بعـظمـتـه ملـكاً وبحـمـايتـه شـمـسـاً .

قال الشيطان : من هو العاقل بين الناس؟

قال العـالم الزاهد : هو الذى يعرف مـقام التـحمل إذا مـا ظلمه الناس، ويعلم أن التـواضع مع الناجزين من الكرم، ويعرف أن العـفو عند المقدرة واجب، ويدرك أعـمال الدنيا الفانية بسـهولة، ولا يخلو من التـفكير فى دنيـا البقـاء، وإذا مـا أصاب إحـساناً شكر الله بقـدر ذلك الإحسان، وإذا ما لحـقته إساءة أو أصابه سوء صـبر على ذلك، وإذا ما مدحه الناس ازداد فى طلـب محامد الأوصاف، وإذا مـا ذموه تحرز من مذام السيرة، سكوته محبة فى إيثار السلامة، وكأنه فتح باب رؤية المنفعة حتى يكون بين الناس كـالشمع يمنح العيـون ضياء بنوره وجـوده وإذا ما اعـتزل فى زاوية بحـثـوا عنه بالمصابيح، إنـه لا يطلب فسـاداً من أجل إصلاح نفسه، ولايقبل ثروة للسـعادة والسرور، ويسعى بدأب من أجل الحصول على مالم يحصل، ولايهن فى تحقيق مراده الصعب المنال، ولا يزداد سروراً بنيله «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»[2] .

(١) السُّها : كوكب صغير خفى الضوء فى بنات النعش الكبرى أو الصغرى ، وفى المثل : أُريها السها وترينى القمر (المعجم الوسيط) .
(٢) الحديد (٢٣) .

قال الشيطان : ما هو الشيء الموجود؟ وما هو الشيء غير الموجود؟ وأى شيء موجود ولا يمكن سلب الوجود منه؟

قال العالم الزاهد : إن كل ما هو موجود وما هو غير موجود هو كل ما بداخل فلك القمر من مفردات طبائع الأجسام ومركباتها التى تظل حقائقها موجودة دائماً، وأجزاؤها فى تلاشى وتحلل حتى أن كل ذرة منها ترجع إلى عالم العدم تحل محلها فى الوجود مرة أخرى على سبيل انتقال الصورة .

وذلك الموجود الذى لايمكن سلب الوجود منه هو عالم الألوهية والذات المقدسة واجبة الوجود التى ليس للفناء والزوال إلى وجودها سبيل.

قال الشيطان : ما هو الجزء الذى يحيط بكله؟ وما هو الجزء الذى كانت منه بداية الكل، وهو أشرف من الكل؟ وأى شيء يكون هزلاً من ناحية وجداً من ناحية أخرى؟

قال العالم الزاهد : الجزء الذى يحيط بكله هو العقل، فمنزله حُجب الدماغ ، فإذا ما ارتقى بالقوى النفسانية طوراً فطوراً، ودخل طور البلوغ أشرف - من حيث الإدراك - على العقل الكلى، وعلم ماهيته .

وذلك الجزء الذى هو ابتداء الكل وأكثر شرفاً من الكل هو القلب، إذ أنه نقطة ارتكاز فرجار الخلق، وهو منشأ الروح الحيوانية التى هى مصدر جميع القوى، هو بالإجماع أشرف كل الأعضاء والأجزاء .

والشيء الذى هو جدٌّ من ناحيـة وهزل من ناحيـة أخـرى هو الحكايات والأسـمـار الـتى هى من وضع العلمـاء الـبـاحـثين الذين جمعوها، ثم دونوها فى الأسفار والكتب من حيث إنهم حكوها على ألسنة الحيوانات، فإن لها وجهة هزلية، أما وجهتها الجدية فهى فى أنه - أى الأسمار والحكايات - جـميعاً تلميـحات وحكمها خفـية والجد المحض مندرج فى مضامـينها، حتى تجذب القارىء بميل طبـعه لمطالعة ظاهرها، وبذلك يقف على أسرار باطنها بطريق التوصل .

ولما بهت الشيطان، وأظهـر العالم الزهد بلاغته الكلاميـة، وحيَّر الحاضرى بأجوبته الحاضرة، وبسبب تقد العالم الدينى فى حلبة السباق رددوا هذا القول «جرى المذكى حسرت عنه الحمر»[1] .

واغتاظت الشياطين من تلك المداظرة، وكانوا «كالباحث عن حتفه بظلفه»[2] وهزموا جميعاً فى ذلك المكـان، وحلت بهم الخسارة وخيبة الأمل، فـدخلوا فى باطن الأرض، وأقـاموا مـسـاكنهم فى الوهدات والمغارات، وانتهى شـر مخالطته للناس حتى يعلم أرباب البـصيرة أن إعانة الحق وإهانة الباطلِ سنة الإله تعالى تقدس. فلا يتفق تقرير الزور مع تقرير الصدق، ولا يُخلف الجهل علماً، وينتـصر الحق دائما ويُقهر الباطل

(١) نصب (جـرى) على المصدر كـأنه قال : يجـرى فلان يوم الرهان جـرى المذكى. . يضرب للسـابق أقرانه .

للميدانى ، مجمع الأمثال جـ١ .

(٢) جاء هذا المثـل فى مجمع الأمـثال هكذا «كـالباحث عن المدية» ويضـرب فى طلب الشيء يؤدى بصاحبه إلـى تلف النفس. يقال إن رجلاً وجد صيداً، ولم يكن مـعه ما يذبحه به فبحث الصيد بأظلافه فى الأرض، فسقط على شفرة، فذبحه بها .

قادر كل من كان عالماً ، فبالعلم يستعيد القلب الهرم شبابه.

تمت قـصة الـشيطان والعـالم الزاهد، يأتى بعـد ذلك ذكـر باب «داومه وداستان» الذى نبين فيه شروط وآداب خدمة الملوك ليعرف عامة الحـشم والخدم وخـاصـتهم كـيف يضـعون القـدم فى تلك المسـالك والمدارج.

فلينر الحق تعـالى رأى مزين الممالك، وسـيد الدنيـا، قانون أهل الدنيا وقـدوتهم، وليطهر سـالكى هذا الطريق من غوائل الجـهل بنور رؤيته وهداية ألمعيته، وليجعله مصوناً ومعصوماً بمحمد وآله الطاهرين.

الباب الخامس

دادمه وداستان

دادمه وداستان

قال الأمير : سمعت أن أسداً كان متميزاً عن سائر الوحوش والضوارى بقلة الأذى والورع، ، متحرزاً عن التعرض لضعاف الحيوانات. وكان ملكاً آمراً للجميع. وكان متوطناً لغابة كأنما زرعوا أشجارها من أغصان دوحة الطوبى[1]. وكأنما جاء مذاق فواكهها من نهر عسلٍ فى الفردوس الأعلى. وقد سكنت الطيور على أطراف أغصانها هادئة البال كالنسر، كما استقر الدجاج على شرفات هذا الصرح الزمردى آمناً من قسى بنادق[2] الآفات. وترعى الغزلان فى مراتع خمائلها الخضراء آمنة من انطلاق سهام الحوادث مثل الجَدى والحَمَل[3] فى علياء المَرَج السماوى، لايصل أى شخص إلى القاصى أو الدانى من أشجارها. وقد قطع الزمان يد تعرض الجانى لمجانى ثمارها، ويقى نخيلها وأعنابها بخاتم بكارته كالكواعب الأتراب[4]، ولم ير رمانَ نهدها وتفاح خدها من كوة نافذة الأفنان غير الشمس

(١) الطوبى : الحسنى، وطوبى فى التنزيل «طوبى لهم» : كل مستطاب فى الجنة من بقاء بلا فناء، وعزٍ بلا زوال وغنى بلا فقر. (المعجم الوسيط) والمقصود هنا : شجر الجنة.

(٢) مصطلح «كمان كروهه» : هو ما يُطلق عليه العرب «قوس البنادق» أو «قوس الجلاهق» (برهان قاطع)

والدليل على ذلك قول المتنبى فى مدح سيف الدولة :

تصيب المجانيقُ العظامُ بكفه دقائق قد أعيت قسى البنادق

المتنبى ، الديوان ج١ ص٤٧٧ .

(٣) المقصود : الجدى والحمل وهما برجان من أبراج السماء (د. مهدى محقق، السابق ص٢١) .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى «إن للمتقين مفازا (٣١) حدائق وأعنابا (٣٢) وكواعبَ أترابا (٣٣)» النبأ (٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

والقمر، ولم يكشف عن فستق شفاهها ولوز عيونها غير ريح الصبا والشمال، ولم تصل أسنان الطامعين إلى شفاه أترجها[1] وعنق نارنجها[2]. ولم تخطف أيدى المتناولين خوخة من وجهها السماوى، وعارضها التفاحى، ولم ير عنابها عناءً، ولم يسمع عتاباً.

فاخضلَ من سقياه كلُّ مضرجٍ   واخضرَّ من رياه كلُّ مصنفٍ
وتلثمتْ شَمسُ النهارِ ببرقعٍ   من طرتيه والسماء بمطرفٍ

وكان للأسد نديمان وأنيسان من بنى آوى[3]، ذكيا الطبع، خيِّرا المحضر، بهيًّا المنظر، يدعى «دادمه» والآخر «داستان». وقد نال كلاهما - دون سائر خواص الملك من الخدم - مرتبة التقدم، وصارا مستشارين له ومحرمى أسرار المملكة. وكان هناك دب وزير للملكة كان فى فكر دائم من هذين الرفيقين الضئيلين اللذين صار إليهما مرجع حسم الأمور، خشية أن يتصديا يوماً له ولمنصبه، ويفسدا أمر

(١) الأترج : شجر يعلو ، ناعم الأغصان والورق والثمر ، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبى اللون ذكى الرائحة حامض الماء، واللفظ معرب. (المعجم الوسيط) .

(٢) النارنج : شجرة مثمرة ، دائمة الخضرة، تسمو بضعة أمتار، لها رائحة عطرية وأزهارها بيض عبقة الرائحة تظهر فى الربيع، والثمرة لبَّة تعرف كذلك بالتاريخ، عصارتها حمضية، وتستعمل أزهارها فى صنع ماء الزهر والعطور، واللفظ معرب. (المعجم الوسيط) .

(٣) ابن آوى : حيوان من الفصيلة الكلبية وهو أصغر حجماً من الذئب. والجمع بنات آواى وبنو آوى. (المعجم الوسيط) .

الوزارة عليه، قائلاً :

فـلا تحـقـرنَّ عـدواً رمـاك وإن كـان فى سـاعـديه قـصـر
فـإن السـيوف تحـزُّ الرقـاب وتعـجـز عـمّـا تنالَ الإبر

ومن ثم كان يحسدها على علو الدرجة والمنزلة، ودائماً ما يقول لنفسه : يجب علىّ أن أتدبر هذا الأمر، وأن تقع عينى على الوسيلة التى تبعدهما عن عناية الملك وأفرق بينهم، بحيث لايصبح لانثلامه إصلاح والتئام.

وذات يوم - حسب العادة الجارية - استراح الملك متكئاً، فاستغرق فى نومه، وجلس «دادمه وداستان» عند وسادته يتسامران وينفثان على سحر سُكْر نوم الراحة. وفى تلك الأثناء خرجت ريح - من مخرجها المَعتاد - من الملك، فانبعثت من «دادمه» ضحكة مفاجئة، وما إن شعر بها الملك حتى استيقظ، وظل فى مضجعه متناوماً متصامماً يتظاهر بالنوم حتى يسمع ما يكون منهما .

فقال داستان لصديقه : لماذا ضحكت على الملك؟ هل رأيت واقعة غريبة أو منظراً شنيعاً قد صدر عن الملك؟ وعلام تُحْمَل هذه الضحكة الباردة وهذا الاستهزاء المنكر؟

- أيها الأخ إن المزاج[1] إذا خلا من الفضلات، حينئذٍ يكون الآدمى ملكاً أو شيطاناً أو جنياً

- وإن لم يكن فى بدنه قوى ماسكه ودافعة، لما تفوق على طفل يخطو خطواته الأولى

(١) المزاج : هو الحالة الطبيعية للبدن. (فرهنگ عميد) .

- ففعل الطبع يأتى عن طريق التسخيـر لا اختيار فيه، سواء فى الجماد أو النبات، بل نحن فى المقدمة[1]

وغـيـر خـاف أن قلم التكليف قـد رفع عـن السكران والمجنون والطفل والنائم، وعَلامة قبـول العذر وعدم المؤاخذة على الإطلاق أن يُشاهد الفعل منـهم دون وجود رخصة من الشرع أو العـرف، غير أن عذر النائم أكـثر الأعذار قـبولاً وأقربهـا إلى العقل من كافـة الأعذار الأخـرى، لأن السكـر والجنون - مـثـلاً - لا يخلـوان من الحـركـة والسكون والفعل والاختيار، أمّا النائم فقد وضع عنان التصرف بأكمله فى يد الطبيعـة، وعقد قيد التعطيل على قـدم الحواس ومن ثم عُزلت قـوة الإرادة عن عمـله، ولذلك قال الحـكماء : النوم مـوت جـزئى والموت نوم كلى والنوم أخو الموت. ولقد قـرأت فى كتب الأخلاق : أن العاقل هو الذى لايعـير غيره بعيب مـلازم لذاته هو. وخادم الملك هو الذى يصـور عيبـه (أى عيب الملـك) على أنه فن وباطله على أنه حق، وهذا من مـقتضيات العـقل. والأوجب على خواص حـضرته والمقربين فى خدمته مراقبـة هذه الحال، لأن الذين يتعقبون زلة الأقدام يقفـون «على شفـا جرف هار»[2] فمن جـالس الملوك بغير أدب فـقد خاطر بنفسه، وهكذا جاء الخطّاب مـن جانب الكبرياء فى تقويم أكمل وأفضل الخلائق فقال «فاستقم كما أُمرت»[3] حتى يقول لسان النبوة من

(١) هذه الأبيات للأنورى، وهى فى قطعة بعنوان «در عذرقى كردن در مجلس شراب كفته» انظر : الأنورى : ديوانه، باهتمام محمد تقى مدرس رضوى جـ٢ ص٧٤٠ سنة ١٣٤٧ هـ ش .

(٢) التوبة : ١١٠ .

(٣) هود : ١١٢ .

هيبة نزول هذه الآية : «شيبتنى سورة هود»[1] .

فقال دادمه : إن صاحب العرض المنزه عن العيب واللسان الذى لم يجر عليه الكذب، والنفس غير المنسوبة إلى عار الجهل لايخشى من الضحك على أى شخص.

فقال داستان : ثلاث عادات من شأن الجاهلين: الأولى : أن يتخيلوا أنفسهم بلا عيوب. الثانية : أن يقللوا من شأن الآخرين فى مرتبة العلم. الثالثة: الاغترار بعلمهم متخيلين أنهم بلغوا النهاية فى العلم.

عندما تقول : إننى تعلمت كل العلم، وجمعت منه دون تمييز
إذن فالعظيم الذى يجلسك أمام المعلم، يقامر بالوقت

ومن لطائف عظة أرباب الحكمة : أنك عندما تبحث عن عيوب الآخرين لترى فضلك فلا تغفل عن البحث عن عيوبك لترى فضل الآخرين، لأن كل من لايقف على عيب نفسه وفضل الآخرين؛ لن يكون طاهراً أبداً، ولن يصل إلى درجة الفضلاء. وقد جاء فى الخبر «إذا أراد الله بعبدا خيراً بصره بعيوب نفسه»[2] ويقول أبقراط «كن فى الحرص على تفقد عيوبك كعدوك»

(١) هذا الحديث جاء بصور مختلفة ، ومنها هذه الصورة» شيبتنى سورة هود وأخواتها» فيض القدير، شرح الجامع الصغير. المناوى جـ٤ ص١٦٨ ، ١٦٩ ط الثانية دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م

(٢) «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين وزهده فى الدنيا وبصره عيوبه» هذا الحديث جاء بالصورة السابقة فى فيض القدير.
راجع فيض القدير شرح الجامع الصغير جـ١ ص٢٥٥

قال «دادمه» : إن من يشغل بتنقيـة نفسه الطاهرة من رذائل العيوب فمثله كمن يعكر صفو نبع ماء زلال ليعرف إلى أى درجة يكون صفاؤها من الكدر، فلا شك فى أن المبالغة فى الاضطراب تحيل صفاءها (النفس) إلى كدرة وأن التلوث المفاجىء يغير من لطافة أجزائها.

فـقال دادته : إن أى عـاشق لايرى عـيب المعشـوق - ولايكون لعاشق جرأة أمام الحـبيب ولهذا السبب فإنه دائما يرى مـحاسن نفسه ومساوئ الآخرين كقول القائل :

يا من تنـظر إلى نفسـك دائـمـاً ، وترى كل العمـر موقوف عليـها

فانظر إلى نفسك كما ينُظر إلى حجر ، فلربما ترى نفسـك كـزجاجـة بَقٍ

فكل من يرى أن دورة الفلك مسـاعدة له يتخيل أن الجـميع مثله فى هذا المزاج ، مثل ذلك المُنَّعم الذى يعيش صيـفاً فى قصره ، حوله غلمان بيض الوجـوه ، مزينين بأقراط الذهب ، سعيـداً بالمروحه التى تداعب شعـره ، ويظن أن التعـساء المحروقين من لفـح الشمس الذى يلسع قـفاهم ، لهم مـثل ذلك النصـيب من اللذة والراحة ، أو مـثل الغنى الذى يجـعل هواء الحجرة دافـئاً فى فـصل الشتـاء بتأثيـر شعلة النار، يتناول الشـراب الأرجـوانى على نغمـات الموسـيقى مع الحـور الحسـان اللائى يشبـهن الأقمار جـمالاً ، ثم يقـيس على نفسـه حال أولئك الذين قتلوا من قسوة برد الزمن وجو الحياة والذين ربما يرضون فى نهـاية الأمر بأن يضـعوا سواعـدهم مكان عيـدان الحطب على نار كانون الأغنياء . كل هذا يكون من باب الجهل والغـباء والغفلة وعدم النضج الذى يجعل عاقبة كل الرعية وخيمة .

والملك كلما جعل طريق الإنبساط مفتوحاً كان واجباً أن تجلس بعيداً عن بساط حشمته « فإن اتخذك الملك أخاً فاتخذه ربا وإن زادك إيناساً فزده إجلالاً ».

قال « دادمه » : هذه الضحكة خرجت منى على سبيل الخطأ حقاً، لكل الكلام الذى خرج من الفم ، والسهم الذى انطلق من قبضة القوس ،والطائر الذى طار من الشراك لا يمكن تصور عودته .

القولُ كاللبنِ المحلوبِ ليس له رَدٌّ وكيف يَرُد الحالبُ اللبَنَا

وهذا المعنى مقرر ، لأن الإثم ما لم يصر واضحاً فلا خوف من العقوبة، فأنه الآن آمن من إيذاء وبال هذه الخطيئة ، لأن ما حدث بينى وبينك قد انتهى ، وقد قال المجربون المحكنون الذين لاك حصان الأيام الأشهب لجام رياضتهم[1] : لا يتسع قلب شخص لسرٍّ شخص إلا قلب الصديق ؛

خزانة سرٍّ أعجزت كلَّ فاتح

ولو أنك احتفظت بهذا السرِّ تحت خاطرك ، فإن هذا لن يكون غريباً عن حسن عهدك وصدق ودادك .

قال داستان : ألم تسمع قولهم : عادتان من لوازم الجهلاء :

الأولى : أن الإنسان يقرض فضة لشخص آخر ثم لا يستطيع أن يستردها إلا بالتضرع والشفاعة .

الثانية : أن يودع الإنسان سرَّه لدى شخص يتطلب حفظه أن يقسم بغلاظ الأيمان وشدادها .

وقد قالوا : إن السرَّ هو الشيء الذى يكمن البلاء فى للمحافظة عليه ، والهلاك فى إفشائه مثلما حدث للصٍّ مع البرغوث، قال دادمه : كيف كان ذلك ؟

(١) كناية عن الحكماء .

حكاية اللصّ مع البرغوث

قال داستان : سمعت أنه فى وقت من الأوقات عزم لص على أن يتسلق بحبل إلى شرفة قصر الملك ، ويزحف بشجاعته نحو خزائنه ، واستولت غوغاء هذه الفكرة على عقله قشره ولبابه ، وامتلأ وعاء ضميره بها ، ونفدت طاقته فى إخفائها « والمصدور إذا لم ينفث جوى » . ولم ير اللص محرماً لائقاً ولا صديقاً موافقاً فى الدنيا كى يودعه هذا السر ، ولكنه عثر فى النهاية على برغوث فى ملابسه فقال فى نفسه : هذا حيوان ضعيف لا لسان له كى يحكى ، وحتى لو استطاع هذا !! فمتى يستحسن أن يفشى سرى وهو يعلم أننى أغذيه بدمى ؟!

وكانت روح المسكين فى بدنه مثل البرغوث فى السروال والحجر فى المتحف تبدى الضيق حتى يفضى بذلك السرّ له . وذات ليله أغار القضاء على روحه فتأهب لإرتكاب ذلك الخطر ، وألقى بنفسه - بشتى فنون الحيل - فى قصر الملك ، فوجد حجرة النوم خالية من الخدم مصادفة ، فاختبأ تحت السرير ، واختلط تقدير شجرة السياسة من أجله ، فدخل الملك ، وذهب إلى السرير ووضع رأسه على الوسادة رغبة فى النوم ، فخرج البرغوث من ثياب اللص ودخل فى ثياب نوم الملك، فأحدث كثيراً من الإضطراب، وعكر صفو الملك ، فأمر الملك أن يشعلوا الأنوار ويبحثوا جيداً فى ثنايا ثياب النوم ، فقفز البرغوث ونزل أسفل السرير ، ومن هنا وجدوا اللص أثناء البحث عن البرغوث ، فنفذوا فيه حكم العقوبة .

مشىَ برجليه عَمـداً نحوَ مصرعهِ   ليقـضىَ اللهُ أمراً كانَ مفـعولا[1]

وقد قلت هذه الحكاية لتعلم أن سر القلب لا ينبغى البوح به لكل حى .

وعندما انتـهت مناظرتهمـا غضب الأسد ، ومـزق قيود الصـبر وزمجـر زمجرة غـضب بعد نومه ، وأمـر فسجنوا « دادمـه » وشدوا وثاقه . وانطلق داستان فى حالـة سيئة إثر الموقف الذى ذُكر ، وذهب إلى باب السـجن متـأسفـاً ملتهـفاً ، وبدأ مع دادمـه بعتـابات مثـيرة للإضطراب وكلمات مـخلوطة بالسم ، فكان يستأصل كيـانه بالتثريب والتوبيخ ، ثم قال : إن العلماء قالوا : لا تبذل المـال إلا بمقدار اليسار حتى يثمر للمحـتاج ، والكلام الذى لم نقله فى حقك يسقط القدر ، وطرف اللسان الذى يمكن فيه الخطر فالأولى أن يكن مقطوعاً وكذلك: الأفضل من الضرر من كثرة الطعـام الضرر من قلة الطعام ، والأفضل من الحزن على كثرة الكلام الحزن على قلة الكلامِ .

مـا إن ندمتُ علـى سكوتى مـرةً   لكن نـدمتُ على الـكلامِ مـراراً

وهكذا قـال براهمة الـهند الذين ملكوا الحكمـة فى البيـان : إن الكلام قبل قوله يشبه الفـتاة المخدرة البكر ذات الطبع المرغوب والقلب المحبوب ، التى للخطاب رغبة صادقة فيها أمّا الكلام المقول مثل المرأة القبيحة التى تتحايل حتى تروج سوق زواجها الكاسد ، وقد قرأت من لطيف كلامـهم أيضاً : أن السكوت سـترِ لعورة الجـهل وزهرة لعظمة العلم ،

(١) هذا البيت تتضمن فى شطره الثانى جـزءاً من الآية الكريمة « إذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً » الأنفال / ٤٤ .

إن صاحب العقل المتسرع العجول ، يكون كـثيـر الكلام قليل الإدراك
لا ثروة لك أفضل من صولجان العلم ، ولا زينة لك أفـضل من الصـمت

وقد عدّوا صـفتى التجسس وتعـود اللسان ذكر الفحـشاء والمنكر دليلاً على رذالة الطبع وسفالة النفس ، وقد كنت تصر على استحسان صورة حالك ،

فـإلى أين تنتهـى بنفسـك ؟

قال دادمه : إن الخوف يا داسـتان هو أن أردد : « السجن أحب إلىّ »[1] بسبب غبن كلامك ، فأنت تعذر الملك برغم ما صدر منه ، وتجعل الفعل طبيعة والسلـب اختياراً . لماذا - إذن - لا تعذرنى بهذا العذر ؟ ولكن ماذا أفعل ؟ لقد جبل ابن آدم على هذا !!

لقد تبسمت الأيام بسبب نظر العبد

وكل دموع الحسـرة التى كانت تتساقط من عـيون الورد هى بمثابة الضحكة التى كانت تنبعث من برعم وردة السحـر فى الدنيا ؛ وقهقهة الزجاجـة التى تكون فى الحلق الآن هى التى تصفـى دماء القلب بدلاً من الدموع .

لا تَحْـسبنَّ سُـروراً دائمـاً أبداً مَنْ سَـرَّه زمنٌ سَـاءته أزمـانُ

اعلم يا داستان - بعد ذلك - أن الحظ عندما ينقلب أجمل فكرة فى أسوأ عبارة ويحاسبون على اللغو القليل الذى يأتى سهواً فكيف بما

(١) يوسف / ٣٣ .

جاء عمداً ؟ وهكذا المزاج المراض الذى كلما زاد الاحتياط فى ترتيب الغذاء وقـاعدة الاحتمـاء انحرف عن سمه الاعـتدال بقليل من الزيادة التى يتطلبـهـا الأمر ، وعلـى العكس من ذلك إذا أتى الإقـبال فـإن المتحدث الذى لا يملك من أهلية الحديث إذا زاد كلمة نفع واحده ظهر ركيك الكلام متيناً محكماً ، ومن ثم استقر فى مقاعد سمع القبول ، ومن هذا القبيل أيضاً : رامى السهام ذو السـاعد الضعيف يصيب بكل سهم خرج من قبضته هدفه إذا ما ساعده الحظ ، أما إذا أعرض الزمان عن طريق موافقته فإنه يفقأ عين البصيرة ، ويجعل النهار المضىء أمامه ليـلاً حالك الظلمـة مثلمـا حدث لذلك الرجل مع الـهدهد . فـقال داستان كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الرجل الطيب مع الهدهد[1]

قـال دادمه ، سـمعت أن رجـلاً كـان قد تعلم لـغة الطـيـر فى مدرسـة « علمنا منطق الطير »[2] وكان يتمتع بأصوات بغبغاوات قصر العرش وطواويس الحديقة القدسيـة ، وكانت له صداقة مع هدهد فرآه ذات يوم جالساً على قمة جدار فـقال له : أيها الهدهد : حافظ على نفسك فى هذا المكان الذى تجلـس فيه ، وكن متـيقظاً لأن هذا المكان مكان كمين لقـناصى القضاء . فـهم يصلقون سـهم البلاء من قبـضة الحوادث من هنـا ، وقافلة ضعـاف الطيور تجـتاز هذا المكان باحـتراز وحذر .

(١) يشير ذلك إلى النبى سليمان عليه السلام .

(٢) سورة النمل / ١٦ .

فقال الهدهد : إن هذا المكان به طفل يضع شراكاً لصيدى وأنا أشاهده متمتعاً لأنه يضيع الوقت عبثاً ويتعب دون جدوى .

فقال الرجل الصالح : لقد قلت ما علىّ ، ثم ذهب ، وعندما وجد الهدهد أسيراً فى يد ذلك الطفل ، قال له : ألم تكن تضحك على وضع شبكة ذلك الطفل وتضييع وقته ؟! ولقد كانت الحبة أمامك كما كان الفخ واضحاً ، فما موجب الوقوع فيه ؟ فأجاب الهدهد : ألم تسمع الخبر « الهدهد إذا نقر الأرض يعرف من المسافة ما بينه وبين الماء ولا يبصر شعيرة الفخ لينفذ ما هو فى مشيئة الله من القضاء والقدر »[1] . وغير خاف أن مراد الرجل هو إظهار جمال المصلحة بواسطة عين العقل ، فكلما نزع الغطاء عن المراد أدرك سمة النقصان فى كل جوانب أموره وأحواله .

ولقد أسرعت فى تزيين طرف الثوب ووضع القلنسوة الحريرية المرصعة، وطِرت بمنتهى السرعة والمهارة، واعتمدت على ذكائى الحاد، وكانت الحبة باعثاً لى على ذلك فأوقعتنى فى الشرك ، وأعلم أن قلم الإرادة عندما كتب ذلك وسجّل رقم الحدوث فى الأزل ، كانت طيور شجرة الملكوت تخرج من عش العصمة ، وينصبون الفخ كباعث ، بل إن آدم الصفى الذى له قلب السريرة يحكى عن نقش ألواح الغيب فى عالم الشهادة ، والذى كان يظهر تفاضلاً مع الملأ الأعلى بعلمه ،

(١) أورد الجاحظ هذه العبارة تحت عنوان « الهدهد » فيقول « ويروون أن نجدة الحرورىّ أو نافع بن الأزرق قال لابن عباس : إنك تقول إن الهدهد إذا نقر الأرض عرف ما بينه وبين الماء والهدهد لا يبصر الفخَّ دُوَيْنَ التراب،حتى إذا نقر التمرةَ انضم عليه الفخ فقال ابن عباس : « إذا جاء القدر عَمِىَ البصرا » .

عبد السلام هارون : تهذيب الحيوان للجاحظ ، ص ١٠٧ ط الخانجى القاهرة سنة ١٩٨٣ .

فرأى حبة القمح ونبـذ الفخ برغم أنه علم عداوة إبليس وسـمع وصية « لا تقربا هذه الشجرة »[1] فلماذا صار أسيراً خداع النفس وغرورها ؟

- صرت غير موفق كما يهوى العدو ، فمـا دمت أنا منك فأى قـصد للأيام
- إن قلبى طـائر يحلق عـاليـاً ، لكنه سقط فى شبـاك الزمن بقضائه[2] .

فعلم الرجـل الصالح أن كل ما يقـوله الهدهد مـحض الصواب وعين الصدق ، فـأعطى الطفل درهمين واشتـرى ذلك الهدهد وأطلق سراحه .

وقـد قلت هذه الحكاية حـتى لا تتركنـى فى وحل هذه المخافـة ومخلب هذه الأمة ، ولا تستحسن الكثـير من هذا التوبيخ والتقريع ، أمّا ذلك الذى تنفقه من وقت فى التـقريع والتشنيع علىّ ؛ فالأولى أن تجهد فيه فكرك لتدبير أمرى .

دَعْ عَنْكَ لومى فـإنَّ اللومَ إغـراءُ وداونى بالـتى كـانـتَ هى الداءُ

فرقَّ قلب « داستان » من هذا الكلام ، وازدادت الحرارة فى قلب «دادمه» ثم قال داستان لدادمه : لا تجعل للتوجع طريقاً إلى خاطرك ، ولا تتصـور أن أى مُلم أو مهُم أو داهيـة من الدواهى سوف تجـعلنى غافـلاً ذاهلاً عن إنجاز أمرك لأن حـقوق الأخوة ثابتـة بيننا ، وكذلك عقـود الموالاة والمؤاخاة مـؤكدة ، وقـد قال الفـرس ؛ المـال ينفع يوم

(١) البقرة / ٣٥ .

(٢) البيتان للخاقانى الشروانى .

انظر : خاقانى شروانى تصحيح ومقدمة وتعليقات ، دكتر ضياء الدين سجادى ص ٥٦٧ تهران ١٣٣٨ .

الشدة والصديق ينفع زمن المحنة ؛ وهناك أربع خصال فرض عين على الأصدقاء فى شريعة المروءة وهى :

الأولى: عندما يصيب الصديق بلاء فإن صديقه يشاركه بنفسه فى معاناته.

الثانية : عندما يسئ الصديق التفكير فإنه يلوى عنان عزمه عن طريق التنفيذ ولا يتركه ينتهى إلى الفعل .

الثالثة : ألا يتأخر عن معونته بسبب المنافع والمشاغل .

الرابعة : أن يقدم إتمام مهماته على عوارض حاجات نفسه «انصر أخاك ظالماً أومظلوماً » غير أنه ينبغى أن ينبه إلى الإشارات الدقيقة التى وردت ضمن ثنايا هذا الحديث حتى لا ترتطم قدم فهم قاصر النظر بحجر الخطأ فيفهم أن الشارع قد حرض هنا على إعانة الظلم ؛ ولكن المراد من نصرة الظالم هو منعه عن الظلم ، فلا مانع عندى من حفظ دمك ومالك لأن الصديق للصديق ، وقد روى فى فوائد حكماء الهند أن : من لا عمل له لا أجر له ، ومن لا صديق له لا راحة له فكن هادئ البال .

لو لم أصانعك لكان هذا من أجلك أيضاً

وسوف أذهب إلى بلاط الملك ، وانظر طبيعة مزاجه ، وسوف أسلك كالشعرة من العجين[1] بتخمير التفكير والتدبير .

(١) استفاد الكاتب من المثل العربى « خرج مثل الشعرة من العجين » وهذا المثل شائع لدى الفرس ، وقد استخدمه السوزنى السمرقندى فى قوله :

چون طبع رام مخيم كردى به زهر وپند زان كفته هاچومى برون آى ازخمير

= وترجمته : طالما أقمت الطبع بالزهد والنصح ، فأخرج مما أنشدت مثل الشعرة من الخمير .

د. محمد محمد يونس، السوزنى السمرقندى ص ٢١٠ ط٢ مكتبة الشباب سنة ١٩٨٩م.

قال دادمه : آمل أن تنمو سيرة الصفاء ، ولا تدخر ما فى الوسع فى سبيل الإبـقاء على حق وفائى وإظهار فرط حـسن الأصل وطهارة العرق . لكن العقلاء من الناس لا يحبـون زيادة الإختلاط فى صحبة المحزونين والمحـتاجين إلا بقدر مـا يتعلق بالضـرورة ؛ لأن المحنة مثل النار الملتـهبـة تحرق من هو أقـرب إليـها بسـرعة . وربما ينتـهى هذا النحس المستمر من أيام خيـبتى ، فتنقطع عنى لأنهم قالوا : إن الجهل مرض نفوس الناس ، وسوء الحظ الملازم لحال الناس هو مرض يجب الإحتـراز من عدواه باتخـاذ الحيلة ، فلو لم يجب ترك الأصـدقاء فى حالة المرض ، فلا يجب أن تؤثر علة مرضه عليهم ؟

ألم تَـرَ أنَّ المرءَ تَـدْوَى يَمِـــينُه فـيقطـعَهـا عـمداً ليـسلمَ سَـائِرُه

والآن عندما يستقـيم لك نجم سعادتى ، يجب أن يُحرس ويُرعى حتى لا يبقى الألم بلا فائدة مثلما فعل الملك العالم مع كسرى ، قال داستان : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حـكاية كـسرى مع الملك العـالم

قال دادمه : سـمعت أن خصومة وقعت بين كـسرى وأحد ملوك العصر ، وظهر لدى كل منهـما باعث على انتزاع الملك من الآخر . حتى وصل الأمر إلى قيام الحرب بين الطرفين ، فلم يتـردد فيها بينهما سفير سوى السهام ، ولم يدر بينهما حوار إلا بأسنة الرماح . فنظموا صفـوف المعركة ، وحـاربوا حرباً عظيـمة وانتصـر كسرى آخـر الأمر وهبت رياح النصر على طرة الراية وقـرطها الشبيـة بالهلال ، والقت

ريح دبور الأدبار بتراب الخسارة فى كأس الخصوم ، فهزموا وشردوا ، وحملوا الملك إلى كسرى أسيراً ، فتلا كسرى صاحب الهمة الملوكية والسيرة العظيمة - فى ذلك الوقت- « إذا ملكت فاسجح »[1] وقال : لا يليق بالرجل أن يبخل بالمومياء على كسير النفس ، وينبغى له أن يرفع من أوقع به لأن هذا من سنن الكرم ، أما نقض العهد مع الآخرين فهو من عادة اللئام ، وكذلك مدُّ يد العقاب على الجميع ، ووضع قدم الإحتقار على عنق كل من قُدِر عليهم ليس إلا من عادات السفهاء والسِفلة ، وفطرة سيئى السمعة وخصال التافة الحقير .

ثم أمر به حتى يُعاد مع زوجته وأهله على سبيل الإعظام والإحترام بالسلاح والعدة والأدوات والأهبة والخيول ، فلهث الملك بالثناء على كسرى والحمد والمدح والإمتنان له ، ثم قال : هذا الأمر هو غاية الفتوة وعلو الهمة ، لكننى أتوقع أمراً لو كتب له القبول فلسوف أرى علامات سعادتى وتوفيقى .

فقال كسرى : لا حيلة فى عدم الإجابة على كل ما يجول بخاطرك .

فقال الملك : يوجد نخيل فى بستان القصر الذى أحضرونى إليه، فأريد أن تمنحنى إيَّاه حتى أصير مجاوراً لك بعد عام واحد . فتعجب

(١) الإسجاحُ . حسن العفو ، أى ملكت الامر علىّ فاحسن العفو عنى واصله السهولة والرفق ، قال ابو عبيد : يروى عن عائشة أنها قالت لعلى رضى الله عنهما يوم الجمل حين ظهر على الناس فَدَنَا من هودجها ثم كلمها بكلام فاجابته ملكت فاسْجِحْ اى ملكت فاحسن . فجهزها عند ذلك بأحسن جهاز وبعث معها اربعين امرأة وقال بعضهم سبعين امرأة حتى قدمت للدينة .

الميدانى : مجمع الامثال ؛ جـ٣ ص ٢٧٨ .

كسرى من هذا الكلام أيما تعجب ، بل ربما اختل رأسه ونقص عقله من هول هذه الواقعة وخوف هذه الحادثة التى أوقعه الملك فيها ؛ لأنه يسأل سؤالاً بهذه الركاكة ويلتمس التماساً بهذه الخساسة . . وإلا ما للملوك والمطامع الدنية ؟!

وبرغم كل هذا ، فقد منحه حاجته ولم يبتذل رأيه ، فأعطاه بستان القصر والنخيل . فكان الملك يرى أن أوراق وثمار ذلك النخيل وثماره تتساقط كل أسبوع ويجدها فى طريقها إلى الذبول والإصفرار حتى لم يعد هناك أمل فى بقائها .

وذات يوم – حسب العادة – شق طريقة إليها ، فرآها وقد صارت فتية من جديد مثل حظ السعداء ، إذ تفتحت عقدة التغضن من أغصانها كالجبين المتهلل الأسارير ، وفُتح ما انسد من عروقها وكأنها هى البرعم المتفتح ، وكأنما هى النافجة المتفتحة . وازدانت بلون العرائيس ورائحتهن الجميلة ، وشمخت برأسها فى الحلة الخضراء والحرير الأصفر كشجرة « چنار »[1] ذات الألف يد .

طيبها من جوهرها وطبعها مثل العود المحترق ، وصورتها من الخارج وقدها من الداخل مثل الرسام

وذهب الملك – من هناك – لزيارة كسرى ، فأخبره عن رؤاه لحال الشجرة فقال : كنت قد قرنت قرعة التفاؤل هذه المرأة باسم هذه الشجرة ، ورأيت تشابهاً بين حالى وحالها فى رؤيا الأمانى ، واليوم علمت أن شأنى قد ارتفع من حضيض التراجع إلى عهد التراجع ، وهكذا ظهرت هذه الطراوة والرونق على الشجرة بعد تغير الحال التى

(١) شجرة من الشجر غير المثمر ، المرتفع جداً ، يصل طولها إلى ثلاثين متراً ويقال لها «چنال» أيضاً . « فرهنك عميد » .

كانت عليه ، وسوف يأتى أمرى وفقاً لنسق أمور السلطنة . فياليتك ترسلنى اليوم إلى مكانى اللائق وتفكر التفكير الذى يتفق مع العناية بى والعمل من أجلى !!

فأرسله كسرى - فى ذلك الوقت - إلى بيته (أى بيت الملك) مصحوباً بالأهبة والجلال والأبهة فى ملابس التمكين ومعارض التزيين ، فوصل الملك برغبته إلى مملكته وسلطانه .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تتدخل يدك الآن فى إصلاح أمرى ومن ثم تنتهى محنتى ، ويصبح السعى الذى تسعاه مؤثراً ، والبذور التى تبذرها مؤثرة ،

ويمضى هذا الألم عنى مثلما ، مضى ملك خاقان ودولة قيصر

قال داستان : إن البعد عن الصديق وإدارة الظهر إلى أمره فى كل أوقات السوء التى يأتى الزمان بها على الأصدقاء أمر بعيد عن قضية المكارم وسجية الأكارم ، بل يجب على الصديق أن يكون واحداً فى حالة الشدة والرخاء والخيبة والرجاء ، وسوف أذهب الآن إلى بلاط الملك وأبحث عن خلاصك بلطائف التدبير ، وأوصل الأمر إلى مخلص الخير وأظهر فُرجة الفرج من مضيق هذا الحبس .

وانطلق داستان من هناك صوب بلاط الملك ، وتصادف وجود الدب عنده ، فـفكر داستان فى نفسه قائلاً : إننى لو تكلمت فى موضوع دادمه فى حضوره، فسوف يخرج بواعث العداوة من صدوره، ويطلق لسان الاعتراض ، ويبدأ بقوادح العرض ، ولن يسمح لكلامى أن يقع فى نصاب القبول . ولو تكلمت فى غيبته ربما يصل إليه الخبر فيتحين بعد ذلك الفرصة ويهدم أساس كلامى كله فى

خلسة من الوقت ثم يسقط قواعد سعيى ، ويجتهد فى إبطال هدفى ، ويزيف كل ما قررته فقد قالوا : إن مكيدة الأعداء وتدبير الخصوم تأتى مستترة فى حجاب الأمر ، أما الماء الذى يخفونه تحت مقعد الحيلة فهو الذى يوصل الخصم إلى غوطة الهلاك بسرعة « وما حيلة الريح إذا هبت من داخل » ثم فكر ثانية قائلاً : - إن الكلام فى حضوره أولى ، لأنه لو تقدم (أى الدب) لمدافعتى فى الظاهر ، وعبّر عما تمكن فى باطنه من الحقد على دادمه ، فلا شك أن الملك سوف يعلم أن كلامه جاء بدافع غرض فاسد شرير ، وأنه مشوب بشائبة الحسد ، ولو أطلق - حينئذٍ - سهماً من قوس التعنت فلن يصيب هدفه .

وأخيراً افتتح داستان الكلام بالدعاء للملك ، ثم قال : إن من كرايم عادات الملوك ومحاسن شيمهم منح العطايا ومنح العفو عن الخطأ ، لأن استغناء الناس عن المال ممكن ، لكن الإنسان لا يتصف بالعصمة الكلية عن الذنوب ، وخلاف محققى الشرع واسع فى هذا الأمر ويصل إلى أربع آلاف ومائة وعشرين نقطة ، وبرغم كمال حالهم ربما يخرجون من هذه الدائرة وربما لا يخرجون .

فإذا كان دادمه مجرماً فاعترافه بجريمته سوغ شفاعتى له ، فلو أسدل الملك ذيل العفو على عثراته ما بعد عن كمال الأريحية وكرم السجية ، والكريم من عفا عن قدرة .

وعندما سمع الملك هذا الكلام علم أن داستان ليس له غرض أو مقصود من هذا الكلام وهذه المقدمات سوى حسن السمعة للملك وإشاعة ذكره بحسن السيرة ، وليعلم أن حماية جانب دادمه فرع من ذلك الأصل .

وبذلك روّض داستان جموح طبيعة الملك ، وأمسك بزمام الاهتمام إلى جانبه وطأطأ رأسه ، فظل الملك فى موقف التردد والتحير وقتاً ، فعلم الذئب أن سكوت الملك دليل رضاه ببراءة دادمه. فيجب عليه أن يأخذ العدو الذى يقع بالضرب والركل ضربة قهر حتى لا ينهض ، ثم قال : إن الملك يعلم جيداً أن الناس سيئى الجوهر والطوية مثل الثعبان فى اللدغ ، والثعبان الذى يصير مؤذياً يجب أن تضرب رأسه ، وإلا فلا يمكن التوقى من سُمِّه الزعاف ،

وكم من قائلٍ إنى نصيحٌ وتأباه الخلائقُ والرواءُ

واعلم ياداستان أن كل من أخفى جرم المذنبين عن السلطان ، وأراد أن يجمل وجه حالهم بتزوير باطل تحت ستار تقرير الحق ، وأن يبرز - مُموها على الناس - مقابحه فى لباس الزينة والمحاسن هو خائن وغادر ومبادر إلى نبذ حقوق ولى نعمته .

فقال داستان : ليس كل من يتحدث فى أمر الذنب والتقصير يكون ذنبه حقيراً ، لأن العاقل لا يعتذر عن فعل طيب مطلقاً ، ولا يخجل شخص من فعل الخير ، وقد قال العقلاء : تنقسم كل الذنوب الصادرة عن الناس إلى أربعة أقسام :

الأول : الزلة الثانى : التقصير

الثالث : الخيانة الرابع : المكروه

ولكل ذنب عقوبة لائقة ، ومكافأة معينة موافقة ، فعقوبة الزلة العتاب وعقوبة التقصير الملامة ، وعقوبة الخيانة القيد والسجن ، وعقوبة المكروه مكروه مثله كما نزل فى محكم تنزيله « وكتبنا عليهم

فيها أن النفس بالنفس ﴾[1] الآية ، وجعل العفو والتجاوز زينة قواعد السياسة وجمل الحدود الشرعية بلباس هذه المجاملة ، لأنه قال ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾[2] .

وذنب دادمه - من خلال هذه الأقسام - ليس سوى زلة ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يكون معصوماً منها ، ومن ثم نقول : إن الملك لو يقتصر على هذا التأديب ، ويُطهر زاوية الخاطر من غبار الكراهية ، فإنه يكون قد مضى على سنة كرام الملوك .

والعُلى مَحْظُورةٌ إلا علَى   مَنْ بَنَى فوقَ بِناء السَّلفِ

قال الدب : فى شريعة السلطنة وعاداتها أن الملك يجب عليه إظهار التحرز والتوقى من كثير من أجناس البشر ، وتوقع الإيذاء منهم، فإنسان يعزل من عمله دون جريرة ، وآخر يصادق عدوه ، وآخر يرى منفعته فى خيانة الملك ، وآخر يطلب أن يكون له مكافأة على خدماته الكثيرة فلم يجد ، وآخر يفشى سر الملك بين غير المحارم .والآن : يجب أن يؤاخذ دادمه على مثل هذا الجرم ، وألا يُعتمد ، فلن يأتى استعطافه بنفع .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا[3]

قال داستان : إن دادمه أجبر وخادم يخدم املك ، ونديم قديم الخدمة، وجليس المجلس وأنيس المحرم وأمينه، وقد صدرت عنه سيئة

(١) المائدة : ٤٥

(٢) المائدة : ٤٥

(٣) هذا البيت للمتنبى من قصيدة له مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا   وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا. المتنبى : ديوانه بشرح البرقوقى جـ١ ص ١٩١

سهـواً ، وقد أثبت كثيـراً من حسنات الأعمـال على صحيفـة سجل الطاعة والانقياد ، فلا ينبـغى إلقاؤه بمثل هذه الصغائر فى موطن اتكاء الذل والصغار ، وقد جال القلم فى مرضيات خدمته ومقتضيات طاعته ،

فإنْ يكنِ الفـعلُ الذى سَاء واحداً   فـأفـعـالهُ اللائى سَـرَرنَ أُلوفُ[1]

فلو يعفو الملك عن هذه الهـفوات ، ويغمض عن الكرم عنها ، فلا شك أن الرعية سيعرفون ذلك جيداً ، مما يجعل للملك فائدة الثناء على كمال رأفته .

ثم التفت إلى الدب وقال : إننى أثبت اسمى فى سـجل الشفعاء « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها »[2] ؛ لأننى « داستان » فكن أنت أيضاً « داستان » ، ولا تعرض بالوقـيعة لصاحب الواقعة ، واشفع بتدبير شفاعتى وحديثى حتى لا تبقى بين مقتسمى هذه السعادة بلا نصيب ، لأن فاعلى صفقة الخير جمـيعاً ليسوا خاسرين ، كما أن القانعـين لا يخيبـون ألبتـة « إنَّا لا نضيع أجـر من أحسن عـملاً »[3] وعندما وصل كلامهم إلى هذا الحد ؛ قـال الملك : ارجعوا اليوم حتى أنظر بعين الإمعان والتيقن من أى وجـوه المصلحة يمكن مباشرة ذلك ؟ فـخرجـوا ، وذهب داستـان إلى باب القصـر ، وتلا ما حـدث على مسامع دادمه ، ثم قال له : والآن : لا تغتم لأن ضوء صباح النجاح قد بدأ يظهر، وتباشير البشر على أسارير الملك تشعر بحصول الغرض ،

(١) البيت للمتنبى من مقطوعة له مطلعها :

ومتسب عندى إلى أن أحبه   وللنبل من يليه حيف   المتنبى ، الديوان جـ١ ص٤٤٨

(٢) سورة النساء : ٨٥

(٣) سورة الكهف : ٣٠

فإذا جاءت عقدة تأخير للأمر ، أو عاقته عقبة ، وظل وجه المراد تحت ستار التعذر بسبب ما ، فلا ينبغى أن ييأس ،

فإذا كان الحال أكثر حلكة من ذلك ، فسيكون أمل القلب هو الضياء
فلا تنظر إلى الليل الذى يجعل ذلك الزمان أكثر حلكة لأنه سيكون نهاراً[1]

فقال دادمه : لم أرد أن تتحدث فى أمرى ، فى أيام انقلاب الحال وزمن اضطراب الأمور ورواج سوق نفاق الخصم ، أو أن تتشجع فى المجاهرة بأمرى معه ، لأن وقع الكلام السئ فى حق الرجل الشجاع يؤثر مثل تعبير الرؤيا السيئة فى أحوال أرباب المحنة ، فيجب على الرجل العالم أن يجلس ساكناً فى موضعه فى وقت الإبتلاء مثل القطب الذى يتأمل حركة هذه الطاحونة[2] وهى تطحن الناس حتى يتم خلاص كوكب السعادة من ظلمة كسوف ؟ الأدباء ، فيستريح من زمن سوء الحظ مثلما فعل بزور جمهر مع كسرى ، فقال داستان كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية بزور جمهر مع كسرى

قال دادمه : سمعت أن كسرى تنزه ذات يوم مع بزور جمهر فى بستان قصره وجلسا على حافة حوض يتأملان بطاً يعوم على صفحة الماء اللامع ، كل بطة على شكل زورق فضى .

(١) البيتان من قطعة للخاقانى راجع ديوان خاقانى ، چاپ دكتر سجادى ص ٨٦٥
(٢) يقصد الدنيا .

واحدة كانت تلقى بنفسها إلى الشاطئ بواسطة كف رجلها مثل الملاح ، وواحدة مثل اللاعبين المهرة الذين يتعلقون فى سلم الهواء على سطح دجلة ، ثم يقفزون على رؤوسهم فى الماء ، وواحدة تغتسل غسل جنابة السفاد من اخمص القدم حتى أعلى الساق ، وواحدة تتوضأ لرفع حدث الملامسة وأحياناً يفرشون السجادة على الماء ثم يصلون - مثل الزهاد - أمام كسرى ، وأحياناً أخرى يضربون بأجنحتهم على الماء فيحدثون فقاعات مثل غاسلى الملابس الذين يغسلون لباس البحر ، وأحياناً يلقون بدرع الغدير على شكل الغدائر المعتبرة ، والمسلسلة حلقة فى حلقة وعقدة فى عقدة .

وكان كسرى يلبس خاتماً من الذهب الثمين فى يده ، ويلعب به دائماً . ذلك الخاتم المرجانى الذى لم يضع الكون مثله فى حقُة فم أى معضوق ، وهو اللؤلوة التى لم يلف الزمان مثلها بأهداب أى عاشق، ولم تر عين أى نرجسة برداً مثله ، ولم يرب رحم أى صدف سلالة مثله .

فوقع الخاتم أثناء الاستغراق فى هذه الحالة ، فالتقطته بطة بمنقارها وابتلعته ، وكان بزور جمهر يشاهد ذلك ويخفيه ، إلى أن ذهب كسرى إلى بيت خلوته ، ثم جاء بزور جمهر على مهل .

تذكر كسرى ذلك الخاتم فأرسل رجلاً معتمداً ، حتى يبحث بجد بليغ فى ذلك الموضع ، فبحث الرجل كثيراً فلم يجد شيئاً . وكان كسرى يخشى من تغابن تضييعه أن ينفرط السلك المنظوم بالجواهر فى عينه دموعاً .

فأحضر بزور جمهر وسأله: كيف يَعود ذلك الدُّر اليتيم إلى اليد؟ ومثل هذا الدر اليـتيم لا يضيعه الـله ، لكننى الآن حزين القلب على ضياعه فما علاج هذا الأمر ؟

وكان بزور جمهر يرى بحكم ذلك أن طالع الملك فى ذلك الوقت موبَّلاً ونحوس الكواكب ناظرة إليه بنظر العـداوة ففكر فى نفسه : أنه لا يمكن الإشـارة إلى بطة بعينهـا من بين ذلك البط المشتـبه فـيه الذى يصل عدده إلى الألفين .

ولو قلت على سـبيل الإجـمال : إن الخاتم فى بطـن واحدة من البط ، أخشى أن يؤخر تأثير الطالع السئ إصابة الحكم حتى يذبح بط كثيـر فإذا لم يجد الخـاتم ، يغضب كسرى ، وينسـبنى إلى الجهل أو الخيانة . وأمضى بزور جمهر ذلك اليوم فى التفكير ، ولم يقل شيئاً ، وعندما خرج كـوكب الإقبال والسعد عن الوبال ، وصـار الطالع معه كما كان يرغب ،

السـم فـى كـأسـه صـار سـكـراً ، والحـجـر فـى يـده صـار جـوهـراً

ثم أسرع إلـى بلاط كسرى وقـال : - ليكن جوهر سـيف الملك منيراً لليل حـوادث الأيام دائماً . إننى أرى اليوم بشعاع مـلوكيتك فى مرآة فراسـتى أن الخاتم فى بطن واحدة من هذا البط ؛ لأنهم جمـيعاً طلبوا الخاتم مثل الغواصين وكانوا يجوبون أطراف الحوض . فلو يأمر الملك أن تذبح عدة بطات يمكن للخاتم أن يؤدى ديتهم بعد مدة .

ويحكم الأمر ذبحــو أول بطة فوجدوا الخاتم فى درج حــوصلتها فأخرجوه بطرف السكين ، وبعد عــدة قطرات من الدم الأحمر السيال والياقوت المذاب ، نزل الخاتم كقطرة ماء خلالها ، ووسط هذا الذهول سأل كسرى بزور جمهر : لم لم تخبر بهذا الأمر أسرع من هذا ؟

فقال بزور جمهــر لم أكن أرى سعادة الطالع على طريق المساعدة ففكرت فــى أننى لو قلت لخلط مشــعوذ الأراضين السبــع هذا الجوهر بزبرجد النهار مع ســبح الليل ، فيخفيــه عن أعين الأوهام ، ويخرجه بعيــدا عن يد التصرف بالتزوير ، أمــا اليوم فإننى أجد أن إقــبال الملك معاون وموافق للأيام ، ومن ثم قلت هذا الأمر ، وهكذا حدث .

وَقَد يُوافِقُ بَعضُ المنيةِ القَدرا

وقد قلت هذه الحكاية حتى لا تســعى فى شأنى بلا فائدة لأن أى كلام يمكن أن يقال فى حضرة المـلوك وله وقت خاص ، قال داستان : إن تأثير الكلام فى النفوس الإنسانية يكون بحسب الاعتقاد ، فلو أنظر فى قلب المـلك ، وأرى أن قصده يتساوى مع عنايته بى « تعارضا فتساقطاً »[1] وكانت كفة مقصودى غير راجحة ولا مرجوحة فى ميزان التجربة .

وكانَ كَفافاً لا عَلىَّ ولا لِيَا

فإذا كان فى بادئ الأمــر صلباً ، ولم يلن بالكلام المبين والحديث الحاسم فلا أقل من ألا يزيد فى غلظته .

(١) إشارة إلى القاعدة الأصــولية الشهيرة : الشيئــان إذا تعارضا تساقطا كل شيء يرجع إلى أصله . راجع د . مهدى محقق ص ٢٣

وفى اليوم التالى : أخرج هذا اليوسفى الوجه العَلوى النسب رأسه من مغارة سجن بيت الظلمة ليرى القمر مع الكواكب فى سجدة تقرب من أجل اقتباس النور منه . فأحياناً يدنو بهاء جماله من برج الميزان وأحياناً تبدو درجة كماله فى ارتفاع برج الدلو .

وذهب داستان من أمام بيت السجن إلى بلاط الملك لاستخلاص دادمه . فقبل أرض الخدمة ، ورفع يد الدعاء إلى السماء وقال : «الصادق يرام إذا وعد والبارق يُشام إذا رعد » . لقد جددت أمس - أنا العبد - حديث ذلك العبد القديم فى الخدمة ، وأنا أجد نضارة الملك دليلاً واضحاً على عفوه ، فلو يوفى اليوم بهذا الأمل ، ويوفى بحق عبوديته من ذمّة كرمه يكون قد أحيا سنة كرام الأسلاف ، وأذاع صيت كرم الأعراق ولطف الأخلاق فى الأطراف والآفاق ، وطيّب المسامع بطيب محامد الأوصاف، ولو لم تكن واسطة جريمة المجرمين؛ فكيف تظهر فضيلة العفو ؟

لولا اشْتِعالُ النَّار فيها جَاوَرتْ ما كانَ يُعرف طِيبُ عُرفِ العُودِ

وسعد روحاً من قال :

إن الزيت المصرى والمسك التبتى مزكى للشعبان ومطيب للرائحة الكريهة دائماً .

وعندما سمع الدب هذا الكلام ، اشتعلت نار البغض فى داخله، وأمسك بقارورة القدح فى كلام داستان وقال : كل من يعلم أن جرم الرعية حقير لا يعلم أن عفو الملك عظيم ، وكل من يعد الأثيم برئ الساحة لا يعلم حق تجاوز الملك ، وأنكرت هذه الوقاحة بشدة وقال : ليس بأول قارورة كسرت ، إن التقصير والجريمة والإثم والندامة يأتى

جميعها فى حق الأتباع . وقبولها وإجابتها جميعاً متوقع من العظماء دون إصرار أو شرط لكن حديثكم قد انتهى بالتطويل فى النزاع والدفاع، وضيقتهم مجال التطويل ، وما دام الكلام يأتى عار من ستر الحياء والخجل ، فإن وجه الحقيقة سيظل مغطى لغرض ما ؛ ثم تسرى نار الحسد من بواطنكم إلى ساحة الملك والدولة ، ولكنه سوف يبتعد عن معاداتكم ومواجهتكم لغرض خاص ، لأن الفتنة العامة ستصل إلى أدنى الولاية وأقصاها ، إن داستان برغم أنه يحفظ جانب الأصدقاء فى هذه الأحاديث ، وهذه أفضل الخصال وأشرف خلال الرجال إلا أنه يريد من وراء هذه المعانى اقتناء دخائر السيرة الحسنة ، واجتناء ثمرات حسن حفاظنا . فلو يعاقب كل خادم بكل خطيئة تأتى منه فسوف تنتهى عادة خدمة الخادم للمخدوم من الدنيا .

فلو أَخَذَ اللهُ العبادَ بذَنبِهم أعدَّ لهم فى كلِّ يومٍ جهَنَما

وليس هنالك من شبهة فى أن لك هدفاً من هذه الكلمات الموحشة فى حق دادمة ، وهو ألا تتقدم بقية طوائف الخدم الأخرى عن طريق الجسارة إلا بحسن الأدب ولا يتجرأون على ارتكاب الجرائم ، ويمسكون اللسان عن البحث فى المعايب ؛ لأن النفس الآدمية هى منبع المعايب ومنشأها . والآن يجب عليك الابتعاد عن المشاحنة والمداهنة وترك التملق والتزوير والمراوغة وقول العيب كذلك .

وحقيقة العلم هى أنه لو لم يكن لدوران الفلك وسير الأنجم اتفاق آخر باختلاف الرجوع والاستقامة التى تعتمد عليها ، ولو لم يكن لقلم المشترى وعطارد لسان واحد ، ولو لم يتسع نطع واحد

لسيف كل من الشمس والمريخ ، ولو لم يتوافق التراب مع الماء ، ولو لم يلتـزم الهواء بمكانه بعـيداً عن حزام سـرج النار ما وصلت صـنعة الخلق إلى درجة الكمـال ، وما انتظم سلك هذا النظام ، وما شـيدت الأرض والسماء مـثلما جـاء فى نفى الشرك وإثبـات الـوحدانية ، قال تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »[1] .

وعندما رأى الدبُّ عناية الملك بدادمـه على هذا النحو خجل من كل ما كان قد قاله له ، وأخذ فى مسح أذن جريمة الطبع وعضَّ إصبع ندامة العقل . وجـعل حديث المـلك طريقاً للتسليم وأظهـر من نفسه الاستسلام ، وشغل نفـسه بتصويت الكلام وتذييله ، ونهض من أمام الملك تحت ستـار لُعَب الخجلى . ثم ذهب إلى البيت وجلس مـتفكراً مغتـماً . وعلم أن فى خلاص دادمه ، والتجاسـر الذى كان دائماً فى مقصـوده ، والعداوة التى كان قد أظهـرها (أى الدب) وإخراج سر ضميره من ستار الكتمان على هذا النحو جرحاً لا التئام له . ومن ثم انطلق ذلك السهم من قبضة قوس الكفاية خطأ .

فقال فى نفسه : لو شرعت فى المصالحة بعد هذه المكاشحة لكان ذلك اضطراراً لابساً لباس الاختيار، وتمحلاً فى الطبع قد أتى بتكلف، وتكملاً من عين الرضا[2] . فكيف يمكن تدارك هذه الواقعة ؟

(١) الأنبياء : ٢٢

(٢) إشارة إلى قول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

وعين الرضا عن كل عين كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا .

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، تحـقيق محمـد عبد الرحمـن عـوض ص ٣٢ ط دار الكتب العلمية سنة ١٩٨٤م

وكان له أرنب صديق يدعى « فرّخ زاد » مشهور بفطانة الذهن ورزانة الرأى ، عالم بالأمور ودستور فى بعد النظر ، وكان مقصد الأصدقاء والأحباء المحتاجين ، وكان ابن بجدة[1] الرشد والكياسة والحدس والفراسة فى أبناء جنسه، فذهب إليه بهذه الحالة من الذعر ، وعندما دخل الأرنب من باب بيته وجد الدبَّ مضطرباً بهذه الصفة ، ملتهباً فى نار الهم والغم - فسأله : ما هذا الاضطراب ؟ وما موجب وجود عقد العبوس على الجبهة ؟

فحكى الدب له الحال وما حدث ، وأخرج من قلبه نفثة المصدور التى تكون من ودائع صدور الأحرار .

فقال فرخ زاد : كل من يشرب من كأس الدنيا الغرورة لا ينظر إلى عاقبة الأمور ، ولا يتذكر المخرج فى بداية الفكرة . ودائماً ما يكون مشتت القلب مختلط الذهن مضطرباً فى الأمور ، فلا يكون منه أمر حسن ، لقد فكرت أن رأى الملك فى « دادمه » يقبل تغييراً ، وأنه سقط السقطة التى لن ينهض بعدها ، لكن وقيعتك لم تحظ بالقبول « وهيهات استسمنت الورم ونفخت فى غير ضرم » . وليس هنالك حسرة ، والرأى هو أن الإنسان لا يصل إلى الناس من خلال فعله ، فالمرء حسن الرأى ، ألمعى الفكرة ذكى القلب سليم الفطرة عندما لا يرى اشتمال الكلام على منفعة محضة يصمت عن الحديث ، ويعلم أن الامتناع عنه واجب إذا علم أن فيه مضرة ممكنة الوقوع ،

(١) أى عالم بالرشد ويقال أيضاً هو ابن مدينتها وابن بجدتها من مَدَنَ بالمكان ويجد ؛ إذا أقام . ويقال : البجدة : التراب : فكأن قولهم أنا ابن بجدتها ، أنا مخلوق من ترابها . الميدانى مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٤

دون أن يعلم ضرورة تحمله على عدم الامتناع ولا يوقع نفسه فى تحمل أعباء ذلك الكلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] .

والعاقل هو الذى لا يفضل العدواة على الصداقة ولا يرجح العزلة على الألفة والرفقة . ولقد قالوا : ينبغى أن يكون العدو مثل الكرة البلورية التى توضع فى زجاجة ، ثم يخرجونها من وقت لآخر ينظفونها ويغسلونها ويفعلون كل ما فى وسعهم فى سبيل ذلك ، حتى يأتى اليوم الذى يرون فيه حجراً كبيراً متيناً ، فيضربون الكرة على ذلك الحجر ويحطمونها قطعاً صغيرة فلا يمكن تركيب أجزائها أو تأليفها .

فكل من يمسك بعنان جواد الهوى ويثبِّت القدم فى ركاب الصبر فإن قرين عاقبته هو السعادة والنشاط مثلما حدث مع ذلك التاجر فى زوجته . فقال الدب كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية التاجر مع زوجته

قال فرخ زاد : سمعت أن تاجراً غنيًّا فى بلخ ، كان يكاثر بثروتها - من كثرتها - خزائن البحر ومعادن البر ، وبعد فترة من الزمن تقهقر حاله عما كان عليه ، فتراجع إلى الخلف وأنفق الموروث والمكتسب من ماله فى تتابع أحداث الزمن ، فصار حقيراً كالح الوجه فى أعين أهل البيت والأصدقاء والأبناء، وأصبح لا منزلة له ولا قدر .

(١) حديث صحيح أخرجه الترمزى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه راجع : ابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ص ٩٧ ط دار نهر النيل د . ت

وذات يوم استحسن الهجرة من الموطن ، فشدت أسباب الفقر والفاقة زمام ناقة نهضته صوب مقصد بعيد ، وذهب إلى مدينة فى أقصى بلاد المغرب ، وأخذ معه رأس ماله إلى أن ذهبت الأيام بأثقاله ومتاعبه ، ورجع إليه الحظ ثانية ، ووصل بالنعم الوفيرة إلى الحظ الموفور الذى كان قد فرّ منه . وظهرت أسباب رجوعه إلى وطنه ومسقط رأسه .

ملأتُ يَدى فاشتقتُ والشوقُ عادةٌ   لكلِّ غريبٍ زَالَ عَنْ يده الفَقْرُ

فقال فى نفسه : كان هنالك حياء فى الرّجوع قبل ذلك ، أما الآن فقد زالت هذه الموانع عن الطريق . والرأى هو أن أرجع إلى مدينتى والعيال التى كانت فى حوزتى لأنظر ، هل خاتم صيانتى ما زال موجوداً أم لا ؟

ولكن إذا رجعت بالعدة والأسباب والعبيد والدواب والأثقال والأحمال فذلك يشبه البستانى الذى اقتلع شجرة مثمرة وحملها بثمرها من مكان ليزرعها فى مكان آخر فيستحيل نمو هذه الشجرة أبداً ، ولا تنبت ولا تقبل الترشيح والتربية .

كدابغةٍ وقد حَلُمَ الأديمُ(١)

ومن ثم فالأولى أن أذهب بمفردى دون علائق وأنظر إلى أى طريق صار الأمر ؟ وماذا علىّ أن أفعل ؟ ثم ابتدر الطريق وسار حتى وصل إلى مدينته ، وانتظر على أطرافها حتى تلونت مفارق الآفاق

(١) يضرب للأمر الذى انتهى فساده ، وذلك أن الجلد إذا حلم فليس بعده إصلاح ، ويروى هذا المثل عن الوليد بن عتبة حيث كتب إلى معاوية يقول له :

فإنك والكتاب إلى على   كدابغة وقد حلم الأديم   الميدانى : مجمع الأمثال جـ٣ ص ٣٥

بسواد الليل ودخلها متوارياً متنكراً فى حجاب الظلمة ، وعندما وصل إلى باب داره وجده موصداً ، فصعد إلى سطح المنزل من الطريق الذى ألفه ونظر من النافذة ، فوجد زوجته نائمة مع شاب آخر فى واحدة من أجمل ثياب النوم ، فسرت رعشة الحمية والإباء فى أعضاء وجوارح الرجل ، وجرح قلبه من مطالعة ذلك الحال جرحاً غائراً ، فأراد أن يستل السيف وينزل فيصنع من دميهما مرهماً يعالج به جرحه ، لكنه - مرة أخرى - أخذ عنان التملك فى يد الكفاية ، وقال فى نفسه : ليس من شروط العقل أن يكون الإنسان أسير نفسه وهواه حتى يفكر أولاً فى تحقيق هذا الحال . فلربما أخبروا بوفاتى بسبب طول غيبتى ، فأمر قاضى الزمان بنكاح زوج آخر بسبب قلة ذات اليد وعلة الإعسار[1] .

ثم نزل من هناك وطرق باب الجار ، ففتحوا له الباب ، فدخل وقال لهم إننى رجل غريب ، قادم من مكان بعيد ، وهذه الدار المغلقة كانت لتاجر غنى جداً ، وكان يستقبل الغرباء ويحسن إليهم وكنت أنزل إليه هنا كل وقت فأين هو ؟ وكيف حاله ؟

فحكى الجار واقع الحال فكان الأمر كما ظن ، فراجع تفكيره من لوح التقدير الصحيح ، وأدى شكر الله تعالى على صبره ، وقال الحمد لله الذى لم يحول وبال هذه الأفعال السيئة من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل[2] وربط عقال عقل يد تصرف الطبع .

(١) إشارة إلى القانون الفقهى فى باب الطلاق وهو : أنه إذا طالت غيبة الزوج ، ولم يصل خبر عنه أو بعث بنفقة إلى زوجته ، يحق للحاكم أن يطلقها إذا طلبت .
د. مهدى محقق ص ٢٤

(٢) إشارة إلى فكرة الوجود بالقوة والوجود بالفعل وهى فكرة فلسفية بالمعنى العام.
د . مهدى محقق ص ١٧

وقد قلت : هذه الحكاية حتى تعلم أن العجلة من عمل الشيطان وأن عدم الصبر من باب الجهل .

فقال الدب لابد من فعل الشيء الذى لا مجال لتأخيره أو تعليله قبل أن يخرج الأمر عن حد التدارك .

قال فرخ زاد : وهو أن تدخل مع دادمه فى باب المصالحة وأن تترك باب المكاشحة والمقاطعة ، وتقابل نفض غبار التهمة بخفض جناح الذل[1] وتشغل نفسك باستمالة الخاطر ومحو فساد ذات البين الذى حدث بين الجانبين فذهب فرخ زاد من هناك إلى بيت داستان ، وطلب منه أن يداوى جرح القلب الذى كان قد أصابه بسبب دادمه ، وسأل عنه (أى عن دادمه) بحرارة ، ثم ذكر بعض الكلمات الطيبة والسيئة والناعمة والخشنة، بعضها سبب الوحشة والآخر سبب الألفة، هذه الكلمات هى التى كانت قد حدثت بينه وبين الذئب ثم وضع أمامهما قطع العذر والعتاب التى هى أحلى من قطع السكر ، كما ألقى بلسان ذرب النكات اللطيفة التى كانت مثل حب البندق الذى يكسره كل منهما للآخر . وكان يخرج لباب كل من البندق والنكات ، وينتزع الفائدة التى تزين كلام ذوى الألباب وأظهرها فى كل باب ثم صنع المعجون الذى لو كان الدب قد ابتلعه بصعوبة لعاد حال مزاجه مع دادمه إلى الصلاح . ثم ذهب من هناك إلى باب السجن فآنس دادمه ساعة بلطائف التحايا والسؤال عن أحواله الماضية ، وقال إن السبب فى عدم مجيئى إلى حضرتك حتى هذا الوقت هو أننى أعلم أن رؤية الأصدقاء فى قيد البلاء ، ومشاهدتهم فى حبس الآفة أمر

(١) إشارة إلى قوله تعالى «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ..» الإسراء : ٢٤

صـعب. ولـم يكن فى مـقـدورى أن أضـع قـدمـاً لسـعـى جـدير باستخـلاصهم ، لكن الجميع يعلم أننى لم أكن خاليـاً أبدا من صفاء النية وصرف الهمة إلى أمرك ، ولمـا كانت اليد لا تصل إلا إلى الدعاء رفعـتهـا إلى الله تعالى ، ولم أترك مـقدار شـعرة واحدة مـن دقائق الإخلاص ظاهراً وباطناً . ومن ثم فقـد ظهر الآن نور صبح الأمل . بيمن همة الأصدقاء المخلصين ، وامـتدا ظل مساعدة الحظ وأتى الملك بكبير عفوه .

أما أنت فلا تحزن بسبب إصابة هذا المكروه ، حتى لا يستمر غبار العار دثار وشعار أحوالك بسبب هذه الحادثة .

فلا تَجْـزَعَنَّ للكبل مَسَّكَ وَقْعُـها فـإن خَلاخِـيلَ الرِّجـالِ كُبـولُ[1]

وقد قـيل : إذا وصلت الآفة إلى المـال فاشـكر حتى لاتصل إلى البدن ، وإذا وصلت البدن فـاشكر حتى لا تصل إلى الروح « فإن فى الشر خياراً »[2] .

فقال دادمه : إن العقوبة متعقـبة للجناية ، والجانى مستحق للعقوبة ، وكان من يعيش مستبداً مفتخـراً بنفسه ، يلفت وجهه عن استمداد مشاورة المشفقين الناصحين والرفقاء الصالحين لا تأتى له الأيام إلا بالفشل .

(١) البيت للطغرائى من لاميته المشهورة انظر الطغرائى : الديوان ص ٤٥

(٢) ورد فى مجـمع الأمثـال : «بعض الشرّ أهونُ من بعض» وهذا من قـول طرفة بن العبد حين أمر النعمان بقتله ، فقال :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

يضرب عند ظهور الشرين بينهما تفاوت . وهذا كقولهم « إن من الشر خياراً » .

الميدانى : مجمع الأمثال : ، جـ١ ص ١٦٤

قال فرخ زاد : لو أن الدب قد ألقى ببعض الكلمات غير الموافقة لرأينا فى حضـرة المـلك ، يجب أن يُعلم أن المقصـود من ذلك ما هو إلا استعمال الرأى وفق المصلحـة والاسترسال مع طبع الملك الذى قد لا يكون من واجبات أحـواله . وعندما وجده الدبُ متغيـراً متنفراً من جانبك فلو كان قد ذهب بمناقضة قـوله ومعارضته لكان هذا بعيداً عن قضـية العقل . فطريق إلقاء الكـلام له سمات خاصـة ونسق منفصل على حـده . فلو كان اللســان الطلق والقلب الجرئ مـساعـداً لمجارى تلك المكالمة فيجب أن يكون وقت تمشيـة الأمور - وبخاصة التى على خلاف الإرادة - موافقاً له ، ويكتال ببعض كيله .

ولو كـان هو كل الريح ، وقـوله تعـالـى « وجادلـهم بالتى هى أحسن»[1] إشـارة إلى مثل هذا المقـام ، وعندما هدأت ثورة غـضب الملك وصار مستريحـاً عن ذى قبل ، وجرت على اللسان الكلمة التى كانت لائقة لسيرته الحمـيدة وخلقه الكريم ، وكان يراعى فى حضرته شرائط حـفظ الغيبـة التى تنهض بين قضـايا الفتـوة والمروءة فى خلعة جميلة وحلية لائقة. وقد جاء هذا مستدعياً لمزيد من الشفقة والرحمة. فيجب أن تطهـر قلبك من غبار العداوة والحقد ، كمـا يجب أن تبعد قاذورات الكدرة عن مشروع المعاملة .

أقـبل معـاذيرَ من يأتيكَ مـعتـذراً   إن برَّ عندك فـيمـا قـال أو فَجَـرا

حتى تحل عقـدة التعسر دفـعة واحدة عن الأمر ببـركة الإخلاص

(١) النحل : ١٢٥

ويمن الصفاء . فبعث فيه فصلاً حاراً من هذا القبيل ، وأظهر الاستعطاف الذى هزّ أعطاف محبته ، ثم قال : يا فرخ زاد :

والله إن الذى يرى وجهك فى طلعة الصبح يومه لمبارك .

علم الله أننى استرحت من كل الأدواء المبرحة عندما وقعت عينى على مثل هذا اللقاء ، وصرت مستأنساً برؤيتك الكريمة فى بيت الوحشة (هذا) ومكان الهم ، ووجدت الراحة فى لطف هذه المحاورة وسعادة هذه المجاورة ولا شك أن كل ما قاله علىّ لائق للحال ومناسب للمقام .

ولم يكن من الممكن الحصول على طرف الخيط إلا بهذا الرفق ، ولم يكن من الممكن كذلك إطفاء نيران غضبه إلا بمياه هذه اللطافة ، وأنت لست محتاجاً إلى إدلاء أى عذر فأنت معذور فى كل ما قلت ومشكور عليه ، ومذكور على لسان العقل . وباختصار « هدنة على دخن » ، فجدد عهد المصادقة . ثم ذهبا من هناك إلى الملك متفقين ، واطلقا لسان الموافقة والإخلاص لخلاصه ، فوقف الملك على صفاء عقائدهما ، وأنهما لا يريدان سوى الذكر الطيب وإشاعة ذكر المخدوم بالحلم والرحمة وإذاعة حسن سيرته ، وأنهما لا يبحثان إلا عن ترغيب وتقريب الخدم على طريق الطاعة والخدمة .

فأمر بتخليص دادمه ، فخرج وذهب إلى بلاط الخدمة ، وقبَّل عتبته بشفة الاستكانة على عادة المقهورين ، ومثل مع أقرانه وأمثاله على عتبة الطاعة منكس الرأس خجلاً . وعندما نظر الملك إلى ملامح وجهه علم أن سبيكة فطرته قد وصلت إلى العيار التام بذلك الخلاص من الحبس ، ولم يبق منها شئ من غائلة الغش والغل ، وأنه قد قبل

التأدب والتهذيب ، وأنه قد بدل السفاهة بالنباهة .

وقـد يسـتقـيمُ المرءُ فـيمـا ينُويه كمـا يَسْتَقِيمُ العـودُ من عَرْكِ أذنه

إن الطين قد قاسى كثيراً وسط البوتقة ، حتى صار فى النهاية بدفع الصداع عن الرأس[1]

وأخذ داستان - بأمر الملك - بيد دادمه، وأوصله إلى يد التقبيل، فأبـدى الملك عاطفـة ملوكيـة ،وأمر - مـتلطفاً - أن يفـتح له طريق الانبساط أمام بساط الخدمة ، ثم قال : لقد سترنا ذنبه بستر الكرامة ، وعفـونا عما قـال وفعل ، واتبعنا هـذه الحال قوله تعـالى « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »[2] حتى يكون هو وبقية الحاضرين - فيما بعد - منتبهين حـاضرى النفس ، يعرفون مواضع الكلم ومواطئ القـدم ، وأن يتكلمـوا بالكلام الذى يلقى القـبـول وليس الذى يُلقى بالجهد والتـعب على أسماع وطباع المـستمعين مثلمـا حدث لنديم من ندمـاء ملك الهند ، فـقال الحـاضـرون : لو سـمح الملك يقص تلك القصة حتى نستفيد من عظتها .

(١) البيت للخاقانى من قـصيدة مشهورة فى رثاء الإمام محمـد بن يحيى وحادثة حبس سنجر فى فتنة الغز .

الخاقانى ، الديوان ط دكتر سجادى ص ١٥٧

(٢) الشعراء : ٢١٥

حكاية ملك الهند مع النديم

قال الملك : سمعت أن ملك الهند كان له نديم ماهر عالم ، ذرب اللسان ، فكان يكيل الدر على ذيل الزمان وقت المحاورة ، وكان يملأ ظرف الزمان والمكان[1] كليهما بظرافة طبعه ، وكان خفيف الروح محبوباً يدخل فى ستر جميع القلوب مثل حبة القلب ، وكانوا يجعلون له مكاناً فى جميع الأعين للجلوس مثل إنسان العين .

وذات يوم جرى على لسانه وسط النوادر والأعاجيب (قوله) إننى رأيت طائراً آكلاً للنار ، يأكل الحجر الملتهب ، والحديد المذاب ، فلم يصدق ندماء المجلس وجلساء الحضرة جميعاً هذا الكلام . واطلق الجميع اللسان بتكذيبه ، وكلما أظهر ببراهين العقل ودلائل العلم جواز هذا المعنى لم يقتنعوا . وعندما كان يحاول مع الخاصة ، أن كل ما هو من سر الخواص والطبائع فى الجواهر والحيوانات مستودع من الخلق لا يعرفه أحد سوى واهب الصور وخالق المواد وكل من يفرق بين الممكن والمحال حتى لو عجز خياله عن تصور هذا المعنى ، فإن عقله ينقش على لوح الوجود ، إن هذه التقريرات لا تفيد .

ثم فكر فى نفسه قائلاً : إن حجاب هذه الشبهة لايمكن دفعه من أمام عين هؤلاء القوم إلا بالمشاهدة الحسية . فَخرج فى هذا الوقت من مجلس الملك ، واتجه صوب بغداد ، وكان يسجل - لمدة طويلة -

(١) إشارة إلى ظرفى الزمان والمكان ، يقول ابن مالك :
الظرف وقت أو مكان ضمناً   فى باطراد كهنا امكث أزْمنا
د. مهدى محقق ص ٢٤

المنازل والمراحل ، ويصبر على المخاوف والمهالك ، حتى وصل إلى ذلك المكان الذى وجد فيه حيوانا { مثل الجمل والطائر فاصطحبه معه فى سفينة ، وانصرف تجاه! إقليم الهند ، وعاد يرافقه توفيق السعادة فى طريقه حتى وصل إلى بلاط الملك فى رحاب السلامة ، فأخبر الملك بمجيئه فأمر أن يحضر إليه ، وعندما أتى النديم إلى خدمته أدى رسوم الدعاء والثناء ، فسأله الملك: ما سبب غيبتك الطويلة ؟ فقال : فى اليوم الفلانى قصصت فى الحضرة حكاية أننى قد رأيت طائراً آكلاً للنار فلم يصدقونى ، وظهر منهم استنكار بليغ ، فلم أرد أن أكون مهذاراً ، قائلاً للهراء ، ساذجاً ، ولم أرد أن ألوث ذيل أحوالى بقذر الهذر ، فيندرج اسمى فى جملة أسماء قائلى الكذب لأنهم قالوا : إياك وأن تكون لكذب داعياً وراوياً فإنه يضرك حين ترى أنه ينفعك فقمت وذهبت إلى بغداد حتى وصلت إلى المقصد فى حضرة إقبال الملك ومدد همه ، ثم عدت بالمقصود ، وأحضرت عدداً من الطيور آكلة النار حتى يروا بالعيان ما سمعوه منى بالخبر ، وحتى يقرأوا على سبورة حس البصر النقش الذى لم يرتسم على مرآة عقولهم . فقال الملك إن من كان مزيناً بزينة العقل وظل العلم لا يقول إلا صدقاً ؛ لكن الكلام الذى اضاع سنة فى إثباته كان الأولى ألا يقال .

وقد قلت هذه الحكاية حتى يتوفر الأشخاص الذين هم خاصة خواص مجلس الملوك على دأب آداب الخدمة ، وأن يكونوا مستيقظين عن التعثر فى أذيال الهفوات .

انتهى باب «دادمه وداستان» وبعد هذا نذكر باب «زيرك وزروى»

ونبين فيـه أنه عندما يوصل أحـدٌ شخصـاً إلى علو الهمة ويرفـعه إلى سماء العظمة والجلال من قاع السفالة ، ويكون زمام الإرادة بيد كفايته وسياسته ، ويضع التاج والعظمة على نجم إقباله لابد وأن يحمل وجه ترقيه فى أمره ، ويضع التوقى مـن الموانع أمامه ، ونبين ماهية ذلك ، ومـا هو طريقه ، ومـا هو سبـيل تسـويته ، والله الموفق للرشـاد فى المعاش والمعاد ، ليـجعل الله - عز اسمه وتعالى - جـميع أقدام جاه وجلال الملك - سيد العالم - فى مراقى المنزلة العالية ، وليجعل طراز مفـاخره ومـآثره باقـية على كم الدين والدولة بمحـمد وآله الأطيـبين الأكرمين .

الباب السادس

فيما كان من أمر

« زيرك وزروى »

فيما كان من أمر " زيرك وزروى "

قال الأمير : سمعت أن راعياً كان لديه قطيع من الغنم ، وجعل قائد القطيع تيساً يدعى « زروى » وكانت الشراسة المفرطة تغلب على خلق هذا التيس ، فكان يجرح خروفاً كل يوم ، كما يلحق الضرر بالجمل والخراف الصغيرة حتى تعب الراعى منه وقال فى نفسه : من الأفضل أن أستفيد من « زروى » بدلاً من هذا الضرر . فحمله إلى السوق حتى يبيعه .

نظر « زروى » فرأى من بعيد قصاباً سمج الصورة ، رث الثياب ، يمسك بيده سكيناً ، ويتمنطق بحبل ففكر « زروى » فى نفسه قائلاً : إن هذا الرجل سبب هلاكى وسوف يأتى من أجل ذبحى . ومع أنهم قالوا : إن الظن يخطئ ويصيب « فلابد أن أقف بقدم الثبات وأتمالك نفسى حتى أرى ماذا يحدث » .

وعندما غلب الخوف والخشية على قلب الجدى [1] ، تصلب فى مكانه وعجز عن الحركة . وصل القصاب عنده واشتراه ، وطرحه أرضاً وأحكم وثاقه وذهب فى طلب « المسن » [2] فى الدكان .

ففكر « زروى » فى نفسه قائلاً : ليس هذا بمقام صبر ، ولسوف أفعل كل ما يتسع له جهدى ، فإن تخلصت من هذه القيود ونجوت

(١) فى الأصل « الرجل» وقد تمثلت فى ذلك خاصية تناسى الرموز .
(٢) المسن : حجر تسن عليه السكين عند ذبح الذبيحة .

فهـو المراد ، ولو صرت أسـيراً مرة أخـرى وشُنقت فهـذه الحالة هى الكائنة الآن .

أنا الغريقُ فما خَوفِى من البَلَلِ (١)

وكان يضرب بيده ورجله بكل قوة ممكنة من هول الواقعة وخوف الروح ، ولسان النصيحة ينادى فى أذن قلبه :

اضرب بيدك وقدمك كالضفدعة فى هذا البحر الذى لا ساحل له
فأى علم لك بالقفز ؟ (٢)

وفى النهـاية تمزق الحبل ، ونجت الروح التى كـانت معلقـة على شعرة واحدة ، وانطلق الجدى انطلاق السهم من القوس ، والطائر من الشراك ، والقـصاب يجرى فى إثره . وكـانت هناك حديقة مـجاورة للقصـاب وملاصقة لبـيته ، وكانت زوجـته « حاشا لمن يسـمع » لها علاقة مع بستانى الحديقة ، وكانا يلتقـيان فيها كلما وجدا المكان خالياً ، وسنحت لهما الفرصة ، وقد حدث اللقاء مصادفة فى ذلك اليوم .

وعندما وصل « زروى » إلى باب الحـديقة ، ضربه بقرنه خـشية بطش القصـاب ، واندفع من تلك الناحية الأخرى ودخل الحـديقة ، والخصم فى إثره وبيده السكين .

وفجأة وجد زوجـته مع البستانى ، وعندما وقعـت عيناهما عليه

(١) هذا الشطر من بيت للمتنبى فى قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، والبيت هو :
والهجر أقتل لى مما أراقبه   أنا الغريق فما خوفى من البلل
(٤) البيت لسنائى الغزنوى ، سنائى الحديقة ص ٤٨٧   المتنبى - الديوان ، جـ٢ ، ص ٦٥

ظنا أنه كان يعلم بحال اجتماعهما ، وجاء للمقاتلة ، فاشتبك القصاب مع البستانى ونهض الناس من كل جانب للصراع والمشغلة . فخرج « زروى » فى ذلك الوسط من فتحة الفَرَجِ ونجا بروحه .

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ [1]

وفى نهاية الأمر خرج من البستان إلى الصحراء ، واستلقى في حماية غار إلى أن أسندت الشمس ظهرها إلى جدار المغرب (بعيداً) عن هذا السقف الأزرق ، وضربت الخيمة الحريرية السوداء بأوتاد الطالع والغارب على رأس سكان العالم . فخرج « زروى» من الغار ليطلب عوناً . وكان ينظر فى كل ناحية ويتنسم رائحة الراحة ، حتى وصل إلى مسامعه صوت كلب ، فقال « زروى » : إن الكلب كان رابع ثلاثة أو خامس أربعة لأصحاب الكهف [2] وسيكون لى ثانى اثنين فى هذا الغار [3] لكن صوت الكلب هو دليل العمران ، وخراب أمرى من هذا العمران . ثم ذهب ناحية صوت الكلب ، وكان الكلب يقترب ، حتى التقيا ، وعندما وصل القرينان الموافقان والصديقان المشفقان إلى معهد الوصال ومشهد المشاهدة بعد استمرار عهد الفراق ؛ تبادلا التحية والسلام ثم قال زروى : بما أنه لا يوجد سابق صحبة أو مقدمة معرفة ؛ تفضل بتعريف نفسك : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟

(١) هذا المصراع من بيت للمتنبى فى قصيدة يمدح بها سيف الدولة والبيت هو:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها　　　مصائب قوم ، عند قوم فوائد

المتنبى : الديوان جـ ١ ص ١٨٣

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم .. » الكهف / ٢٢

(٣) إشارة إلى قوله تعالى « إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار . . . » . التوبة / ٤٠

فـقـال الكلب : اسـمى «زيرك» قـد تخلفت عن القـطيع الذى كنت أحرسه ، وابتعدت عنه ، وأنا أبحث الآن عنه حتى أعرف أين هو ؟

فنسى زروى بمقابلته المعـاناة التى عاناها من الوحدة ، وارتاح من فكر الخوف وأنواع الآفات .

فمن يأتِه من خائفٍ ينْسىَ خَوفَه ومن يأتِه من جائعِ البطنِ يَشْبعُ

وقوى به ظهر الاسـتظهار ، وزادت الثقة بشفقـته . ثم التفت إليه وسأله :ماذا تريد أن تفعل ؟ وعلى أى شئ استقر رأيك المبارك ؟ وعلى أي أمر قصرت الهمة ؟

فقال « زيرك » عندما يحرقون حـراقة الليل ويشعلون مشعلة النهار ، سوف أكون هنا فى جوار صحـبتك . وغداً أطوف حول هذه النواحى حتـى أجد القطيع وأمكث مـعهـــم ، وبعد إحـمـــاد السـرى ربما أتـــلو : « العود أحمد » .

قال زروى : يا زيرك الألقـاب تنزل من السماء ، بسـبب الذكاء سميت « زيرك » ولذا اشـتهر اسمك بالذكـاء ، ومن ثم فالأجدر بك هو أن تفكر فى كل شئ وأن تكون ذكياً .

قضيت أعواماً وأفنيت العمر فى متابعة الراعى وحراسة القطيع ، وحرمت على نفسك لذة النوم والراحة ليلاً ونهاراً ، وصرت بعيداً عن مخالطة الناس ومصـاحبتهم ؛ تقنع بكسرة خبز من الشـعير التى تبقى من الراعى ، وتأخـذ لقمة مـصحـوبة بآلاف الصرخـات ، ودائماً لا

تأكل لحماً بلا عظم الجفاء ولو ضـربت برأسك كأسه يوماً لشج كأس رأسك بالعصـا الخشبـية ، بل إنه يغسل الكأس سـبع مرات بالماء من نجاسة لعاب فمك ، ويطهره تماماً منه بالتراب الذى تدوسه بأقدامك .
فلماذا نزلت بلا إلمام ضـرورة وإلجاء حاجـة إلى هذا الهوان والمذلة ثم استسلمت لهذه المعاناة والمشقة ، لا سـيما وأنا أرى فى سيماء فرحك دلائل على الرزق ومخايل الظفر والنصر فى كل مرادك .

ولم أرَ فى عيوبِ النَّاس شيئا كَنَقْصِ القادرينَ على التَّمام [(١)]

والرأى هو أنك عندما تستطيع أن ترفع نفسك مـن مرتبة السفالة إلى درجة العظمة ، وتصل بها من صف نعـال الطاعة إلى صدر صفة معطى الأوامر ، فلا ترض بنذالة هذا المـقام ، وانظر إلى مطامح الرفعة ، وضع دواعى الهمـة على تلك القبضة التى تأخـذ بزمام السلطنة على السباع وسوائم هذه الصحراء .

ومن ثم فسوف أربط حزام التقدم لإعـداد وتجهيز أسباب هذا الأمر ، ولسوف أحل عقدة المشكلات وعروة معـضلاتها بسحر المجاهدة ، مع أنهم قالوا :

إذا عَظُمَ المطلوبُ قلَّ المُسَاعِدُ [(٢)]

وسوف أرى العالمين - بعونك ومعاضدتك فى إتمام هذه المهمة -

(١) البيت للمتنبى من قصيدة مطلعها : ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام
المتنبى : الديوان جـ ٢ ص ٤٠٠

عيار التدبير والخبـرة وثبات القدم فى طريق الخدمة وأداء الحق ، ذلك لأننى سوف أكون دائماً - فى حجـر حمايتكم وكنف كلاءتكم - آمن السرب من شر الأعادى ، وسأعيش فى ظل شوكتكم وسطوتكم فارغ البال من قصد الأشرار .

بَقاؤكَ فِينا نِعـمةُ اللهِ عندنا فنحنُ بأوفى شُكـرِهِ نَستديمُـها

فقـال « زيرك » : لو أردت الحق ، نحن جـعلنا جمـيع السبـاع أعداء لنا بسبب الإفـراط فى حبكم والتهوين فى قـوتهم ، وقد رفعنا من بيننا الجنسية التى يسمـونها علة الضم . وهكذا فلا يمكن أن يقوم أي تكلف لمقام الانجذاب والاجتماع بيننا .

أيهـا المنكـــحُ الثريا سُـهيـلاً عَمْـرَكَ اللهِ كَـيْف يَلتـقيـانِ

هى شـامـيــةٌ إذا مـا اسـتـقلتْ وسـهـيـلٌ إذا اسـتـقل يمانِ

ولأن عادة الأسـلاف السابقين كانت هكذا ، فنـحن نستطيع أن نضع أساس المحبة والعداوة على سنتهم ورسمهم وعادتهم . وحديث « الحب يتوارث والبغض يتوارث » يأتى مفيداً فى هذا المقام . لكنه لا يصح طلب السلطنة والسـرور والتصدى لمثل هـذا الأمر بدون مظاهرة الجيش والحشم ومعاضدة الخـيل والخدم . ويحتاج هذا الأمر إلى عدة كبيـرة ومدة طويلة وعدد من الجيوش ، ومـدد من الفضة والذهب . وكلانا معسر قصير القامة . وكلانا مفلس بلا رأسمال ؛ لأننا لا نملك فلساً من جميع أنواع الزينة والحلى السلطانيـة فى كيسة الاستظهار ، فكيف نتمنى هذا ؟ !

مهما أنظر إلى الشمال واليمين ، فلست برجل غم بهذا القلب الذى أحمله .

قال زروى : أحسنت ، وهذا الرأى سديد ينم عن بعد نظرك وغزارة علمك ، ويمكن معرفة كمال الاستعداد لديك على إعطاء الأمر من هذا الكلام ، لكن المرء يطير بهمته كالطير يطير بجناحيه ، فحلق بجناح الهمة لطلب أعالى الأمور ، لأنك ترى صقور الفلك الذين هم حوامل هذا القفص الأزرق مسخرة في مخلب مرادك ، وثبت قدم إقدامك على تحصيل وتسهيل هذا المرام حتى تظل مصاناً من إذلال شيطان الضلالة ، وسوف يخرج مقصودنا من حيز الامتناع ببذل المجهود ، وإننى سوف أجعل مجموعة من جوارح الوحوش ، وضوارى السباع فى قيد اتباعك منقادين لك طائعين لأمرك . وربما يأتى هذا المعنى بأن تأتى عددا من أفعال السباع وصفات الكلاب ، وتتوب عن أكل اللحم وشرب الدم حتى ينتشر صيت قلة إيذائك وحسن فعالك فى أنحاء العالم وأرجائه ، ويتزايد ارتجاء الخلق فى حكمك . فكل من يبحث عن حسن أداء الأمر يضع رجله أولاً على عنق النفس ، ويرد أطماعه فى نحر الهمة ، بل إن الذين يبحثون عن النعيم الأبدى ، فهذا هو طريق إيجاد مقصودهم قال تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى » [1]

وعندما تضع قدم الانتهاج على هذا المنهاج ، وتمضى مدة وجيزة

(١) النازعات / ٤٠ ، ٤١

على هذه القاعـدة والعادة فإن الوحوش سـوف تأوى إلى كنف أمانك وصوان إحـسانك ، وبعض السباع التى تـقترب طباعـهم من المساهلة والمجاملة فإنهـا ستميل إليك بطبيعة الأمـر ، وسوف تدخل فى زمرة التابعين والطائعين .

حينئذ سوف تؤثر مشـاهدة هذه السيرة وهذا السلوك فى الآخرين حتى يرفع الطالح شعار الصـالح ، ويصبح الأشرار أخيارا ، ومن هنا يصل الأعوان والأنصـار ، والآلة والاستظهار إلى الحد الذى يحـترق الأسد معـه من رعشة حمى التـفكير فيك إذا مرت ريح هيـبتك على الصحراء ، والذى تسقط معه أنياب التمـساح فى البحر وكذلك قبضة النمر فى الجبل خوفاً من شوكتك وجاهك .

أنت لست سوى قمر فى السماء ، ولا تستحق غير سرير الملك .

يرتفع الطالع إلى السماء إذا شئت ، فيسعد جسدك ويهنأ فؤادك. قال زيرك : كل من يتجه لتحقيق الهدف يرى مذمة على عدم حصوله عليه أكثر من تلك المحمدة التى يراها مع حصوله عليه . وأنا أفكر لو أننى لم أحصل على الأمر حسب رغـبتى وفكرتى ، فسوف يصل إلىّ ذلك الحزن الذى وصل إلى الطائر آكل السـمك . قال زروى : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الطائر آكل السمك مع السمكة

قال زيرك : يحكى أن طائر زغن[1] مرت عليـه عدة أيام دون أن

(١) زغن : بفتح الزاى والغين طائر شبيه بالغـراب ولكنه أقل منه فى الحجم ويسمى « عليواج وكليواج » .. (فرهنگ عميد)

يجد شيئاً من النمل والملخ والهوام والحشرات التى كانت طعاماً له حتى يسد جوعه بذلك أو يسكن لوعة نيران الجوع فنهض يوماً لطلب الرزق ، وجلس مترصداً مثل الصياد على شاطىء النهر ، حتى يصيد صيداً من شبكة الأرزاق ، وفجأة مرت عليه سمكة ، فنهض والتقطها ، وحاول ابتلاعها فقالت : « ما العصفور ودسمه والبرغوث ودمه » ماذا يفيدك أكلك إياى ؟ ولكن لو أعطيتنى الأمان أجعل عشر سمكات أبيض من الفضة وأطهر من ثلج شهر «دى» تمر عليك من هذا الممر فتأخذهن واحدة واحدة وتستعملهن وفقاً لهوى القلب ، وإذا لم تثق بى ولم تصدق مجرد القول أقسم لك قسماً مغلظاً حتى أنجز ما قلت ، فقال طائر الزغن للسمكة : قولى «بالله» فكان فتح المنقار وسقوط السمكة فى الماء مرة واحدة مثل لقمة الفقراء الصغيرة .

أسقط الفلك لقمة من فمى فى التراب ، وأتى الحظ بالكأس حتى مراشفى وأساله على التراب .

ويقى هو خائباً خاسراً « كراج آب مكسور النصاب » [1] وقد قلت هذه الحكاية حتى تنظر إلى بداية هذا الأمر ونهايته ، وتسوى بين الفاتحة والخاتمة ، وتعلم أن استمرار الخوض أولى ، وتعيد جذب عنان العزم ، حتى لا يتأتى ذلك التعجيل (التسرع) الذى يسقطنا فى

(١) يقول العلامة القزوينى فى تعليقه على هذا المثل : « ولم أظفر بتفسيره » انظر القزوينى :

• حاشية مرزبان نامه ط ليدن ص ١٣٨ أما محمد روشن فيقول فى تعليقه ما ترجمته : معناه واضح وهو أن الصياد لم يظفر بالصيد بسبب كسر يد السكين لو تبدد أمله بسبب تكسر آلة الصيد ، وبرغم هذا فإن روشن لم يثبت هذا المثل فى نسخته التى حققها محمد روشن : مرزبان نامه جلد دوم ص ٦٨٣

ورطة الندامة ، ولا يتأتى التوقف الذى يمنع من إدراك الفرصة .

وإياكَ والأمرُ الذى إن توسَّعَتْ مواردُه ضَاقَتْ عليك المصادرُ

قال زروى : قيل إنه عندما يصل حكيم إلى الناس ، فإنه يأتى بكل تدبير صائب ورأى سديد ، ويفتح عين البصيرة المغلقة ؛ حتى إنه ليطالع مغبات الأحوال ومغيبات المآل فى مرآة الفكرة ، ويبدو العمل الحقير منه عظيماً مثلما ترى قطعة الحجر التى تلقيها فى الماء الصافى أضعاف حجمها ، فدعك من هذا المعنى واعلم أن الناس يعدون خمس مجموعات من الفقراء :

المجموعة الأولى : التى لا تملك شيئا من العقل والعلم .

المجموعة الثانية : التى لها مزاج ملول .

المجموعة الثالثة : هى المحرومة من لذة الأمن .

المجموعة الرابعة : هى التى ينظرون إليها نظرة استحقار .

المجموعة الخامسة : هى المحتاجة دائماً .

وأنت مطرود ومؤذى من الناس فقد ضربوا سُرَّة وجودكم على الذلة والحاجة ، فاجتهد حتى تطهر عرضك من دنس هذه النقائص .

فقال زيرك : أحسنت قولاً ؛ لكننى كلما أنظر إلى حاصل أمر هذا العالم أجد أن كل من يستزيد عن حاجته يجعل نفسه عبداً للطمع والغضب ، وإذا سيطر هذان الخصمان على الرجل يصعب دفعهما .

والجاهلون من الناس لا يعلمـون أن بناء بيت أملهم قد بنى على الرياح والماء مـثل قبة الحـباب وسـدة السحـاب ، فجمـعوا أسـباب الزخارف أمام السيل الجارف ، وجعلوا بـعضها فوق بعض ثم سقطوا فى النهـاية فى مـاء العـدم الأسـود قـال تعـالى : « قل هل ننبـئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » [1]

أما الذين يدعـون أن الزيادة فى مال الدنيا نقصـاً ، ويعلمون أن لذلك الشـمل شتاتًا ، ولـذلك الجمع تفرقـة فى النهاية ، وقـد نزلوا منزل الأوساط فى رباط أمـور هذا العالم الدنيوى البالى فـقد أمسكوا بسبيل الصواب أثناء المرور من هناك ، مـثلما قال صاحب قطيع الغنم للراعى . قال زروى : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية صاحب الغنم مع الراعى

قال زيرك : إن قطيع الغنم الذى كنت حارسـه ، كان له صاحب مكثر بأجناس الماشية ، ومستظهر بالنقود والأموال .

أما قطيع غنمه فكان عـددها أقل من الألف ، فإذا زاد الناتج عن الألف باعه ، بحيث لا يتجاوز العدد عن الألف .

وذات يوم سأله الراعى قـائلا : إن الآخرين لا يملكون مـقامك فى العبودية لكن الثروة والاستظهار لديك لا تصل إلى واحـد بالمائـة

(1) الكهف / ١٠٣ و ١٠٤ وقد وردت فى نسخة القزوينى « أنبئكم » . والصحيح ننبئكم . .

(مما عندهم) ، فـهم يملكون أكـثـر من ألفين فى القطـيع ، أمـا غنـمك فلا تصل إلى الألف أبداً . فما موجب ذلك ؟

فقـال صاحب الـغنم : اعلم أن الألف نهاية العـدد ، وكل شئ يصل إلى الغاية فلابد أن تعقبه الـنهاية . ولهذا فإننى أجعل عدد هذا القطيع أقل من الألف . ولقد رأيت أكثر من ألف قطيع أنزل محاسبو الأرزاق عددها - على مـائدة القسمـة - من مرتبة الألوف إلى مـرتبة المئـات والعـشـرات بل وأوصلوهـا إلى الآحـاد ولم يصل القـصـور والكسور إلى أعداد غنمنا فى القانون الألفى مطلقاً .

وقد قـلت هذه الحكاية حتى إذا مـا كنت حارسـاً للغنم ، كنت محروسـاً من آفة الخصـوم . أما عندما أرفع شعـار السلطنة ربما أفتح باب مناقشتهم إياى ، ثم تبدو عـلامات وأمارات الفتن الكبرى بسبب تلك الإمارة . وبسبب استخراج العسل الذى يحصل من توهم حلاوة السلطنة أكـون قـد أثـرت نحل بيت حـسـد الأضـداد ، وحـرضت الأصدقاء على عداوتى . ومن ثم فالأفضل ألا ألقى بالكرة فى ميدان لا نهـاية له ، وألا أنزل فى هذا التيـه المظلم بلا رأس أو قدم بسـبب غفلة العقل وجهل القدم .

- أيها القلب انظر جيداً إلـى الباب ولا تذهب إلى هناك حيران ؛ لأن هذا الطريق غير ممهد لقدم مثلك .

- ولا تنظر إلى حافظة اللص ، حتى لا تراه يشق جيبك فجأة .

قال زروى : هذا الكلام صحيح ، ولكن لا يعلم الوجه الصحيح

لمجئ الأحوال سوى مسبب الأسباب . وهذه القاعدة غير مطردة ، ولعكس هذه النظرية أخوات كثيرات ونظائر كُثر . فلقد رأيت الآلاف من أصحاب الغايات نزلوا من قبة الترقى إلى أسفل الانحطاط . كما رأيت الآلاف من أصحاب البدايات نهضوا من حضيض التسافل إلى ذروة الارتفاع ، فالطبيب يخدم الطبيعة ، أما الأفضل من المرض أن يجد الإنسان الدواء فى صيدلية « وإذا مرضت فهو يشفين »[1] وإذا أصاب الأجل المحتوم المريض ، فلا يُلام الطبيب ولا يعاتب « اعملوا ما شئتم فكل ميسر لما خلق له » .

فتحركت الهمة عند «زيرك» إلى جانب تحرك الأمل بسبب الإصغاء لهذه العبارات التى كانت من أصول الخبرة ، وقال لزروى : لقد وضعتُ زمام تصرف هذا الأمر الصعب فى كف كفايتك ، وسملت عنان رياضة هذا الجواد الجموح بيد اختيارك ، وجعلتك إماماً فى تحرى جهة الصواب وتتبع قبلة الحق . فاعمل كيفما تعرف وتستطيع بلا تكاسل أو توان ؛ لأن كل شئ هو من وضع القدرة آت لا محالة فى قالب التدبير وسوف يظهر على اختلاف الأيام .

وليس امرؤ فى الناسِ آتِيًا سلاحهُ عَشيةَ يَلقى الحادثاتِ بأعزلِ

قال « زروى » : بما أنك انتويت تيسير هذا المراد ، يجب عليك ألا تتبرم من إنفاذ هذه العزيمة ، وألا تفصم عروة التصميم ، وألا تعطى للتردد والتبلد طريقا إلى خاطرك ، ويجب أن تكون قوى القلب ،

(١) الشعراء / ٨٠

ثابت الرأى ، راسخ القدم ، نافـذ العزم ، يقظ الحزم ؛ حـتى يظهر جمال وجه الامال من تحت حجـاب الإمكان بسرعة ، وتظلل السعادة حصولها عن قريب .

ولى معك عدة شروط ، أستطيع أن أقولها لك اليوم ، وليس فى ذلك اليوم الذى تبدو فيه هيئة ملـكك فى لباس الهيبة ، وقامة دولتك فى قباء الاستقامة .

حينئذ تعرونى حيرة الملك ودهشـته بالقدر الذى يجعلنى بلا حياء أو وقار إذا تحدثت فى مصالح الملك ، أو عرضت لمحاسنه ومقابحه ، أو أقحمت نفسى فى رتق أمور الدولة وفـتقها ، أو رفع مبانى المملكة ووضعها .

لأننى أرعى شروط الرجوع فى مجارى الأمور متفقاً فى ذلك مع رأيك ورؤيتك وهذا ما لا أستطيعـه أبداً . ومن هنا فلا أرى الخير إلا فى انتهاز وقت الحديث واختلاس الفرصة .

ومن المقرر والمسلم به أن بعض الناس عندمـا يرتقون من الأسفل إلى درجة رفيعة ؛ تتغير أخـلاقهم ، ويظهرون تفاوتاً بقدر تغير الحال فى معاشـرة الصحبة مع الأصدقـاء والأجانب . وإن الغد الذى تمشط فيه مشاطة التقـدير طرتك ، وترى عظمتك وحقارتى فى مرآة الحظ ، سوف تقطعنى فيه (أي فى هذا الغـد) أسنان الطمع التى تشبه أسنان المشط . ولذلك يجب أن تكون معى - حـينئذ - فى درجة متـساوية ومتوازية حتى لا تقع فى تهمة اشـتراك الملك ، وترفض صحبة الفساد بتخالف وتجانف الفساد .

قال زيرك : أحسنت القول ، لكن البحث عن مباعدة الإخوان بمساعدة الزمان ، وإسبال ذيل الخيلاء والتجبر على الأرض مع أخلائى يكون علامة خساسة النفس ، ونجاسة العرض ، ودناءة الهمة ، ورداءة السيرة ، ومن ثم تبدو حقارة النفس وتصغير مقدارها من هذا المعنى .

ومن هنا يجب أن يقال كل شرط من شروط القول أو العمل - والذى يفضى إلى تسيير الأمور - كما يجب رفع نقاب الحياء عن وجه مصلحة الحال وإظهار كل ما يتوافق مع أخلاق الملوك ويلزم للسلطنة ، حتى يتسنى لنا أن نطلب توفيقاً وفتحاً من الله - عز وجل - فى إتمام هذا الأمر .

قال زروى : الشرط الأول : أن تبعد سيئى القول عن مجاورتك ، وألا تحكم على أحد الطرفين بكل ما تسمع من النفى والإثبات بدون الاستقصاء والاستقراء الذى يأتى فى تحقيق ذلك . وألا تعطى مكاناً لأول وهلة دون مهلة فى سمع رضاك ؛ حتى لا تبادر إلى فعل تندم عليه « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »[1] ، وعندما يرفع أحد المتحاكمين مظلمة إلى حضرتكم ينبغى أن تجعل دفعها أو جوابها موقوفاً لحين حضور الخصم الآخر . ويجب أن تعلم أن الاقتداء بقدوة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واجب ، فهكذا يقول القاضى بحق والخلَيفة المطلق أمير المؤمنين على بن أبى طالب -

(١) الحجرات / ٦ .

رضوان الله عليه - : « لا تقض لأحد الخصمين ، ما لم تسمع كلام الآخر » .

كما يجب ألا تعود لسانك على القول السيئ والخشونة والفحش ؛ لما يروى فى حق عيسى - عليه السلام - أنه عندما التقى مع كلب عقور مجنون قال : « صحبتك السلامة » فسألوه : لماذا قلت فى حق مثل هذا الحيوان النجس مثل هذا اللفظ ؟ قال : حتى يتعود اللسان على حسن القول ؛ لأن :

النفس الإنسانية تقبل التخلق

ويجب أن يأبى سمعك سماع السيئ ؛ لأن مساوئ الخلق لو لم يظهر أثرها فى الحال تؤثر على مدى الأيام ، وتظهر آثاره مثلما حدث للفأر مع القط . فقال زيرك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفأر مع القط

قال زروى : سمعت أن - فى وقت من الأوقات - رجلاً فقيراً ، ضائق اليد ، مقل الحال . وكان في بيته قط جائع دائماً ، خارت قواه بسبب عدم وجود القوت ، فسقط ضعيفاً مريضاً . وكان فى زاوية هذا البيت فأر قد اتخذ مسكناً له هناك من مدة طويلة ، كما ادخر كثيراً من أنواع الكنوز فى منافذ الأرض . فقال فى نفسه : لقد سقط هذا القط عاجزاً ضعيفاً ، وربما يرسل له من عالم الغيب الشئ الذى لم يصله حتى الآن ، حينئذ يصير قوى الحال ، وينتقل من فراش المرض إلى انتعاش الصحة فيستغنى عنى ويصير الحال كما قالوا :

فبادرْ بمعروفٍ إذا كنتَ قادراً   حذارِ زوالٍ أو غنىً عنك يَعقبُ

وأنا اليوم أتردد بلا اكتراث ، وأمر متجاسراً بمكامن مكره ، أما

اليوم الآخر فيجب عليّ أن أضع القدم فى ذيل السكون ، وأنزوى فى مسكن الأحزان ، وأظل طيلة العمر فى الجحر خائفا مختفياً .

أما إذا دخلت معه فى مقام الاحتياج هذا بالمواساة ، فأهديه شيئاً من هذه المأكولات اللذيذة التى تملأ زوايا البيت عندى لحماية نفسه بها وأقول : (خير المال ما وقى هب النفس) . فلا شك أن جميع العداوات التى بيننا ستزول بهذه الفائدة ، وأكون آمناً دائماً فى هذا المكان من مهاجمته ، وتستقر فى قلبه عاطفة جياشة فى كل مرة من هذه المرات التى يرى فيها مثل هذا التبرع منى ، فقد قيل : إن العلم الكامل هو ما يستحسنه أهل العلم ، والفضل الفائق هو ما يعترف به الأعداء ، والعطاء الطيب هو الذى لا يجعلك فقيراً ، والمال اللائق هو الذى يجعل العدو صديقاً وهذا القول يجب استعماله هنا ، كما قيل : ما استرضى الغضبان ولا استعطف السلطان ولا استميل المحبوب ولا توقى المحذور إلا بالهدية .

وبعد ذلك أؤكد هذه الصداقة معه بمواثيق العهود ومغلظات الأيمان التى لا تجعله - فيما بعد - قاصداً افتراسى ، بل تجعله يزيل الطمع كلية فىَّ ، ويتحد معى قلبياً ، ويربط حبل الوداد والاتحاد - الذى يلزمه الاستمساك بالأصدقاء والأحبة - من طرفيه .

وأمضى الفأر هذه الفكرة ، فجمع أنواعاً من المأكولات التى علم اشتهاء القط لها ، وأنها منتهى طلبه ، وحملها إلى مكانه على عادة الخدمة ، وأهداها له ، وقال : إن الباعث على مجيئى إلى الخدمة هو

أننى وجدتك متصفاً بالتعقل وقلة الأذى وطلب العافية والعفة والقناعة ومختـلف الخصائل الكريمة والخصـائص الحميدة ، وأننى حـزين لهذا المرض الذى لوكان يقبل الاستبدال لاستقبلته بدلاً منك .

لو كـانت الأمـراضُ مـحـمـولةً يحـملُهـا القـومُ عن القـومِ
حَملتُ عن جـسـمِك ثِقل الأذى حَـمْلَ جُـفـونـى ثِقل النَّوم

ولأننى أعلم أن سبب ضـعفك وانكسارك هو انقطاع مـدد الغذاء وليس بسبب علة أخرى ، فقد رتـبت هذه العجالة الآن ، وبعد اليوم أرسل رواتب هذه الخدمـة يوماً فيومـاً ، وأرتب من ذلك المقدور كل يوم حملاً حتى تأكل بسعادة وتظهر عليك آثار السلامة .

قال القط : لا شك أنك إذا أردت أن تظهر القـبول والوفاء بهذه الوعود ، وأن تقرن كل فكرة لديك بالعمل ، فـيتحول من القول إلى الفعل ، فإنـك تظهر فى امتنانك بهذا الخير والإحسان وفضـيلة اليد العليا معجزة اليد البيضاء فى معالجة هذا الداء العضال الذى أصابنى ، ويكون حديث « حب الهرة من الإيمان » قد نزل فى شأنك بحق .

فقال الفأر : برغم أننى واثق من حـسـن طريقتك ، ونظافة داخلك إلا أننى أطمع فى ركـون النفس وسكون القلب ، وأن تـقسم بغـلاظ الأيمان حتى يـتجدد إيمانى فى حـسن عهـدك ، ولا تظن أن بى شكاً بسبب هذا الالتـماس ؛ لأنه أتى فى طلب خليل الله مع فـضل النبوة وكمال الخُلة، إذ طلب من الله - عز وجل - الإحـياء مرة بعد أخرى حتى تتلألأ المعاينة فى مرآة حسه ، فقال تعالى له : « أولم تؤمن قال

بلى ولكن ليطمئن قلبى »[1] وأن تتعهد فى نفسك مع واهب الروح وفاطر الجسد ألا تراجع عن قرارك ، وألا تخلط معيار الرحمة والإشفاق بشائبة الشقاق عندما يبرأ مزاجك الشريف ونفسك العزيزة من هذا الداء ، وتعود الصحة والاعتدال والقوى الطبيعية إلى أصلها ؛ حتى لا تحرم من سعادة قوله تعالى : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم »[2]

فقال القط : أقسم بالله الذى أضاء بنور معرفته ظلمات بيت البشرية ، وزين إيمان العريان بحلية حسن العهد ، الذى يقوم لطفه بالتوسط لتأليف القلوب الشاردة النافرة ، وينشئ عاطفة الأمومة والبنوة بين القط والفأر ، والذى يأتى قدم إكرامه بإصلاح ذات البين بيننا ، ويمنح ألفة الأخت مع الأخ للذئب مع الثور ، أن يتفتح ورد الوفاق من حديقة شوك النفاق وينمو غصن التعارف فى دار وحشة التناكر : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »[3] ،وأن يتطهر درن العداوة وخبائث الدخل من القلوب مع كلينا دون أن ينتقض حبل الموالاة والمؤاخاة بيننا ، وأن يأخذ كل منا بيد الآخر فى مجال اليسر ومضيق العسر ، وأن نعلم أن إثبات قدم الرجولة والمعاونة والمظاهرة واجب ، وأن نجعل الظاهر والباطن مراقباً ومحافظاً على رعاية حقوق الصحبة . فإذا ما تركنا شيئاً من هذا ، وأهملنا قضية الشرع والعرف نكون قد نقضنا العهد والأيمان وأبطلنا حدود الحق وأوامره : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به

(١) البقرة / ٢٦٠
(٢) البقرة / ٤٠
(٣) الأنفال / ٦٣

أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون » .[1]

وتعاهدا على هذا النمط والشكل ، ورقص عرق الروح طرباً فى القط الذى كـان قد انحنى من الضـعف خلف الركـبة ، وسعـد ناى الحلق الذى كـان يتألم من الأنـين بلا صوت بشـرى هذه العطاءات ، وقد زاد إنجاز مواعيد تلك الفوائد والعوائد بتلك الموائد سعادة ونشاطاً وسروراً واغتباطاً .

وقـال القط للفأر : لأنك وضـعت أسـاس الموافقـة ، وعقـدت سلسلة المصـادقـة فـسـوف ينزوى البـغض والعـداوة من ضـمـائرنا وضـمائركم ، وسـوف تزول الضغـينة التى تملأ أنحـاء القلب وحنايا الصدر ، وسوف تكون غاية كفايتك وكمال درايتك باعثاً على ذلك ؛ لأنك افـتتحت الـلطف بإهداء التحف والهـدايا وأنا فى معـاناة المحنة وجهد الخـضوع والذلة ، ولم أكن فى مقام التخـويف أو فى معرض الطمع ، وتقدمت قدمك فى حلبة مـسابقة الفضل ، فإن لم أقم بحق الشكر والثناء ، ولم أكن رهين منة هذه الأريحة ، ورفـيق هذه الحرية ، حتى قيام الساعة لفخر الكلب الذى هو أخس الحيوانات وأنجسها علىّ ؛ لأننى قط . ولقد ذكـرنا لسـان النبوة وشرفنا حيث قـال : « إنها من الطوافين عليكم والطوافات » .

ثم افتـرقا على هذه المخالصـة والملاطفة ، وانصـرف الفأر وربط حزام الاسـتعداد على وسطه استـعداداً لراتب المستـقبل . وهكذا ظل يرتب ويضـبط وظائف الغداءات والعـشاءات ، واستـمر يعـمل بهذه

(١) البقرة / ٢٧ .

الطريقة عدة أيام حتى صارت بطن القط لهـا أربعة جوانب من النعمة ، وصار (بفضل الفـأر) مملوء الرقبة سمين المقـعدة . وكان للقط ديك يجالسه فى السراء والضراء السر والعلانية ويختلط به ،لا يتكلمان إلا سوياً . فلما شاهـد الديك اختصاص الفأر بمجالسة الـقط ومؤانسته ، فكر فى نفسه قائلاً : إن القط سوف يستـغنى بموافقته عن مصادقتى ، وإذا ما اسـتغنى لا يجب أن أطمع فى نفع منه ؛ لأن العاشق يحـتمل تدلل المعشوق ؛ لأنه يكون فى حاجة إليه ، ويرتبط به ؛ لأن لبه غير متعلق بحب آخر .

وكانـت لَوعـةٌ ثـم استـقرتْ   كـذاكَ لكـلِّ سائـلةٍ قَـرارُ

فـلابد أن أفكر فى قطع أسـبـاب هذه المودة ، وأهدم بنيـان هذه المحبة بالمكيدة . ثم نهض وذهب إلى القط وقال : منذ أيام كثيرة وأنا أسمع أن هـذا الفأر كريه المـنظر سيئ المخبـر ، ذميم الطويـة ، دميم الطلعة ، يحكى كل يوم عن مـقابح سيرتك ومفـاضح سريرتك أمام الجيران . يحكى عن عدم وفائك ، وانعدام حيائك ، وكثرة إزعاجك وقلة شرفك . ويشرح سبب بقائه قـائلاً : إننى أعدت الروح الطيبة إلى قالبه الفاسد ، وأصلحته مـثل الإسكندر الذى كان قد أحيا مأجوج ، ومثل الخضر حيث أعـدت ماء حياته على هذا النحو . لكننى لا آمن لهذا الجوار بسبب مواثبته ؛ فخيار غدره يلوح أمام خاطرى فى اليقظة والمنام . والخلاصة : لا تسأل عن كثرة مـا حدثهم عن خطر صحبتك الذى أقره فى خواطرهم وعمـا أثاره فى قلوبهم من غبار الغيظ ، فلو أن رجلك جاءت على حجر المحنة يومـاً فلن يمد أحد لك يده بالعون ولو استطاعوا أن يطئـوك بالقدم لفعلوا . فـإن أضاءت مصبـاح البصيرة ، وأدركت صباح هذه الهداية فمـبارك ، وإلا أقول : على الديك الصياح . وأنت تعلم

فاستبدع القط هذا القول واستبشعه في مذاق قبوله لكن تسويل المسولين وتخييل المخيلين لا يخلو - كما هومعهود - من التأثير وتغيير الحال ومن يسمع يخل [١] وقال فى نفسه :

مـا الحُـبُّ إلا للحبيبِ الأولِ

والديك كان معى دائما بالرأى فى السراء والضراء ، ولقد كان من أول العهد ولا يزال ظريف البيت وفرخ العش ، رؤيته مرتبطة عندى بالفأل الميمون السعيد ، ولقد وجدت صدق مصاحبته في تلك المداعبة والملاعبة التى كانت بيننا من أيام الصبا وموسم الطفولة ، ثم تضاعفت إلى يومنا هذا ، ولو أنني تعلقت اليوم بآخر ، فلن أستطيع التراجع عنه .

كتَارِكةٍ بيضَها بالعَراءِ   وملبسةٍ بَيْضَ أخْرَى جنَاحا [٢]

فكل ما يقول محسوب فى حساب العقل ، ومكتوب فى كتاب العلم . أما أنا فيلزمنى أن استفسر عن شئ من علامات الأمر حتى أعرف ماذا يقول . ثم قال للديك : أيها الأخ من أين أطمئن على صدق هذا الكلام ؟ فقال الديك : « يعرف المجرمون بسيماهم» [٣]

(١) يقال : خلت إخال بالكسر وهو الأفصح وبنو أسد يقولون : أخال بالفتح وهو القياس والمعنى : من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه عليهم بالمكروه . الميدانى : مجمع الأمثال جـ ٣ ص ٣١٠

(٢) جاء فى مجمع الأمثال فى الحديث عن المثل « أحمق من نعامه » وذلك لأنها تنتشر للطعم وربما رأت بيض نعامة أخرى قد انتشرت لمثل ما انتشرت هى له ، فتحضن بيضها وتنسى بيض نفسها ثم تجئ الأخرى فترى غيرها على بيضها فتمر لطريقها ، وإياها عنى ابن هرمة بقوله :

فتاركة بيضها بالعراء   وملبسة أخرى جناحا   الميدانى : مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٣) الرحمن / ٤١ .

فلو نظرت إلى لوح ناصيته يمكنك أن تطالع هذه الأمارات فيها . ومنها أنه عندما يأتى أمامك يجلس مطأطأ الرأس خائفاً ، وعندما يكون متحرزاً متحذراً يتلفت فى كل الاتجاهات ، وينتظر الآفة التى تأتى منك لحظة بلحظة :

فلا تصحبْ أخا حُمقٍ وإيَّاكَ وإيَّاه
فَكَمْ مِنْ جاهلٍ أردى حَكيماً حين آخاه
وللقلبِ على القَلْب دليلٌ حين يَلْقَاه
وللنَّاسِ من النَّاس مقاييس وأشْبَاه

وبينما كان فى هذا الحديث ، إذ دخل الفأر ، فرمقه القط بنظرة السخط والعداوة ، حتى جاء إلى خاطره كل ما كان من محاسن صفاته بلباس المقابح .

فالصورة التى كانت أجمل من صورة الملك ، تبدو صورة شيطان في المخيلة .

فصدَّق القط الديك فى كل ما قاله ، وتحقق كل ما جاء فى الخيال ؛ لأن مجئ الفأر إليه كان من قبيل الاضطرار والافتقار وليس على سبيل الرغبة والاختيار ، ولو كان عنده سلاح للمقاومة وشوكة للمصارعة لما بادر وسارع إلى ذلك ، ونهض من المكان بهذه الفكرة وهذا التصور بسرعة . فحزن الفأر جداً وتحير من ظهور هذه الحالة التى لم يرها من القط قبل ذلك والتى لم يكن سببها معلوماً لديه

فارتعد وظهرت على أعضائه الرعشة واللكنة على لسانه . ومن ثم لم تسبق لديه قوة تماسك . ثم إن الصديقين كليهما رأى صورة صاحبه مشوشة بسبب حجاب نميمة صاحب الغرض وخبث شيمته . وانقلبت المؤانسة بينهما إلى مدالسة وانتهت المصافاة إلى منافاة . وأشار الديك على الفأر بتلك الإشارة التى كان قد جعلها علامة للأمر . وكان القط قد جلس مشمراً متنمراً ، فصاح الديك فجأة ، فقفز القط على الفأر وافترسه ، مثلما يقفز البازى على طائر السمان والفهد على الغزال ، وجعل دم ذلك المسكين بالهوى والهذر هباء وهدراً .

وقد قلت هذه الحكاية ليُعلم أن أغلب الهيئات التى تظهر فى طبيعة البشر من الرضا والسخط والأمور النفسية الأخرى الخفية ، وبخاصة لدى الحاسدين الماكرين الذين يمسكون بقلم التصوير والتزوير فى أيديهم ثم يصورون الأحوال كما يريدون .

فيجب أن يكون الملك على درجة من كمال النفس تجعله بمنأى عن مغالطة الأوهام ، ومزالق الأقدام حتى يتعالى ويبتعد بعصره عن وخامة ذلك .

قال « زيرك » لقد سمعت ما قلته ، واستقر في مقاعد سمع القبول وأخيراً ، هات كل ما تريد من ملتمسات .

قال «زروى » : أريد أن تميزنى بميزة التوقير والتعظيم عن جميع طوائف الخدم ، وأن توقر جانبى لدى جنابكم ؛ لأن كل من يعزز الأقارب يكون قد عزز جوهر نفسه ، وكل من يحترم عماله فهو محترم لعمل نفسه والوزير الذى لا يكون نافذ الأمر مسموع القول فى حضرة الملك ، فإن

الجيش لا يعظم له حرمة ولا ينقادون لأوامر الملك ، كمثل الرسول الذى أرسل إلى الخلق فلم يستجيبوا لدعوته ، ربما لشبهة فيها ، ومن ثم لن ينقادوا بقوله (أى بقول الرسول) لطاعة الله - عز وجل وحكاية الزاغة [1] مع ابنتها كانت كذلك فسأل «زيرك» : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية بنت الزاغة مع أمها

قال «زورى» : سمعت أن زاغة كان لديها ابنة حسناء ، تفضلُ الطاووس فى زينتها وجمالها ، تعيش فى سترة العزة وعش المنعة ، مكتوب على فص خاتم عذريتها هذا الكلام :

لا تطلب خدى لأنه فى قرص الشمس ، ولا تطلب شفتى لأنها فى منقار السيمرغ .

وكانت جميع الطيور فى كل البساتين تتغنى كالبلبل بجمال خدها ، وكانوا يشربون من كأس سعادة جماله .

نهض فرخ بوم للحصول عليها كيما يجعلها زوجة له ، وأرسل خاطباً لأمها وطلبها للزواج . فدعت الزاغة ابنتها وقالت لها : أى بنيتى : لقد جاء إلينا الأشراف من الأطراف يتنازعون ويتزاحمون على خطبتك

(١) الزاغ : غراب صغير يميل إلى البياض ، لا يأكل الجيف وهو المسمى الآن بمصر الغراب النوحى (القاموس المحيط) .
وقال الدميرى : « الزاغ من أنواع الغربان يقال له : الزرعى وغراب الزرع وهو غراب أسود صغير وقد يكون محمر المنقار والرجلين ويقال له غراب الزيتون ؛ لأنه يأكله وهو لطيف الشكل ويقال : إنه يعيش طويلاً .
الدميرى : حياة الحيوان ، جـ ٢ ص ٢ .

وطلبك ، لكنتى أريد أن أزوجك لزوج يطيعك ، ويكون تحت يدك ، ولا يمد رجله أكثر من فراشه (١) وفى نفس اليوم أرسلت الزاغة شخصاً لاستدعاء البوم ، وقالت لابنتها : إذا رغبت اقترن بك ، فهو أليق من الجميع ؛ لأنه برغم الإخفاق الذى ترينه شخص مطيع ، كما أنه يستطيع أن يقوم بخدمتك ومراعاتك مضطراً ، بل إنه يكون ملجماً بحكمك وأمرك مثل القمرى الذى لا يتفاخر بالطوق المعنبر ، ومثل الهدهد لا يستعلى بالتاج المرصع ، و مثل الهما (٢) الذى لا يرى الخلق محتاجين إلى ظله ، يرضى بضيق عشه ، ويقنع بضنك عيشه ، فلو تتفاعلين معه يشكر ، وإن تحزنيه قصداً لا يشكو :

لكلٍّ من الأيَّام عِندى عَادة ... فإنْ ساءنى صَبرٌ وإن سَرنى شُكرُ

فقالت بنت الزاغة لأمها : يا أماه لقد أحسنت قولاً ، وفى هذا الكلام فائدة . كما أنك تريدين لى الاستقرار ؛ لكن الزوج الذى استطيع ضربه وطرده ، فأي قدر له بين الطيور ؟ وأى افتخار لى بين طوائف البشر والأقران عندما يكون الزوج كذلك ؟ فكيف أرضى به من أجل نعومة الزواج ورغيد عيشه فأكون تحت حكمه :

ألا ربَّ ذُلٌّ ساق للنفس عِزةً ... ويا رُبَّ نفسٍ بالتَّعززِ ذَلتِ

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه إذا استثقل جيشك ظلى ولم يروا لى منزلة عالية ، فلن يكون لسلطانك عظمة ، ولن يخافنى عدوى .

(١) إشارة إلى المثل العامى « على قد لحافك مد رجليك » .
(٢) الهما : اسم طائر خرافي كل من يظلله يصير ملكاً ويضربون به المثل فى التيمن والسعادة . « فرهنگ عميد » .

قال «زيرك» : لقد سُمع هذا الكلام بأذن الروح ، وعزم الفكر على تنفيذ تلك الأحكام ، ولو بقى شئ من ضـوابط وروابط هذا الأمر ، قلها ولا تترك شيئا . فكل ما تقوله لا مفر من قبوله .

فإننى لو تُعاندنى شِمالى عِنَـادَكِ ما وصَلَتُ بها يَمينى (١)

فقال « زروى » : أعلم أننى حينما ربطت حزام طاعتك على وسطى ، ووضعت أنت تاج العظمة على رأسك لا أستطيع أن أقول كل الكلام حتى ولو كنت أعلمه مثلما حدث للرجل مع الشجرة التى عبدها الناس . فسأل زيرك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الشجرة التى عبدها الناس

قال « زروى » : سـمعت أنه كانت هناك شـجرة فى مـدينة بأقاصى بلاد الصين ، وكـانت جذورها ضـاربة فى أعـماق الأرض ، وفـروعهـا مرتفعـة إلى عنان الثريا ، وكانت في عمـر العجوز وهيئـة الشاب ، قديمة الزمن ناضرة الوجـه ، إذا رأيتها قلت : إنهم أحـضروا غصنهـا من جذر باسقات الخلد ، ومن نبات حـديقة إرم . فقد كان بستـانى إبداعها يرويها من نبع ماء عين الحياة ، ويطلى أوراقها الحريرية الفستقية وأغصانها العنابية الصفراء بلون من مـصبغة القدرة . فلـم يدع القدماء من مزخـرفي ربيعه صـفاءه (أي اللون) ولـم يأت ملونوا خـريفه بـعد لونه المعـصفـر بالشكل المزعفر . لقد أعادت بطبيعتها فى إظهار خوارق العادات صفة نخلة مريم ؛ حتى صارت مثل شـجرة آدم مزلة قدم أبنائه ، فتخيل أنها شـجرة متكلمة بلسان من خشب ، وتلقى على سمع العالمين : « إنى أنا الله رب العالمين » [٢] حتى إنهم كانوا يسجدون لها على تراب المذلة .

(١) هذا البيت غير مناسب لسياق الكلام كما يقول القزوينى .
(٢) القصص / ٣٠ .

وذات يوم وصل مسافر إلى مدينة تلك الشجرة فرأى أمة من الناس يعبدونها . فأبدى تعجبه من ذلك الحال . ثم دخل فى جدال الملامة مع عبدة تلك الشجرة وقال : إنها جماد وليس لديها حواس الإدراك الحيوانى ، وليس لديها قوة الحركة الإرادية . لا تملك دفعاً للألم في الطبيعة ، وغير جاذبة للراحة فى الطينة . ليس لديها واسطة لكسر الشهوة وليس عندها وسيلة لجر منفعة لكم ، فبأى سبب اتخذتموها قبلة الطاعة ؟ قال تعالى : « لم تعبدُ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً» [1] .

ونهض الرجل بعد الغبن الذى رآه من غلو هؤلاء فى عبادة الشجرة ، وأخذ فأساً وأراد أن يقطع الشجرة من وسطها . فصرخت الشجرة قائلة : أيها الرجل ماذا فعلت لك حتى عزمت على الاعتداء علىّ ؟

فقال : أريد أن أظهر للناس أنك مجبورة مقهورة حتى يعلموا أنك لا تنفعين فى أي أمر ، ويعلموا أنك ستكونين بعد فترة من الزمن حطب جهنم لهم . ولن تكونى سبب نعيم الجنة . فصاحت الشجرة ثانية : ابعد عن التعرض لى ، واذهب حتى أمنحك فجر كل يوم - قبل شروق الشمس من جيب الأفق إلى ذيل قبة السماء - ديناراً من الذهب الخالص وأضعه لك فى المكان الفلانى ؛ حتى تأخذه منه ، وبمرور قليل من الوقت تصبح صاحب مال كثير . فرجع الرجل من عند الشجرة بفرط الحيرة والتفكير . وتساءل كيف حدث هذا الأمر ؟ وفى اليوم التالى فى الموعد المحدد وجد دينار ذهب أحمر فالتقطه ، ومضى أسبوع على هذا النسق ، يذهب ويجد الذهب .

(١) مريم / ٤٢.

وذات يوم ذهب - كالعادة - فلم يجد شيئا ، فحمل الفأس ثانية وذهب إلى الشجرة ؛ فصاحت ماذا تريد ؟ فقال : إلى اليوم كان يوضع لى شئ ، وكانت هناك المتعة والراحة ، وكنت ملتزماً بعهدة الحياء وأداء حقوق تلك المحبة والإخلاص . وعندما تركت حسن عادتك وقطعت الدينار الذي كان موظفاً لى كل يوم ، أردت استئصالك وقطعك من الجذور ؛ لأن الشجرة التى لا فائدة منها فقطعها أفضل :

إذا العُودُ لم يثمرْ وإنْ كانَ أصْلُه من المثمراتِ اعتدَّه النَّاسُ فى الحَطَبِ

فقالت الشجرة : إن كل ما وجدته منى كان مصطنعاً ، وجعلتك بواسطته مقلداً ، وجعلت عنقك فى ربقة الخدمة والعبودية ؛ حتى تعلم أن الذى يملك يد الإحسان عليك يملك القدرة على الإساءة لك أيضاً . فوقع هذا الكلام على قلب الرجل وقعاً شديداً . وشاهد تمام الهيبة فى استغنائها ؛ وشاهد ذل الاحتياج فى نفسه وهكذا فى النهاية احتوته حتى عجز عن الجواب .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه عندما تصبح ملكاً ، وأنا عبداً يستقر وقار الملك على افتقار العبودية ، ويخطر ببالى كل هذا فلا استطيع قوله بشجاعة أو بلا مبالاة . واعلم أن الاختلاط ، وإظهار التبسط مركب فى جبلتك ، لكن هذا لا يجب فى كل الأحيان . وخاصة فى الملك ؛ لأنه عيب عظيم ومنقصه شنيعة فيه . والرجل العالم محنك وغير منهور دائماً ، لا يتوغل ولا يتعجل فى الأمور دون تجربة واختبار ، ويعلم أن لكل كلام مقام تصديق وتحقيق حتى لا يصيبه ما أصاب الرجل الإسكافى .
فقال « زيرك » : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية زوجة تاجر الحرير مع الإسكافى

قال « زورى » ذهب تاجر حرير ذات يوم إلى السوق ، وكان هناك رجل يبيع طائراً ، فسأله : ما هذا الطائر ؟ وأي شئ يفعل ؟ فقال هذا هو الطائر الذى يرى كل شئ فى المنزل ، ويحكيه لرب البيت . وكان لتاجر الحرير زوجة لم يحمل نقاش الصين صورة أجل من صفحة خدها ، ولم يرسم قلم المصور مثلها على الإطلاق . ومثلا تكون الزوجات الفاجرات ، كانت (هى الأخرى) تدخل فى رجم ظن زوجها . ولذلك فإنه عندما سمع أن الطائر يملك هذه الخاصية صدقت رغبته في شرائه ، وفكر قائلاً : إننى سأعهد إليه بمراقبة أحوال البيت ، وأخوف المرأة من إشرفه حتى تحفظ نفسها في غيبتى ، وتحذر من رقابة الطائر . ومن ثم لا يتحتم عليّ أن أعاقبها على أفعالها ، ولا يحدث شئ موجب للفضيحة وهتك ستر الحرة ، واشترى الطائر . وحمله إلى البيت ، وقال لزوجته: اهتمى بهذا الطائر جيداً ، وأكرميه ، لأن هذا الطائر يتميز عن جميع الطيور بالحدس والذكاء لأنه إن لم يحمل الرسائل مثل الحمام الزاجل فإنه يقرؤها . فهو أنم من القمر وأشد غمزاً من المسك طليعة الغيب ، وجاسوس شوارق النظر .

أنمُّ من النُّصولِ على خِضابِ ومن صافى الزجاج على عقَارِ

كل شئ يراه فى الداخل يحيكه ويخبر به فى الخارج ، فتعجبت المرأة واحتارت واشتد خوفها وعندما خرج تاجر الحرير ، انتهزت المرأة فرصة غيبة زوجها ، ودعت - كعادتها - الإسكافى الشاب جميل الوجه الذى تكتحل حوريات الخلد بغبار حذائه بدلاً من الكحل ، والذي كان جاراً للتاجر وكانت المرأة على علاقة قديمة به - إلى حجرة الوصال . وحينا وقع

اللقاء قالت المرأة له : انتبه لا تلمسنى بحضور هذا الطائر ، ولا تتحرك لأنه يقف على أمرنا ثم يخبر الزوج فضحك الرجل من هذا الكلام ، وقال ياللأسف من سخافة عقل النساء وقصور معرفتهن . ثم أقسم أن يجامعها ويمسح رأس القضيب على منقار هذا الطائر حتى يرى بماذا يخبر !!

وبعد طول التمنع الذى أظهرته المرأة ، رضيت بالتماسه ومكنته من نفسها وبعد أن فرغ من الأمر ثم رفع رأس القضيب فى مستوى منقار الطائر . فتقدم الطائر الذى كان فى غاية الجوع متخيلاً أن ذلك قطعة لحم ، فوثب وثبت المخلب والمنقار فيه حينئذ أنهار الرجل من الألم وقال للمرأة : أظهرى له فرجك حتى يطلقنى فكشفت المرأة فرجها بالقرب من الطائر ، فعلق مخلبه الآخر فى فرجها ، وأحكم القبضة عليهما . ووصل تاجر الحرير فى تلك الأثناء فضربهما ثم حملهما ووضعهما فى المكان اللائق بهما واشتهر هذا الخبر فى المدينة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه لا ينبغى الإصغاء إلى كل الكلام . ولا يجب أن تسرع فى عمل بلا سبب مقنع . فقال « زيرك » لقد سمعت كل ما قلت . وسوف يقترن العمل بالقول فابدأ بسم الله ، ولا تفكر كثيراً فى حسن النتيجة أو سوئها ، وكن حاضراً متيقظاً فى مقام الاجتهاد الذى هو موقف الرجال لأنه قيل :

إذا همَّ ألقى بين عينيه عَزْمَه ونكَّبَ عن ذِكر العواقبِ جَانباً[1]

(١) هذا البيت لسعد بين ناسب بن مازن ابن عمر بن تميم وهو شاعر إسلامى المرزوقى : شرح ديوان الحماسة جـ١ ص ٦٧ .

وعندما وصل الكلام إلى هذا الحد . وانتهى تحاورهم وتشاورهم إلى هذا المقام كانت هنالك حمـامة فى عشها أعلى الشجرة التى كـانا تحتها ، فسمعت حوارهما كاملاً . ففكرت فى نفسها قائلة : إن هذين الحيوانين - وإن كانا مختلفين فى الجنسية - عندمـا يتعاونان سوف يصلان إلى هدفهم بسرعة بفضل آلة الكياسة وأداة الفـراسة وما لديهم من بعد نظر وذكاء عقل ، وعندما يحصلان على العظمة والملك ، ويصبح الـبلاط والديوان مستغرقاً بازدحام الخدم والرعايا فسوف يصـعب انضمامى لهذا الجمع وانخراطى فى عدادهم إذا أردت ذلك عن طريق اختيار الطبع وإلجاء الحاجة ، كما قالوا :

آه يالنى من مسكين لا طريق له إليك بسبب ازدحام الروح والقلب فى كوكبة عشقك

فالوجه الأوفى والطريق الأولى هو التحـرك قبل أن ترتفع شجرة دولته ، وتثمر ثمـرة الأمانى ، ومن ثم لابد أن أكون مثل الزهرة التى تتشبث بغصن حمايتها فـأهبط من فوق هذه الشجرة ، وأظهر التقرب الذى يضمن القربى لى ، واغترف من هذا المعين اللذيذ قبل المزاحمين الآخرين وأنال حظى ، لأن أدنى حق من الخدمة يثبت اليوم . ويكون له الأثر الطيب فى ذلك اليوم الذى يوسم الآخـرون من أمثالى بوسم الاختصاص ثم هبطت فى الحـال وأطلقت اللسان بفوائح الثناء وفوائح الدعاء وقالت

- إذا مار وقع الاتفــاق فى هذه الليلة فإن السلام عادة ما يكون فى الفجر

- ولما كنت أنت يوم الزمان ، فأى وقت أراك فيه هو الفجر

فليكن الليل مـقروناً بنهار الإقـبال ، وليكن نهار الأعـداء مظلماً دائماً ، وليكن باعث هذا الاجـتماع هو خـدمة هذا الجناب الذى هو موئل ومآب المحـتاجين فى الدنيا ، ذلك لأننى لى بيت فـوق الشجرة منذ سنوات وما زال موطناً لي حـتى الآن ، ولقد ألقي نور حضوركم السـعادة عـلى هذا الموضع فى هذه الليلة ولذلك فـإن الخـادم الذكى العالم بعيد النظر هو الذى يـفكر فى هذه المهمات التى أقررتم ، وإن دقائق الأمور هى التى تظهر الكفاية والكيـاسة فى مفاوضاتكم ، ولقد استرقت السمع فى كل ذلك جملة ، وكان اعتمادي على ذلك ويقينى بدأ يزيد تدريجياً . وكنت أترنم فى ستر الأغاريد وزمزمة الأناشيد من غاية الترنح وفرط الاهتزاز والنشوة وأقول :

يَكادُ غرابُ البينِ عند حديثكُم ... يطيرُ ارتياحاً وهو فى الوكرِ واقعُ

حتى أثارتنى جـواذب الأمانى ، ونوازع الاحـتياج ، فـجئت وطوق العبـودية فى عنقى ، وحزام الخدمة على وسـطى ، والنطق بالدعاء والثناء على لسانى .

أيها الصديق إن ترد اختبارى ، فانظر طلبك للروح وإعطائى إياها لك

ويحـمد الله بالرغم من أن رئيس الوزراء ، وخـازن خزائـن الأسرار المقدم فى الأمـور بعلو الهمة وسـمو الرتبة وإصـابة النظر وأصالة الرأى ، سابق على الجميع .

تُجلى غياباتُ الأمورِ برأيه ... كما صَدَعَ الصبحُ الدجى بشُعَاعِهِ

إلا أن الخدم والحـشم يعدون قـوائم سرير الملك ، ويقـيمـون دعائم

قصور الدولة ، فالذبابة تعمل لشهرة وشرف الملك مثل الطاووس تماماً .
فأشر حتى آتى بكل ما هو فى الاستطاعة والإمكان وأجعله فى حيز الفعل ، فتهللت أسارير زروى من هذا الحال ، وصار جاهزاً وأكثر استعداداً للأمر ، وقوى ظهره بمظاهرتها له ، والتفت إلى « زيرك» وقال هذا هو مبشر قدوم الإقبال غير المتوقع لأول وهلة ومفتتح الأمر بهذا الخادم الذى ربما يكون مفتاح باب السعادة ، ومصباح ظلمات الشبهة ، الذى جاء دون إحضار أحد له ، وأسفر عن وجه الترهب والرغب ، وظهر من خلف ستر الغيب مثل السعادة المفاجئة .

أهلاً بهذا القمرِ القادمِ	ومرحباً بالمطرِ الساجم
فرأية بين العِدى حارسٌ	وكلّ باليقظانِ والنَّائم

ثم أثنى « زيرك » عليها أيضاً لوبشها كثيراً من العواطف السعيدة ومنحها إعلاء الجاه والمنزلة وإعلاء القدر وقيمة الاستظهار ، واستقر رأي « زيرك » و « زورى » على أن يرسلا الحمامة كسفيرة للطيور وحملاها الرسائل اللطيفة المعطرة لتذهب بها إلى الآخرين ، وتتركها لتحكى لهم بإمعان النظر واليقين أحوال « زيرك » وزروى » ثم تعود لتخبرهما عن كيفية الأمور .

فدعا « زيرك » الحمامة ومنحها ! كل التقريب وتمام اللطف وأوصاها بحسن الإلتفات ، ثم قال لها : يجب عليك الذهاب إلى طوائف الطيور ، وجعلهم يثقون كثيراً فى قولك ، ويأمنون جانبك ، ولا يشعرون بالغربة معك ، وإبلاغهم على لسانى هذه الرسالة عندما أكرمنى الله تعالى بالتوبة

عن عادة إراقة الدماء ، وأكل الحرام ، وفقكم الـله للصحبة ، والبعد عن الشر وإصـابة الخيـر وشرفكم الله بخلعة الاخـتصـاص عن سائر جنس السـباع ، وأخـرج داعـية طلب السلطنـة والملك عليكم وعلى الأنواع الأخرى من داخلى ، وزادنى من التعرض والتحريض للعظمة والرياسة عليكم ، وينبغى حمل هذا المعنى على نظر رحمة الله تعالى الذى يلقى بالزمـر إليكم وإضافـة هذا إلى واسع كرم الألوهيـة الذى يفـيـضـه الله عليكم بلا حـدود ، ومـثلمـا وجب علي رعـايتكم ، وحمايتكم ، فلازم عليكم أيضاً طاعتى ومتابعتى ، حتى أنشر عليكم جناح الرأفـة والرحمة ، وأجـعل النجاح والسـلامة قريـن حالكم ، وأحفظ كل واحد منكم فـى بيته وعشه بحـصانة الحفظ ولا أترك لأى غاشم ظـالم إطالة يد الظلم عليكم مطلقـاً وكل من أصابه كـسر من كواسـر الطيور ، فـإننى أقوم بجـبر ذلك الكـسر وآمر بوضـع مرهم اللطف على كل مكان جرح بسـبب جوارح الوحوش . وهكذا يسكن العصفـور فى عين البازى ، ويحافظ العقـاب على بيت الصعـوة [١] ولا يصل مقراض منقـار الصقر إلى ذيل الكبك [٢] المتهالك ، ويركن الشاهين حاد المخالب إلى حضن الديك الصحراوى .

أما إذا استهواكم هوى الشيطان - والعـياذ بالله - عن متابعتنا ، وهبت ريح الاستكبار على نار عصبتكم وعصبيتكم ، فرفضتم أمرنا ، فيجب أن تـعلموا الحقيـقة وهى : أننا سوف نقتلع بنيـانكم بصواعق الغـضب وزلازل القهـر . ونعمل يـد النهب والتدمـير والإجـلاء فى

(١) الصعوة : طائر أصغر من العصفور (فرهنك) عميد .

(٢) الكبك : طائر فى حجم الحمامة (فرهنك) عميد .

موطنكم فيصير مأوى للبوم ، حتى تصبح ساحة الدنيا أضيق عليكم من حوصلتكم . وتضطربون من الحسرة - على الماء والحب - مثل الحبة على وعاء القلى والتحمير ، ولا يكون مكان جلوسكم إلا على أعالى الأشجار الشاهقة والأغصان الباسقة ، وتهرب الوحوش من الغابة والصحراء والمتنزهات الجميلة إلى قمم الجبال هرب الديك الرومى خشية مخالب سطوتنا ، وجواذب صولتنا ، ويذهبون إلى المكان الذى يطئون فيه الشوك بدلاً من الورد . ويرعون فيه الشيح بدلاً من السنبل ويتحتم عليهم أكل الطين الأسود مثل النبات الأخضر ، وربط حجر الصبر على القلب . حتى يصل الأمر إلى أن صياد الأوهام فى مرتفعات الآكام ومنخفضات الآجام لا يستطيع أن يصيب أحداً بسهم التصور ، وها نحن قد أعطيناكم عنان التخيير فى تقديم وتأخير الأوامر بيدكم ، حتى تعلموا مقام سخطنا ورضانا ، ولا تتبدلوا سعادة الطاعة بشقاوة العصيان والطغيان :

فأووا إليه ولا تَبْغُوا به بَدَلا   مَنْ ضَرَّه الليثُ لم يَنْفَعْه سِرْحَانُ

وعندما سمعت الحمامة هذا الكلام بحسن الإصغاء ، وضعت حلقة القبول والرضا فى أذنها . وعندما بزغ الفجر الذى أعاد الضياء الأبيض للمشرق ، تأهبت للقيام برحلة من رحلات طيران حمام بروج الفلك ، ونهضت من مكانها ، ووضعت رجلها فى ركاب ريح الصبا . وأمسكت بعنان ريح الشمال . وقادت الحصانين على قمم الجبال العالية ومضت بعيداً عن محمل الضباب ، وألقت هودج ريح الدبور عن كاهلها ، وهبطت من هناك إلى المنخفض ، وسرت بعزيمة فى أحد الميادين الضيقة إلى حدود بيت الطيور ، وعندما علموا الخبر ، جاءوا وتسابق كل منهم

مع الآخر فى إعـزاز قدومها بحكم المعـارف السابقة ، وكانوا يجلبـون لها الهواء بمروحة جناح الطاووس . ويزيلون عنها الغبار بمنديل جناح السمندر [1]

وسألوها بشرق عن بارد أيامها ودافئـها ، وتعرفوا على أحوالها ، ثم أحضـروا بسبب التكلف الذى كـان من سمة العـصر - من سائر أسـباب الراحة .

فقالت الحمامة : إننى أحمل لكم فى قلبى شوقاً كبيراً من قديم الزمن . وكنت أتوقع اتفـاق اللقاء فى أحسن الأوقـات بأفضل الأسـباب ، وكنت مسرورة يتمتع الروح بتذوق هذه الحالة التى تيسرت .

ورُبَّ أمنيةٍ أحلى من الظَّفرِ

والآن أقول لكم : إن هناك كلباً يدعى زيرك ، يتحدث بقوة مع أسود العالم وذلك لفـرط الشجاعـة وعلو الهمة ويـخجل من ظل الهمـا بسبب القناعة وعزة النفس ، قد تصـدى للسلطة ورفع يد التعدى - برغم القدرة - عن ضعاف الحيـوانات ، وأقلع عن خُلق ظلم الخلق . وقد تفوق على جميع المتقدمين والمتأخرين بفضـل قوة العزم وصلابة الحزم وسماحة الطبع ورجاحة العقل .

وقد أرسلنى إليكم ، وأطلق لسانى فى أداء الرسـالة وإظهار الإعجاز والايجـاز فى البـلاغـة والإبلاغ وعندمـا تخلصت من الرسـالة ، وألقت أعباءها عن كتف الأمانة ، وحكت كل ما كانت قد سمعته من وعيد القهر ،

(١) السمندر أو السمندل : حيوان برمائى ، شبيـه بالحرباء ، يفرز مادة من جسمه تطفئ النار ، ومن هنا قيل إنه حيوان لا يحترق بالنار (فرهنك عميد)

ومواعيد اللطف ، وحسن الأحوال وسيئها ، وناعم المقالة وخشنها ، قبلوا الدعوة بلا توقف وتبرم أو تردد وتلعثم ، وأقبلوا على البيعة واتفقوا جميعاً بنية صادقة وطية صافية وقالوا : يجب علينا الذهاب إلى الخدمة ، والتلذذ بسعادة الوصول وشرف المثول أمام هذا الجناب ، ونثر الأرواح مكان الدرهم والدينار ، ووضع شكر هذه الموهبة من الواهب على التمام والكمال ، والحصول على خصوصية تشريف المشافهة وتكريم المواجهة ، ثم جعلوا الحمامة أمامهم وأسرعوا متظمين - إلى خدمة « زيرك» وعندما وصلوا إلي هناك استقبلهم « زورى » بالإجلال ، وأمر أن يجلسوا . . كل واحد في مقامه الملائم ومنزلته المناسبة ، وعندما زُين المجمع الخاص بالعوام والخواص أطلق «زيرك» لسسان الفصاحة وفتح حاجب الحسن والملاحة ، ولاطف طوائف الطيور بلطائف العبودية الجميلة وغرائب الاستعطافات وألقى فصلاً مشبعاً مستوفياً فى باب الكرم والوفاء . وصبَّ غر الكلمات ودرر العبارات من حقُة الخاطر ودرج الضمير ، إلى أن غرتهم محاسنة الغر وصغر الخبرُ والخبَر [1]

ولما كان الحمامة قد قررت لهم كل شيء ، ورأوا عنوان الصدق على صفحات قولها ، زادت ثقتهم فى مخايل رحمته وعاطفته وسجدوا جميعاً له سجود الخدمة ، وأقاموا له شرائط الشكر والثناء . ثم استنهض «زيرك» الحمامة لحمل رسالة أخرى إلى الصيادين . فجذبت عنان حصان العزيمة -

(١) هذه العبارة مأخوذة من بيت للمتنبى ضمن قصيدة يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكى ، والبيت هو : واستكبر الأخبار قبل لقائه   فلما التقينا صغر الخبر الخبر للمتنبى الديوان ، جـ ١ ص ٣٥٨

بحكم الأمر - فطوى بالقـوادم والخوافى ميدان صـحن الهواء ونزلت إلى الصحراء التى كانت مكان راحتهم وكان قد نما إلي سـمعهم - قبل مجيئها - أمر مملـكة « زيرك » ودعوة الحيـوانات ، واستـتبـاع الوحوش والسـباع ، والافتاح بالمراسلة مع الطيـور وامتثالهم وانقيادهم له ، وصار الخبر شائعاً وذائعاً فذهبوا إليها بقدم صدق فى الحـال واستفسروا منها عن سبب المجئ .
فوضـعت الحمامة الرسـائل التى كانت معـها ، وشرحت الصـدور بشرح الأحوال ، ونفـثت عليهم من رياح سـحر الدعوة عـدة نفثـات ، وما إن اشتعلت النار فى الخرقة حتى تزلزل داعية الخدمة فى داخل كل واحد منهم وظهر على الجمـيع آثار الولاء والهوى . وقالوا : لا شك أن الكلاب هذا فالمطلوب فى النهاية هو حفظ مصلحـة المملك التى يقوم بنيانها على رعاية الرعية ، ومن هنا فسوف يمنع جور الآخرين عنا ، « ما يضر الطحال ينفع الكبد » وعظمة انتمائنا لحـماه تكمن فى أنه يصوننا من شر الأشرار . وإذا مـا فكر - فى وقت من الأوقـات - أن يضـرنا فلن يظهـر علينا أثر ذلك الضرر لأننا - أعترف به العدو المباين واشتـرك فى معرفته المخبر والمعاين .
ثم اسـتقـرت طوائف الوحوش علـى ذلك القرار وهو أن ينصـبوا غـزالا ويجعلوه مع الحـمامـة حتى يذهب ويرجع إليهم رافـعاً إليـهم أحواله عن طريق السـؤال والجواب مـعـهم ، ويحصلوا علـى كل شئ يؤمل فيـه ، ويتمنى عليه ويؤكد شروط الوفاء بواسطة القسم والاستظهار . فعينوا غزالاً وتوجه مع الحـمامـة فى وقت السحر الذى كـان شيب الصـبح ،العارض مختلطاً فيه بخضـاب الشباب ، وذيل طاووس المشرق تحت جناح الغراب ، ثم أسرعت الحمامة إلي الخدمة قبله ، فقالت نبذة عما حدث من الأحوال .
فأشار « زورى لـ « زيرك» أن مر حتى تدعى الطيـور فيحتفظ كل منهم في الجلوس بمكانة وفى الاستقرار بمقامه ، وأن يعنيوا لكل واحد مكانه حسب اختـلاف المراتب . حتى إذا دخل الغزال رأى للمجـالس فى ملابس الهيـبة

والوقار . فمن أهم وظائف الوقت أن تحتفظ فقط بمقدار القيام والقعود معه ، وألا تترك طرفى التفريط والإفراط من اليد خلال الانقباض والانبساط ، وإذا ما كانت هناك حاجة إلى الأسئلة والأجوبة أثناء أداء الرسالة فلا تسق جواد العبارات الساخنة واجعل عنان الكلام بيدى فى مضايق الدقائق ، واترك لى مناظرته حتى تأتى العثرة التى يتعثر فيها العقلاء فى الطريق ، لأنك لو تغلبت عليه فلن يزداد شرفك ، أما لو غُلبت منه فقد ثبتت الوصمة الكبيرة والمنقصة التامة وعندما شحن البلاط بعوام الحشم وخواص الخدم ، جلس « زيركش » فى المجلس وسط الزينة التى كانت مناسبة للوقت . ثم أدخلوا الغزال بالتقريب والترحيب الذى كان يستحقه ، وأجلسوه محترماً مكرماً وأزالوا عنه وحشة الطريق ووعثاء السفر بتحية ناعمة وسؤال دافئ بحياء وخجل .

ودخل « زيرك » فى الحديث وتكلم بلسان ذرب ولهجة حلوة ، فألقى حلوى محشوة باللطف دون حشو العبارات ، فكان الغزال سعيداً من أعماق روحه بحلاوة هذا الكلام حينئذ نزعت الدهشة من بينهما واستعت عرصة الأمل والرجاء ودخل جريئاً في الحديث وعرض - بلا تحاش أو مكاتمة - كل ما التمس فى ثياب الخضوع والعبودية ، وخشوع وضعف .

وفى النهاية واصل « زيرك » الكلام قائلاً : ينبغى أن تأمنوا من ناحيتى ، فكثير من الملوك الذين يتخذون الصغار أعداء فإنهم عندما يعلمون التزامهم في أمورهم ، ويظهرون اللياقة في شغلهم يصبحون محبوبين عندهم ومقربين لديهم ، وأنت تعلم أن ذلك فى أصل فطرتنا وطبيعتنا . فالكل قاصد لكم . لكن ليس هذا من جهة أنهم رأوا منكم فعلاً غير موافق ، أو وجدوا ضرراً لاحقاً بهم ، بل كان هذا من جهة أنهم أسيرو الطمع وعبودية الشهوة والخضوع للطبيعة ، فلا جرم أنهم

دائماً جوعى للحومكم ، وعطشى لدمائكم ، فـيقضون كل العمر فى كمين تلك الفرصـة التى يأسرون فيها أحـداً من تلك المواشى بمخالب قهـرهم . وأنا بعون التأييـد الإلهى قد نصرت العـقل على الهوى ، وأغمضت عين الطمع والغضب عن كل ما كان مطمعاً ومطعماً حينئذ - سنكون فى حوزة حمايته من ضرر الآخرين ، ويبدو هذا القدر من التعب أنه عين الراحة .

إلا أن أرنباً يشتـهر بالدهاء والذكاء مثل شـعاع بيِّن ذكاء بين الأنجم ، كان حاضراً هذا الاجتماع ، وبدأ بالاعتراض قائلاً: أعجب من أمركم أيها الحمقى تسمحون لأنفسكم أن تجتمعوا وتتفقوا على هذا الأمر بلا تفكير . ولا تعلمون أن الناس وقت المشاجرة وعندما يقذف كل منهم الآخر بالهجاء يشبهه بـالكلب ، ويضربون به المثل فى الخساسة والسفـالة . ومن ثم فهو ناقص فى جوهره ، لدرجة أن صاحب الشريعـة عليه الصلاة والسلام يأمر من ابتلى بمـس فم الكلب بغـسـله سبع مـرات بالماء والـتـراب من باب الاستنكاف ، كمـا أن جلده لا يأخذ الحكم بالطهارة بأى دبغ ، ولا يزول نتن الرذيلة التى جبلت فى تكوينه بأى خصلة أو بأى فضيلة ،

مَنْ وَسـخَتْـهُ غَـدْرَةٌ أو فجـرةٌ لـم ينقـه بالرخصِ مـاءُ القَلزَمِ

ومن أول لوازم الاستعداد للملك النسب الطاهر الذى إن لم يوجد فيه (أى فى الملك) فكل شئ يأتى منه مشوب بنوع من النقصان ؛ لأن السرو والياسمين لا ينبت من منبت الثوم والزنجبيل الشامى أبداً . ولا يأتى الورد والريحان من مـغرس الخيـزران ، قال تعالى « والذى خـبث لا يخرج إلا نكدا » [1] قالت الحمامة له : تجاوز عن هذه الخيالات المستحيلة ،

(١) الأعراف / ٥٨ .

لا بقومى شَرُفْتُ بل شَرُفوا بى   وبنَفْسِى فَخَرتُ لا بِجُدُودِى [٢]

إن السلطنة أمر عظيم والتحليق فوق قمة معاليها لا يكون إلا بجناح الهمة العالية ؛ لأن النسب زينة وجه الحسب ، ولو لم يوجد النسب فالحب وحده هو الأصل ويغنى عن كل شئ ومن هنا يسأل عن الرجل من ناحية محامد الصفات الذاتية مثل الفضل والفتوة والمنقبة والمروءة . ثم يسوقون الكلام عن نسب الأبوة ، لأنه ليس كل ما يلقيه الغزال مسكاً طيب الرائحة ، أو كل ما يخرجه النحل عسلاً مصفى ، أو كل ما يربيه الصدف لؤلؤا متلألأ ، وليس كل ما تلده اللبؤة أسداً شجاعاً ، أو كل ما يصنعون من الحديد يكون سيفاً ،

فالرجل الذي رأس الفردوس أنى له أن ينظر إلى الدنيا ، والذى وصل إلى البحر أنى له أن يطلب المستنقع ؟

فانظر إلى الصدف وقل (لها) لن تكونى أفعى مؤذية ، واطلب المسك وقل له لا تكن غزالاً شريد الصحراء [٢]

وتلك الفضلة السيئة التى ولدت من أصل طاهر ، وهذه العلامة غير المقبولة التي وضعوها على ناصيته هى « أنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » [٣] ثم إننى أعلم أن مجرد النسب ليس علة العظمة والسلطنة وإلا فالحب الذاتى لا يمكن أن يكون مكملاً ومنقصاً ، وجوداً وعدماً ، بل ربما يأتى الفرع الذى يجدر به أن يكون مفخر الأصل ،

كم من أبٍ قد علا بابن ذرى شرفاً   كَما عَلا برسولِ اللهِ عدنانُ

(١) البيت للمتنبى من قصيدة مطلعها :

كم قتيل كما قتلت شهيد   بيباض الطلا وورد الخدود   المتنبى : الديوان ، جـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) هذان البيتان من قصيدة للخاقانى فى مدح فخر الدين منوجهر شروانشاه خاقانى شروانى ، الديوان بتصحيح دكتر سجادى ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ .

(٣) سورة هود : ٤٦

وكل ما تقـول من ان الكلب منسوب إلى خسـة الطبع فاعلم أن الرجل الذكى دائماً ما يبحث بمصباح العقل عن عيبه ، فإذا وجد عادة مذمومة وصفة منفردة فى نفسه أبعدها بجهد وتكلف مثلما فعل اللص الذكى فسأل الأرنب : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية اللص العالم

قالت الحمامة : زعموا أن لصاً كان أسرع من الوهم ومن خيال الليل ، لو أراد ضرب نقب فى حصار رحل ، أو خلع النقـاب عن وجهه لفعل ، فقد كان يدخل من فـتحة كل نافذة مثل شعـاع القمر ، ويزحف من ثقب كل باب مثل الشمس ظل أمير الولايـة يطلب إدخال رأسه فى حبل الحيلة لمدة عامين ، فلم يتيسر له ذلك .

وذات ليلة كان اللص يجلس مترصداً - كعادته - خلف منحنى جدار حتى يخطف من المارة مـتاع البيت . فشـاهد جماعة من الناس كـانوا قد قبضوا على امرأة - سيئة الفعال - بجريمة الزنا ، وكانوا يجرونها إلى قصر الوالى . فصـاحت المرأة : أيها المسلمون لم أقل بهـتاناً ولم أسرق فـماذا تريدون من المسكينة ؟ فـأعطى هذا الكلام عقاباً وتأديبـاً شديدين للص ؛ فقال فى نفسه : أف لعمل عملتـه فترة من الزمن تخجل منه امرأة زانية . ثم ذهب وتاب عن هذا العمل ، ولم يفش ذلك السر أيضاً .

وقد قلت هذه الحكايـة حتى تعلم أن « زيرك» عالم جـداً وذكى جداً وذو مهارة وصاحب فضيلة ، ولو وجـد مثل هذا العيب فى نفسه ، لعلم أن الاجتنـاب عنه واجب ، ولو لم تكن هذه المعانى غـير مـسموعـة منى لديكم ، فوكلوا أحداً منكم علىّ ، وأوكلوا إلى أمانته تحقيق هذه المعانى ؛ فـيأتى ويشـاهد : كيف أن السلطان مـزين بلطافـة الكلام وذلاقة اللسـان ونظافة العرض !! وقد اشتهر من مناقبه ما راق وفاق وطبق ذكره الآفاق ، حتى للحيوانات المفترسة ، وابعدت عن كل هذا ، واتخذت العقل دستورا

فى الأمور حتى لا يصل منا ضـرر لأى حيوان على الإطلاق . وحتى لا يتخـذ بغضنا وحسـدنا مكاناً فى قلب أي حيـوان ، ويجب أن يعلموا أن عـدلنا - بعد اليـوم - سـوف يكون حارسـاً للجمـيع للقطيع . وسـوف يكونون مطمئنين في كنف أمننا وأماننا وسوف يأتون بالوحوش من أطراف العالم وأكنافـه بفضل مواثيق عـهدنا ومواعيـد لطفنا ؛ حتى يتعـايشوا فى سلطتنا بالرحـمة وقلـة الأذى والرفق والرعاية حـتى لا يتصـوروا جهـدنا وسعينا حلاً ومآلاً إلا بالثناء الجميل والثواب الجزيل الذى صار ذخراً .

فقال الغزال: ليكن البقاء والفوز للملك الموفق سعيد الحظ لا شك أن طريق الخـلاص من الخصـوم - بلا مـحاباة لك منا - أن نتـوسم بوسم عبوديتك ، حتى يحفظنا حـزام أمرك من مخنقة مخلب الأعداء وتحمينا عظمة أظافرك من مشافر سافكى الدماء .

أما عندما تكون بيـوتنا متفرقة فى الجبال والتـلال ، ومساكننا في المصاعد والقلال المتفرقة ويكون لكل طائفة منا عدد مختلف ، فسوف تغلى مرارتنا دائماً من الخوف منهم ، وتبدو جميع أزهار جبالنا وثمار حدائقنا مـثل نبات السم ، ونشـبه قطيع الأغنام الذى يملك مـجمـعاً ومضجعـاً واحداً ، يأكلون مجموعة واحـدة فى مرعى واحد ومعلف واحد ينامون كذلك فى مكان .

فالتفت زيرك إلى « زورى » متسائلاً : ما جواب هـذا الكلام ؟

فقال « زورى » اعلم أن السلطان الشمس المضـيئة التى تنير كل أقطار العالم من مكان واحد ، ويبدو شـعاع أنوارها فى كل مكان تصل فيه شكل مخـتلف ، حتى يستولى روع البـأس ورعب الخوف فى الأدنى والأقصى على كل قلب بطريقـة مختلفة فقـد قيل : لا تأمن السلطان وإن كنت بعيداً عنه لأنه قادر عليك أيضاً .

كالشَّمس فِى كبدِ السَّماء مَحِلُّها وشُعَاعُها فى سائرِ الآفاق

والحقيقة أنه عندما يستقر الملك ويستمر الحكم ، تظهر الكثرة فى سواد الجيش ولا تستطيع الخيالات فى سويداء أى قلب أن تقصدكم ، مثلما لا يتعلق أي مخلب النمر على ذيل جلد الغزال ، وقدم الذئب لا تساوى سرعة هوس الخروف ، ومثلما تمنع عظمة غصة البقرة اللقمة فى فم الأسد ومثلما يغسل كحل عين النمر الصغير دمع حسرة الغزال .

قال الغزال : لنا التماس آخر ، وهو أن يجعل الملك طريق الذهاب والإياب مفتوحاً لنا ، حتى إذا وقعت الواقعة التى نحتاج لرفعها ، فإنك تسمع بالسمع المبارك بلا واسطة ، فترفع تلك المظلمة عند مساس الحاجة . وينتظم الصغير والكبير والرفيع والوضيع والخطير والحقير والمجهول والوجيه والخامل والنبيه جميعا فى نظام وسلك واحد وقت الاستغاثة ، ولا ينفرد أحد عن الآخر مثلما فعل أنو شروان مع الطحان فسأل « زيرك » كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية كسرى مع حمار الطحان

قال الغزال : سمعت أن كسرى كان فى غاية الرعاية والعدل لرعيته لأن طبعه قد فُطر على ذلك ، ومن ثم طلب الا تُخفى عليه جزئيات أحوال الرعايا من رعاع الناس وأشرافهم مطلقاً . ولأنه لو طلب العدل عن طريق لسان الناس وأشرافهم يحدث تقصير فى كشفه

، يحـدث الخلل فى قـاعـدة العـدل التى يبنـى عليـهـا مناهج الخلق ومصالح الملك ؛ أمر أن يفتلوا حبلاً من الحرير ، ويعلقوا فيه أجراساً ، ويربطوه بالقرب من ساحة القـصر ، حتى يمسك ذلك الحبل ويضرب الجرس كل مظلوم يُركل بنعال الذلة . ويصل صوت حكاية حال ذلك المتظلم إلى سمع أنوشروان حـتى أن قلب الجرس الحديدى صار يربت على قلب المظـلومين ويرحـمـهم فى ذلك العـهـد ، لأنه يوفى حق المسلمين فى كشف بلواهم ويبث شكواهم بلسان اللامشافهة وكان هذا الحبل الحريرى قد ربط بروح الملهوفين ، فيتـحرك فى جميع أجسامهم لحمايتهم .

أمـا اليوم فلو يتـعلق ألف مظلوم بحـبل ، فلن يوجد الشـخص المغيث عندمـا يتحرك الجرس ، فتـحتار أكان ذلك الحريـر قائماً على تأسيس عـدله أم كان أوتاراً عندمـا ضعـفت خرجت أنات المـتحنين جميعاً من تحت الستر .

ومنذ عـصر ذلك المـلك حتى اليـوم ، نجـد كلَّ ملك من الملوك وصلت إليـه نوبة سـماع هذا اللحن ، قل الحـرير عنده ، حـتى زال اليوم عن الاستعمال تماماً . وما زالوا يحتفظون بنفس الحجاب .

وذات يوم خلت المنطقة حول قصر أنوشروان من الناس ، فوصل إليها حمار وحكَّ جسمه فى ذلك الحبل بسبب الجرب الذى ظهر على أعضـائه نتيـجة الضعف الـشديد . فسـمع أنوشروان صـوت الجرس ولشدة حبه للعدل ورفـضه للجور بحث عن مكان حتى أتى إلى زاوية

فى سطح بيت الخلوة ، ونظر فرأى حماراً على هذه الصفة السابقة ، فسأل عن حاله . فقالوا له : هذا حمار الطحان قد عجز عن العمل والحمل بعد أن صار عجوزاً نحيفاً . فأطلقه الطحان خارج البيت فأمر أنوشروان الطحان أن يعيد الحمار إلى المنزل ، ويواظب على إطعامه وسقايته ، وألا يتعبه فى بقية حياته بألا يكلفه عملاً ، وأمر منادياً ينادى : بأن كل من يملك حيواناً وانتفع به فى شبابه فلا يضيعه وقت الشيخوخة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى يُعلم كيف كان ملوك العالم حراساً له (أى للعالم) !! وكيف كانوا يسرون بتأسيس مبانى العدل ، وقواعد الشفعة على الخلق !!

شئ آخر هو أنك إذا أمرت بعقوبة فى وقت ما ، يجب أن يكون الباعث عليها هو تأديب الرعية وتعديل أمور المملكة ، وليس الهوى والغضب الذى يظهر بسبب إغراء الطبيعة ، وأن تضع حمل التكليف على قدر الطاقة حتى لا ينهار ما يحملونه ، وأن تترك غير المتمرس « إن أردت أن تطاع فسل ما يستطاع » وعندما تجازى على جناية يجب أن تميز بين المتعمد والساهى ، وبين المكافئ والبادئ وينبغى فيمن ينفذ ذلك علينا أن يكون متبصراً ، متيقظاً ، عاقلاً ، حافظاً يبحث بطبع الصلاح ، ولا يظهر آثار التكلف والتقليد فى ذلك حتى لا يبتعد عن الفطرة ، ويرغب عن النفس مثلما قال المغنى للعريس فسأل زيرك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية المغنى مع العريس

قال الغزال : سمعت أن فى وقت ما تزوج شخص فتاة وشُغل بالعرس والوليمة كالعادة ، وبكل ما كان ضرورياً من رسوم وعادات تلك الضيافة التى أعدها للضيوف ، ولما كان فى عزلة عن الجميع ، وكان له جار تتألم زهرة السعد من آلته الموسيقية ؛ مثلما تعانى زهرة دعد لفراق رباب [(١)] تثير ضرب نقراته لحن البلبل على أوراق الورد ، ويعكس نشاط نغماته ضحكة الورد على وجه البلبل .

لم يأخذ سماع هذا المزمار المعكوس فى ثوانى وثوالث الحركات مع مثالثه ومثانية فى لحن أعلام التصوف ،

فارس العريس (المضيف) شخصاً فى طلبه ، فذهب إليه قائلاً : احمل العود واحضر بسرعة ، فبادر بسؤال : هل خطب العريس هذه الفتاة برغبة القلب ومراد الطبع ، أو أن أبواه هما اللذان حكما بذلك ؟ فأنكر الرسول عليه هذا التساؤل متعجباً :

فقال المغنى مبرراً : إن الرجل إذا خطب المرأة حبًا فيها ، تعلقت روحه بسماعى ، وعلق عزفى بقلبه وجعل من أغاريدى وأغانى بازى وصال وفراق مع خيال وجه غوانى العشق ، ويسمع عزفى للحن العشاق من خلف كل ستر ، فيعود علىَّ فوائد كثيرة من تأثير السماع

(١) عامل الكاتب دعد ورباب على أنهما عاشق ومعشوق ، مع أننا نعرف أن دعد ورباب معشوقتين لهما قصص حب مشهورة فى الأدب العربى .

فى نفس العريس وقلوب الحاضـرين . أما لو لم يكن الأمر كذلك ، فما هو حاصل السماع بالنسبة لى وله ؟!!

فـرق بين العـشق الـذى ينهض بالروح ، وبين ذلك الذى يـقـيـد النفس بحباله .

وقد قلت هذه الحـكاية حتى يكون مقـرراً أن أمر الرعـايا ورعاية أحوالهم لا يجب أن يفوض لأى شخص .

قال زروى أحـسنت قولاً . لكن الثناء واليـمن على هذه الفطرة التى فهمت هذه الحقائق على هذا النحو ، ولعلها - بهذا - قد سارت خطوة فى طريق رفقة الأصدقاء . والآن فإن رضانا يقتضى أن تسيروا فى طريق الوفاء والصدق بصـبر وأمانة ، لأن كل شئ لا يؤسس على الوفاء والصدق لا يثبت على حال .

واعلم أن محل الصدق شـيئان : القول والفـعل ، وصدق القول يكون فى : إذا قلت شيئاً استطعت أن تخلص ذمتك منه ، أما صدق الفعل فهو ألا تترك قاعدة الاعتدال .

واعلم أن الاعـتدال ليس هو المسـاواة فى مقـادير كل شىء وإنما الاعتـدال هو العمل وفق المصلحـة وكل من يفهم العـدالة على المعنى الأول يفعل فـعل ذلك الطباخ الجاهل ، فـسأل الغزال : كـيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الطباخ الجاهل

قال زروى : سمعت أن حكيمـاً ترأس اجتماع الحكماء ذات يوم . وكان هذا الحكيم طيب العشرة ، وكان يتحدث فى كل ألوان الحديث ، حتى وصل الكلام عن اعتدال الأخلاط [1] والأركان ، وقال : إن من يكون - دائماً - متساوى الأجـزاء فى الصفراء والسوداء والبلغم والدم بمقدار صحيح غالباً ما يظل مزاجه الكلى على قراره الأصلى ، وشبيه بهـذا أن الربيع يـأتى عندمـا تكون الشـمس فـى نقطة الاعـتـدال ، وتتسـاوى ساعات الليل والنهار ، مـثلما يلتصق اعـتدال الفلك بعين الشمس ، فيظهر الاعتدال المطلق فى مزاج العالم . وكان هناك طباخ قد وقف بين المشـاهدين ، فلم يستطع الفـهم ، فتـخيل أن المراد من الاعتـدال هو تسوية المقدار . فـذهب وصنع قِدراً من حسـاء الكمون ووضع عليه لحمـاً وزعفران وكموناً وملحاً ومـاء وتوابل أخرى بمقادير متسـاوية وعندما نضجت وضعهـا أمام رئيسه ، فـأظهر البرهان على جهله ،

وكم مِن عـائبٍ قولا صَحـيحًـا وآفتـهُ من الفَـهمِ السقـيم [2]

وقد قلت هذه الحكاية لتعلم أن رعـاية العدالة طريق دقيق ، لأنه لا يمكن سلوك هذا الطريق بدون آلة العقل ، فالعقل هو المقياس الذى

(١) الأخلاط فى اصطلاح القدماء : الدم ، الصفراء ، السوداء ، البلغم (فرهنك عميد)

(٢) هذا البيت للمتنبى من قصيدة مطلعها :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم المتنبى : الديوان جـ٢ ص ٣٧٩

يرعى الأمور العرفية والشرعية فى فوائد الدنيا والدين ، والإشارة النبوية التى تتمم الأمور هى « ما دخل الرفق فى شىء قط إلا زانه وما دخل الخرق فى شىء قط إلا شانه » .

فحفظ الظبى هذا الكلام ، ونقش ما سمعه من « زيرك وزروى » على سواد وبياض العين والقلب ثم دعا بالدعاء اللائق للحال وأثنى بالثناء المستحق فى هذا الوقت . ثم اتجه مع الحمامة - مأموراً - إلى المقصود بوجه صبيح وأمل فسيح وحصول مراد القلب ، وخصب مراد الأمانى مقضى الوطر مرضى الأثر والنظر ، ،عندما وصلا إلى المقام والمستقر حضرت الوحوش ، وهنأ بعضهم بعضاً ، ثم أطلق الظبى اللسان بذكر محاسن أوصاف «زيرك» ومحامد أخلاقه وسيرته المرضية وقال :

له خلقٌ كالروضِ غازَلة الصَّبا يَزِيد ... فَضَوَّعَ فى أكنافِه أرجُ الزَّهر
على مَرِّ الزَّمانِ سجاحةً ... كما زادَ طولُ الدهرِ فى عبقِ الخَمرِ

وتوقع سير أمور الوقت فى مستقبل الحال بهدوء . وسعدوا جميعاً ثم وقف الظبى والحمامة لتبليغ رسالة «زيرك» وإشاراته ، وجملة الوصايا التى كانت قد قيلت فى قضايا وأمور السلطنة والرعية ، ثم أعادا ربط الأصول والفصول التى كانت قد ألقيت فى ذلك الباب . فاطمأنت القلوب واستقرت على قبول الطاعة ثم طاف الظبى حول أطراف تلك الحدود ، وجمع جماهير الوحوش ، واحتشدوا

جميعاً على أتم وجه للسير إلى بلاط « زيرك » فقامت الحمامة على رسم الحجابة فى الأمام ، ووصلت إلى الخدمة ، وأوصت الخبر عن وصولهم فقال «زيرك» كلما كانت عقائدهم خالية عن مكائد قصدنا هذه الساعة كانت الضمائر صافية عن تصور الجرائر ومضرات الضرر والأذى . أما عندما تظهر صولتنا ومهابتنا أمامهم فلن تكن بعيدة عن التمكن فى أصل الفطرة . وعندما يقتربون منى يرهبوننى ، فإذا غلب على أحدهم ضعف القلب ، وجهل أن عنان طبيعته يخطف ، ذلك أو أن ليس لديه خبر عن كيفية الحال ، فيلاحظ الجهد ويولي وجهه شطر الهرب لا قدر الله ؛ لأنه يؤدى كل حركة بتحريش وتشويش ، ومن ثم أوجد طريقاً لتردد الحيوانات المفترسة ، ومن ثم يتبدد النظام وتبقى الأمور الفاسدة ، مثلما حدث للثعلب مع الديك ، فسألت الحمامة : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الثعلب مع الديك

قال « زيرك » سمعت أن ديكاً كان قد طاف العالم ومزق شراك المكر ، ورأى كثيراً من حكايات الثعالب ، وسمع حكايات حيلهم . وذات يوم كان يطوف فى حديقة ممتعة حول القرية ، فمشى كثيراً ثم وقف على أول طريق حيث الورود المتفتحة وشقائق النعمان الجميلة ، قد تهدل عليه الشعر المسكى المجعد من مفرق الرأس على العنق والكتفين ، وتدلى طرف الذؤابة الياقوتية على عروة القلنسوة فى كساء

منقس وقباء مبرقش مثل العروس فى الحجلة [١] والطاووس فى الجلوة ، وقد جعل ذيل الحسن على القـدم ، وأذَّن ، فسمع الثعلب الذى كان فى تلك النواحى ، وطمع فيه ، وجـرى بحرص تام حتى وصل إليه ، فقـفز الديك - من الخـوف - على الجدار ، فـقال له الثـعلب : لماذا تخاف منى ، لقـد كنت أطوف هذه الساعة فى هذه الأطراف وفـجأة سمعت صوت آذانك للصلاة ، فـأخذ القلب يخفق فى نافذة صدرى بسبب نغمـات حنجرتك . فـالبرغم من أنك ديك [٢] رومى أصيل ، إلا أنك أوصلت حديـث « أرحنا » الذى مضى مع بلال الحـبشى إلى سمـعى داخل حجاب الذوق والسـماع . وحركـت سلسلة وجدى ، ومن ثم حـركت دواعى المحبـة وجواذب الألـفة مـثل بلال الحبـشى وصهيب الرومى .

إننى أطوف حول قريتك من أجلـك مثلما يأتى البلبل إلى حافة البـستان من أجل الورد .

ولقد جـئت الآن بقصد هذا التـبرك ، لكى أحـصل على بركات أنفاسك والأنس بك ، وأسعد لحظة بمحاورتك ومجاورتك ، وأخبرك أن الملك - الآن قد نادى بألا يعتدى شـخص ،على شخص مطلقاً ، أو تمر على قلبه فكرة الجور والظلم ، حـتى لا تمتد يد تطاول الأقوياء إلى الضعفـاء . وحتى لا يتعايشوا إلا باللطف والإحسـان مع بعضهم بعضـاً . وهكذا تعيش الحمامـة فى عش العقاب . ويصـبح الخروف

(١) الحجلة : مخدع العروس .
(٢) فى الأصل (رجل) .

قرين الذئاب ولا يشغل الأسد بالتعـرض لابن آوى ، ولا يجهز الفهد أسنانه لافـتراس الغـزال ، ولا يمزق الكلب جلد الثـعلب ولا يخطف الثـعلب عرف الديك مـرة ثانيـة - والآن - يجب أن يُقـتلع من بيننا التناكـر والتنافر ويزداد الاسـتظهار التـام فى الجنايين بالعهـد الوافى . فرفع الديك عنقـه أثناء الحديث لينظر نحو الطريق ، فقـال الثعلب : لماذا تنظر ؟ فـقـال : إننى أرى حـيـواناً آتٍ بسرعـة من ناحـيـة هذه الصـحراء ، هذا الحـيوان ذنبى الجـسم ، عَظيم الأذنين يتجـه إلينا . فتطرق اليأس للثعلب من طمـعه بسبب الكلام عن الكلب ، وأصابت حمى الرعشة جميع أعـضائه من الهول ، وتراجع عن افتراس الديك ، وطلب الاختفاء من الخوف والاضطراب عله يستطيع أن يتحصن بمكان . فقال الديك : تعال حتى تنظر ما هذا الحيوان على كل حال .

فقال الثـعلب : هذه الأمارات والعلامات التى تشـرحها تدلل أن ذلك هو الكلب العربى ، وأنا لا أسـر برؤيته كثيـراً ، فقال الديك : لكنك تقول : إن المنادى قد أعلن عن عدل الملك فى الدنيا ، وأنه لن يعتـدى أحد على آخر وأن جمـيع المفسدين والظالمين سـوف يُحَرَّرُونَ الخلق من الأذى والخوف من القهر .

فـقال الثـعلب : لكنه مـن الممكن أن هذا الكلب لم يسـمع هذا المنادى ، ولم يتوقف أمـام هذا المقام ، وهرب من هذا المكان وانزوى فى جحر .

وقـد قلت هذه الحكاية لربما يـكون من بين هؤلاء القـوم من لم

يسمع صوت موافقة العهد الذى بيننا ومواثقته فتتلاشى الغاية . والآن هو الوقت اللائق لكى ترسل «زروى» لاستقبالهم مرة أخرى ، حتى يحصل السكون والاطمئنان لأبناء جنسهم عندما يرونك ، حتى يتسنى لساحة الصدور أن تتطهر مرة أخرى من غبار الظن والشبهة ، وأبدت الحمامة استعدادها للمساعدة فى هذا الأمر ثم أشارت إلى « زروى » أن ينهض لإتمام هذه المهمة ، ويلقى الفتور جانباً عن عزيمته ، ويقوم بتكملة الأمر . وقد مدحت شهامة القلب وصرامة العزم ووفور الحزم لديه ، فقد جربته فى جميع المعظمات والمختصرات (الكبائر والصغائر) ، وهو غير محتاج لوصية ، ومعلوم أن كل ما يقوله جميل وطيب إلا فى استصلاح مفاسدنا واستنجاح مقاصدنا ، ولا يزيل رضانا لهوى نفسه ، ولا يشترى غرورها ، ولا يبيع مخدومه لأى غرض ، ثم أشارت إليه أن انهض وحل هذه العقدة الأخرى عن الأمر بقدر ما تستطيع ، وأبرء ذمتك من هذه العهدة الأخرى .

ومِثْلُكَ إن أبدى الفعالَ أعاده   وإن منَح المعروفَ زادَ وتَمَّمَا

فذهب زروى إليهم بمقتضى الأمر - وأدى الواجب الذى طلب منه من وظائف هذه الخدمة ، وأم استرضاء الجوانب من موال ومخالف وأقارب وأباعد ، وموافق ومعاند ، ومضايق ومسامح ومنافق ومناصح ومخالص وممَاذق تماماً ، وأحضر الجميع إلى خدمة زيرك مسرعين ، وعندما قبّلوا عتبة بلاط الخدمة وخصوها بالعناية والشفقة ، ورصوا بنيان العدل والرأفة . ثم جمعوا كل ما كانوا قد

سمعوه ، فشاهدوه ببصر البصيرة وجلبوا تشديد معاقدة الأيمان وتجديد المعاهدة على مبانى الإيمان ، ووجدوا مثلاً : وهو أن الجميع مع مواطنيهم يعودون مكرمين سالمين ، ثم وصل هذا الخبر إلى جميع الحيوانات فى جميع النواحى فاستقر وقاد جموع الجيش والأتباع من مختلف أصناف الحيوانات ، فتأملوا فى إحكام أساس ذلك التدبير الذى يضعونه فى أوضاع وأحكام السلطنة فظهر تفرغ وتوزع فى خواطر المفسدين ، فانتهوا عن أطماعهم الفاسدة وافتراسهم واختلاسهم ، واهتموا بنظافة اليد وصيانة النفس ، وعاشوا فى تلك المراتع والمراعى فى رغد عيش ولذة عمر فى أمن واستنامة وفراغ قلب واستقامة حال دون تعذيب حاظ ومنة راع يتمتعون فى الخصب والنعمة .

ومجاثمُ الآسادِ فى أيّامه ... بالعدلِ صِرنَ مرابضَ الأطلاء

فحصل «زيرك» على السلطة نتيجة اتباع إشارات « زروى» ونصائحه ، وتقديم مقدمات رأيه ووصل «زروى» إلى أتم منعة بكل شيء ونتيجة للفكرة التى قدمها لـ«زيرك» لوضع أساس العدل وقاعدة الحق وطبيعة يشرع ، وأصل العقل ،

وتقاسمَ النَّاسُ المسَرَّةَ بينهم ... قِسَمًا فكان أجلهُم حظًّا أنا

تم باب زيرك وزروى ، ونذكر بعد هذا باب « الفيل والأسد » ونظهر فيه ما هى عاقبة الظالمين الذين يمتهنون البغى ، ويفكرون فى طلب المحال ، وإلى أى مدى وياله ونكالهم .

فليـزين الله تقـدست ذاته ، الملك سـيد العـالم بزينة الشـرع ، ولينشـر رسوم الـدين وحليتـه ، وليـتم العدل وليـنقه من كل مـذام الأوصاف البشرية ، ولينزه نفسه الطيـبة عن الدنس بمحمد وآله أجمعين .

الباب السابع

فى أمر الأسد

وسلطان الأفيال

فى أمر الأسد وسلطان الأفيال

قال الأمير : زعموا أنه فى الأرض التى هى موطن الأفيال ، ومعدن جواهرهم ، ظهر فيل كبير الجسم ، عظيم الهيكل ، مهيب المنظر ، لم يكن يشهد الفلك فى دوران أيامه مثل هذا الهيكل ، ولم يلد الزمان فى هذه القلعة [1] ذات الاثنى عشر برجاً مثل هذا البدن ، فصار ملكاً على أفيال بلاد الهند . ووضعوا طوق أمره فى رقبة الطاعة راضين .

وذات يوم حكوا فى حضرته أن الموضع الفلانى قد زُين بالماء والكلأ ، والخصب والنعمة ، وقد أتى دون بقية أنحاء الدنيا وأقطارها بعجائب الثمار وغرائب الأشجار . فهو بمنزلة الربيع من الزمان ، وقد وصفت الطيور تلك المعانى بمنطق الطير السليمانى [2] فى لحن الأغانى الداوية بقولهم :

مَغَانِى الشِّعب طيبًا فى المغَانِى ... بمنزلة الربيع منَ الزمَّانِ
ملاعبُ جنَّةٍ لَو سارَ فِيهَا ... سُليمانُ لسارَ بتُرجُمانِ [3]

فكل وارد يراها منبعاً للذات الروحانية ومرتعاً للآمال والأمانى ،

(١) لعله يقصد الدنيا أو الفلك ذا الاثنى عشر برجاً .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق السطر » النمل ١٦ .
(٣) هذان البيتان للمتنبى من قصيدة فى مدح عضد الدولة الديلمى وأبا دلف ، ويذكر طريقه بشعب بوان ، وهو موضع عند شيراز . راجع المتنبى : الديوان جـ ٢ ص ٤٨١ والحاشية رقم

ويسرح فيها نظر الراحة ، ويطرح مفارش الفراغ ، وينفذ فيها في الحال نسيئة الجنة الموعودة . ويعاين فيها وجه إرم التى هى فى نقاب الخفاء من نظر الأجانب (غير المحارم) .

تَمسُّ السحَابَ على أطوادِها فَرقا ويُصبحُ النَّبتُ فى صَخْرَاتِها بلدَاً
فلستَ تُبصرُ إلا واكفًا خضلاً أو يافعاً [1] خضراً أو طائراً غردَاً

وكان لتلك المملكة أسد ، قد جعل هذا المكان الجميل مكان صيده ، وجعل كواسر وحوش تلك النواحى فى شراك طاعته ، يأكل ويشرب مرة بعد مرة من مشرب تمتعها بلا تكدير ومزاحمة أى مزاحم .

باختصار جمعت أسباب العيش « فى عيشة راضية ، وجنة عالية » [2] بذلك المكان المريح الجميل فتحركت بواعث عدم الصبر والقلق فى دواخل ملك الفيلة من سماع هذه الحكاية ، وحينما يتذكر ذلك الفيل - الذى يعيش فى بلاد الغربة - بلاد الهند يفقد زمام الهدوء والاستقرار من شدة الشوق الجاذب لذلك المتنزه ، وظل فى حالة شبق النشاط ونشوء الاغتباط الناتج عن نخوة الشباب التى غلت مراجلها فى رأسه وظل يستعيد ذكرها كل حين .

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره هو المسك ما كررته يتضوع
فإن مرَّ قلبى فاتهمه وقل له بمن أنت بعد العامرية مولع

(١) يافعاً : ما أشرف من الرمل : وجبال يافعات ، مشرفات ، وقيل كل مرتفع يافع (لسان العرب) .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى « فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية » الحاقة / ٢١ ، ٢٢ .

وكان لملك الفيلة وزيران ، أحـدهما يدعى : «هنج» وهو خبيـر بالدنيا مجرب للأمور باحث عن الصـلاح ، قائل للصواب ، والآخر يدعى : « زنج » سافك للدماء ، مثير للفتنة ، مشاغب ، مفسد ، نجس متهور .

على كـاســمـه أبداً علىٌ وعيسى خـامل وتح[1] دنى
هما ثمران مـن شجر ولكن ولكن علىٌ مدرك وأخوه نى

وما ذلك إلا لتعلم أن السم والترياق كلاهما يخرج من معدن واحد والسنبل والآراك ، كلاهما ينبت مـن منبت واحد ، وأخوات هذا المعنى لا تحصر ، ونظائره لا تعد ولقد أحسد ذلك المراغى[2] حين قال :

يا ســيـدى كـلانا مــراغى ، ومن ثم فىٌ وفــيكَ أثر من حــمـار

لكن لأنك جاهل وأنا من أهل العلم ، فإنك جـئت من دبر الحمار وأنا من لجامه .

فاسـتدعاهما أمـامه ، وقال لهـما : قد عزمت على تجـريد جيش لتلك الناحـية . ويبدو لى أن الاسـتيـلاء على ذلك الملك سهل ، فـما رأيكما فى تصويب هذه الفكرة لى أو تسفيهها ؟

(١) وَتح : رجل وتح ككتف أي خسيس (تاج العروس) .
(٢) نسبة إلى « مراغة » وهى اسم مدينة فى أذربيجان إلى الشرق من بحـيرة أدومية ، وكانت مراغة تعبر العاصمة القديمة لأذربيـجان ، لكنها كانت دويلة مستقلة فى عهد الأتابكة ، وأبرز من حـاولوا فتحها فى ذلك الوقت خاص بك بلنكرى واحد أمراء السلطان مسعود .
د . عبد النعيم حسنين : نظامى الكنجوى شاعر الفضيلة ص ٣٩ ط ١ سنة ١٩٥٤

فقال هنج : إن الملوك مخصوصون بالتأييد الإلهى والتوفيق السماوى ، ومن ثم وضع فى يد اختيارهم زمام التصرف فى المصالح والمفاسد ، والمسرات والمساءات من هذه الناحية ، لأن علمهم وحده يفوق علم الجميع على العموم ، وإن كان قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر »[1] لم يغن أى مستبد من الاستضاءة بنور عقل المستشارين والناصحين . أما وقت تعارض المهمات وتنافى العزمات فإن رأيهم الطاهر يكون أفضل وسيلة للنجاة من الشجار والخصومة . لكننى سمعت من العلماء وبعيدى النظر أن كل شىء وضع فى موضع حسن فلا تضعه فى أحسن منه ، لئلا يتسبب ذلك التغيير والتبديل والمبالغة فى إكمال التعديل فى أن يدخل النقصان على الوضع الحالى ، وبسبب توهم النسيئة التى كانت متأرجحة بين طرفى الحصول والامتناع ، يضيع من يدك الموجود لديك بالفعل ، ويزول عنك ، وربما لا تصل إلى الذى تتوهمه ولا تحصل إلا على الندامة بعد تحمل التكاليف وتكلف الحيل ، ولقد قالوا : إن كل نفس من النفوس البشرية الناقصة مسلط عليها شيطان دائماً ما يلبس عليها فكرها ، أسموه « هوجسا » لأنه كان ينفخ بريح هواجس الهوى والهوس فى دماغه ، وكلما أقدم على مسعى من مساعيه قال له : إن المعنى الفلانى أفضل ؛ حتى لا يثبت على قدم قط ، وقد قيل : إن الذنوب الثلاثة العظيمة التى لا تدل إلا على ركاكة العقل وسماجة الخلق وسخافة الرأى هى :

(١) آل عمران / من الآية ١٥٩

الأول : سفك الدماء بغير حق .

الثاني : الاستيلاء على أموال الناس بالباطل .

الثالث : طلب هدم البيت القديم .

وأكثر الذنوب الثلاثة ذماً هو : التعرض للبيت القديم بالهدم ، لأن الذنوب السابقة قسمان ، ولو تأملت جيداً لوجدت القسم الآخر منها يندرج تحت هدم البيت القديم .

واعلم أن الله تعالى وتقدس - لم يوكل أحداً للنظر على الباطن ، ولم يخصه بدولة العظمة ، ولم تقتض إرادته القديمة استمرار هذا المنزل وإقامة ذلك المسكن السعيد . فالأسد ملك بن ملك انحدر من منبع أصيل ومنشأ كريم وأثيل . وقد ورث عن آبائه الكرام الملك وطاعة الأمر على سباع تلك البقاع ، ثم ضم إلى ذلك الآثار التى اكتسبها بكريم عاداته ، ولأنه لم يصدر منه ما يسيء إلى أحد وبخاصة أنت ، ولم يصدر منه سبب من أسباب العداوة التى ربما تكون مبدأ هذه الحركة ، فكيف يمكن التصدى لهذا الأمر ؟ وما ذلك إلا لأن الأسد ليس خصماً ضعيف الصولة ، وأمر الهجوم عليه ليس أمراً سهل المأخذ ، بحيث يمكن اقتحام حدود مملكته بجرأة وسهولة ، لأنه قد أمسك - بقوة - بزمام تلك الدولة فى يده ، فينبغى إذن النظر فى بداية الأمر ونهايته ، ويجب رؤية مداخله ومخارجه بفكر صائب وتأمل شافٍ ؛ لأن كل عمل لا تقتضيه ضرورة يحمل عليها ، ولا يكون موضوعه متمكناً

فى حيز المصلحة ، لا يمكن أن تكون المبادرة إليه محمولة إلا على ضعف العقل وسفاهة الرأى ، مثلما جرت عليه الإشارة النبوية « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] .

فالتفت سلطان الأفيال إلى " زنج" قائلاً : وأنت ماذا تقول ؟ فقال "زنج" : إن كلام "هنج" ربما كان كله هو نقش خاتم المصلحة ، وإنسان عين الصواب ، بيد أنه لا علم له بجور الأسد على ضعاف الخلق وهو جور يتضاعف يوماً بعد يوم ، وقضية عدل الملك وإحسان نظره الشامل تقتضى منه أن يخلص الخلائق من مخالب قهره ، وينتزع تلك الولاية من يد التغلب ، فإن كان خَرْجُ الملك قد زاد عن دَخْلِه ، ولم يعمد إلى زيادة رقعة المملكة أو مجاوزة حدود بلاده بقدم الطمع ، فلن يجعل أموال الخزانة - حتماً - إلا من جيب الفقراء والمعدمين ، ولن يمضى وقت طويل إلا ويصبح الرعايا فقراء وتغدو الخزانة خاوية ، ويظل الملك بلا شوكة .

والدرُّ يقطعه جفاء الحالب

فيجب على الملك توصيل هذا العزم إلى حيز التنفيذ .

ولا يثنين عَزْمَك خَوفُ القتال بسمر دقاقٍ وبيض حداد
عسى أن تنالَ الغِنى أو تموتَ وقَدْرُك فى ذاكَ للناسِ بادِ

(١) حديث حسن رواه الترمذى وابن ماجه .
ابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ص ٩٧ ط ١ دار نهر النيل القاهرة د . ت .

فإن لم تنلْ مَطلبــــــا رُمْـــتَه		فليسَ عليكَ سوى الاجتهادِ

فأشار الملك إلي "هنج" قائلاً: لا تحجب كل ما يأتى على خاطرك . فقال « هنج » : هكذا سمعت من أرباب الحكمة وفضلاء العالم : أن كل من يبحث عن منفعته فى مضرة الآخرين ، لا يتمتع بها إذا حصل عليها ، أما رذا لم يحصل عليها يذم اسمه ويلطخ بعار الظلم ، ويقع ما كان يراه حقيقاً بأن ينسب إليه من خير وظفر وقع موقع الضنك والفشل .

والملك البصير هو الذى إذا رأى الخرج أكثر من الدخل فإنه يسوى بحسن التدبير بين مستوى الخرج ومستوى الدخل ، لأن الخرج الذي تجاوز حد الدخل ، لا يبدو له علاج ، وطلب الشىء والإلحاح عليه ينبغى - عند حصوله - تحمل أنواع المشاق فى الحفاظ عليه زمناً . وفى النهاية سوف يفنى وينتهى ، فهذا ليس علامة على نور البصيرة مثلما قال ذلك المجنون لكسرى ، فقال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية المجنون مع كسرى

قال هنج : سمعت أنه كان لكسرى غلام ، وكان - هذا الغلام - معشوق روحه وحبة فؤاده ، وفجأة اختطف من حضنه ، وجاء إعصار الأجل وقطف زهرة غصن الأمانى قبل موسم الشباب ودفنها فى التراب ، وصار كسرى مثل الرجل الذى قطع الأمل الحلو عن روحه ، فوقع فى القلق والجزع ، وكاد أن يذرف عينيه بدلا من الدموع ، مما جعل الدنيا تسود بدخان الغم ، حتى جاءه عاقل فى هيئة مجنون ،(يقظ القلب سكران الظاهر ، والذى كان من مجانين عقلاء الوقت ، وكان يقدم

على كسرى فى حين فينال) - أى كسرى - العظة من غرائب كلماته ونكت فوائده ، وسأل : ماذا حل بكسرى ؟ وماذا وقع حتى جعله مضطرباً على هذه الصفة ؟ فقال كسرى : انتزعوا من كان مثل السراج أمام عينى ، فأظلمت الدنيا فى وجهى ، وابتليت بحرقة فراق فلذة الكبد كما ترى .

صبَّت عليَّ مصائب لو أنها   صُبَّت على الأيام صِرْنَ لياليا

فقال المجنون : أيها الملك إن عيسى - عليه السلام - عزّى مصاباً ببلاء فقال له كن لربك كالحمام الإلف يذبحون فراخه ولا يطير عنهم ، لكنى أسألك سؤلاً ، فأجب بالحقيقة . أكنت تريد ألا يموت هذا الولد مطلقاً ؟ قال : لا ولكن أردت أن يتمتع ببعض لذات هذه الدنيا ، ويطول عمره ، فقال المجنون : هل رأيت أثراً لبعض اللذات التى كان قد رآها ؟ قال لا : قال المجنون هل كان معه شيء من بعض الملذات التى لم يجدها ؟ قال لا ، قال المجنون إذن صح أن تحصيل اللذة وعدم تحصيلها سواء .

والآن تخيل أن ذلك الذى لم يجده قد وجده ، وذلك الذى لم يأكله قد أكله ، وأنه عاش طويلاً ثم مات .

ونفس بأعقابِ الخطوبِ بصيرةٌ   لها من طِلاع الغيبِ حادٍ وقائدُ
إذا ميزت بين الأمورِ وأبصرتْ   مصايرها هانت عليها الشّدائدُ

وقد قلت هذه الحكاية حتى لا تضع أساس هذا التمنى الذى يلقى الشيطان بسببه الطمع فى القلب ، وأن تعلم أن :

عابد الطمع والباحث عن العداوة ، لا يسمع من أحد فى الدنيا كلمة « أحسنت » .

فقال "زنج " : هناك ثلاثة أمور لا يلزم التفكير حين يقدم المرء على مباشرتها إذ لا يمكن الوصول إليها إلا بالمبادرة والجسارة ولا يمكن أخذها بغير شطر المثابرة والمصابرة :

الأول : تجارة البحر ، « فالتاجر الجبان محروم ».

الثانى : مقارعة العدو وقت اللزوم .

الجدُّ أنهضُ بالفتى من جَدِّه فانهض بِجدٍّ فى الحوادثِ أو دع

الثالث : طلب العظمة والزعامة .

وإذا كانت النفوسُ كباراً تَعبتْ فى مرادِها الأجسام (١)

وقد وجب تحمل الأخطار فى سبيل هذه الأمور الثلاثة . فيجب على الملك جعل الفكرة جازمة ، ونصب راية العزم ، ولابد من الاعتقاد بأن النصر والفتح زينة فاتحة الأمر وخاتمته بالنسبة لنا ، فلقد قيل : الليل حبلى بالنتيجة السيئة التى تتولد ، ولا ينبغى السماع للتفكر والتردد بالورود على الخاطر .

فقال « هنج » قال تعالى : **« تحسبونه هينا وهو عند الله عظيم »** .

(١) البيت للمتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة .
المتنبى : الديوان ج٢ ص ٢٤٥
(٢) النور / ١٥

إن أولئك الذين عرفوا جميع وجوه الآفة ومخافة تقديم وتأخير الأفكار ، وجربوا عواقب الأمور وفواتحها ، وأصابوا فى معرفة أحوال العصر ، وأهوال الحرب ومخاطرها بفضل التجربة ، فثبت أن قولهم طريقاً مستقيماً للمسترشدين ، وقد قيل : إن الثعلب المتحصن فى داره متمتع بقوة لا يملكها أسد فى بيت غيره ، وواضح أن تجريد جيش وجمع حشر لبيت غريب يتضمن الأضرار التى تؤدى إلى السمعة السيئة فى الدنيا والخزى فى الآخرة ، فما أكثر العمارات الجميلة التى ربما وصل من ساحتها رائحة الراحة لخلق الله قد تَيَمَّمَ وجهها صوب الخراب . وما أكثر دماء الأبرياء التى ربما حفظت فى زجاجة الصيانة تراق على الأرض .

لا تجعل الروح والعقل أسيرين للطبع المخالف ، ولا تستبدل حور الجنة بزبانية النار

فالذى يقطع الجلد تهلك دولته ، لأنه يمنح الثعابين منح الأبرياء (١)

وفى عرصات يوم الحساب يوسم بهذه الخسارة على جبينه كما قال النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وهى : « آيس من رحمة الله » .

فإن ظفرت بخصمك فهذا انتصار عارض وإن لم تظفر - وهذا فى حد ذاته هو نقد الحال - وقلب الدهر المتقلب فكرك بقلب المجن ، ووقعت قرعة الهزيمة على قلب جيشك وهوى طائر إقبالك مكسور

(١) هذان البيتان من قصيدة للخاقانى قالها فى نعت النبى صلى الله وعليه وسلم والحكمة والموعظة الحسنة .
الخاقانى ، ديوان الخاقانى بتصحيح ضياء الدين سجادى ص ٦

القلب ، مقصوص الجناح من أوج مطامح الهمة إلى منخفض عدم حصول المراد ، ومزق القدر - الذى هو مفرق الجماعة - أوصال جموع جيشك ، حينئذ لا حيلة لك إلا بخروج رأسك سالماً من المعركة حتى إذا ما تعرضت الأسباب والأموال للغارة ، فعلى كل حال سوف تعتبر نجاة الرأس ربح رأس مال العافية ، وسوف تتلو « ومن نجا برأسه فقد ربح »[1] . ولكن إن تلاشى من اليد ما جمع فى الأعمال من المال والمتاع الوافر ، ونفض ذيل الاستظهار ، ولم يبق من اليمين أو اليسار إلا يد فارغة فى الكم ، فكيف يمكن الاحتفاظ منذ ذلك الحين بمناهج أحكام الدولة ، ومناظم دوام الملك كى تسير وفق المراد ؟ لأن أمور المملكة تستقيم فى يد رجال ذوى خبرة وجيش وقائد . فإن رأوا جيش الملك فقيراً لم يخافوا منه ولم يطمعوا فيه . وكلما زاد فى إغداقه عليهم وإرضائهم لا يجنى فائدة . وكلما وعدهم وعداً حسناً عدوه كاختلاب البرق لا مطر فيه ، وكلما فتح وأعطى لم يقبلوا منه منّة . فلو تساقط الدر من فم رجل فقير وقت حديثه لعده الناس كثيرَ الكلام وأنكروا عليه كل كلامه فضائله ورذائله . ولو استعمل المروءة وقتاً عدّوه مبذراً . وإن امتنع فهو بخيل .

وإن أبدى مراعاة لم يشكروا ، وإن واسىٍ لم تقبل مواساته وإن كان حليماً نسبوه إلى الجبن ، ولو تجاسر وسمّوه بالجنون ، أما إذا كان

(١) يضرب فى إبطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامه منها قال أبو عبيد :

الليل داج والكباش تنتطح

نطاح أسد ما أراها تصطلح

فمن نجاً برأسه فقد ربح

الميدانى : مجمع الأمثال ج ٣ ص ٣٠٩

الرجل غنياً ، وكان ذا علم قليل فإن الناس تعظمه ، وإن رأوا منه عطاءً قليلاً كالوا له الشكر والثناء . وإن بخل قالوا : إنه عالم خبير . وإن قالِ كلاماً لا وجه له لا يعترضون عليه ، بل يلتمسون له مائة تأويل وتعليل .

إن ضَرَّطَ الموسرُ فى مجلسٍ قيلَ له يَرْحَمُكَ اللهُ
أو عَطِسَ المعْسرُ فى مَجْمَعٍ سَبُّوا وقَالوا فيه ما سَاهُ
فمضراطُ الموسرِ عن بيته ومَعْطِسُ المفلس مَفْسَاهُ

ولقد وجدت فى أحاسن كلمات الحكماء أن « الفقر شيخوخة الشباب ومرض الأصحاء » مضى هذا ، أما أنت فيجب عليك أن تتأمل فى نتيجة هذا الأمر وعاقبته بنظرة جيدة ، كما ينبغى عليك ألا تعتمد على حولك وقوتك وصولتك وشوكتك لأن الأسود شجاعة ، مقدامة ، جريئة صارعة للخصم مهدمة للزهرة ، وصاروا مثلاً على أوصاف البلية والسيطرة فى أذهان الناس ، أما أتباعك وحشمك ، فالبرغم من اقتلاعهم للمدن وهدمهم للجدر وأكلهم للنار ، ، فإنهم لم يجربوا حرب الأسود ، وجرح قبضة مصارعتهم ومقارعتهم ، ولعلهم يقصرون عن ارتقاء قصر تلك المملكة ، وتؤثر العين اللامة (الحسد) على حاجب محراب هذه الدولة بالحوادث والزلازل بحيث لا يمكن إصلاحها معه طوال الأعمار ، ونصبح علامة مذمة العالم .

تَبنِى بأنقاضِ دُورِ النَّاسِ مُجتَهِداً داراً ستَنْقَضُّ يوماً بعد أيامِ

فأشار الملك إلى زنج أن ماذا تقول ؟ فقال زنج : ليس هنالك شبهة

فى أن كل هذه الفصول محض توقعات وتفكير في العاقبة ، وأن كل ما يقوله يأتى من منبع العقل الكامل والعثور على حقيقة أمر الدنيا ، لكن العالم والناس فطروا دائماً على أن يطلب الملوك الملك على غرار هذه العادة ، ولقد وضعوا مرامى النظر على أبد مسافة للإدراك ، وتقدم بعضهم على البعض الآخر بالمغالبة والمناهبة ، فكيف كانت همة الملك أدنى وأسفل من همة التاجر حتى يكون أجبن قلباً منه ، فالتاجر يضع كل ما يملك فى السفينة ويجلس هو بنفسه ، ثم تتساوى فى عين قلبه ومرآة خاطره صورتا الوصول إلى الساحل أو الغرق فى قاع البحر كلتاهما .

فإما أوصلت قدمى إلى المقصود والمراد ، وإما أضع الرأس حيثما وضع القلب عن اليد .

وأنا أقول ذلك لأن جيشنا ربما لم يجرب حال الولاية الأجنبية فهو ضال ومتحير فيه ، ولم يقف على مدارج ومكامن الطرق فيها ، وربما ليس لديه خبر بمخاوفه ومآمنه ، وربما يسحبنا العدو بشراك المكر والاستدراج والمراوغة إلى مضيق فتقصر يد القدرة عن تدارك ذلك ، ويصعب الأمر علينا ، ومن ثم فهو يقول حسناً . أما ما يعارض هذه الفكرة هو أن الأسد ملك ظالم ، سفاك ، صائد للرعية ، شديد الإيذاء .

أما جنوده فبعضهم جبناء ، وغير آمنين ، ونافرون منه ، وبعضهم أغنياء أثرياء يملكون كثيراً من العمارات والعقارات ، وسوف يذعنون لنا من أجل استرعاء جانبهم ، طائفة تبحث عن سلامة الرأس ، وقوم

يطلبون حماية المال ، والبعض الآخر - والذى ربما لم يجد من دولته أي ثمـرة ، ولم يجد ظـل ولايته عليـهم - يتطلعـون إلى حـركة الزمـان ويطلبـون دولة جـديدة وملكاً جـديداً عـساهم يصـلون ، عن طريق مداولاتهم تلك إلى نصيب .

لَهُمْ فى تضاعيف الرَّجاءِ مخاوفٌ   ولى فى تصاريفِ الزَّمانِ مَواعدُ

ولا شك أنهم إذا اتصلوا بـنا فإن إمـدادات النصـر تتـوالى من كل الجوانب ، فقال الملك لهنج : ما الإجابة على هذا الكلام ؟ فقال هنج : بالرغم من أن وجـوه هذه الاحتمـالات ليست من المحـالات ، والعقل ليس بعـيداً عن تصـديق ذلك الذى يتصـوره كله ، فإن تبـاين الطبيـعة وتنافى رسـوم المعيـشة بيننا وبـين الأسد مـعلوم ، والتناسب فى السنن والرسوم بيننا وبينهم غـير مقبـول بأى وجه من الصور مطلقا . فـعندما يختارون مجانبة الأسـد ، ويميلون إلى جانب ماكى ، فماذا يظهرون فى رغبة الرعـية وأمر الأخوة ؟ وهذا المثل مشـهور وهو : أن الكلب يعض الكلب ، لكنهـما عندمـا يريان ذئباً يتحـدان ظهراً ووجـهاً فى قـتاله ، وعندما يفكرون فى إلحاق الضـرر لا يجتهدون فى مخالفـته ، ويرضون بمواساتنا .

كـملتـمسِ إطفـاءَ نارٍ بنافخٍ

والأسد وإن كان ظالماً سـافكاً للدماء ، متكبـراً ، مغروراً ، إلا أن ذلك الجيش وخـدمه وعـبيده لا يزالون أكـثر رضاء بالسلـطنة والصدارة

وأكثر طاعة لـعظمته وسيادته ، وتبعـيته من ناحية جوهر السـبعية الذي يشترك بينهم جميعا ويظهرون أكثره .

وتلك السباع وإن كـانت متعددة فى اختلاف الطبـاع إلا أنها تتفق فى الوقت الذى يعتدى عليهم خصم من غير جنسهم ويتحدون .

واعلم أن ذلك الجيش مختلف الأفـعال فى القتال ، وكل واحد له أسلوب مختلف عن الآخر ، فبعض يحاربون علناً وجهاً لوجه مثل الفهد ، وبعض ينصبـون كميناً للخـصم مثل النمـر ، وبعض يتحينون الفـرصة برزانه وتأن مثل الدب ، وبعض يعمل بالحيلة والمخـادعة مثل الثعلب ، وبعض بالمبادرة والمسارعة كالخنزير أما جيشنا فلا يسلك إلا طريقاً واحداً وعادة واحدة ؛ وهى أنهم وقت المصاولة والمجاولة يولون وجوههم جانباً واحداً ، فإن ارتفع الأمر وهم متحدون ظهراً واحداً وقلباً ، فبها ونعمت وإلا نعوذ بالله من تلـك الحالة ، وبعد ، كان كـلام زنج قد استـقر فى سـويداء قلب الملك ، ولاح أمـام خـاطره الغـصن المزين وثمـراته فى زهرات التمنى ، وسعد مذاق الطبع بحلاوة الإدراك ، ولأنه لم يكن من الممكن أن يشـعر أبداً بمرارة الوخـامـة وندامة العـمل ، نهض من ذلك المجلس وقال : للحرب ناب لا تفل ومخلب ، ثم أخـذ فى الاستعداد للذهاب والاستيلاء على تلك الولاية ، وشغل بجمع الحشر والأجناد ، وتوجه للاستمـداد والاستنجاد من ملوك الممالك المجاورة وحـشر جميع أنصار الدولة وأعوان يوم الحـاجة من عظيم الفيلة وعالمهم بـالحـرب (مجربيهم) ، والشياطين ما ضفى النار الذين يظهرون فى حملة بأسهم

وحدة سطوتهم فى رداء بهـرام جويين [١] وسيف خـورشيد [٢] لتمزيق أسيد خـيمة الفلك ، واسـتعد (ملك الفيلة) للحـرب ، وتوقدت نار الغضب ، وامـتلأت قـارورة الأثير من خل جـبهاتهم وذابـت كرة ثلج الزمهرير من وقدة برق أنفاسهم ، يئن مثل « كاوماهى » [٣] ويدور حول نفسه مثل الساقية من حـمل قوائمهم يوصلون دخان الخيشوم إلى سطح (بيدر) القمـر ، ويلقون بعقدة الخرذوم على تنين السـماء هكذا جاء فى شرح كمالهم وصورة أشكالهم :

يُقلبن أساطينَ وَيلعبّن بثعبانِ
عليهن تجافيفٌ يُشهرن بألوان

وكان هنالك غراب - بحكم الاغتراب - قد نزل فى تلك النواحي وكان قـد امتلك مسكـناً فى ولاية الأسد فعلم خـبر تفكير مـلك الفيلة وعداوتهم للأسود . ففكر فى نفسـه قائلاً : إننى مقيم فى هذا المكان ، هناك طائفة من أشقـائى وأصدقائى يقيمـون فى ذلك المكان ، وبعضهم منتظم فى سلك الاختصاص بخدمة الأسد ، وسوف يؤثر هذا النكال - لا محال - فى حالهم .

هو الجبلُ الذى هَوَتْ المعَالى بهدَّته وريعَ الآمنُونا

(١) أحد قواد إيران الأبطال قبل الإسلام ، الفردوس ، الشاهنامه الترجمة العربية ص ٢١٣ .
(٢) أحد ملوك إيران قبل الإسلام .
(٣) كاوماهى : نوع من السمك يعيش فى بحر الخزر يسمى حوت الجن ، وهو الحوت الأسطورى الذى يقال إنه يحمل الأرض د. شتا ، فرهنك بزرك فارس (ج٣) .

أكثر من ذلك أنهم يهجمـون على تلك الولاية ، ويمارسون فيها أسلوب زبانية جهنم وعدوان مردة البشر بمغافصة [1] الفجأة ومناهزتها وتصل فتنة رجوم آفة هذه الشـياطين إلى أركان تلك الدولة ، ويخرج الأمر عن ضـبط التدارك وحد الإصلاح ، ومن هنا ، فـسوف أذهب إلى خدمة الأسد وأخبره بهـذه الحالة ، فربما - بسبب هذا التقرب - أكون من خـاصة بلاط حضـرته ، وعندما يُكفى شـر هذه الحادثة ، يدخـرني الملك عنده كوسـيلة مـرضيـة نادرة ، والتى بواسطها أجـد الاختصاص في الخدمة ، ويمنحوني وثيقة القيام بالواجب . ثم نهض من المكان و انطلق مـثل السهم الواثب من قـوس العزيمة ، ممزقٌ درعَ السحاب ، ونفذ من درع الهواء ، ووصل إلى المقصد « **قبل أن يرتد طرفك** » [2] وذهب إلى أحد المقـربين إلى الأسد ، وقال لقـد جئت من طريق بعـيد ،وطويت مـراحل ومنازل ، ومـررت على مخـاوف ومهـالك لا يشق الوهم غبار قدم سـرعتي ، وجئت بخبـر حال من الأحوال التي قد يصبح الملك مسكيناً من سماعه . فلو تسمح أوصله إلى سمـعه الشريف ، فأمـر الأسد أن يحضر الغـراب . ليعلم ذلك الذى أمسوا فيـه ، فأحضروا الغراب ، وقبل بسـاط الحضرة ، وظهر من انبساط المـلك وسروره الذي ازداد في النشاط بحضـوره ، حينئذ أزال حجـاب الدهشة ، - وبعد تقديم الـدعاء والثناء - وحكى أنهم

(١) المغافصة : المفاجأة ، غامصه الأمر : فاجأه على غرة منه (أساس البلاغة) .
(٢) النمل / ٤٠ والآية « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » .

نسجـوا الحكايات أمام سلطان الفيلة عن مـقرك الميمـون - جعله الله مفر ومـهرب اللاجئين من الحوادث . ولا أرى الله صـفة رغادة هذا العيش والتنعم وصمة الزوال والانقطاع - فأوصلوا هـذا إلى سمعـه (ملك الفيلة) وأثاروا بواعث رغباته ونواهض عزماته على قصد هذه الولاية والاستيلاء عليها ، وقـد أحضروا كل شئ يتعلق بذلك الأمر من إعداد لأسباب الحرب وإمداد التجـهيز والاستعداد ، وأعد الجيش الجرار الذى يحذر الجبل من مـصادمته ، ويتصاعد البـخار من البحر بوطأته ، واستنهض المعاونين من كل جانب ، ومـضى فى استعراض جمـعه الذى ربما يكون قد اقـترب من هنا ، وينتظرون السجـر حتى يقيمـوا الختن ، ويأخذوا الجميع وهم فى سكر نوم الـغفلة ، والحال على هذا النحو الذي قلتـه . وقد خرجت من عهدة (ذمـة) العبودية والخدمة والقـيام بواجب نعمة الملك التى تغـمرنا وتشملنا جمـيعاً ، حتى يصل الرأي المبارك إلـى كيفية تدارك هذا الأمـر ، ويأمر بفضل إجاله الفكر الصـائب - بإزالة هذه الغائلة الهـائلة على أى وجه وفى أي مكان . ومهما كان وثوقنا بأصول وعراقة هذه الدولة فإن ذلك لا ينهض باستنفـاذها من أيديهم ، ويجعلهم يضربون بفـأس هذا الكيد على قدمهم ، ويقطع جراثيم وذلك بجدع خراطيمهم ، **« ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله »** [1] ففـزع قلب الملك من خوف هذه الحكاية وبأسهـا ، وشُل تفكيره من توهم هذا الخطب العظيم ، فـدعا الملك

(١) فاطر / ٤٣

جميع وزرائه المعتمدين والمؤتمنين فى السلطنة - آنذاك - الذين كانوا محل الاستشارة فى عوارض المهمات وحلول الوقائع ،وعرض عليهم حديث الغراب الذي حذر وأنذر منه ، وذلك الشكل الغريب الذى يشبه نعيبه ، وقال لهم : ما هى حيلة هذه الحادثة ، ومن أي جهة يستطيع أن يصل وجه تدبيرنا إلى تدمير الخصم ؟ فأخذوا يخوضون ، ويوازن كل واحد بين النفع والضر فى كل شئ لدفع ذلك بأدوات علمه وكفايته . وانتهت خلاصة الآراء - بعد تمحيص الأفكار العميقة واستعمال الآراء القوية الجريئة - إلى أن يحضر كل أصناف الجيش من أنجاد الحشم وأشرافهم إلى البلاط ، ويختاروا أربعة منهم : أسداً قويًا جريئًا ، ونمراً خبيراً بالحروب ، وتمساحاً محنكاً . وذئبًا شجاعاً ممزقاً للصفوف خفيفاً خاطفاً للشئ ، وثعلباً خداعاً منافقاً . وجعلت كل طائفة من أصنافهم زمام تدبير الأمر وترتيبه بيد تصرف ذلك القائد والزعيم . هكذا فعلوا ، ثم أحضرت طائفة الأسود - بالإجماع - الأسد الذى دعوه زعيماً ، وميزه الملك بالتقديم والتمكين عن الآخرين المقدمين فى الجيش والشجعان وقال له : ماذا ترى فى هذا الأمر ؟ وما هو وجه خلاصنا ومناصنا من هذه الورطة المهلكة ؟ فقال الزعيم :

طريق العقل فى هذا الأمر واضح يفتح كل شئ مغلقاً

فيجب الرجوع إلى العقل أيضاً حتى نرى بماذا يأمرنا عقلنا

عندما يبدأ عدونا الحرب ، لن يخـرج الأمر عن احتمالين : إما الإقدام على مســاورته ومقاومتــه أو الفرار من أمام صدمــات قهره ، ونحن - بحمد الله وفـضله - قهرنا المشاهيـر فى المناجزة والمبارزة ، ونحن مذكــورون ومشــهورون فى أفواه الــعالمين بالشجــاعة ، وقــهر الخصم ، وهزيمة العــدو . ولن نضع شادخة [1] هذا العار على غرة الزمــان أبداً ، ولن نعـجب بـ « كلف» [2] هذا الحـوار على ناصيــة الأحوال ، فماذا لو صرنا ظهراً واحـداً ويداً واحدة فنضع طريقة القتال ، ويكون لنا يد الاستحواذ [3] والاستعلاء ، لأنهم هم البادون وعلى الباطل مصرون ومتــمادون فكل مرّة بدأوا بها الظلـم تصل فى الإسادة إليهم ، ورب رمى عــاد إلى النزعة [2] أما إذا تغـير وجـه الأمر إلي شكل آخر - عــوذاً بالله - وأبدي الزمان الغادر الخيــانة فى محنتنا ، وقهرنا وهزمنا ، فـإننا فى النهاية سوف ننال درجة الشهــادة بالإضافة إلى حسن الســمعة « ومَنَ قُـتل دون مالهِ فهــو شَهِيد » أمــا الهروب

(١) الشادخة : الغرة التى فـشت فى الوجه ، ويقال غرة شادخة : غشـيت الوجه من الناصية إلى الأنف . الزمخشرى ، أساس البلاغة جـ١ (ش. د . خ) الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٥ .

(٢) الكلفة : حمرة يخالطها سواد ، أساس البلاغة جـ ٢ (ك . ل . ف) .

(٣) الاستحواذ بمعنى الغلبة والانتصار ، وطبقاً لقواعد لغة العرب كان يجب أن تكون استحاذ لأن الكلمة من نوع الأجوف الواو مـثل استقام ، ولكنهــا جاءت على سبيل الاستــثناء قال الله تعالى : « اســتحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله » المجادلة / ١٩ ويقول المتنى :

فى موقف وقف الحمام عليهم فى ضنكة واستحوذ استحواذا ديوان المتنبى ص ٣٠٤

(٤) عاد السهم إلي النزعة ، أى : رجع الحق إلى أهله ، والنزعة الرماة ، من « نزع فى قوسه» أي رمى فإذا قالوا : « عاد الرمى عــلى النزعة » كان المعنى : عادت عاقبة الـظلم ويكنى بها عن الهزيمة تقع على القوم الميلقى مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٣٤٤ .

وإجلاء الزوجـة والولد وإخلاء البيت والسكن القديم الشـابت وتحمل قطع العلاقات مع الكثير من الخلق ، وضياع الصيت والشهرة العالمية من يد حمايتنا واستـهلاك القومية التى كانت تمثل استمـساكهم بعروة سلطتنا ، وإظهـار عدم المبالاة ، وتخـتفى معـانى الآباء المركوزة فى جوهر آبائك والحـمية التى تمثل مـع المروءة مركب ذاتك . ولا يمكن التظاهر بشـعار هذا العـار ، كمـا لا يمكن لشعبٍ أبيٍّ النفس حـمىّ الأنف البقاء على مثل هذه الحياة ولكن يطلب أن يعيش موفقاً سعيداً فى عزة ومسـرة وعندما يفارق هذه الدار الفانية يعلم أن ذكـره الحميد وشهـرته العاليـة تستأنف بـقاءً آخر ومن ثم يفـضل الموت على تلك الحياة التى تكون هـكذا مثلما قال ذلك الملك للمنجم فـقال الأسد : كيف كانت تلك الحكاية .

حكاية الملك مع المنجم

قال الملك : سـمعت أنه كان فى أرض بابل رسم قديم وقـاعدة مستمرة ، وهى أن زمام عزل وتولية الملك كانت بيد الرعية . وحينما كانوا يرغبون فى واحـد وقعت عليه قرعة الاختـيار ، يجلسونه علي عرش مملكتهم ، وعندما كانوا لا يرغبون فيه يعزل ، وذات مرة كانوا قد أجلسوا واحـداً على عرش المملكة وفعلوا له كل مـا كان من أمر التعظيم والتفخيم وترويجاً لسـوقه ، واعتبروا حُبَّ دولته كالقلب فى الصدر والضياء فى العين ، وجهزوا لـه كل ما يلزمه من أسباب فراغ البال والراحة والتمتع وحسن العيش جميعاً ، وذات يوم - كما كانت

عادتـهم - غضـبوا عليـه ، وعزلوه ، وأجلسـوا واحداً آخـر مكانه . وجلس الرجل - الـذى كـان قـد ذاق لذة السـرور والسلـطنة وملك العظمة ويد الحكم على العالمين - فى زاوية بسبب غصة تلك المحنة ، وكان يقول :

كانت لدى أمانة فَرَدَدْتُهَا		وكذا الودائع تُسترد وتُقتضى

وفكر فى النهاية : أنه لو كنت أعلم طالع الوقت فى مطلع تلك السـعادة التى منحـتهـا إياى تلك الدولة وكنت قد جلسـت باختـيار مسعود واتصال محمـود ، واخترت برجاً ثابتاً ، لربما لم ينقلب الحظ بسرعة هكـذا . أما وإن الأمر قد حدث وأصـبح من المتعين علىَّ أن أغادر هذا المكان ، فـيجب أن أخـرج هذه المرة باختـيارى للوقت ، وبحث لدى علماء النجـوم الحاذقين والمبرزين فى علم النجـوم سائلاً إياهم : من هو الموجـود فى المدينة من المنجـمين ؟ فأشـاروا له على المنجم الذى وصل إلى درجة الكمال فى حقائق هذا العلم ودقائق هذا الفن ، الذى يحتاج مجسطى (١) وأبو الريحان (٢) فى حل المشكلات

(١) إشارة إلى مـجسطى بطليمـوس وهو عالم فى علم الهيـئة د . شتا ، فـرهنك فارس برزك جـ ٣ ص ٢٦٩٤ .

(٢) أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الفيلسوف الرياضى المشهور ولد سنة ٣٦٢ هـ وتوفى فى غزنة سنة ٤٤٠ فى السابعة والسبعين من عـمره محمد عبد الوهاب القزوينى - عبـد الوهاب عزام ود . يحيى الخشاب ، حواشى جهار مقاله ص ١٤٦ ط الأولى القاهرة سنة ١٩٤٩ .

إلى تفهيمه[1] ، ولم يصل أبو معشر[2] إلى عشر فضله ، ويفاخر الفاخر[3] بالتلمذة على يديه ويتضاءل جهد كوشيار[4] عن مرتبته ، كأنه كان يطلع اطلاعاً حسياً بجواسيس نظره على غوارب الأنجم وشواهق الأفلاك وودود البوادر وحدوث صوادر الغيب ، فدعاه وقال له : اختر لى يوماً طيباً وساعة مفضلة حتى أخرج من المدينة .

فسأله المنجم : من أي البروج طالعك ؟ وكم عمرك فالاختيارات تأتى صحيحة باعتبار تاريخ الميلاد . فقال عمرى لا يزيد عن سنة ، فتعجب المنجم من هذا الكلام متسائلا مع نفسه ما هذا الرمز ؟ وما هذه الإشارة ؟ ثم استفسر عن ذلك المعنى فقال : إذا حسبوا الحياة منذ مساعدة الأيام ومتابعة السعادة التى يعيشونها فى عزة نفس ونشوة طبع وسعة منال ورغد العيش ، فإن عمرى لا يزيد عن سنة وهى التى كنت فيها ملكاً حاكما وسلطانا آمراً .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن الناس لا يطلبون الحياة إلا

(١) إشارة إلى كتاب « التفهيم فى صناعة التنجيم » ، وهو كتاب في مقدمات علوم الهيئة والهندسة والنجوم بطريقة السؤال والجواب ، ألفه أبو الريحان البيرونى من أجل ريحانة بنت الحسن الخوارزية . القزوينى ، حواشى جهاد مقاله ، الترجمة العربية ص ١٤٨

(٢) هو أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى من مشاهير منجمى القرن الثالث الهجرى وتوفى فى سنة ٢٧٢ هـ وكان قد جاوز المائة سنة . القزوينى ، حواشى جهار مقاله . الترجمة العربية ص ١٤٩ .

(٣) أحد المنجمين المشهورين وهذا يلاحظ من السياق .

(٤) كوشيار الجيلى : هو هركيا أبو الحسن كوشيار بن لبان بن شهرى الجيلى نسبة إلى (جيلان) من مشاهير المنجمين وكبار الفلكيين فى عصره . القزوينى ، حواشى جهار مقاله ، الترجمة العربية ص ١٥١ ، ١٥٢ .

على هذا النحـو ، فالتفت المـلك إلى النمر ، وقـال له :وأنت ماذا تقول ؟ فقال : إن كثرة أعدادهم غير خافية ، فلو قصرنا العزيمة على مواجهتهم وجهاً لوجه فـإننا نكون قد أظهرنا قصورنا ، وفتحنا طريق البلاد وجذبنا الموت إلينا بحبل ، وفـتحنا طريق الهلاك على أنفســـنا « كالباحث عن حتفه بظلفه » (١) .

ولا يكون لدينا الطاقة على مصادمتهم ومبارزتهم ، فيجروا سيل ماء سطوتهم - لا قـدر الله - ويستأصلوا جذور وأســاس بيتنا الذى بلغ عمره الألف سنة ، ويخرجوا دخـاناً من هذه القبيلة بنار الفتنة ، ويفض خاتم الـعصمـة لمحارمنا وأطفـالنا - اللائى هن ربيبـات حرم الحرمـة وعرايس ستر الصـيانة - على يد هؤلاء القوم الفـجرة وتدوم وصمة هذا العار .

هل للحرائرِ من صونٍ إذا وَصَلَتْ   أيدى الرِّعاعِ إلى الخُلخَالِ والخدمِ

والرأى هو أن نرسل اليوم رسولاً ، ويكون رجـلاً عالما بالرسوم ، لسناً ، ماهراً بالأله التى تجعله يعـتمد على كفالته فى كـفاية المهمات ، فـيـستطـيع أن يجـمع ماء اللـطف إلى نار العنف ويمزج بين زعــاف المكافحة وعسل المصافحة .

(١) يروى هذا المثل في مجمع الأمثال « كالباحث عن ملية » يقـال إن رجلاً وجد صيداً ، ولم يكن معه ما يذبحه به فبحث الصيد بأظلافه في الأرض فسقط على شفرة ، فذبحه بها ، ويضرب فى طلب الشئ يؤدى صاحبه إلي تلف النفس . الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ٣ ص ٤٨ .

ولما رأيتُ الحَرْبَ قَدْ جَدَّ جِدُّها لَبِستَ من البُردَين ثَوبَ المحَارِبِ [1]

فنرسل مثل هذا الرسول إلى سلطان الفيلة ، حتى يحمل الرسالة منا ، فيفتر حال دواعي وأسباب مجيئه ، ويجعل نطاق نهضته جزءاً منفصماً عن محاربتنا ، ويجذب ميل التخييل إلى عين حدسه ، ويلقى على دماغ حزمه نوم الغفلة بسحر الاحتيال وأفيون الإغفال ، حتى لا يجلسوا طلائع الرأى على مدارج الآفات ويروا مواضع حيلنا ويتقوا مواقع زللهم ، ومن هنا نأمر الأبطال والشجعان بشن غارة ليلية فى تضاعيف هذه الحال ، ونزل بغتة فجأة على رؤوسهم شن القضاء المبرم ، ونبنى حولهم « على حين غفلة »[2] ونحقق مآربنا . أما إذا كنا كثيرين فإننا نصنع على ممرهم كميناً ، ومن ثم يمكن أن نسقط عليهم وهن المفاجأة ثم نطحن منقار شوكتهم فى فاتحة الأمر ، ونلوى عنان صولتهم نوعاً ما .

عَسَى وعَسَى يثْنى الزَّمانُ عنَانَه بتَصْريف دَهرٍ والزَّمانُ عثُورُ
فَتُدركَ آمالٌ وتُقضى مآربٌ وتَحدثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ

وأشار الملك إلى الذئب قائلاً : وأنت ماذا تقول ؟ فقال هكذا

(١) يبدو لى أن هذا البيت مقحم على المعنى ، فبين معناه والسياق اختلاف كبير ، فالسياق يقتضى السياسة والكياسة ومعنى البيت الدخول فى الحرب إذا نشبت وإعداد العدة لها ، وكان يفضل أن يقال « مع البردين » بدلا من « من البردين» حتى يتسق المعنى .
(٢) إشارة إلى الآية الكريمة « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » القصص / ١٥ .

سمعت ممن يفكرون في الأمر قبل وقوعه والمجربين : أنه عندما يأتى لك عـدو قـوى ، فيـجب عليك أن تجـتـهـد فى إنفـاذ مراسـلات ومجاملات بلباقة لسـان القلم ، وإنفاق الأموال وإيراد حسن المقال له .حتى تثنيـه عن طريق التعـدى وعزم التـصدى للخـصومة ، وتجـعل النفع والخسارة فداء نفسك العـزيزة وتقول « وخير المال ما وقى به النفس » .

والتفت الملك إلى الثـعلب قائلاً : أي هذه الأقسام تختـار ؟ فقال إن الأمر لا يخـرج عن هذه الأقسام الثلاثـة التى قالوها : الصلح أو أو الحرب أو الحيلة ، لكن أمام إقدام عدو شـجاع وقاصد أفاك سفاك ، يلزم عدة أسباب ويجب عدة واجبات لوضع قدم الاقتحام بسرعة فى هذا الأمر . الأول : فكرة نقص المياه وتعذر العلف الذى إن منع عن الخصم فـإنه يعجـز عن الأداء ، ومن هنا إما أن يطلب الجـيش زيادة معاشهم وقت اعتراض الخصم ، ولا يكون لدى الملك فيخشى من أن يصبحوا مظاهرين ومعاونين للخـصم بعد أن يصيروا أصدقاء له ومن أحـزابه وقت الحـرب وإما أنه لا يعـتـمد عـلى جيـشـه ويفكر أنهم يخدعونـه بدعوة العدو ويطمعـونه ويغررونه ، ومن ثم يلوون العنان عن طريق مـهاجمـتنا ، وبحمـد الله لا يوجد لدينا سـبب من هذه الأسـبـاب مطلقـاً ، وشـراع هذا الملك وهذه الـدولة طاهر من هذه القذيات ، وكذلك ذيل معاملة هذه الرعايا والجيش نظيف وطاهر من هذه القاذورات ، إذن لا يوجد لدينا أي باعث ضـرورى للمبادرة فى هذا الأمر فـلا يلزم التقـدم والإسراع إليه . وإنما يـجب جذب عنان

السرعـة والعجلة باليد . لأن كل من لا يعرف مـقدار ضعف جيـشه وقوتـه ، ولا يعرف مـاذا يستطيع كل واحـد منهم ، فيظن كـل فرد منهم فارساً محارباً مجرباً ويحسب أنهم مستعدون ليوم الحرب يصيبه مـا أصاب الفارس صـائد الغزال فـقـال الملك : كيف كـانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفارس صائد الغزال

قال الثعلب : سمـعت أن شاباً محباً للصيد ، شجـاعاً فارساً ، كـان إذا أطلق العنان جـعل كرة المسـابقـة تسـبق الوهــم ، لا يصل التخـيل (الإدراك) إلى قـدم فرسه ، كان يـلعب كل ليلة في المساء حتى السحـر مع خيال الغزال . وكان كل تفكيـره هو أنه كيف أشبع كلب النفس من كتف الحـيوان ؟ وكيف أجعل ضـعيفاً في قـبضة نمر الطبيعـة . وكان له كلب أسرع من الريح ، وأشد قـفزاً من البرق ، كان إذا أطلق مثل الشيطان المُسَوْجَر [1] والعفريت المسلسل فكن يريد أن يقفـز إلي السمـاء ويدخل المخلب في عين الثور وقـلب الأسد ، وينزع بكلبتي الذراعين أسـنان الكلب الأكبر والدب الأصغـر ، وكان لعياري [2] الصحراء من حد سكين أسنانه كبـاب كبد دائما ، وكانت النساء المخدرات تنزل دم الحيض - مثـل الأرنب - من هيبة نباحه ،

(١) كلب مسجـور ومسجَّر - مُسَوْجـر وقد سجَرتُه سجّرتـه طُوقته الساجور وهو طوق من حديد مُسَمَّر بمسامير حديدية الأطراف (أساس البلاغة) .

(٢) والعيار : الكثير المجئ والذهاب والزكي الكثير التطواف والأسد (القاموس المحيط) .

وكان لا يصل طعـام إلى أى سبع فى متـصيد تلك الصحـراء بسبب مزاحـمته ، حـتى أبيحت لحم الجـيفة للذئب ، وقنـع الخنزير البرى بعظم أسنانه .

وذات يوم كان هذا الرجل جـالساً فى بيته إذ دخل عـصفور من النافذة فقفز القط من ركن البيت ، وافـترسه ، فسعد الرجل بمشاهدة تلك الحال من غـاية حرص الصـياد [1] . وقال فى نفـسه : لابد أن يحسـن إلى هذا القط بعد اليـوم ، لأننى لم أر كلباً بهـذه الشجـاعة والسرعة فى الصيد مطلقاً ، وغداً أمتحنه حتى أرى ماذا يفعل ؟! .

ونهض مع الفـجر قبل أن يضع أحـد فرسـان المشرق قـدمه فى ركاب جـواد الدنيا الكمـيت ذى الغطاء الأخضـر النوردى[2] وجلس على قاعـدة كل يـوم ، وجعل القط فى جانبـه ، وأخذ الكلب فى يده . وعندما وصل إلى مكان الصيد بدت بطة برية من تحت العشب ، فأطلق (الصياد) القط من جانـبه ، فرأى القط الكلب فأراد أن يعود إلي جوار الصيـاد إثر نباح الكلب ، فوقع على رأس الفرس وجبـهته فـانتفض الفـــرس من تمزيق مخـالبـه ، وألقى الرجل على الأرض فأهلكه .

وقد قلت هذ الحكاية حتى لا تظن أن جميع الناس أهلاً للأمر ، وتعلم أن جيشنا لا يستطيع مقاومة جيش الفيل ومطاردته ، أما هجوم الليل الذى يقـرره الفهد (فـإنه لا يفيد) إلا إذا كـان الخصم غـافلاً وذاهلاً عن فكره .

(١) الترجمة الحرفية « الصيد » .

(٢) النوردى نسبة إلى « نورد » وهوالاسم القديم لمدينة كازرون الإيرانية . « فرهنك بزركك فارسى » .

لكنه ربما يكون متوقياً لنفسه متحفظاً يجلس ، مشغولاً بتبييت الفكرة وترتيب أمر آخر مثلما فعل الجمَّال مع الجمل فقال الأسد كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الجمل مع الجمَّال

قال الثعلب : كان هناك رجل جمَّال يملك جملاً . وكان يضع عليه كل يوم حملاً [1] من الملح يأتى به من الملاحة إلى المدينة ليبيعه . وذات يوم رأي الجمال وجوب النظر بعين الرحمة إلى الجمل ، فوجه وجهه إلى الصحراء - على سبيل التخفيف - حتى يستريح باختياره ويتقوى لحظة ، ووصل قدراً إلى ذلك المكان الذى يقطن فيه الأرنب الذى كان له صداقة ومعرفة ودالة معه فى سابق الأحوال .

وتلاقى كلاهما اللقاء الذى كان ينشده كلاهما منذ فترة طويلة ، ثم خرج من حجاب الانتظار ، ومن ثم حدث ارتياح لكليهما برؤية كليهما للآخر ، وأبديا تعطفاً عندما تعرفا على الحال ، وقال الأرنب : لو لم تذكرنى فإنك لا تنسى شيئاً ، لأن لى معك ومع تذكرك أموراً كثيرة .

ومنذ تلك الفترة التى حالت بيننا فيها حوائل الفراق ، وانقطعت حبائل الوصال ، وأنا قد وقعت فى زاوية بعيداً عن أصدقاء الصدق ،

(١) « خرواری » بمعنى حمل جمل أو ثلاثمائة كيلو جرام أو طن « فرهنك بزركك فارسى . »

ووضعت لى مقعداً فى زاوية من زوايا الانزواء والوحشة حيث لا مذاكر ولا أنيس ولا مسامر ولا جليس ، وكانت جاذبة اشتياقك محركة لسلسلة الخاطر دائماً ، وكانت داعية الطلب تحرك حلقة الرغبة فى لقائك المبارك ورؤيتك العزيزة ، ثم تفحص الجمل جيداً فوجده ضعيفاً نحيلاً . فقال يا أخى لقد رأيتك - من قبل - مثل الجبل من فرط السمنة ، فكان السمن يقطر من ممخضة سنامك قطرة قطرة ، ولم يكن جلدك يحتاج إلى مسح السمن على الإطلاق .

بل ربما من كثرة الذى كان يأتى إلى طواحينك ونواجزك الذى كان يعطى المدد لخيمر المنسم الذي جعل - بدوره - محيط الصدر سميناً هكذا ، وكنت تمشط اللحم والشحم بمظ الظهر ومرآة الركبة كل عام كالمشاطة [1] ، وكنت قوياً ضليعاً حتى إنه لم توجد فرجة فاصلة بين مقوس أضلاعك على قوائمك الأربعة بسبب السمنة ، فكانت الأفيال العظيمة مُمزِقة السلاسل الحديدية ترتعد [2] من عربدة سكرك ، وكان هدير حنجرتك يقطع زئير حجرة الأسد فى حلقه .واليوم أراك وقد تراجع أثر القوة والنشاط من الذروة إلى الحضيض ، وتكسرت فقرات الظهر من عصر ضرب الحوادث ، وتركت - لقب - سفينة الجبال بسبب الضعف ، وأصبت الجرب ، وذهب الصوف المزين والشعر

(١) مشطت الناقة كثرح صار على جانبيها كالأمشاط من الشحم (القاموس المحيط) . ومنه مشطت للمشطة وللمشاطة والمواشط وامتشطت المرأة (أساس البلاغة) وهذا الأسلوب كناية عن ضخامة الجمل .

(٢) الترجمة الحرفية « يأتى الحجر إلى أسنانها » .

الملون وأتى مكانه سرابيل القطران ، وقد كالت تلك الأيام كل بذور القطن في تجويف بطنك ، وأزالت كل هذا الصوف (الوبر) . فماذا حدث حتى تصبح - مرة ثانية - مثل صبي صانع الحبال . ولعله يغزل من هذا الصوف فصار عنقك إلى هذا الحد من النحافة ، وأصبحت مسخاً مرة واحدة ، وكتب قلم النسخ في جريدة أحوالك : ماذا حدث للمزاج الشريف والطبع الكريم ؟ حتى جاء سبب تبدل الحال وموجب زوال ذلك الكمال . فقال الجمل : إنني أنتظر منك هذه الأسئلة التي سألتها الآن وكذلك التفقد لكرم شيمك وحسن شمائلك ،

سَماعٌ عجيبٌ لمنْ يستمعْ   حديثٌ حديثٌ به يُنتفعْ
رَماني الزَّمانُ بأعجوبة   تكادُ الجبالُ لها تَنصدعْ
بعوراءَ تَعْثُرُ فيِ ذَيلها   وعذراءُ تأبى على المُفترعْ
بواقعةٍ حِرتُ منْ حُزْنِها   كما حَارَ في الحُزْنِ عافٍ وقَعْ

واعلم أن الجمّال غير الرحيم الذي هو صاحبي ، وجعلوا زمام تسخيري وتذليلي في يده ، شيء آخر مثل نزول مكروه على ساحة الأحوال وعدول المزاج عن جادة الاعتدال التي لا يمكن أن تكون من موجبات هذا الشكل وهو [1] أنه من مدة طويلة وكل يوم - بحكم التكليف والتعنيف - يضع على ظهري حملاً من الملح أكثر من المقدار العادي - برغم كل هذه النحافة والهزال الذي تراه - حتى

(١) للعني الحرفي «لكن» وهي لا معنى لها هنا .

أحمله من مكان بعيد إلي المدينة . ولم يخطر مطلقاً على قلبه أن أضع جزءاً من حـمل العذاب هذا ، وأقلل مثـقال ذرة من ضغط وقـيد هذه الأثقال فلا جـرم أن ظهر طاقتى قد تحطم بهذه الصفـة التى ترى وقريباً يجعل الغـراب عشاً له على عنقـى طمعاً فى طعـامه ومن أجل اللحم الذى لا يمكنه[1] تصويب سـهم على فيه ، ويبـيض النسر فى محـاجر عيـونى ، وينعب الغراب نعـيب النعى على قامـتى بعد أربع تكبـيرات يصليهـا على سلامتى . ولا أدرى أى تدبيـر لدفع هذه المصيبـة سوى ذلك الأمر الذى عـرضته عليك . وأنتظر مـا تأتى به الأيام وأرفع يدى إلى قبلة الدعـاء ، وأبعث بالأنين والحنين من حنايا القلب إلى حـضرة السميع المجيب وأقول :

أيها القلب عندما قيدك الهجر بالسلسلة ، لم يبق فى اليد سوى تدبير واحد
ليس لك من تدبير سوى سهم السحر ، حتى يصل أحد سهامك إلى الهدف

قال الأرنب : برغم أن تسليم النفس إلـى يد القضاء أمر مـحتوم ، ومع أن أمـر النجاح والفـشل من لدن الله تعالى ، وذلك كـله قضـية العقل والشرع ، لكن عند حدوث الإيذاء ووقـوع البلاء يجب التفكير فى دفعه ، ولا ينبغى التقاعس والتكاسل فى إزالته ، وأنا أرشدك إلى الحيلة التى تكون منقذاً لك من قاع البلاء ، فوصلت رائحة الروح إلى الجمل من هذا الكلام وقال :

(١) الضمير يعود على الغراب .

يا مرهم مائة ألف إلمٍ ، ويا سرور مائة ألف حزن

يا من لا يواجه رأيه ظلام وجـه التخمين والظن فى جمـيع وجوه الأمور [1] .

كل الالتزامـات التى سوف تأمرنى بهـا بكرم عهدك سـوف أجعل لازمة الوفاء قـرينة لها . فقـد خرجت من عهدة الجـميع . والآن أشر عليّ . وما هو طريق الخلاص من هذه المحنة ؟ فقال الأرنب تدبير ذلك هو أنه عندمـا تحمل حـمل الملح وتأتى به إلى المـدينة يكون على طريق عبـورك نهر مـاء ، وأنت لابد أن تعبـر من هناك ، فعندمـا تصل إلى متصف النهر ابرك (اجلس) حـتى يسقط نصف الملح ، ثم انهض وسر فى سهولة ويسر فإذا ما سرت على هذه القاعدة مرة أو مرتين ،فإنك لو تنثر الملح على جرح الجـمال فإنه يضع - فيما بعـد - حمل الملح بقدر الطاقة (الوسع) .

فاستـقر خيال صـوت النهر فى سمع قلب الجمـال من سماع هذه الكلام ، ورغب فى أن ينشد شـعراً قبل أن يوصل مضـرب الركبة إلى

(١) يقول القزوينى معلقـاً على هذا البيت « ولفظ هذا البيت ومعناه لا يخلو من سماجـة وبشاعة » القزوينى : مرزبان نامه ، طبـعة ليدن حاشية ص ١٩٦ ، لـكن د . مهدى دامعاتنى يخالفـه ويقول فى تعليق علي هذا البيت « إنه صحيح وخال من الخلل ويجب أن نعترف أن فيه كـثيراً من لحاظ المعني (البلاغة) وليس السماجة والبشاعة لأن الشاعر يمدح ممدوحه بنفاذ الرأي ونفـوذ البصيرة وبسطة العلم وسعة الاطلاع ، وأنه يرى وجوه جميع الأشخـاص والأشياء بعلم اليقين وعين اليقين ، ولا يواجه إيهامـاً وتخميناً أو ظناً في كل هذه العلوم والأفكار مطلقاً أو بأى وجه من الوجوه د . مهدوى دامغانى مجلة يغما سال ٥ ص ١٠٩ .

النهر من فرط نشاطك تلك الحـالة ، وأخذ فى الرقص الذى لم يرقصه أبداً عند سماع الحداء بسب تلك الكلمة التى كانت هادياً له على طريق نجاته .

وحَـديثُـهـا كالغـيث يَسْـمَـعُـه راعى سنينَ تتـابعت جَـدَبا

فـيـصَـيحُ مُـسـتـمـعًـا لدُرتِه ويقـولُ من طربٍ هيـاربا

وفى اليـوم التالى عندمـا أشرقت جـلاجل الكواكب على أعطاف ومناكب هذا الجمل القـوى وضع الجمال الجهاز عـلى الجمل ، وأخذه إلى الملاحة ، ووضع عليـه ما كان معـتاداً عليه من الأحمـال ، وكان الجمل يسير بلحن فكره حتى وصل إلى وسط النهر .

واستحضر آلة التدبير التى كان قد صنعها ، وبرك ، يعنى ظل وقتاً حتى يأتى الماء على وجه الأمر ومن ثم ينزع حمل الغم من القلب .

فبدأ الجمال فى الشتـائم ثم ضرب علة ضربات على جنب الجمل . وبعد وقت طويـل من التأخيـر نهض الجمل من المكان ، وكـرر الجمل هذه الحالة عـدة مرات ، فنهض الجـمال بالمكافأة التـى هى من إيجاب الطبيعة .

وفي اليوم التالى وضع الجمـال عليه حمل صوف بدلاً من الملح ، وساقه حتى وصل إلـى النهر ، فبرك الجمل حسب القـاعدة السالفة . فصـمت الجمال وتذرع بالصبـر ، حتى تشرب الصـوف الماء ؛ وأصبح

الحمل ثقيلاً ، وعندما أراد أن ينهض لم يستطع (وفي النهاية) نهض من المكان بعد جهد كبـير وعناء بليغ ثم تلا : ونحن كما كنا [(١)] ، وحمل زيادة علاوة على الحمل وانطلق . وقد وضع الجـمال مكان الحداء المثير للنشاط والشدو الممزوج بالطرب هذا الشيء الغليظ الضخم فى حمله ، وكان يقول :

لقد أثمرت الشجرة التى ربيتها ، وقد رأيت الآن الثمار فى أطرافها

فلو كانت الثمار شوكاً قـتلت بها نفسك ، ولو كانت حريراً لففت بها نفسك [(٢)]

أيها الطويل الأحمق ، أيها الجاهل سيء الحظ ،

حَفِظْتَ شيئاً وغَابتْ عَنكَ أشياء [(٣)]

أردت أن تعرض عن الحمل مثل النعـامة ، وبركت فى النهر بتلك الفكرة حتى ظل الجرح غير ملتئـم ولقد صار جسمك - بهذه الفكرة -

(١) كتب العـلامة القزوينى تعليـقاً على هذه الجمـلة : ما المقصـود منها ؟ والواقع أن ذلك مثـلاً لكنه جاء مختصراً فهو فى الأصل « ونحن كما كنا والعناد زيادة » .

مرزبان نامه ط روشن جـ ٢ ص ٧١٧

(٢) هذان البيتان للفردوس الطوسى شاهنامه جا ص ١٢٩ جاب دوسكو .

(٣) هذا المصراع من قصيدة مشهورة لأبى نواس هو :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئاً غابت عنك أشياء

أبو نواس الحسن بن هانئ الديوان تحقيق محمود كامل مزيد ص ٦٧ القاهرة سنة ١٩٧٤ .

رفيعاً كـخيط الحرير . ووضعت عليه صـوفا ؛ لكن العود الذى تصنع أوتاره من الصوف والحرير لا يخرج نغماً ، أردت أن تلقى بعض حمل الملح ، وتضيع حـقوق خبزى وملحى ، لكنك سيئ الحـظ حزينا دائماً لأنك لم تكن تعلم طعم القدر السيء الذى كنت تطـبخ فيه ، ولم تعلم أن ذلك القدر يلزمه ،ألف حمل من هذا الملح .

ولقد قلت هذه الحكاية حتى تـعلم أن العدو - أيضاً لا يخلو من التفكير فى مكايدتنا .

أما الرأي الذى يقضى بطلب الصلح ، والدخول من باب التسامح والتساهل وإرسال التحف والطرف فـهو خطأ ، فكل من يبدأ بالصلاح فربما أظهر عورة عجزه للعـدو وجعله قوى القلب ، غالب اليد ، قوى الرأى عليه نفسه .

ويبدو أن الصـواب - والله أعلم - هو أن نرسل رسولاً بلا هدية أو تحفة فنبـدى - للعدو - من أنفسنا العظمة والـهيبة وضخـامة الجيش ووحدة القلب بين العبد والحر ، ومثلما فكر فى الحرب - معك - أثار دواعى الحـميـة فى بواطن الجيش ، ينزع (الرسـول) ضغـينة وحفـيظة العداوة من القلوب ، ويجمد دم العصبـية فى أعصاب الأعداء ، ويطفأ نيران الحـقد والبغض فى صدورهم ، ويفـصم حبال الغضب ، ويثـير فكرة طلب العافـية وكراهيـة وبغض أمر الحرب فى طبـاعهم ، ويعلم الرسول جـيداً مـبانى أمر تلك الدولة ومـسالك رسـوم هؤلاء القوم ،

ويعيـد تقدير أعداد الجـيش ، ويتعرف تمامـاً على الموافقة والمنافـقة بين عمـوم جنودهم فى سبيل الـعبودية والثبوت فى أمر مـصالح الملك . ويخبرنا عن شجاعة وجبن قلوبهم ، وركاكة ومتانة رأيهم ، حتى يأتى تدبيرنا مثمراً وموثراً وفـق مصلحة الحال ، لأن صاحب الحرب لابد أن يكون محتاطاً ومستقيظاً فى ثلاثة أوقات :

الأول : وقت الانتصار والظفر على الخصم حتى لا يحدث الحركة - عن طريق السهو أو العمد - التى تبطل فائدة السعى .

الثانى : وقـت الصلح والمسالمة حـتى يمسك زمام الأمـور فى اليد بأحسن الوجوه حتى يبقى للخصم مقام الخوف والطمع .

الثالث : وقت التعلل والتأمل وإتلاف الوقت ، حتى يصل بألطف الحيل إلى استئصال آفة الحرب والقتال بالكفاية من ذات البين .

الرأىُ قبل شجـاعةِ الشجعـانِ هو أولٌ وهى المحلُّ الثانى (١)

ثم اختاروا الذئب الذي كـان من مجاورى حرم الصداقة الحـميمة ومشاورى سر الطوية ، والذى كان يملك مقـام الاعتماد فى عداد المقربين ، ونصب لهذه السفارة .

(١) هذا البيت للمتنبى ، وهو مطلـع قصيدة يمدح بها سيف الدولة عند انصـرافه من الروم سنة ٣٤٥ يقول فيها :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى للمحل الثانى

فإذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان

المتنبى ، الديوان جـ٢ ص ٤٢٥ .

وأرسلوا معه هذه الرسالة ، وهى أن قل لملك الفيلة : أنه غير خاف أنني ملك ملوك الوحوش في الدنيا بأسرها ، وإن المتفحصين فى أمر الحروب المجربين لها ، والمحاربين المحترفين يضربون المثل بقوة سواعدنا فى جميع أقطار وآفاق الدنيا ، ولكى يستمر لنا حكم هذا الإقليم وحمايته لا ينبغى أن يفكر أي شخص من الملوك قاهرى الجيوش أو من الأكاسرة المانحين للتاج فى انتزاع هذا الوطن من أيدينا ، وألا يشغل نفسه بنزع أواخى [1] تلك الدولة وقطع أواصر هذه المملكة ، ونحن بدورنا لم نلمس بذيل طمعنا ، أعتاب أى بيت من البيوت القديمة والكريمة ، التى يقوم أساسها على التأثل والتأصل ، وقبضنا يد التطاول والتصاول عن البعيد والقريب وصادقنا الأجنبى بالملاطفة والسماعفة ، ورفعنا الأصدقاء بروابط الألفة وضوابط حقوق الصحبة على مقام الأقارب ، ولا شك أن بركة هذه العدة المختارة والرسوم المحبوبةصيانة للنفس ، وتأصل فينا شكر الخالق الذى هو من موجبات مزيد النعمة ، ومن ثم ترتقى دولتنا كل يوم درجة أخرى فى الارتفاع ، ووصلت إلى أعلى مراقى المراد ، وظل عقد هذه الأحوال منظوماً ، وعصمت غرة هذا الإقبال من عين جرح الحوادث . واعلم أن رأي الملك المنير أكثر وضوحاً من ذلك مما لا يحتاج إلى تقرير ، واليوم

(١) الأخيه والأخية بالمد والقصر : تخفف عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة وجمعها أواخى (تاج العروس) وتقول له عند الأمير آخيه ثابتة ، وشددت له آخيه لا يحلها الدهر الأرن وشد الله بينكما أواخى الإخاء وحل أواوى الرياء

(أساس البلاغة) .

نهضت بعزم لمزاحمتنا وهممت بمناهضتنا وحربنا وقصدت البيت الذى هو مقصد العفاة وملجأ الجناة ومهرب مشردى الأيام ومطلب الضالين المروعين « أليس منكم رجل رشيد » [1] ألم يكن فى كل هذه الدولة رجل من جملة المشيرين المشفقين والناصحين الصادقين ، كان يعرف حقيقة الحال ، ويقف على جلاء أمور هذا الجانب حتى يخبركم أن أساس بيتنا وضع على العدل ، وأن الرعية مهتم بها ، وأن الجيش مهيأ و كيف وصل هذا العقد إلى النظام وهذ العقد إلى الإبرام فى مدة طويلة ، وحتى يخبركم أن الجيش والرعايا وأفراد الحشم من العوام وخواص الخدم جميعهم أوفياء ، وحفاظ يطيعون المخدوم وأبا عن جد لا يرون سوى طريق طاعتنا ، ولا يعرفون إلا عادة الانقياد لنا ، ومن ثم عندما يحدث ذلك الأمر ويأتى العدو إلى باب البيت فلن يختاروا سوى طريق بذل الروح ، ولن يملكوا سوي طاعة الأمر حتى آخر رمق يبقى من الروح ، ولن يضربوا الرقم القياسى ، بذلك المجهود (حفاظاً) على أنفسهم .

والخلاصة لو ترجع كواكب هذه الهمة عن نظر العداوة ، وتقرأ : والرجوع للحق أولى ، تلوى عنان فرس العزيمة عن طريق التمادي في هذا المقام ، وتطفأ النيران التى اشتعلت من فوران هوى الطبيعة بماء المصلحة ، فذاك أمر ممدوح وحكمة مجربة ومنهاج الشريعة ، قال تعالى : « وإن جنحُوا للسَّلْم فاجنَحْ لها » [2] حتى يكون طريق المخالطة

(١) هود / ٧٨ .
(٢) الأنفال / ٦١ .

مفتوحا ، وبساط المباسطة ممهداً فيما بعد ، ويتأكد بناء أساس ذات البين على الصلاح ، ومع هذا كله فإن قرعة الاختيار بيد مرادك ، وقد أديت واجب النصيحة فى هذا الباب من وجه عقيدة هذا الدين وتركت الأمر لرأى المصيب .

لا ينبغى أن يظن الجميع أننى ضعيف بسبب حسن حديثى

لأنى لا أقول هذا إلا عن حب وبحث عن نهاية طيبة للأمر

فذهب الذئب ، وأدى الرسالة خير أداء مثلما سمعها ، فظهرت دلائل الغضب على جبين ملك الفيلة من مضمون هذا الكلام ، فاضطرب واحترق كبده من شعلة الحقد ، وتمزق زمام جواد طبيعته ، وفقد عنان تمالك نفسه من يده .

واختار من نفس المجلس واحداً من سفهاء السفراء الذين انعقدت الوقاحة على جبينه وبعدت البشاشة عن وجه حياته ، معروفا وموصوفاً بقبح الكلام وسوء الأخلاق وقلة الحياء وعدم العدالة ، وهو من زمرة الشداد الغلاظ الذين قيل فى حقهم : كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ ، فدعاه وقال له : اذهب وأبلغ الأسد رسالة منى ، وقل له : أنت فى ميدان معركة الرجال الذين يعطون سقاة الأجل شراب الأجل فى كأس رأس الأبطال ، والذين يشوون كباباً من كبد الأسود على نار السيف ، فهل لديك خبر عن صدمة قدم الفيل ؟

ما هَاج نشوى أنى مستطيبُ صَبا بل ناشقُ لنسيم العزِّ مرتاحُ

أخاطرُ الهولَ مأنوساً بغمرتِه كما تمازج صَفوُ الماء والراحُ
هل شاربُ الخمرِ إلا كلُّ ذى خبلٍ خَمرى دمُ القِرنِ والهَامات أقْدَاحُ

فمهما كانت خمر الحماقة لا إفاقة منها ، كن ذكيا وانزع غشاة الغباوة والأنانية والشقاء والعادة السيئة من أمام عين البصيرة ، واظفر بتدارك الأمر الذى لم يقع قبل فوات الأوان ، ولا تلق بالجيش الذى هو بيادق رقعه مطارتنا تحت أقدام الفيل واجعل قوله تعالى « لايحطمنكم سليمان وجنوده »[1] نصب خاطرك ، وأعلم أن الذين هم على أمثال صورتنا لا يتغيرون عن نقش بيت الفطرة ، ولم تخلق جثة أى حيوان فى قالب مثل قالب خلقتنا ، لكننا نستطيع الجمع بين أسباب الرغبة والرهبة ، والتأليف بين أوانس الألفة مع شوارد الوحشة فى سلك تأليف واحد أيضاً ، وجعل الجميع له نصيب من فيض الرحمة وصب العذاب ، ونستطيع أن نجعل الجماعة التى قد تشرد من مهابة منظرنا مستريحة بلطافة المخبر ، والجمع الذى قد تمزقهم صلابتنا ، نجمعه بلين المقالة ورفق الاستمالة ، ونجعل أبواب الخوف والطمع مفتوحة على الموافق والمنافق ، ونبعث أسباب الخوف والرجاء للمعادى والموالى . وأساس أسرتكم وإن كان قديماً فإنه لا يثبت مع عواصف حملتنا ، وظهر تلك الدولة وإن كان قوياً وقويماً فإنه لا يطيق ضررنا .

(١) النمل / ١٨ .

إذا الهامُ حَاربْنَ البزاة تَقَطَّعَتْ لها شَرَجُ الأستاه من شدِّ الحَمل

وعرضــه تلك الممالك وإن كل لا يـطويها ذراع وباعـها الأوهام ، فإنها تبدو ضيقة المجال فى يوم عرض اتباعنا ، ودعوى استظهاركم وإن كانت من جميع الخلق الصامت منهم والناطق ، فإنهم يجب أن يكونوا صموتاً كالحوت وقت جوابنا .

كان الصمت على رأس الفرائض ، لأن الثعابين كانت تصدر فحيحها حوله

فلو لم ترد أن تضـيع العمر فى إنـقاذ الكتب وإظهار الـكتائب ، وتريد أن تكون عبداً مكاتباً لنا ، حـتى بعد أن نرسم ختم تحريرنا على رقبـتك ، فضع ربقة الطاعة فى عنـقك بسرعة ، حتى تسـجل الممالك الموروثة باكتساب خدماتنا ، وتكون محمياً فى ضمان أماننا من حوادث الأيام ، ومنتمـياً إلى حسن عـاطفتنا ، وتسند الظهر إلى جـدار الدعة والراحة . وإلا فإننا سوف نسيـر بهذا الجيش الجرار إلى تلك الحدود ، فنخرج الغبار من أساس ذلك الملك بزلزلة حوافز هذه الأجسام القوية ، ونهدم بيوت ذلك الملك بصوت معـول السواعد حتى يصل نوح غراب البين إلى أذن نسرين السماء فى مساحة وداع ذلك الملك .

هكذا وطأت بقـدم عداوتك ، حـتى تزلزل الفلك الدوار من مكانه

أحـرب كل حـدود ولايتك ، وأمـحـو أثـر بيت النمـور والأسـود

فوصل المبـعوث إلى ملك الأسود ، وأبلغ رسـالة الفيل فى ثوب

التهديد والوعيد كما كان قـد سمعها ، وأثار أراقم الشر وضراغم الفتنة فى أحشائـه ، فحرك مكمن سكون الأسد ، فـاستشاط بشـدة وأحضر الثعـلب ، وقال له من باب المشـاورة : أيها الطبـيب صاحب التـجربة والحنكة التى علمت بها علة الأمور وعالجت كلاً منها على النهج القويـم ، وسرت فى مداواة المعضلات وحل عـقود المشكلات على قانون « عمل من طبٍّ لمن حبّ » [1] مع جميع إخـوان الصفا وأحبـاء الوفا ، كيف يكون جـواب الفيل ؟ ومـا أفـضل طريق يمكن الأخـذ به فى الموافقـة والمرافقة والمهادنة والمداهنة ؟!

فقال الثعلب : اعلم أن كلام ملك الفيلة الذى يسوقه على هذا النحو ، دليل واضح على ظلام الرأى والـرؤية وسوء البصر والبـصيـرة . لأنه لم يحدث أنّ عـاقلاً جعل مسنـد الاعتماد على حـوله وقوته ، ولقد قـالوا : ثلاثة أشيـاء لا يجب احتـقارها وإن كـانت حقـيرة . المرض والدَّينُ والعدو ، فـالمرض وإن بدا سهلاً فى بدايته فـإنه يصير مزمناً إذا أهمل ، والدَّين وإن كان قليـلاً فإن الإمكان يقصر عن أدائه إذا ما تراكم ، والعدو وإن كان صغيراً فإنه يتجاوز الحدود ولا يتصور مقاومته إذا ما استصغر واستحقر . فلا تغتم لأن الغيرة الإلهية سوف تهجـم بكل تأكيـد ، على فكرة بغى الفيل ، وتجـعل قضـية قـصده معكوسة وراية مراده منكسة ،

(١) أورده الميدانى على صيغة أخـرى وهى « صنعة من طب لمن حب » أى اصنع هذا الأمر لى صنعة من طبّ لمن حبٍّ ، أي صنعة حاذق لإنسان يحبه ، يضرب فى التوق فى الحاجة واحتمال التعب فيها
الميدانى فى مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٢٢٠

والبغيُ آخرُ مدة القومِ

واعلم أن ضخامة الهيكل وفخامة الجثة عندما تزيد عن الحد تعجز وتتعب وقت الهروب والصعود .

أما الكلام عن كثرة الجيش وأعداد الحشر التى يبدى استنصاره بها وتوكله عليها ، فإن كل هذه الأعداد لن تبدو فى عداد الأعداد شيئاً إذا وصل مدد عون الله إلينا .

ومالك تُغْنَى بالأسنَّة والقَنا ∴ وَجدُّكَ طَعَّانٌ بغير سنان [(١)]

فلا يجب أن تفكر فى كثرة عددهم لأن الشجعان المجربين قد قالوا : فكر فى ترابط الأعداء ولا تفكر في كثرتهم ، فكن ثابت القدم ، قوى القلب ، واجعل نيتك وطويتك مطوية على العدل والرحمة ، وكن صاحب وجه واحد فى فرط المجاملة وحسن المعاملة مع خلق الله جميعاً ، واجعل قوانين الشرع ورسوم طاعة الحق زينة أعمالك ، حتى يرى سمو ولايتك للنصر والتأييد فى سرايا عالم الغيب ،وتتواصل أفواج الفتح والظفر لجيشك ، وتتنزل فى شأنك « وأنزل جنوداً لم تروها » [(٢)] . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ينبغى التوجه للأمر بالعزم الثاقب والرأى الصائب ، والتفكير فى دفعه بلطف التدبير ،

(١) البيت لأبى الطيب المتنبى . من قصيدة له يذكر فيها خروج شبيب العقيلى على الأستاذ كافور وقتله بدمشق سنة ثمان وأربعين وثلثمائة ، وقبله :

فما لك تختار القسى وإنما ∴ عن السعد يرمى دونك الثقلان

المتنبى ، الديوان مج ٢ ص ٤٧٨ .

(٢) سورة التوبة / ٢٦ .

فكثيـر من الحقـراء قد اجـتهدوا فى أمـور خطيرة مع خـصوم كـبيـرة فانتـصروا ونجحـوا ، مثلما حـدث لذلك الفأر سـارق البيض مع ذلك الفقير سيىء الخلق قال أسد : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفأر سارق البيض مع الفقير

قال الثعلب سمعت أن فقيـراً معسرًا ، يغلب على خلقه الجحود والفظاظة . كـان له زوجة قـد تزينت بالعفـة والرزانة نهج الديانة ، وكان لهما زوج من الدجاج الذى يبيض فى المنزل ، وكان هنالك فأر قد اتخذ له مسكناً فى زاوية المنزل . وكان لصاً نقاباً نهاباً أفاكاً جريئاً ، قد مزق كثـيراً من شباك الحيل ، وسـرق نواة تذكر المتربصين طويلى الأمل . وكثيراً ما بعثره سـفرة الرغيفين ، وأكل رزق اللؤماء ، فكلما كانت الدجـاجتان تضـعان بيضة كـان يسرقهـا ويحملها إلى الجـحر بالطريقـة التى اعتاد عليـها ، فظن الرجل أن المرأة ربما تـخون بذلك التصرف ، فأطلق اليد بالعصا واللسان بالكلمات الفاحشة الوحشية ، ولم يفد معه ما كانت تبديه المرأة من براءة ساحتها .

حـتى شاهدت الـفأر ذات يوم وهو يجـر البـيـضة ، فـذهبت وأخبرت الزوج عن هذه الحال وعندما شاهدا الفأر كان قد وصل إلى الجحر وجرّ البيضة بسرعة ، فندم الزوج كثيراً على ظلمه لزوجته بعد مشـاهدة تلك الحالة ، ثم وضع - فى نفس السـاعة - شـراكاً على

طريق الفأر ، وتصادف أن نزل فأر آخر ،على هذا الفأر ضيفاً فتناولا البيضة معاً ، وتدبرا أثناء الليل كيف يحصلان على بيضة أخرى ؟

ومع الفجر عندما كشف بياض الصبح عن نصف بيضة فى الأفق ، ونشر الشعاع الذهبى على أطراف العالم ، لحن الفأران لحن الدجاج طمعاً في البيضة - والشخص السيئ الحظ هو ذلك الشخص الذي لم يضع طائر تفكيره بيضة حتى لو كانت ذهبية أو فضية ، ولم ينقش بياض تلك البيضة وصفارها نقشاً على بياض العين وسواد القلب . وعندما يظهر وجهه من خلف ستر الخداع ، يضع كم الاستنكاف على وجهه ويا بيضاء ابيضى ويا صفراء اصفرى ويا غبراء اغبرى .

والخلاصة أن الفأر الضيف بادر فى حرص شديد وقدم رجله ومد يده إلى البيضة حتى يحملها فوقعت الشراك على رأسه ، فأخذه الرجل الفقير ، وضربه على الأرض حتى أهلكه .

إذا لم يَكُن عَونٌ مِنَ اللهِ للفتى فأكثرُ مايَجْنى عليه اجْتهَاده

وصار الفأر السارق البيضة محطم الفؤاد ومضطرب الخاطر من أثر هذه الواقعة ، وحملته المحافظة على حق صحبة الضيف على معاقبة الفقير على شره ، وفكر فى نفسه : لو أردت أن أنتقم مستقلاً بنفسى ، ووضعت قدمى على مزلة هذا الاقتحام فإننى لا أستطيع وأصير ملوماً معاتباً لدى العقلاء ، لكننى لى صداقة قديمة بالعقرب الفلانى ، ولن

يتأتى جبر هذا الكسر الذى حدث لقلبى ، والقصاص لهذا الجرح الذى استقر بخاطرى إلا بمساعدة قدرته . وأستطيع أن أرمى بهذه الفكرة من قوس كفاية ذلك العقرب ولن تتأتى موازنة هذا النظر السليم إلا بميزان إمعانه ، وأشاهد تعبئة ترياق هذا الألم فى سمه . ولن تحلو مرارة هذه الغصة إلا فى شربة لعابه التى تأتى من لدغته ، وسوف يوجد عجين هذا العمل إذا وجدت خميرة سعيه ، وسوف تأتى مداواة هذه العلة نافعة وناجعة بمعجون العقرب ، وإلا .

فأسلمنى للنائباتِ بُعادُه كما أسلمَ العظمَ المهيضَ جبائرُه

ثم عزف لحن رؤية العقرب ، وعندما وصل إليه تقدم إليه بأنواع الخدمة والاتضاع وإظهار الاشتياق والشوق ، وحكى له حكاية الضيف الذى هلك على يد الفقير ، وشرح له : كيف حصل له التأثر والتحسر بوفاة ضيفه وفقدان أو موت فوات السعادة التى كانت بينهما ؟ ثم قال : أيها الأخ . إننى عندما أنظر إلى جميع الأصدقاء المجربين - من أجل الأصدقاء المحتاجين - أراك أنت الشخص الذي يملك يد المعاونة والمساعدة ويمكن توقع الموافقة على تدارك هذه الوقائع من مخايل حسن شمايله ، فأنت والحمد لله مستعد لإقامة رسوم المكارم . وملأت جعبة حميتك بسهام جفاء وكراهية الأعداء ، فلو تعيد قاعدة رعاية الأصدقاء وتمزيق الأعداء التى هى عادتك ، وتضع قدم الجرأة بفكرة القصاص وتأخذ حق المرحوم المظلوم ، تجعل

شفاء هذه المصيبة موجوداً بأشافى [1] فضلاتك ، وتبحث بحد نابك عن نسيان لفـراق هذا الفقيد ، فربما شيـدت أصل وأساس الحسنات الذين يصنعون منه تاريخ الأيام .

قال العقرب : مهما كـان كل جسمك فى الغضب مثل المريخ فقد أتيت إلى بيـتك ، فاهدأ لأنه لو مـرآة عزيزك قـد صدأت بآه الحـزن ، واحترقت زاوية الكبد بحرقة نار الفرقة .

عندما يتصل الأمر بالسمعة والاعتـبار فإننى أستقر على النار مثل الكباب وعلى السيف مثل الصـدأ أتمنى أن أصنع حيلة لأطلب بها دم ذلك المسكين ، وأظهـر آثار شـرفه على جـمـوع الأصدقـاء ورفقـة الأحباب بإدراك ثأره ، وأقدم مـا يجب أن يقدم للأخوة والأقارب في هذا الباب ، حـتى يظهر هنـا مصداق ذلك المثل الـذى قالوه وهو : الأقارب كالعقارب [2] . ثم اقترن الـفأر والعقرب كلاهمـا - باتفاق مثل زحل والمريخ - فى بيت خبث واحد ، وجلس العقرب في زاوية تجاويف جحر الفأر والتى لم تكن محل نظر الناس مطلقاً .

ووضعا ثلاثة دنانير من الذهب مع الفـضة لإهلاك الفقير ، وأى

(١) الإشفى بالكسر ، المثعب والسراد التى تخرز به النعال .

(٢) هذا المثل له معنيـان : الأول - وهو الظاهر - يعنى أن الأقارب مثل حـيوانات العقـارب وبهذا المعنى يكون لا مناسبة له مثلما قـال العلامة القزوينى ، وللمعنى الثانى لعقارب ومفرده (عـقربة) بمعنى خادمة عاقلة وبهذا فإن المثل يعنى الأقارب كالخدم ولعل هذا المعنى هو المقصود فى هذا السياق .

انظر : القزوينى : حواشي القزوينى على مرزبان نامه ص ٢٠٧ .

روشن : حواشيه على مرزبان نامه جـ ٢ ص ٧٢٦

رأس لا تليق فى قلنسـوة من الفـضـة ؟ وأي عنق يتـأبى على طوق الذهب ؟ الذهب الذى يفـتح إزار العـصـمـة من جـيب روح الناس والفضة التي تضع سمت الجهالة على ناصية عقل الإنسان ، والحرص على هذه الحفنة من التراب الملون الذى يستطيع أن يعمى عين العلم ، والحرص على هاتين القطعتين من الحجر الملون يستطيع أن يكسر كأس العالم مثل الإبريق الصغير .

ولكن أذنك مملوءة بالفضة مثل الزئبق ، فأنى لك أن تسمع مثل هذا الحديث ؟

فخـيال الذهـب أعمى عين عـبرتك ، فكيف تسـتطيع أن ترى جمال هذه الحقيقة ؟

والخلاصة أن الفأر ألقى عـدداً من الدنانير ، ثم وضع ديناراً آخر بالقرب من الجحر ثم جعل واحداً آخر على حافة الجحر بحيث جعل نصـفه فى الخـارج والنصف الآخر فـى الداخل وعندما وقـعت عين الفقـير على الذهب الخـالص ، ووجد هذا الفتـوح فجـأة ، فدهش والتقط تلك الدناينر بيد الـنهمة والنشوة ، وعندما وجد ذهبـاً خالصاً آخر ، أتى كلاهمـا فى محاذاة عين قلبه ، حتى جعل حـجاباً أسوداً على عينه منع مشـاهدة مكر الفأر وقصد العـقرب ، فأطال يد الطمع وأدخلها فى الجحر فى تلك الظلمة ، فلدغـها العقرب بنابه المسمم ، وأنزل الدم الذى كان قد هيجه بيده فى قلب الفأر من وريد روحه .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن هذا الفأر مع صغره ومهانته

يأتى من مشـرع مثل هذا الأمر العظيم إلـى بابه . والأولى أننا بهذه المكنة والمكانة عندما نمسك حبـال التوفيق ، ونستعصم بعـروة التأييد السمـاوية حينئـذ نستطيع أن نرد على هذا الخـصم ، بل ونرسله إلى مكان مجهول بالجهد والاجتهاد .

أما الآن : فمقام الرسـالة الأخرى التى سوف نرسلها له ، لعلنا نذيقـه من ذلـك الذواق الشـربة المرة التي أذقنـا إياها . لأن مـرهم اللطف لا يفيـد الآن وإنما الذى يفيد هـو وسم العنف . وآخر الدواء الكى ، ثم احضـر الذئب إلى حضـرة الأسد ، وأمـره بإصدار هذه الرسالة إلى ملك الأفيال وافتتحها بهذا التخويف المختلط بالنصيحة : أيها الأخ ، بصرك الله بعيوب النفس ونصرك على جنودها .

- لا تفعل ذلك الذى لا يفعل أحد قط ،

فهاديك فى طريقك هذا شيطان فقط

- وأبعـد عن القلب الحـقد والغـضب برجـولة ، ولا تنظر إلى الدنيا بعين الشباب .

-فأين رأيت مخالب الأسود ، وأنت لم تسمع صوت الثعالب

هذا المعنى واضح ، لأن عـلم الشطرنج الذى وضـعـه العلمـاء والفنانون الهنود هو منشأ ومنبت وجودكم ومـوجب اشتهار الشطرنج الذى أذاعـوا ذكره فى كل مكان من أقـطار العالم الرحـيب ، هو أن واضع هذا العمل كـان عالماً خبيـراً بأسرار الجبر والقدر ، عـالماً بأمر تقدير الخالق وتدبير أمـر المخلوقين . ووضع ذلك ومظهراً فى وضعه أن صاحب ذلك العمل لابد أن يكون ماهر اليد ، ذكى القلب ، لأنه

لو يعزل رخ [1] وفرس الخصم ، ولو أنه يأتى بيد السوء والجهل - أثناء اللعب مع ذلك الحريف - باللعبة التى تغل يد الخصم وتوقعه فى المضيق الذي لا يملك معها حيلة سوى« العجز والانسحاب .

على أننى راضٍ بزن أحملَ الهوى وأخلصُ منه لا علىَّ ولا لَيا

وهكذا فإن الرجل مهما كان ذا رأي متين ورؤية ثاقبة وبصر كامل ومهارة فى فنون العلم ، فإنه عندما يخوض أمراً مباشرة ، لا يسلم من ذلك الذى يأتى على خلاف تفكيره بشكل آخر من خلف ستر الأيام ثم يدخله في المشكلة التي يرضى بالسلامة منها فقط فضلاً عن الغنيمة .

والدهرُ يعكسُ أمالى ويُقنعنى من الغنيمةِ بعد الكدِّ بالقُفل

ثم إنك تلعب فى شطرنج هذا الهوس ، فلا ترفع النظر عن لعبة الخصم ، لئلا يعقد فرزين [2] عقدة الاحتيال التى لاتستطيع حلها بألف فيل . ولما لم يكن أي فيل من أجدادك قد خطا خطوة طمع فى مملكتنا ، فلا تجعلهم فى نهاية الأمر يضربون بك المثل فى شماته الاستهزاء « زاد فى الشطرنج بغله » ، تعبيراً عن بحثك عن الزيادة ، وأعلم فى النهاية أن الملك أقر رأياً خاطئاً في منزل الموت ، ومزق رقعة الحياة .

وتندم حين لا تغنى الندامة

وأعلم أن صنعة الاستدلال التى كنت قد استعملتها فى أثناء الرسائل وإنك أجزت لنفسك إهانتها ولم يكن ذلك علامة على كرم الطبيعة وحسن الخليقة.

(١) الرخ قطعة من قطع الشطرنج « فرهنك بزركك فارسى ».
(٢) فرزين هو وزير الشطرنج « فرهنك بزركك فارسى » .

وأهل الدنيا يعلمون أننا لم نضع طوق خدمة أي شخص فى عنقنا على الإطلاق ، ولم نتمنطق بمنطقة أى مخلوق أبداً ، ولم يضعوا خطام الأذى ولازمامه على خرطومنا أو خيشومنا ، ولم يوصلوا ضيق الحلقة أو عقدة الخرام إلى حنايا حيزومنا ، ولم يكن ظهرنا سلم هواء في ملاعب الصبيان ، ولم يجدوا ساقنا أو ساعدنا مخلخلاً ومسوراً كعادة النسوان ، إنما نحن نأكل وجبة طعامنا وشرابنا فى مذبح فريستنا وليس من فضله مطابخ وهريسة الآخرين ، ونحن نأسر فحول الأبطال دائما وليس أطفال شجرة الجوز ، ولعل الوقت الذى يركض السخط الإلهى من سهام عزيمتنا الطائرة على رأس القوم ويجعل سره قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل »[1] واضحاً فى شأن طائفة ، ونقتلهم قهراً بمنجنيق قوله تعالى « ترميهم بحجارة من سجيل » .

وإلا فكيف يحكم حاكم العقل وكيف يأتى التأويل الصحيح فى شريعة الإنصاف فى الاقتداء بأصحاب البغى والضلال وقصد البيت الذى هو أتعبه الكرم وقبلة الهمم وحرم أمن الأمم ، ورفع ستر المجاملة ، والتوجه بالمجاهدة لهدمه وتحطيمه ؟

(١) الفيل : الآيتان ١ ، ٢ .

جواب رسالة الأسد ، وتجريد الفيلة للجيش ، والانسحاب من الحرب

عندمـا اطلع ملك الأفـيال على مـضمـون الرسـالة ووقف على مكنون ضمير الخصم ، امتلات أعضاءه السبعة من عدواته وكراهيته ، وتحـركت المادة السوداء التى كـانت قـد تمكنت فى دماغـه ، وأراد أن يريق دم الرسول ويغلى الصفراء التى كانت تجرى فى عروق عصبيته ، ثم جذب عنان تمرد الطـبيعة ثم مـسح بنص قوله تعـالى : (ما على الرسول إلا البلاغ)[1] على كعبـتو عرامة الطبع ، وعفـا عنه وكتب على ظهر الرسالة

ورب جواب عَنْ كتاب بعثتُه   وعنـوانُه لـلنـاظرين قَـتـام
تَضِيقُ به البيدَاءُ من قبلِ نَشْره   ومـا فُضَّ بالبيـداء عنه ختـام[1]

عاد الرسول ، وفي أثره الجيش الذى لو جـاءت كثرة عدده مداداً لقلم ، فـإن بياض النهـار وسواد الليل لا يفـيان لنسـخه ، وكـسروا جميعاً إبريق رقة القلوب على الحجر ، وغرقوا فى حديد الصلابة من مفرق الرأس حتى إخمص القدم ، وانطـلقوا فى درع الصبر ، ولبسوا مجن السلامة على ظهورهم ، وأوصـلوا صوارم العزيمة ونبال الصريمة

(١) المائدة الآية١ ٩٩ .
(٢) البيتان للمتنبى من قصيدة مطلعها :
أراع كذا كل الملوك همام   وسحّ له رسل الملوك غمام
المتنبى : الديوان جـ ٢ ص ٢٧٩ .

إلى النفوذ وأشربوا سنان الأسنان ماء وربطوا عنان اتقان العزم وعقدوا نقاب التعامى على عين نظر العاقبة ، وصبوا زئبق التصامم فى أذن النصيحة ، ونهض جيش على مثل هذا النسق بكمال الأهبة والرسوم والأبهة ، فى لباس الشوكة وسلاح الصولة ، ونهض كلاهما من المكان كالطودين الهائجين والبحرين المائجين ، وانطلق كلاهما صوب الآخر « أجرى من السيل تحت الليل » ، فوقع اصطكاك صخرتين فى وقت ملاقاتهم فى بسيط هذه الساحة المسدسة فى محيط قبة الأطلس ، ووصل إلى مسامع الزمان أصوات سيوف غضبهم بسبب وقع مقارعة كلا الفريقين قال الثعلب:اعلم أيها الملك أن الأمر هو أنه ربما تقدم البعض بالشجاعة والرجولة ، والبعض بالعلم والحصافة ، والبعض بعظمة الوقع والهيبة ، وحمداً لله تعالى فأسباب السعادة كلها متكاملة لك ، وإمداد هذه الدولة متواصل ، وقد حان الوقت الذى لا يعطى الرجال فيه أمر نيابة مفرق الرأس إلى القدم ولا يلقون مهمة جواب الخصم من سنان السيف إلى لسان القلم ، ولا يلقون رمح الحرب إلي الآخرين حتى ولو كان (هذا الرمح) ثعباناً قابضاً للروح ؛ ولو كان لعابه شربة الموت فإنه أول شراب يوصلونه إلي مذاقهم .

عبالة عُنقِ الليثِ من أجل أنَّه إذا ما دهاه خطبٌ قامَ بنفسه

معركة الفيل مع الأسد وانتصار الأسد

ثم أمر الأسد أن يحفروا جداول متشابكة مع بعضها أسفل الجبل

الذي كان الأسود يحتمون به ، فحـفروا عدة أميال فى الصحراء ، ثم أجروا فـيهـا المياه ، حـتى شرب الميـاه وصار مـثل الطين المبلل ، ثم اختفوا جـميعاً متحدين خلف سـد منيع ، وصاروا بذلك الحصن مثل محصن بالعـفة فى ستر العافيـة من رجم الحوادث . ثم وضع الأسد قدمه فـى الركاب ، وأخذ عنان اتقان الرأي فى يده وسـأل الله تعالى قوته وحوله ولم يعجبه الحصن وكثرة الملأ حوله .

وكان الجميع يراقـبون أحوال بعضهم البعض ، ويـترقبون أحكام القضاء والقدر حتى يروا ماذا يخـرج عليهم ستر الغيب ، وأي طائفة سوف يوضع سكة قـبولها فى دار سـكة القسمـة ، ومن الذين سوف توقع قرعة الإرادة عليـهم نصيب النصرة أو الخذلان ، ثم اسـتقر رأي الشجعان الأبطال والمبـارزين المقاتلين على رأي وهو أن جعلوا أوساط الحشم وآحاد جـمع الجيش أمثال ابن آوى والثعـلب والذئب وأمثالهم فى المقدمة ، واشتبكوا في مناورة ومراوغة ، وكانوا يركضون من كل جانب ، حتى تعب الأفـيال من فرط الحركة والجـرى في كل جهة ، ووهت حبوة [1] قوتهم ونشاطهم ، وانتهت صولة الأشواط ثم تقهقر جيش الأسـد لاستدراج الفـيلة ، وأظهروا أنفسـهم للخصم ضعـفاء الشكل كالمتـفادى للهزيمة ، وانسحـبوا فى صورة المتخـاذل عن ساحة التـقابل ، وتوجـهـوا نحو الـهروب . على حين أن ملك الـفيلة قـد

(١) الحبـوة : الثوب الذى يضم فيـه الإنسـان رجليه مع بطنه ، والاحـتباء بالثـوب الاشتمـال . (اسا س البلاغة) .

استظهر - مثل فرعون - بقوته وعـون ساعد الحظ ، واختار من قومه جمعا من الفيلة التى بنيت جثـة كل واحد منهم على سبعة أركان من الأعضاء ، وجسم كل واحد على دعائم قوائمه الأربعة ثابت وساكن ، ومن ثم لا يمكن تحريـكهم إلا بكسرى الذى ينهض بالتـأييد الإلهى ، وجعل هذه المجمـوعة فى المقدمة ، ظن أن هذه المقدمة الكبـرى تسير نحو نتائج الفتح والنصر ، وأوكل دفع الصدمة الأولى لصبر القلب ، ثم أقاموا الميمنة والميسرة بالتساوى ولم يعرف أن اليمن واليسر قد قطع عن أعـقابهـم ، والتحق بنواصـى الخصم وأعـقـابه . ثم زين القلب والجناح فكان غافلاً عن أن ذلك القلب لا ينفع يوم سوق الفتح ، وأن ذلك الجناح سـوف يصيـر بخفض المذلة بلا ردع تحت أقـدام مقـدمة جيش الأسد ، ثـم اصطفوا صفاً صفـاً واستووا قلباً قلبـاً جاهلين أنه بنهاية ليل الإشـتباك يحل سحر العـاقبة ، وأن كوكب السـعادة سوف يطلع من قلب الأسد ، وتـقدم فى النهاية بناء على ذلك الخـيال وهو أن جيش الخصم قد انفرط عـقده فى بداية الهزيمة ، وتمزق سلك نظامه ، فحـمل بجملة الحـشم فتـساقط الجمـيع بريح تلك الحمـلة مثل ورق الخـريف الذى يتـسـاقط عن الفـروع ، وتسـاقطوا فى تلك الجـداول المحفورة فوق بعضهم ، وقد وضـعوا التراب في كأس التمنى ووقعوا فى تلك القبور رأساً على عقب ، حتى تعالت الصيحات منهم : الدم الهدم الهدم ، وكان المشاهدون يطالعون مصارع هؤلاء القوم وتهافتهم ومحصول « فذلك فضـول » وكانوا يقولون : إن هذه هى حفر البغى

والطغيان التى حفرت بمعاول اكتسابكم « من حفر بئراً لأخيه وقع فيه » .

قالوا إذا جَملٌ حانَت مَنِيَّته أطاف بالبئرِ حتَّى يَهلك الجملُ

ثم تجمع جيش الأسد من كل النواحى يعـمقون الجروح النازفة ؛ حتى جعلوا لـباس الوجود على الفيلة ممزقاً ومـخرقاً ، فجـعلوا أكبر قطعة فى الفـيل هى الأذن ، وتورطوا حتى رقابهم وتبـدلت أحوالهم بسبب طباع متبـعى البقر الحمقاء ، ثم أنبتت حديقـة المعركة - بسبب مطرسهم الحوادث - العديد من زهور الأحداق التي كانت تُجرى على لسان المغنين وجواسيس الربيع النيروزى لحن الظفر والنصر ومضى كل هذا .

صار تاجه عين البقرة وأذن الفيل ،

وصارت الحديقة مثل محل بائع الجواهر

وعندما مـسحوا الجمـيع بقدم القهـر ، ووطئوا بأقدامـهم الجيش الذى ترك الفلك والسمك طـبيعة التـحرك والسكون بسبب ركـضات جنوده ونهضاتهم ، وأضعـفوهم ضعفاً لا تستطيع الأيام جـبر كسوره بيد جبارى السعادة والتوفيق وأكـاسرة الأيام ، وجعلوهم جميعاً علف سيف الأظفار والأنياب وطعمة حواصل النسـر والعقاب ولقمة مشافر الكلاب والذئاب . فـسعد الملك فـى البلاط ورأى أن مشـارع المملكة نظيـفة من شـوائب نزاع المنازعين ، وقـد خرج ذيـل التوفـيق من يد تشبث الطامعين ونشـر تراب الخزى ،والخسار وشوك الخيـبة والدمار - الذي دائماً مـا يكون من نصيب المهزومين - فى عين أملهم . فـسجد شكراً للتأيـد الربانى والتوفيق السـماوي على أرض الخـضوع ، وربط

أكناف عرصة المملكة بنسر راية العدل وطوى بساط الظلم والرسوم المختلفة الأخرى ، وزين أطراف عروس الدولة بزينة الرحمة والرأفة والإحسان إلى الرعايا والتابعين .

تبلجت الأيامُ من غرةِ الدهر وحلّت بأهلِ البَغيِ قاصمةُ الظَّهْرِ

فيالك من فتح غدا زينة العلى وواسطة الدنيا وفائدة العمر

إذا ذُكِرتْ فَاحَ النَّدى بِذِكْرِها كما فَاحَ أذكى الندِ من وهجِ الجمرِ

ثم اتضح من هناك للعالمين أن متابعة النفس والخروج بكل ما يرضاه الطبع ، وأن الشراب سيئ المذاق المخلوط بسم الفشل وسوء العاقبة يؤدى إلى الهلاك - قطعا ولابد- بوضعه على اليد .

إذا ما ذهبت وراء الشهوة والهوى ، فخذ الخبر منى بأنك مهزوم

انظر من أنت ؟ ومن أين جئت ؟ وأدرك ماذا تفعل ؟ وأين ستذهب ؟

تم باب الفيل والأسد ، وبعد ذلك نذكر باب الجمل والأسد الزاهد ونظهر فيه حقيقة ثمرة السعاية والوشاية وماذا تكون عاقبة الكبر والغدر ولاسيما فى طريق البداية ؟ وما هو نصيب حسنى الأخلاق والعارفين بحق لنعمة الله من الأيام ؟

ولربما عدل الزمان الجائر

ليرح الله تعالى شجرة توفيق السيد ملك العالم من شوك الخديعة والوقيعة ، وليحرر سرو أماله من ورق نزول انقلاب الأحوال بمحمد وآله الآخيار

الباب الثامن

فى أمر الجمل والأسد الزاهد

فـي أمر
الجمل والأسد الزاهد

قال الأمير سمعت أن أسداً زاهداً ، مقتاتاً بالحلال ، مالكاً لنفسه وهواه ، متورعاً ، متدرعاً بلباس التعزز والتقوى ، له باطن مستجمع لخصائص الحلم ومجانبة الأذى وظاهر متوشح لجلال الملك ، قد جمع بين نار الهيبة وماء الرحـمة فى مكان واحد ومزج بين زعاف العنف وترياق اللطف له مخبر محبـوب ، ومنظر مرغوب ، وصورة مقبولة وهى بمحمود الشمـائل مشمولة . كان يقطن فى أجمة يختـلط فيها الذئب مع الشاة كامتزاج السكر مع القصب ، ويشرب الظبى والفهد من عين واحدة مثل الشوك والورد ، وتأمن خرقة القصب فى رحمتى قصبائه(١) من أن يبلها ضوء القمر ، وتسلم أذيال السحاب من سلطان تعرض الشمس دون تعب أو عناء ، قد استقـام سوق وجود حقيقة سياسته ، واشتغل الذئب ببيع الخز كما اشتغلت الدودة بعمل القز ، وانشغلت الظباء بالعطارة كإنشغال الكلب بالعظم .

وَلِـى البريةَ عَدْلُه فتمازجَت أضادُهـا مـن كثـرة الإينـــاسِ

تَحنُو على ابنِ الماءأمُّ الصَّقْرِ بَلْ يَحْمى أخو القصباء أختَ كنـاس(٢)

وفى جواره غابة لا يصل خيال الإنسـان إلى أوصافها فالأرض مزدانة بأنواع الفواكه وألوان الرياحين مثل الحرير المشجر ، والهواء مثل الحلة الجميلة المطيرة(٣) قد تحققـت راحة القلوب بألوانها وعطرها ،

(١) القصباء : جماعة القصب ومنبتها ، يقال أرض مقصبة : كثيرة القصباء وهى القصب النابت (أساس البلاغة ج ٢) .

(٢) ابن الماء البط أو كل طائر مائى ، وأخو القصباء الأسد والكناس بيت الظبى ، عبد الوهاب القزوينى ، مرزبان نامه ص ٢١٧ الحاشية .

(٣) أى مثل الحلة المصنوعة من القماش المرسوم عليه طيور .

وهكذا كان هذا المكان موضع تنزهه ، فكان يضرب خيـمة إقامته فيه أغلب الأوقات .

وذات يوم كان جالساً كعادته ، فجاء إليه دب من تلك النواحى وأدى رسم الخدمة بين يديه ووقف فسأله الأسد : من أين أتيت ؟ وإلى أين تذهب ؟ وما هدفك ، وما هى وجهتك ؟ فقال الدب :

أبى المُقَامَ بدار الذُّل لى كَرَمٌ   وهمــة تصل التخـويـد والخببا
وعزمةٌ لا تزالُ الدهر ضاربةً   دونَ الأميرِ وفوق المشتَرى طُنُباً (١)

أطال الله بقـاء مـولاى ، أنا - العبد - آت من الناحـية الفلانية ، وقد سمـعت بأيام سلطتك وصيت مكارمك ومعاليك فـامتطيت مطية الشوق وقد أفلت من يدى زمام الصبـر فأسرعت إلى هنا ، والتجأت إلى أعتاب دولتك خشية مكاره الأيام .

من أنا لولا عشقى لك ؟

فإذا مد الملك ظل عطفه على حالى ، ومنحنى طرفاً من أذيال إقباله فى يدى ، لزمت هذه الأعتاب كالظل ، فـعلى بشعاع شمس نظره أبدو كالذرة فى خدمته مثل سائر الغلمان وأجـعل بقية عمرى ذخيرة بمحمود الخدمات إن نالت قبولاً .

إنى متشبث بأذيالك ما دمت حياً ، حتى يسقينى ساقى العمر كأس الأجل

---

(١) البيتان لبديع الزمان الهـمذانى يمدح بها أبا على بن سيمجور والقصيدة بتـمامها مذكورة فى تاريخ اليمينى القزوينى ، مرزبان نامه ط القزوينى حاشية ص ٢١٨

والتخويد سرعة السير يقال : تخـود الغصن : تميَّل ، وخودت الإبل فى السير : اهتزت من النشاط ، وسيرها تخويد أساس البلاغة .

والخبب : ضرب من العدو والسرعة ، القاموس المحيط .

فابتهج الملك بهـــذا الكلام وتهــلل وجـهـه وأبـدى السرور والفرح من أسارير جبينه وقال مثنياً راضياً

رأيت ذبابة جالسة على عطف الأسد ، فقلت : يا لها من جريئة وقحة

فقـالت : أيها الملك الأصيل : أى أذى يـلحق بالأسد ؟ أن يكون طعامنا من على عطفه .

وكما يقال :

وللنملِ من سؤرِ الأسود نَصيبُ

كن فارغ البال وأبعد عن خاطرك الغـربة والوحشة فإنى سوف أهيئ لك أسباب العيش والرفاهـية وأفتح لك فى هذه الحضرة أبواب التمتع بالحياة والترقى فـى مدارج الآمال والأمانى . وأكثر على هذا النمط من ملاطفته وارتقاب مواعيد ألطافه ثم أطلع الدب على شعار مذهبه وأسلـوبه فى تـرك أكل لحـوم الحيوانات وكف يد الطمع عن إراقة دمائها ، ثم وصاه بألا يتـعرض بأى وجه من الوجوه لإيذاء أى حيوان ، وألا يبيح لنفسه الإفطار على غير الثمار ، فإن ترجيح طعام على طعام يكون نتيجة حرص الجاهـلين ، كما أن ابتغاء ألوان النعمة والرفاهية من شأن الكسالى .

وليس محب الشر بأهون من الشر نفسه ، وهذا المثل أشهر من الشمس

فدعا الدب للملك دعاء يليق بالمقام وقال :

بَقيتَ مدى الدُّنيا ومُلكك راسخٌ وَوِردكَ موروردٌ وبابُك عامرُ

فاستظهر ووثق بوفاء الأيام واشتغـل - عن رغبة صادقة - بالعبودية والخدمات والمرضية ، وأقام سنن التـزهد ومراتب حسن الخدمة ، وكف أنياب الحرص عن أكل اللحم ردحاً من الزمان ، وسد فم الشره عن شرب

الدماء ، واعتبر أن مثل «الناس على دين ملوكهم » قول متبع وأمر نافع . وكان بهذه الوسائل والذرائع يظفر كل يوم بمقام جديد رفيع فى بساط قربته حتى رسخ قدمه ، وصار فى زمرة المشترين والمستشارين ، وأصبح من أصحاب سره والملازمين لخدمته .

وذات يوم خرج الأسد من جنوده للنزهة فرأى جملاً قد تأخر عن القافلة وهو يسير هنالك حائراً هاماً ، وقد ضاق الذئب والنمر وسائر الوحوش جميعاً ذرعاً لشدة الشهوة إلى اللحم ، حتى وصلوا إلى المخمصة والهزال ودفعهم ذلك إلى أن يفتكوا بالجمل وينهشوا لحمه حتى ولو كان ذلك غير مشروع فى مذهب الأسد ، ويبحثوا فى العقل عن رخصة ليقصدوا بها الجمل ، فلما شمروا عن ساعدهم بهذه العزيمة ، صاح الأسد فيهم وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن الجمل وقال لهم : لا ينبغى أن يناله اليوم ما لقيه الرجل القبيح الوجه بلقاء كسرى .

فقالت الوحوش : إذا قص الملك هذه الحكاية علينا استمتع خدمه بفوائدها .

وقد قلت هذ الحكاية حتى تأتى رؤيتى بالبركة على كل ما يأتى ، وباليمن على كل من يتفاءل بها . ثم ترك زمام الاختيار للجمل حتى يرعى على هواه ، ويتجول ، وكان فى رياض الراحة تلك لا يتكلّف بأى حمل دون الرياضة ، وكان له صلة ألفة مع الأسد ، وكان يقسم قسماً عظيماً بنعمته ، حتى علم قدم صدقه فى طلب مراضى الأسد حتى تحققت له المساعى المشكورة والمقامات المبرورة مع حسن العبودية وطهارة الذيل فى طريق الخدمة ، فصار ملحوظاً بحسن التفات الملك محظوظاً

بأنواع كراماته إلى الحد الذى زاد من حقد الدب على مقام تقدمه . لكنه (الدب) لم يكن يرى فى إظهاره مصلحة أو فائدة . بل إنه مد للجمل يد الأخوة فى الظاهر ، وكان يزيد معه فى الصحبة والاختلاط بتكلف وزيادة فى التملق ، وكـان يظهر له العداوة فى ستر المداراة . وعندما كان يراه سميناً لحيماً قد ضاق جلده عن شحمه ولحمه ، كان هذا يحد أسنان طمع الدب ، ويقول من تحت لسانه : أخذت البعير أسلحتها[1] . فما هو التدبير الذى يقضى على هذا الجمل ؟ وأى طريق يمكن أن تفضى إلى هلاكه سوى طريق إثارة الأسد عليه ، ثم يكون لحمه ودمه بعد إن قتله قربة عظيمة لجناب الأسد .

بداية المكيدة التى صنعها الدب مع الجمل

قال الدب للجمل ذات يوم : عندى سر يخصك ، ويتعلق ضرره ومنفعته بنفسك العزيزة ، ولا تخص ثمرة خيره وشره سوى ذاتك الشريفة ، لكنك شخص طيب القلب الأمر الذى يجعلك قد لا تحتفظ بوديعة الأسرار ، وفى تلك الحال التى تأتى على لسانك كلمة فيه ، يتعذر عليك حفظها . ولقد قالوا : لا تقل سراً لطيب القلب ، كثير الكلام ، شارب الخمر ، كثير الصحبة ، لأن هذه الطائفة من الناس لا تقدر على ذلك التحفظ والكتمان . وربما يظهر ترشح من وعاء خاطره فجأة ، ويلقى اللسان الذى هو سفير الضمير الكلمة التى لايجب أن تقال فتتسبب فى هلاك قوم . وكم إنسان أهلكه لسان وكم حرف أدى إلى حتف . قال الجمل : قل فإنك لا تحتاج إلى هذا

(١) ويروى رماحها ، وذلك أن تسمن فلا يجد صاحبها من قلبه أن ينحرها ، الميدانى : مجمع الأمثال ، جـ ١ ص ٣٨ . .

الاحتياط . وإن لم يكن لديك ثقة واعـتماد ، فإنه يجب تأكيد ذلك بعقود الإيمان المعظمة وختمها بخـتم مواثيق العهود . ثم تعاهدا فيما بينهمـا على ألا يطلع أى شخـص صديقاً كـان أم عدواً على ذلك الكلام . ثم ذهبا إلى بيت الخلوة فأخليا المكان إلا من المحارم . وقال الدب : لاشك أن الأسد يشيع له الفضل على جـميع ملوك السباع بفضل شعـار الدين التحنف والقناعة والتعفف الذى هو مـتبعه ، وبفضل أنه قـد أمسك بعنان دواعى اللذات والشـهوات ، وأنه وطأ بالقدم على صهوات الرغبات النفسانية ، وقيّد جموح الطبيعة بزواجر الشريعة ، لكنهم قالوا : إن أخلاق الناس تتغير بتغير الأيام ، وتنتقل بانتقال كل زمان ، ومكان له تأثير بالخير أو بالشر على نفوس بنى آدم فتظهر خـاصية جديدة ، وكأن لأحـوال الناس فى إناء الزمان تلك الصفة التى للماء فى الآنية الملونة مثلماً قالوا :

طالما كنت فى رعايتك كان الكلام فى تعـويذة ، إذا ما صار أمرى على اللسان صار كلامى قليلاً .

وهكذا يكون من لطافة الكلام ؛ لأنك إذا وضعت الماء فى أى شئ فإن الماء يأخذ لونه .

وَمَنْ يقترفْ خُلُقاً سوى خُلُقِ نَفْسه   يَدَعْهُ وتُرْجِعْه إليه الرواجعُ

وكذلك فـإن العجلة والغرور من شـيم الملوك ، وتلون الطبع من ذاتيات أوصافهم ، ومن ثم فإنه يمكن ألا يبقى معك على هذا السلوك ، ويجب توقع حصـول ضرر ذلك - لى - بسبب مشـاركتك ، ومن ثم يجب أن تنصت فى كال حـال إلى خطراتك ، وأن تحترز من العـثرات والزلات ، وأن تكون مستيقظ القلب ذكـياً لمساخطه ومراضيه ، لأنه ربما

فجأة ويسبب حقير يرجع عن قراره ، لأنهم قالوا : السلطان يصول صيال الأسد ويغضب غضب الصبى . فأخذ الجمل بسبب ما كان عليه من طيبة القلب وسلامتـه ، فى قلب عمله طبقاً لهـذا الأمر ، والتفت إلى ذلك الكلام ، وجعله محل القبول وقال : من المعلوم أن كل ما تقوله ليس إلا من قبيل الرحمة والشفقة الإسلامية ، وأنا أعلم أن الناس كلما تمضى الأيام ، وتنقص من مدة العمر ، ونقبل العادات (صـفة) التغير ، ربما يتحول مزاج الصورة والصفة كلاهما عن قـرار الحال . فربما يعجز الأسد بسبب التشـدد والتكلف فى هذه الرياضة من إمسـاك عن المرغوبات وفطام عن المألوفات التى طبع نفسـه عليها ، وبسبب أن اقتـصر على أكل النبات والفاكهـة بدلاً من المأكولات والمطعومات اللطيفة والشـهية ، ويصل فى النهاية بسبب قلة الغذاء إلى وهن قواه وضعف أعضائه ثم لايطيق ذلك . حينئذ يجتهد فى الاغتـذاء بالغذاء الأصلى فيحتاج إلى اللحم ، ومن ثمّ فإنه لابد أن ينفر من بشاشة الفطور بالفواكـه ، فيتحول إلى الأحماض[1] ، وينهض على تلك الطبيعة ،

(١) الأحماض : الانتقال من شئ إلى آخر ، والانتقال من الجد إلى الهزل وأصله من احمضت الإبل رذا ملت من رعى الخُلّة وهى الحلو من النبات ، فاشتهت الحمض فتحولت إليه (لسان العرب) .

حكاية كسرى مع الرجل قبيح الوجه

قال الأسد : سمعت أن كسرى حركته نشوة الصيد في وقت ما ، فخرج إلى الصحراء بسبب هذه الفكرة فوقعت عينه على رجل قبيح الوجه ، فلم يتفاءل بدمامة صورته ومنكر لقائه ، فأمر حتى أبعدوه من أمام موكبه ومضى ، وبرغم أن الرجل كان قبيح الصورة إلا أنه كان متزيناً بجمال محاسن الخصال كلها فعاود التفكير في حقيقة الأمر . ثم قال في نفسه : لقد عاب كسرى على الخالق في هذا المجال ، وهو لايدرى أن ناسجى خيط الفطرة في مصنع التكوين على التلوين لايوجد لديهم إبرة واحدة تخطئ . وإننى سوف أعطيه طرف خيط الحقيقة حتى يتنبه إلي موضع هذا الخطأ ، ويعلم أن قرعة ذلك الفأل السيئ قد تحولت لاسمه هو ، ثم نسب ذلك لي . وعندما رجع كسرى من مكان الصيد ، أطلق شاهين الهمة فجذب إلى مخلبه المهرجين[1] من طائر وواقع في الفلك من أعلى مكان في التحليق . وأطلق الكلب[2] الأكبر بقلادة التقليد وجرة التسخير خلف الدب الأصغر[3] فجذب النمر الرمادى بزمام القهر ، وأحكم قيد الصقر على غزلان شوارد الأماني ، وعلق كل صيد لحم الأمل في أهداب الإدراك .

أعطى قرار السعادة بالقلم ، وأتى بسيف الصديق الحميم للدولة
وفتح عقدة الحاجب عن وجه الخط ، وربط كل صيد للإقبال

(١) الترجمة الحرفية لـ «معلق زنان» المهرجون : وهم اللاعبون في السرك على الحبال .
(٢ ، ٣) الكلب الأكبر ، والدب الأصغر نجمان .

ومصادفـة وصل إلى المكان الذى كان قد وجد الرجل فـيه ، فنادى الرجل عليه من بعـيد قائلاً لـه : لى سؤال فى حجـاب النصيحـة . فلو جذب كسـرى عنان العظمة لحظة ، ونزل عن ذروة الكبرياء قـدماً ، ومنح لذلك سمع القبول فلن يخلو من فائدة ، فـجـذب كسرى عنان الحصان ، وقـال له : تعال أيها الشـيخ ماذا تريد ؟ قال : أيها الملك كيف كـانت نزهة صيدك ؟ قال : كـل شئ على مايرام وأحـسن ، قال الرجل : هل خـزانة مملكتك وأسباب بقائها مستقرة ؟ قال : نعم ، قال الرجل : هل سمعت خبرا غير سعيد من أى ناحية ؟ قال : لا لم أسمع ، قال الرجل : هل أصاب ضرر الحوادث أحداً من هذه الخيل أو الخدم التى فى ركاب خدمتك ؟ قال : لا ، قال : إذن فلمـاذا أمرت بإبعـادى بذلك الإذلال والاستهـانة ؟ قال : لأن رؤية أمثالك شؤم على الناس . قال الرجل : بهذا التفسير فإن رؤية كسرى قد كانت شؤماً علىّ ، ولبست رؤيتى هى التى كانت شؤماً على كسرى . فاستسلم كسرى لكمال علمه وإنصافه ، وطلب منه الإعذار .

لكلٍّ مزاجٍ عادة يستعيلها

فقال الدب : الحـمد لله ، إنك تعرف أحسن من الجمـيع ولا تحتاج إلى إرشاد أحد « إن العوان لا تُعلم الخمرة»[1] لكننى يحضرنى حكاية فى تبديل الحالات وأفـعال يد التصرف التى هى من مـسلمات الأيام من حال الحية النَّساج ، فقال الجمل : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) العون - كسحاب - من النساء التى كان لها زوج (القاموس المحيط)
والخمرة من الاختمار كالجلسة من الجلوس ، اسم للهيئة والحال ، أي أنها لا تحتاج إلى تعليم الاختمار ، يضرب للرجل المجرب ، الميدانى ، مجمع الأمثال ، ٣٦/١

حكاية النَّساج مع الحية

قال الدب : يحكى أن رجلاً نسَّاجاً . كان له زوجة حسناء الصورة قبيحة السيرة وكانت عشقت إنساناً آخر « حاشا لمن يسمع » ، ومن ثم فتحت طريق الخيانة ، وكلما تصادف غياب الزوج تيسر الاجتماع لهما . وصارا مثل حبة البندق ذات الفلقتين فى كساء واحد ، ومضيا فى عشق ، وتلوا هذا البيت :

أَنَا مَنْ أَهْوى وَمَنْ أهوى أَنَا نَحنُ رُوحانِ حَلَلْنَا بَدنَا

ورفعا صوتهما بهذا الغناء تحت حجاب الاتحاد :

يامن جعلت الاثنين - أنا وأنت - واحداً ولم تبق على فرق بينى وبينك

وقد جعلنى هذا العشق معك واحداً مفرداً حتى إننى أخطئ وأظننى أنت وأظنك أنا

وفى النهاية انتبه الرجل إلى أمر الزوجة ، وذات يوم قال لها : يا زوجتى يجب على أن أذهب إلى القرية الفلانية أسبوعاً لقضاء عدة أشياء مهمة ، فلا تخرجى من البيت حتى العودة . واجعلى الباب محكم الغلق ؛ ولا تسمحى لأجنبى بالدخول عليك ، قالت المرأة : لا تغتم لأن البيت الذى فيه سيدة مثلى وسيد مثلك يكون أحصن من قصر بلقيس ، الذى لم يستطع أحد دخوله سوى الهدهد الذى دخل من فرجة بابه .

فالطائر الذى يطير هنا يفقد جناحه والشيطان الذى يدخل هنا يفقد رأسه

فأى مجال لهـذا الاشتراط والاحتياط ؟ ثم خـرج النساج وعاد على الفور مرة أخرى وتسلل إلى البيت ، ولم تعلم الزوجـة بالخبر واختبأ تحت السرير، نهضت المرأة وصنعت قدراً مـن الطعام اللطيف وخرجت ، حتى ترسل شخصاً من الجيران فى طلب ذلك الحبيب . فخرج الزوج من تحت السرير وأكل كل ما كـانت صنعته من الطعام وترك القدر فـارغاً وخرج . فعادت المرأة ورأت القدر فارغاً كراج آب فى كفيه طينة[1] .

فظنت أن زوجها ربما غلى دم الحمية فى شريان رجولته ، وطبخ قدر تدبير إراقة دمها . وارتدت - فى الحال - الخمار الذى كانت قد نزعته عن وجه الحـياء ، وخـرجت ومصادفـة - فى ذلك اليوم - كـان قد أذيع فى أنحاء المدينة أن ملك المدينة قد رأى رؤيا ولم يجد معبراً لتعبيرها . فذهبت المرأة إلى بلاط الملك من شدة حقدها على زوجها وأبلغت الملك أن زوجها معبر جيد حاذق وصاحب فـراسة . لكنه يتكاسل من شدة بخله فى تعبيره الرؤيا ، ولا ينصاع للأمر إلا بضرب العصا واللعن .

ولا يعبر إلا بهذه الطريقة . فأرسل الملك شخصاً لإحضار زوجها .

وقال لـه : لقد رأيت الليلة الماضـية رؤيا ، واليـوم لا أستطيـع قراءة شكلها من لوح حافظتى ، ولا أعلم على سبيل الحقيقة كيف رأيتها ؟ فقال

(١) هذا المثل يضرب للرجل الذى يبحث عن الماء فرجع وفى كـفيه طينة . وقد علق القزوينى على هذا المثل قائلاً : وتفسير هذا المثل وتصحيحه غير ممكن ، القزوينى : مرزبان نامه ، ص ٢٢٥ ، حاشية ١

النساج : إننى رجل نساج جـاهل وتعبير الرؤيا لم يكن مقـاماً لكل رسول ، لأن مرد حديثى «وما نحن بـتأويل الأحلام بعالمين»[1] ، فارفع يدك عنى ، فأمر الملك أن يضربوه ألف جلدة ، فطلب الرجل مهلة ثلاثة أيام خوفاً من العصـا . فأعطوه المهلة فـرجع وصار يدور فى كل جـهة وزاوية ، ويمرغ وجهه فى التـراب ويطلب من الله تعالى مخرجـا من هذه الواقعة . وفى ثالث الأيام كان يتجول فى خرابة فرفعت الحـية رأسها من الجحر وتحدثت معـه بإذن الله تعالى (قـائلة) ما هو موجب الحـزن والضجـر أيها الرجل ؟ فحكى النسـاج لها الحال . فقالت الحية : لو أننى أخبرتك بما قد رأى الملك ، وماذا يكون نصيـبى من ذلك الذى سوف يعطيه لك ؟ فـقال النساج : كله لك . فقالت لا أعطنى نصفه فـقط . فاتفق على هذا القرار . فقالت الحية : إن الملك قد رأى أن السماء قد أمطرت أسوداً ونموراً وذئاباً . فسعد النساج وقـبل منتهـا ، وذهب إلى خدمة الملك ، وطلـب الاختـلاء به ، وقال : دامت سـعادة الملك ، إن الملك سـعيد الحـظ رأى فى منامه : أن السـماء أمطرت كل الـذئاب والأسود والنمـور . قـال الملك : بلى هكذا رأيت والآن قل ما هو تعبيرها ؟ فلقن الـنساج بكل توفيق أنه سوف يظهر لك خصوم أشداء محاربون يـغيرون على أطراف الملك ، يطفئ نار فتنتهم ماء سيفك ، وينتهى الأمر بخـير ، فأمر الملك فأعطوه ألف دينار ذهباً من الخزانة ، فأصبح النساج من بشـاشة الذهب يكاد لا يسعه جلده ، وحمل الذهب إلى البيت سعيداً فرحاً مسروراً .

(١) سورة يوسف : ٤٤

ثم فكر فى أنه لا يجب أن يعطى نصف هـذا الذهب إلى الحـية ، ولا يرضى بأقل من هـذا . وأننى لو لم أعطها لا شـك أنها سـوف تـكون فى كمين قصدى ، ولن أكـون آمنا من ضررها . لكنى لو تيسر (لى الأمر) ، فلن يكون هناك أفضل من قتلها . فحمل عصا وذهب إلى جحر الحيـة ونادى عليها ، فخرجت الحيـة ، ورأت العصا فى يده ، فعزفت لحن الهـروب ، فجاء طرف العصا على ذنبهـا ، فجرحت ثم دخلت الجحر متألمة .

وربَّ شارقٍ شَرِقَ قَبْلَ رِيقه[1]

وفى عام تالٍ رأى الملك مناماً آخر ونسيه . فأحضروا النساج . فطلب مهلة حسب القاعدة ثم انطلق من هناك إلـى باب جحر الحية . وأخرج الحية من الجحر بلسان التلطف وطلب الأعـذار لما سبق ، فقالت الحية : برغم أنهم قالوا : مساعدة الخاطل من الباطل[2] ، لكننا سوف نختبره مرة أخرى . ثم قبلت عذره وقالت والآن فالشرط هو أن تأتى إلىّ بالمال كله . فأقسم أن يفعل هـذا ، فقالت : قل (للملك) إنك رأيت فى منامك أن السماء كانت تمطر كل بنات آوى والثعـالب ، فذهب النساج إلى خدمة

(١) وأصل المثل «ربما شرق شارب الماء قبل ريه» ذكره الميدانى فى أمثال المولدين .
(٢) مساعدة الخاطل تعد من الباطل والخاطل الجاهل وأصله من الخطل وهو الاضطراب فى الكلام وغيره وهذا من كلام الأفعى حكيم العرب . الميدانى : مجمع الأمثال ، جـ٢ ص ٣٠٩

الملك وعبر الرؤية مثلما سمع من الحية ، وقال : سوف يأتى إليك الخصوم المحتالة المكارة واللصوص المنافقة المخادعة ، لكنهم فى النهاية سوف يكونون أسرى أعمالهم ، وسوف يضع إقبالك وتوفيقك جزاء كل واحد منهم فى ناحية ، فأمر الملك أن يعطوه ألف دينار آخر ، فأخذ النساج الذهب ، وصار مثل الذهب أحمر الوجه قوى القلب ثم أسند ظهره إلى جدار التمكين والراحة وقال : إن الحية ترضى منى ألا أقصد هلاكها . فإساءة المحسن أن يمنعك جدواه وإحسان المسئ أن يكف عنك أذاه ، فإعطاء المال لها يكون عين السفه والسرف . وظل الأمر هكذا حتى مضت سنة واحدة ، ثم رأى الملك رؤيا أخرى ومحيت صورتها من صحيفة مخيلته حتى إنه لم يبق منها حرف واحد .

فظل مضطرباً طوال الليلة من هذه الفكرة ، ومع ضوء الفجر وعندما رفع زنجى الليل الرأس عن وسادة المشرق ، وأظهر الأسنان البيضاء عن مياسم الآفاق ، أرسل فى طلب النساج ، وعندما استطلع الحال والرؤيا والنسيان الذى ذهب ، قال : لقد أعدت قراءة كل الرؤى التى نقشها فى عالم الغيب وأظهرت تعبيرها على وفق التقدير ، كل ذلك لم يكن إلا بمدد إقبال الملك واقتباس نور الفراسة من خاطره ، وكل ما يمكن أن أقوله يمكن أن يكون بهذا الاستمداد . لكن يبقى يوم

أو يومان فى التوقف والتفكر ، وذهب من هناك إلى باب جحر الحية ، ونادى عليها فخرجت فقالت :

يا من (يجعل) أملى مع عهده مثل الرياح

جئت مرة أخرى حتى تبحث عندى عن علاج أمر حاجتك

نعم بكل راحة وبكل استرخاء وهدوء

باختصار فإن كل التسامح الذى عملته معك ، وضرر تفاصحك الذى أذيت به ، وانخدعت به ، ولم أجد سوى نقصان إيمانى فى تلك المعاملة ، ولم أظفر بأى فائدة لأنه جاء فى حديث النبى ﷺ «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» وأنا اليوم من تلك الطائفة لأننى جرحت مرتين على باب هذا الجحر ؛ جرح عصاك وجرح لسانك ، وعلى هذا فقد جرحت جوارحى الحسية والمعنوية ، والآن قد أتعرض للجرح الثالث معاذ الله .

صَادِقْ خَلِيلكَ مَا بَدا لَكَ نُصْحُه فـإذا بـَدَا لك غِشُّـه فَتَبَـدلِ

فلم يكن لدى الرجل أى لسان للاعتذار ، ولا وجه للاستغفار . ومع كل هذه الذلة وسداد الوجه لديه بسبب عدم حيائه قال :

تَبَسَّطْنَا عـلى الآثـام لمـا رأينا العفـوَ مـن ثمـرِ الذنـوبِ

عفوك أكثر من جريمتى فخذى بيد هذا المضطر هذه المرة

إننى فعلت ذلك لأن سوء العهد يليق بى ، وأنت أفضل منى فتفعلين ما يليق بك .

قالت الحـية إن الشرط الآن لكى أقول لك مـاذا رأي الملك ؟ وما هو تعبير رؤياه ؟ هو أن تحضر كل ما يعطيك الملك هذه المرة من جائزة ، وكل ما أخذته في المرات السابقة حتى نقسمه قـسمة صحيحة ، وحتى لا تخون هذه المرة أيضـاً . فأبدى الـرجل الالتزام ، ثم عـقـدا على ذلك معـاهدة جديدة فقالت الحية : اذهب وقل للملك : إنك رأيت فى النوم أن السماء قد أمطرت خرافاً وشياه وما شابه ذلك ، وتعبير ذلك أن جميع الخلائق قد رضوا فى هذا العهد عن عظمة الدولة ، وميـامن العدل ، وحسن السياسة ، وكفـوا عن الحرب والحقد والـقتال ، وصار الجـميع مطواعاً ومنقـاداً لأمر الملك ، واسـتقـر أمر الملك والولاية على الأمن والهـدوء ، وزال الفـتور والفتون ، ثم انطلق النساج إلى باب بلاط الملك وحكى كل ما كانت الحية قد لقنته إياه ، فأمر الملك بألـف دينار أخرى له من الخزانة ، ووجد المرتبة العليا - التى لم تنسج بقدم أى نساج - فى إنعام واحترام الملك .

وقال فى نفسه : يجب أن أوثر الحية بكل المال هذه المرة ، وأزيد تأكيد آثار العهد الطيب والعـذر الذى قد مهدت له بالكلام عن طريق الفعل ، لأننى لابد أن أرجع فى مشكلات الأمور غير المحصورة إليها ، ثم حـمل الثـلاثة آلاف دينار وذهب إلى الحـيـة ، ونادى عليـهـا ، فخرجـت من الجحر فسلم كل منهـما على الآخر . ثم وضع أمـامها حقيبة الذهب ، وطلب منها الأعذار على ما مضى وقال :

رِضَاكَ شبابٌ لا يليه مشيبُ   وسُخْطُك داءٌ ليس مِنه طَبيبُ

هذا هو علامة الوفاء بالعهد ، والتفصى من عدة حقوقه .

حتى لا تظن أننى كنت بعيداً عن عهدك ، فرأسى هناك حيث إشارة أمرك

قالت الحية : اعلم أنه ليست هناك منّة فى ذلك الذى أحضرت ، وليست هنــالك مؤاخـذة أو مطـالبة على الـذى لم تحضـر ، لأن كل ما حـدث له لون الأيام ، فالأول : هو أنك أصـبتنى بالضـرر ، كان أهل الزمان جميـعاً أشراراً حاقدين فاتنين ، كـانت تظهرصورتهم فى حجاب النوب فى ثوب السباع المفترسين .

وفى المرة الثانية التى خـدعتنى فيها ، ومضـيت فى جوال غدرك وخداعك كان أبناء الأيام جـميعاً مكارين وسحـرة ، وكان يبدو على طباعهم جميعاً التبصبص والمدالسة . فلا جرم أن أفعالهم وأخلاقهم - جمـيعـاً - تبدو فـي الرؤيا على صورة ابن آوى والثـعلب من قبـيل المشاكلة . والآن عندمـا وفيت بما قلتـه وقبلته ، وأبعـدت عن نفسك التجنب والتجـافى ، ورأيت وجوب التوفر على حقوق العـهد ، فإن أهل الزمان عمـوماً لهم نفس هذه الصفة ، فلا جـرم أن تبدو صورة موافـقة ومطابقة أقـوال وأعمال الآدمى فى مـرآة ذهن الملك الذى هو أصفى أذهان الخلق على صورة الخروف والبقرة والحمل وما شابه ذلك . لأن أجـناس هـذه الحيـوانات أبعد ما تـكون عن مـعرة الفسـاد ، فهى مجبولة على التسخر والانقياد . خذ الذهب لأننى لا أحتاج إليه .

وقد قلت هـذه الحكاية حتى تعلم أن الأسـد أيضاً له هذه الصـفة ، وجائز عـقلاً أن يتـحول عنهـا ، وهذا غير خـارج عن معـرض عوارض الحالات ولأن الوقـوف على مغـبة أحوال الأيام ونـقضهـا وإبرامهـا غـير حاصل ، ووجود احـتمال حدوث الشر الذى يصعب دفـعه إذا ما وقع ، هو قضيـة العقل . ولابد من بحث علاج له قبل الـوقوع ، واللجوء إلى

جدار الحزم والاحتياط ، ومن لم تقلمه قدرته أخره عجزه . قال الجمل : يبدو لى أن أرتحل عن هذا المكان الخطر ، وأطلب مكاناً هادئاً آخر ، يكون بعيداً عن مساكن الناس فنقصر يد تصرف بنى آدم عنه ، فهذه الأيام هى موعد هذا الخبر الذى أخبرنا به عليه الصلاة والسلام «يأتى على أمتى زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا إذا فر من جبل إلى جبل ومن شاهق إلى شاهق» ومعلوم أن الموت أفضل من الحياة التعيسة ، فأى لذة يمكن أن تجدها فى تلك العيشة الخالية من الأمن وراحة البال ، قال الدب : كل مكان نذهب إليه لا مفر من العمل كعبيد لدى رئيس لأن بشرية ذلك العرض لا تسمح له أن تقوم بنفسه ، وبخاصة أننا ظللنا مثل نقطتين فى دائرة الآفات ، وأن كل سهم أكثر نفاذا وتأثيرا قد وضع فى الجعبة باسمى وكل حبل أكثر إحكاماً قد فتل من أجل عنقك ، وبرغم أننا جئنا فى حماية الأسد ، وعرفناه المعرفة الشاملة ، وسجلنا عدة مقدمات للخدمة الطيبة إلا أننا الآن نعيش فى هذا الفكر بسببه . فأى عين للوفاء يمكن أن تكون لدى من لا نعرفه أو نعلم عنه شيئاً . أما الرجل الذى يكون خائفاً من الخصم القوى ويكون على حذر من تغير نيته وفكرة أذيته تدريجياً ، فلا يمكن التسلى عن ذلك البلاء والهروب من مخالب ذلك الابتلاء إلا عن طريق الوقوف على القصد الكلى وإزالة زحام وجوده من الوجود .

مثلما فعلت الحية مع الحاوى (صائد الأفاعى) قال الجمل كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الحية مع صائد الأفاعى (الحاوى)

قال الدب : سمعت أنه ذات وقت كان هناك ثعبان أرقم ملون بألوان وأشكال مختلفة وكان قد اختفى فى سفح جبل ، ووضع عقدة ذنبه على رأسه حتى يخفى شمس الأنظار عن منظره الكريه ، وفتح عينه ، فرأى صائد الأفاعى وقد اقترب منه حتى إنه لم يكن يعلم مجالاً للهرب . ففكر فى نفسه (قائلاً : إننى إن أهرب يدركنى . ولوأذهب إلى الجحر يسد المنفذ . ولكن ربما يتركنى لو أتظاهر بالموت). طوبى لصاحب القلب الحى الذى يقتل ثعبان النفس الأمارة بالسوء فى الدنيا ، يعنى مثل أبى بكر الصديق الذى كان يبدى إماتة صفة البشرية فى جوهره ، ومن ثم يعبر لسان النبوة عن ذلك فيقول : «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر » بذلك يصبح حياً بماء حياة السعادة الأبدية .

أيها الصديق إذا أردت أن تعيش فمت قبل الموت ، فإدريس دخل الجنة قبلنا بعد هذا الموت[1]

والخلاصة أن صائد الأفاعى تأمل فى الثعبان جيداً فظنه ميتاً . وقال : واأسفاه لو كنت قد وجدت هذا الثعبان حياً ، لم يكن ليتمكن من صيده أى ملواح[2] بحيل ومخاريق الدنيا . ولكسبت به كسباً كبيراً . لكن (لابأس) فيمكن الاستدلال بهذا الشكل وهذه الهيئة ، لأن مشعوذ الأيام ربما أخذ «خرزة»[3] من الحقة الزمردية وأخفاها فى

(١) هذا البيت لسنائى الغزنوى من قصيدة له ، قالها فى مقام أهل التوحيد . أنظر ، سنائي الغزنوى الديوان بسعى واهتمام أستاذ مدرس رضوى ، جابى دوم ص ٥١

(٢) للملواح : البومة تشد رجلها ليصاد بها البازى (لسان العرب) .

(٣) تقول الأساطير إن هذه الخرزة موجودة فى رأس الحية د . شتا (المعجم الفارسى الكبير) .

قفاه . أخرج تلك «الخرزه» لأنه ذخيرة كبيرة . فقال الثعبان فى نفسه ؛ لقد أيقنت أن الموت فى القفا ، ولا يفيد الهروب . فإذا ما اتجه نحوى بقصد استخراج الخرزة ، وأراد أن يجرجنى ، فالأولى ألا أقطف ثمرة التسليم .

حتى أسوق عملى . فأنزل صائد الثعابين يده كى يأخذ الحية . فلدغته وأردته قتيلاً فى مكانه .

وقد قلت هذه الحكاية لأن الرجل بعيد النظر لا ينبغى عليه أن ينظر أمام الأمور ووراءها كثيراً حتى يفوته وقت تدارك أمره بل يجب أن ينفذ ذلك الشيء الذى يراه وفق المصلحة بلا تهاون .

إذا صُلْتُ لم أتركْ مصالاً لفاتكٍ وإن قلتُ لم أتركْ مقالاً لعالمِ
وإلا فخانتنى القوافِى وعاقَنىَ عن ابنِ عُبيد الله ضَعَفُ العزائمِ(1)

قال الجمل : يبدو أن العلاج الناجح والتدبير النافع بالنسبة لى فى علاج هذا الداء المعضل المشكل أن أسعد بما أتى به الحظ وما جاء به القضاء مثلما فعل ذلك الرجل الفلاح مع الذئب والثعبان . فقال الدب : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(1) البيتان للمتنبى . من قصيدة يمدح بها الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ومطلعها :

أنا لائمى إن كنت وقت اللوائم   علمت بما بى بين تلك المعالم

المتنبى : الديوان جـ ٢ ص ٣٧٠

حكاية الفلاح مع الذئب والثعبان

سمعت أن رجلاً كان يسير فى الطريق وحده . ولم يكن له مقصد فى طريقه سوى توفيق السيرة الطيبة والاعتقاد الصافى الذى اعتنقه . ولم يكن لديه إلا الدعاء والإخلاص كسلاح لدفع أذى القاصدين ، فظهر أمام عينيه ذئب فجأة . وتصادف وجود شجرة هناك فصعد عليها ونظر فرأى ثعباناً نائماً على فرع الشجرة . ففكر فى نفسه قائلاً : إننى إذا ما صرخت من هنا استيقظت هذه الفتنة (الثعبان) من النوم وأدركنى ؛ وإذا ما نزلت فليس لدى قدرة على مقاومة الذئب . فبحمد الله شجرة الإيمان قوية ، (ومن ثم) أعلق يدى بغصن التوكل وأقطف فاكهة القناعة منها وأعيش .

حتى أنظر ما هى عاقبة الأمر فى النهاية ؟
وأكثر أسباب النجاح مع اليأس

وعندما وكل هذه الفكرة على نفسه ، فجأة ظهر فلاح آت من الصحراء وكان فى يده العصا التى تحطم رأس الثعابين السامة والذئاب الضخمة فهرب الذئب خوفاً منه . ثم نزل الرجل فسجد سجدة شكر ومضى فى طريقه .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى تعلم أن التعامل بنعومة أو بخشونة مع عوارض الأيام . ووضع القلب على معطيات التقدير ، فإن ذلك يؤدى إلى المقصود بكل تأكيد ؛ وللتوافق بين الخادم والمخدوم فى كل من الخير والشر والجلوس فى ظل المساهلة ، والنزول بمنزل التحمل عاقبة حميدة وخاتمة مفيدة .

إن الأناسَ كأشجارٍ نَبَتْنَ لَنا مِنْها المرارُ وبعضُ المرِّ مأكولُ

صاحب الحظ هو من يستطيع التعامل مع الصديق ، فكل من يتعامل مع الأمر يصل للمقصود

فالقمر قد أخذ النـور بسبب أنه لم يهرب من الليل ، والزهر قد أخذ الرائحة بسبب أنه تعامل مع الشوك .

قال الدب : أحـسنت القول . لكن العقـلاء الذين أخذوا عيار عـبرة الأمور ووزنوا حقائقـها بميزان الخبرة قد قالوا : المـتأنى فى علاج الداء بعد أن عرف وجه الدواء ، كالمتأنى فى إطفاء النار وقد أخذت بحواشى ثيابه . فكل من ظهـر عليـه داء يعرف دواءه ثم عـاش بالعلة زمناً ، ولم ينشـغل بإصلاح البدن وتعديل المزاج يكون مثله مثل الشخص الذى شملت النيران الحارقة أعطاف ثوبه وأطرافه ، وهو يفكر بأناة فى كيفية دفع ذلك وكل من لايسمع حديث بعيدى النظر ، يكون مستحقاً للذم لو ندم بعد ذلك «أطعم أخاك تمرة فإنى أبى فجمرة » .

قال الجمل : إنه لا يمكن صيد بطة بشبكة الصعوة ، ومن الوقاحة أن أقابل مخراز قيصة الأسد بكف اليد فقط .

وحتى لو أننى كنت قادراً على ذلك لاختـرت إلقاء سلاح القدرة فى قدم العجز وعدم التعلق به ، ولم أر أن التعرض لذلك الشخص الذى لحم عظمى ودماء عروقى من مدد نعمته ومادة تربيته ، وبما أن ذات بين العبودية والسيادة قـد أخذت هذه الصورة ؛ فالأفـضل أن أذهب إلى الحرفة الأولى وأترك هذه اللقمـة السائغة قـبل أن تحدث هذه الحـركة فيمـا بيننا ، ويلزم حينئذٍ التضحية بالروح .

وأقنع بالدقيق المجرد الذى أحصل عليه كأجر لعملى اليومى ، وأجعل وجه الكفاف من أجر ما أحمله على قوائمى الأربع ، وإن أطيب ما يأكل الرجل من كسب يده ، ولقد قالوا : إن كل من يعيش بسهولة يموت بسهولة ، وفى المثل المعاشرة ترك المعاسرة . ويا أخى : إننى عندما كنت فى مكان الراحة مع إخوان الصحبة فى الطعام والنوم ، كنت أقطع الشوك بالنهار وأحمله بالليل ، وكنت سعيداً بألحان قطع الشوك ، حينئذ أكثر من سعادتى بغناء المغنين فى ذلك الوقت ، وكنت أضع جانبى على سرير الأمن والراحة ، وكنت أمد قدمى على قد ذلك الفراش ، فكنت أطعم وأنا سعيد وأرعى فى مرابض العشب واضطجع على مضاجع الراحة والفراغ ، فليس هنالك فكرة شر لمواكل ، ولا خوف حيوان مفترس آكل .

كان الشوك حول ذيلى أفضل من زهرة الفل وكان الحجر تحت جانبى أنعم من الحرير

واليوم الذى جذب جواذب همتى من مجالسة الآحاد إلى منافثة الأكابر ، ونقلنى من محاورة الأوغاد إلى محادثة الملوك ، وبحكم تلك السعادة المنظورة والشرف المذكور بخطاب «أفلا ينظرون إلى الإبل»[1] رفعت النظر عن الأمور الخسيسة إلى أعاليها .

وعندما كنت قد وجدت السعادة المحسوبة فى زمرة «وعلى كل ضامر يأتين»[2] انتقلت من منزل السفالة على فكرة الترقى ، وأسرعت إلى كعبة المعالى . (لكننى) ابتليت بداهية الدواهى ، ووقعت بخبط عشواء الحيرة فى ظلام سراب بادية الأمالى .

(١) سورة الغاشية : ١٧

(٢) سورة الحج : ٢٧

إذا ذُكر القلبُ المعذبُ فى الهوى زماناً لنا أرخيتُ فيه عَنانى
فكم زفراتٍ لى بغيرِ تراقب وكم عبراتٍ لى بغير توانِ
فلو أبصرتْ عيناك ما أنا بَعدكُم عليه من البلوَى لَقُلتُ توانى

فلو غيرت - عياذاً بالله - بالإخلاص مع الأسد ، ولو سلكت طريق الاختلاف معه الذى هو بعيد عن مذهبى وممنوع ومحظور فى شرع حقوق خادم المخدوم ، فلو أخفيت ذلك ظاهراً فلابد وأن يحرك سلسلة الطبيعة لأن باطنى سيكون متشبعاً به . لأن الضمائر والنفوس خبيرة بالحسن والسيء منها وبصيرة بمنافاة ومصافاة بعضها البعض ، فلو أنه قرأ سرى من جبهتى ذات يوم ، فمن أين لى بوقاحة المكابرة التى أتردد بها أمامه ؟

عيْنَاك قد حكَتا مبديك كيف كنتَ وكيف كانا
وكربُ عينٍ قد أرتك مبيت صَاحِبَها عَيانا

كيف أخفى سرًّا يقرأة كل شخص يرانى من على صفحة خدودى مثلما يرى الماء .

إلا أن فأراً كان له بيت فى مجاورتهم ، وكان حاضراً . فاستمع إلى مفاوضاتهما واسترقها كاملة ، وحفظها فى سمع القلب ، وختمها بخاتم المكاتمة ، ولم يبح بهذا السر لأى إنسان غير محرم . أمل الجمل فكان يحلل (يمزق) كل يوم الروح الحيوانية بنار الهوس فى ذلك الخوف والتفكر ، فصار من توهم ذلك الخلل مثل عود الآراك الرفيع ، وصار بسبب امتلائه من هذه الغصة مثل وجه الهلال المتراجع ، حتى ظهر أثر الضعف على بنية أعضائه وأطرافه .

وكان الأسد يبدى تعجبه من تغير حاله قائلاً : ماذا أصاب هذا المسكين ؟ لعل مخالفة الماء وهواء الأسفار قد أثرت فيه فى الوقت الذى

كان يجول فـيه أقطار العالم ، فصارت يده وقـدمه نحيلة هكذا ، أو لعله المرض الذي جمع بخار النار ، وطوى كل الأعضـاء على الركبة . أو بسبب آلام حمل الكتـان الذى حمله من مصر « وتحـمل أثقالكم »[1] ، فأظن أن خروج المحابيس من مـدينة سجن جهنم بشرط «حـتى يلج الجمل»[2] قد اقترب موعده ، لأن سنامه أصبح من الممكن أن يدخل فى سم الخياط من غاية الضعف .

مَنْ كانَ مرعى عزمه وهمومه   روضَ الأمانى لم يزلْ مهزولاً

وذات يوم سـأل الغراب الذى كـان من أخص جلسائه وأمناء خـزائن أسراره قائلاً :

ماذا أصاب الجمل ؟ فهو ليس مثلنا آكلاً للحم فقد يكون بعد عن هذا الخلق ، وتحمل رياضـة أكل العشب ومن ثم فقـد غذاءه الأصلى . وربما يكون قد هم بأمر بعيد المنال يكون الوصـول إليه صعباً ، أو أنه يخاف من خصم لا يسـتطيع مقاومـته ، إنى أريد أن تسأله وتعلم مـاذا حدث له من حوادث الأحـوال ، وتخبرنى عن كيـفية أمره ، فـذهب الغراب وبدأ مع الجمل مقدمات المحبة ومبـانى الصحبة وفن أوامر الأسد ، وأجلس عدداً من طلائع (جنود) الفـهم وجواسيس النظر علـى مدارك الحسن ومـسالك العقل ، حتى يأخذ الخبر عن حقـيقة حاله وينقلها إلى حضرة الملك . فلم يجد. ولم يظفر بدليل . وذات يوم كان الغراب يتنزه على شاطئ جدول ، وكان يـطلب سر قلب الجـمل من غاية العـدم فى الماء . ومـصادفـة جاء العطش بالجمل إلى هنـاك فأخفى الغراب نفـسه خلف حجـر فنظر الجمل

(١) سورة النحل : ٧ .

(٢) سورة الأعراف : ٤٠ . وقد ورد بيت من الشعر الفارسى فى هذا المعنى ترجمته :

لو يجرى كل ما يحدث لى من الغم على جمل   فلسوف يدخل الكفار جنة المأوى

انظر عبد الوهاب القزوينى ، حواشى مرزبان نامه ط ليدن ص ٢٣٧

لحظة فى الماء . فرأى الأسماك التى كانت تعوم على وجه الماء . فتنفس نفساً ساخناً وقال : طوبى لكم لأنكم لا تخافون من الرؤساء ولا تفكرون فى الجيران ، تمشون على وجه الماء بجسارة ولا يتلوث ذيل عرضكم بأى عارضة من عوارض التهمة وسوء الظنة ، أما أنا فمسكين وضيعت سفينة صدرى على بحر الغم اللامتناهى . ولا أدرى أتصل إلى ساحل الخلاص بسلام أم تغرق فى دوامة الهلال ؟

ليتنى كنتُ قبلُ ماد قَد بَدا لى   فى مراعى الَحشيش أرعى الحَشيشا

سمع الغراب هذا الكلام . وذهب إلى خدمة الأسد فأبلغه السر فنهض الأسد من مكانه وصار مغموماً . وقال لنفسه : لأن العصمة الكلية ليست حافظة لأحوال الناس ، وليست بوادر القول وصوادر الفعل فى قيد الاختيار حتى لا يتأتى من الناس أى حركة مذمومة يلامون بها ؛ يجوز أنه قد سمع خبراً عنى فصار قلقاً منه ، وعد ذلك من سوء نظرى إليه فأساء الظن بى «إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً»[1] فلو سألته واستعملت منه ، أخشى أن يزداد خوفه وخشيته ، وإن لم أفعل يظل مكتئباً شريداً هكذا . وفى النهاية أتى إلى خاطره أمر أرجح من هاتين الفكرتين المتعارضتين ، وهو أنه أمر فجاء إلى خدمته عدة أشخاص من عظماء الخدمة وخاصة الخدم ، ومنح الجمل الترحيب والتبجيل الذى كان معتاداً عليه ، وأطلق اللسان بلا واسطة سفير أو مشير أو حاجب أو وزير وقال : برغم أننى أملك يد القدرة والرأى كله ، وأننى أستطيع أن أسقط الفيل السكران بساعد الصولة ، فإن الله تعالى خصنى بصفة العدل والكرم وخصلة الدين

(١) سورة يونس : ٣٦ .

والعلم ومنحنى تلك الهـدية - على خلاف أقرانى - وهى أن قـصرت يد التشـبث عن دم الحيوانات ، وسحـبت ذيلى عن مخالطة هذه المعـصية ، وجعلت جوامع الهمة مقـصورة عن المطامح الدنية والمشارع الوبية فى تحرز وعفـة نفس . واليوم أريد منكم لو أنكم ترون عـيباً كبـيراً أو صغـيراً فى طبعى ، يصـدر عنى سهواً أو عـمداً ولا يكون مقـبولاً عقلاً أو عـرفاً ، شرعاً أو رسماً ، فلتعرضوه علىّ ، وقدموه لى هدية عظيمة ؛ لأن أفضل الموجودات وأطهر الكائنات جـوهراً قال «من غشنا فليس منا» يعنى كل من وجد عيبـا فى ذاتنا المباركة ولم يخبرنا به ولم يظهـره لنا يكون خارجا عن عرش اختصاصنا وإذا ما جاء فى خيال قاصر النظر أن : كيف يمكن نسبة عيب إلى جـانـب حضرة النبـوة ؟ فإن خطاب الله له بقـوله «إنما أنا بشر مثلكم»[1] ناطق بمصداق هذا المـعنى ، ومعلوم من هذا التلويح أن مـقارنة ذات واجب الوجود بذوات جملة ممكنات الوجود (المخلوقات) نجدهم بداية من بسـاط الأرض حتى عنان السـمـاء ، ومن ابن آدم حتى جـوهر الملك مصابـين بنقصان الحدوث ، والطريق الآخـر الذى يتبع ذلك وهو نواقص الأوصاف مفتوح على جميع المخلوقات ، وقد وضع أساس العالم الأصغر والأكبـر[2] ، وهكذا ولدت نتـائج فـائقة من هاتـين المقدمـتين ، والآن مسموح لكم : أنه إذا وجدتم أى شئ من عـيوب وذنوب أقوالى وأفعالى يمكن وضع إصبـع الإشارة عليهـا ألا تخفوه عنى ، حـتى أتوب من ذلك وأشتغل بتـطهير أخلاقى وإن توقع إنسان ضـرراً منى أو رأى أى شرراً من

(١) الكهف : ١١٠

(٢) العالم الأكبر هو الذى يشتمل على الصيف والشتـاء والخريف والربيع ، أما العالم الأصغر فهو عالم الآدمى الذى له أربع طبـائع : نجم كـبرى ، مرصـاد العـباد بتـصـحيح دكـتـر أمين رياحى ص ٧٦

نار غضبي في مستقبل الحال ، يجب أن يوضحه ويقوله حتى أجعله آمناً ، وإذا صدرت من شخص زلة خفية [فليظهرها] حتى أسدل ذيل التجاوز عليها .

السترُ دون الفاحشاتِ ولا يلقاك دون الخير من ستر

فأدى الحاضرون الدعاء والثناء الذي كان لائقاً وقتئذ بلسان واحد وقالوا : معاذ الله ، حاشا أن يكون قد وصل حاشية خاطر أي واحداً من حواشي الدولة وخدم الحضرة أي غبار من الملك أو يكون قد علق شوك من حديقة لطفه بذيل أحوال أحد . لأننا جميعاً تربينا في عصمة ديانيك وكنف عدم إيذائك ، فأي مكان لمثل هذا الحديث على وجه حاكم نافذ البصيرة مثلك ؟

فلتكن أيامك سعيدة ، لأن الأيام والأعمال تمر جميعها بسعادة في دولتك

وعندما سمع الدب تفاصيل وجمل هذه الحكاية ، وكان يرى ناقته وجمله فيها ، ففكر في نفسه قائلاً : إن الملك قد وجد علامات التشويش على صفحات حال الجمل فأمل بهذا التفحص والتفتيش ، فلو يتنبه لاحتيالي واغتيالي ، فلسوف يعاقبني عقوبة شديدة . فالرأي هو أن أجذب الجمل إلي وحل الواقعة وألقيه في مخلب العذاب ، حتى أضع حمل هذا الذنب على عنق الجمل ، وأجعله جناية الجنايات فيصوب كل سهم للخطأ والصواب يأتي من قبضة الرضا والسخط ويستقر عليه ، ثم توجه بوجهه تجاه الأسد وقال : يبدو أن أحداً قد أساء الظن بصورة الأسد فأوقع عليه الوهم الباطل ، ولايكون ذلك إلا من خبث داخلته وغائلة ضمير ذلك الشخص الذي يتخيل نقش عقيدته في مرآة رأي الملك ، وإلا فأي سوء يمكن أن يتصور من ملك سيرته خير خالص ورأفة محضة ورحمة صرفة ؟ وبرغم أنني سمعت عدة كلمات من هذا القبيل لكنني لم أرد أن أعلنه ، لأنني لم

أعلم بأنه سوف يتشر هكذا أو أن همة الملك العظيمة سوف تعظم هذا الأمر هكذا . والآن لأن خاطره الشريف يلتفت إلى كشف ذلك المقام ؛ فإننى لن أخفيه بأى وجه . ثم أمر الملك فأخلوا المكان ، ودعا الدب إلى جهة استكشاف هذا الحال . فقال الدب : أيها الملك لقد قالوا إن العالم فى عين الجاهل أحقر من الجاهل فى عين العالم . فهذا الجمل لا معرفة له حتى يعرفك بها تلك المعرفة التى تجعل هيبتك وحشمتك متساوية دائماً فى خاطره ، وتمنعه من الجرأة وتعينه على هذه الأفعال السيئة ، وإن أعلم الخلق فى إشارة إلى هذا المعنى يخبر عن نفسه فيقول : «أنا أعرفكم بالله وأخشاكم من الله» . يعنى لأن مقام القهر الإلهى معلوم لدى ، وأنه إلى أى مدى فإننى أخشاكم من وقع آثاره ، لأنكم فى حجاب الجهالة من مطالعة ذلك ، ويقول - عز من قائل - فى نص التنزيل «إنما يخشى الله من عباده العلماء»[1] لكن الملك أمر برعاية زائدة عن الحد لهذا الجمل ، ومنحه مقاماً أعلى من قدم استحقاقه ، ولا شك أن لقمة الفيل لا تسعها حوصلة العصفور وأن الشربة ما لم تكن موافقة للمزاج تضر فظن (أى الجمل) أن باعث الملك على ذلك الذى فعله إنما هو ضرورة حال أو حاجة مآل ، أو أن الأسد ندم على الحظ الذى وجده الجمل فى هذه الدولة ، وأنه بحط المنزلة ونزول المرتبة التى وجدها سوف يرضى الأسد . وغلبت هذه الفكرة عليه ، حتى إنه بسبب خلاقة طبعه وسخافة رأيه كان يبحث عن الفرصة الأخرى التى لولا أن التصريح بها يبعد عن أدب العبودية لأظهرتها .

ولو حِيزَ الحِفَاظُ بغيرِ لبٍ ... تَجنبَ عُنْقَ صيقلة الحُسامُ[2]

(١) سورة فاطر : ٢٨ .

(٢) البيت لأبى الطيب المتنبى من قصيدة يمدح بها المغيث بن على العجلى ومطلعها :

فؤاد ما تسليه المدام ... ولا عمر مثل ما تهب اللئام.

المتنبى : الديوان جـ٢ ص ٣٣٨

وعندما سمع الملك هذا الفصل ، أخرج الدب وأرسل فى طلب الغراب . فحضر وسأله :ماذا ترى فى نقل الدب لهذا ؟ فأجاب الغراب : إن رأى الملك الأزهر وضميره الأنور كاشف لوجه المختفين فى ستر الغيب . فلا يخفى عليه . لكنه من المعلوم لدى بشواهد العقل ، وأدلة الحس أنه لا يوجد أى شخص من أذلاء خواضع الخدمة يملك ما لدى الجمل من التواضع والأدب وسلامة النفس وسماحة الطبع ولا يملك أحد الاحتشام الذى لديه من هيبة الملك ، ولو كان يعلم نفسه مجرماً . لم تكن لديه جرأة القلب حتى يدور حول جناب حشمتك ، ويضع القدم على عتبة انبساط هذه الخدمة ، وكان لابد أن يستشعر وينزعج ، ومن ثم كان يتجه إلى مأمن آخر «مستنفرة فرت من قسورة»[1] خصوصاً وأنه لا يملك قيداً على القدم ، وليس هنالك موكل على رأسه . والحقيقة أننى أعلم أن للملك نية وطوية على القرار الأصلى ، وأنه لم يجد طريقاً للتوحش والتنفر على طبعه الكريم مطلقاً . وهكذا يبدو أن الدب هو الذى غرس هذه الشوكة ، وآثار غبار وحشته هذا . فياللأسف أن يكون مثل هذا الخادم الطاهر الخلق والجبلة ملوث التفكير متوحش الهجر بسبب وشاية صاحب غرض وسعاية سئ الطوية . فلو يدعوه الملك ويمنحه شريف المشافهة ، ويبحث عنه باللفظ الأشرف ، لظهرت طبيعة واضحة من صدقه ولهجته مصدوقه الحال . فأحضر الملك الجمل إلى بيت الخلوة وقال له : اعلم أنه ثابت علَّى لك حقوق حسن الخدمة ، وأنك دائماً كنت تقبل على طاعة أوامرى ، وكنت تمتنع عن النواهى ، وأنك لم تضع أبداً قدماً

(١) المدثر / ٥٠ ، ٥١ .

خارجاً عن محجة مرادى ؛ وحق المعرفة والكرامة ، وحقيقة إشفاقى وعطفى على أحوال جميع الخدم معلومة لديك ، وخاصة أنك تختص بكل هذه المقامات المرضية والمساعى المشكورة ، فقل ما هو موجب هذا التغير والتكسر ؟ فإنك لو فعلت ذنباً وتفكر فى المساءلة ، فقدر أنه مهما كان أعظم ، فإننى سامحتك فى جميع الصغائر والكبائر . ولا تخف إذ كانوا قد نقلوا عنى كلمة موحشة ومشوشة ، وأضافوا الخيالات ، وأجعل نقال انتحال على يدى ، واجلس أنت مرفه الحال فارغ البال «فأنت منىّ بين أذنى وعاتقى[1] ففكر الجمل قائلاً : لو أن صورة الحال تظهر فإنه يلزم لذلك انتقاض العهد وانتكاث ذلك العقد الذى كنت قد أبرمته مع الدب ، ويقع وزر ذلك على عاتقى . ولو أعترف بذنب لم أرتكبه ، فإن الملك مهما سحب قلم الصفح ، وطوى أوراق صحيفة الجرم ، فإننى ربما وسمت وجه عفوه بحال عصيانى ، وربما سودت وجه حالى بسواد الخجل ، وصرت منحصراً فى زمرة المجرمين ، لكن الأفضل أن أضع هذا الشين على وجه أمرى ، وأجعل الذنب على نفسى حتى لايصاب الرفيق الذى ربما اعتمد على حسن السيرة وإحكام السريرة ووفاء عهد الموافقة وإبقاء حق المرافقة .

كـذا المجـدُ يحمـلُ أثقـالَه ... قوىُّ العظام حَمولَ الكَلَفْ

على كاهلِ الشُّكرِ مِنْ فَضلِه ... يدُ كاهلِ الأرض منها أخفْ

ثم قال : أيها الملك : بسبب أننى أنظر فى بداية ونهاية الأمور ، وأتلفت على يسار ويمين الأحوال وأبحث غوامض الأمور ، فدائماً

(١) أنت منى بين أذنى وعاتقى أى بالمكان الأفضل الذى لا أستطيع رفع حقه . الميدانى ، مجمع الأمثال ج١ ص ٩٤ .

ما أكـون فكوراً متألماً ويبدو على ظـواهرى آثار تلك الفكرة . فلا شك - لهذا السـبب - أنه كان عندى بعض سوء الظن فيك فلو أردت مـؤاخذتى بهذا القـدر ، فالحكم حكم الملك . فقـال الملك : حسناً . الآن قل هـل كـان سوء الظن هذا من فـعلنا أم من قـول الآخرين . هنا سكت الجـمل وطأطأ الرأس . فقال الغـراب : أيها الأخ لا يفيد فى هذا المقـام سوى قول الحقيقة ، وأن لم تقل أنت (الحقيقة) فسوف يجعلها الملك معلومة بتجسس الرأى وتفرس الخاطر ، ولكن سوف يمحـو اسمك من جريدة الصادقين ، إلا أنه فى هذه الحـال كان قنفـد قاعـداً فى ركن واضعـاً رأسه فى جـيب التغـافل ، فسـمع هذا الكلام ، وانطلق من هناك إلى الدب وأخـبره عن مجـارى الأمور وأحداث الحـال . فحضـر الدب إلى الأسد فى الحـال . فرأى الجمل مطأطأ الرأس صـامتاً متوقفاً . فـفكر قائلاً : إن هذا الصمت دليل على من يريد إفشاء سـرى . فالأفضل أن أسحب كرة مـخالسة هذه الفـرصـة من الأمام ، ثم تـوجه إلى الجـمل وسـأله لماذا لم تضع خـاتم السكوت على لسانك فى ذلك اليوم الذى جعلت فـيه عرض الملك عرضة للمساوى والمخازى وكنت تفكر فى قصد روحـه العزيزة ؟ فتعجب الأسد من تلك المكابرة ، وتذرع بالمصابرة على نار الغيظ حتى يرى ما هو جواب الجمل ، لأن مجال الشبهة العظيمة قد وقع «واختلط الخاثر بالزياد»(١) .

فقال الجمل : أيّها الظالم النجس ، وأيها الأثيم السفّاك هل أنا قلت

(١) الخاثر ما خثر من اللبن ، والزُباد : الزّبد يضـرب للقـوم يقعـون فى التخليط من أمـرهم ، عن الأصمعى ، الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ١ ص ٤٢٥ .

هذه الفكرة فى حق الملك لك وحدك أم لك مع شـخص آخر ؟ فلو كنت قد قلتـها لغيـرك أيضاً . فينبـغى على هذا الشخص أن يشهـر فى وجهى مثلك ، ولو لم يسمع هذا الخبر سـواك فلماذا لك تأت كخدم هذه الخدمة - بتلك الحال التى وقفت عليهـا الآن - وأخبرت الملك لذلك الذى علمته ؟ وتركت التنبيه على مثل هذا الغدر إهـمالاً ، ولماذا لم تنشغل بالحفيظة التى هى منشأ حسن المحافظة ؟ أما حكايتك معى فتشبه حكاية زوجة النجار ، فقال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية النجار مع زوجته

قال الجمل : سمعت أن نجاراً كان ماهراً حاذقاً فى الصنعة لدرجة أنه كان ينفخ الروح فى قالب الخشب ، تتحسن صورة الفكرة وصورة ما قطعتـه بلطته على يده . وكان له زوجة جميلة الوجـه فاتنة الجسم حتى أن نـاشدى غزل الخـاطر كانوا ينـشدون هذين البـيتين فى سـتر حسب الحال .

يا من قطع رأس فرجار الوهم خده بالنقش على اللوحة
فيجب أن يكون كل مصورى الصين (هكذا) حتى يقطفوا ورد وجنتك

والحق هو لو أن النقش هو زينة بيت الحسن والجـمال ، فإنه كان يعرف نقش عقدة حيل النســاء تماماً وكان يلتقط - من مكان العمل - الصور التى كـان يتعب العقل من مطالعـتها . والخـلاصة أن كل ليلة وعندما كان يضع النـجار رأسه فى نوم الغفلة ، ويقيـد حارس بصره

بسلسلة الرموش بين الجفنين ، وكان ينام ذلك النوم الهادئ السعيد دون تقطع ، كانت تهتز سلسلة عشق المحبين الذين لهم علاقة حب مع المرأة . فكانت تخرج من الباب فى هدوء ، ولا تعود إلى البيت حتى يخرج نائمو طلائع الصبح رأسهم من جيب الأفق .

فوصل الأمر إلى روح النجار ، ووصلت السكين إلى العظم . ففكر قائلاً : أفضح هذه الفاجرة بما تفعل ثم أطلقها ، لأن مفرش فائدة عرضى عندما تلوح بالملائمة بين الأقران والإخوان فسوف أصبح مضغة كل فم وضحكة كل مجلس . إذن أطلقها وأخرج الرأس المغطى فى حكم التزوج من بيت الصيانة وخدر الديانة ، حتى أصبح بذلك مرتفع الهامة طلق اللسان «من لم تخنه نساؤه نكلم بملء فيه»[1] وذات ليلة وضع رأسه فى ملابس النوم متظاهراً بالنوم ، فنهضت المرأة حسب العادة الماضية وخرجت . فأغلق الزوج الباب جيداً حتى جاء الوقت الذى رجعت فيه الزوجة فوجدت الباب موصداً . فنادت على الزوج أن افتح الباب . فقال النجار : ارجعى من هنا ، وإلا ضربت رأستك بالفأس التى ضربت بها رجلى عدة مرات بسببك . وكان هناك بئر عميق قريب من الباب . فقالت المرأة : إن لم تفتح ألق بنفسى فى هذا البئر فيريقوا دمك غداً قصاصاً لى ، ثم أحضر حجراً كبيراً وألقت به فى البئر ، ثم اختفت خلف الجدار فسمع النجار صوت الحجر فخرج حتى يرى ما هى الحال ؟ فأسرعت الزوجة من مكانها إلى البيت ، وأغلقت البيت وضجت بالصراخ والعويل . فاجتمع الجيران وسألوا : ما حدث ؟ فقالت أيها المسلمون :إن هذا الزوج فقير وأنا .

أعانى فاقته وفقره

(١) الميدانى ، مجمع الأمثال المولدين باب الميم جـ ٣ ص ٣٦٤ .

وقد أخـذت ذيل الموافقـة معـه برغم كل هذا البيت الحـرمان ، وشكر مثل هذه النعمة - وهى أن جعلنى الله تعالى بجانبه - هو فعله لهذا الأمـر ؛ فيخـرج من البيت كل ليلة ويعود كل صـباح ، وأنا لا أتحمل أكثر من هذا . وظل الزوج عاجزاً بسبب افترائها واجترائها إلى هذا الحد حـتى قرر أن يذهبا إلـى القاضى فيـرفعا إليـه هذه الحال . فذهبـا وجلسا فى الدوار فبدأت المرأة وحكت الصـورة التى كانت من نقش خديعتها واختلاف هوى طبيعتها . ثم وضع الزوج حقيقة حكاية الأمر أمامهم ، فحكموا على المرأة بحكم التعزير الموافق للشرع .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى يعلم الملك أنه عندما تغلب الأنثى الرجل وتصبح الرجـولة مغلوبة ، يقل عمل الرجـولة ، يبدو فى كل وقت بصفة النساء ويتقدم بهذا الوجه .

لسان الطلق الفصيح والقلب الملئ بالكذب لا يقول الحق بجانب الرجل العالم

فجـاء الغراب إلى الأسـد وقال فى هـدوء : إن علامات الحـيلة والخداع بادية فى معاملة الدب ، وتشهد دلائل مكائده على جرم أمره وعدم جرم الجـمل وقد قالوا : لا يجوز للملك أن يحـتج فى أمر مع عامـة الخلق ولا يجوز لـه أن يقول كلامـاً من أجل المعـارضة ، لأنه عندما يكون ذليلاً فى أعينهم يتـجرأون عليه ، ويصل الأمر إلى درجة يصعب مـعها فرض الحق عليـهم فكيف بتسوية الباطل . فـأمر الملك فسجنوا الاثنين وأناب ثعلباً يدعى «جادو» لمراقبتهما والمحافظة عليهما .

تَمنيتُ أن تحيـا حيـاةً شهيـةً ‏ ‏ وألا تَـرى طـولَ الزمـانِ بَديـلا
فهيهات هذا الدهـرُ سِجنٌ ‏ ‏ وقَلَّما يمرُّ على المسجونِ يَومٌ بِلا بِلا

فـذهب الفأر الذى كـان خبـيراً بأمـر الجمل ، وكـان قد سـمع تحـاورهما وسـأل «جـادو» إلام انتهى أمـر الجـمل والدب ؟ فقـال : كلاهما محبوس حتى يظهـر وجه النجاة المطلقة . فقال الفأر : أتوقع أن تقول لى ما ترى من الجوانب التى يغلب عليـها رضا وسخط الملك ، حتى أعلم من منهما تكون عـاقبته حسنة ، وإلى أى جهة فيـهاتتجه الشؤم . فقال جادوا : إن ريح هذا الحديث تأتى من تجاويف الأمر ، فلو تطلعنى على ذلـك الذى تعرفـه ، فإن هذا لا يبـدو غريبـاً على أسلوب الأصدقاء والأحباب .

فقال الفأر : إنى أريد أن تشمل عاطفة الملك كليهما ، ويرمقهما نظر عنايته وينتهى الأمر بخاتمة الخير ، وقد سمعت أيضاً أنهم قالوا : لا تتحدث فى أمر الملك بخير أو بشـر ، واختر لنفسك . فقال «جادو» : يجب أن يكون الكلام جيداً ويأتى موافقاً للعقل والشرع ، حتى يكون مقـبولاً ويكون مثل العـسل المصفى الذى تخـرجه من أى طبق ، فلو كـان من ذهب أو من طين فدرجـة حلاوة العـسل تتسـاوى لدى كل الأذواق ؛ والعلم بشـبه قطرات المطر التى تظهـر أثراً من آثار المنفـعة على أى أرض تنزل عليها . والرجل الـذكى صاحب الكفاية والدراية فى الطبع عندمـا يطلب صلاحـاً فى أمر ملكه ، فـإنه يتقـدم إليه من الأمام حـتى ولو خاطر بروحـه ولا يتراجع عن الحصـول عليه مـثلما

فعلت ايراجسته مع كسرى فقال الفأر : كيف كانت هذه الحكاية .

حكاية إيراجسته مع كسرى

قال الثعلب : سمعت أن كسرى كان له زوجة أميرة ، تربت فى خدر العصمة وانتقلت من بلاط الستر إلى سرير مملكته . أطلقت شعاعًا من حسن وجنتها على الشمس ، وهدد عارضها القمر فى بيت الموت . وكان كسرى قد قتل أخاها وأباها ، واقتلع سرور بستان الأمانى من على نهر الشباب ، وسقى غصن شجرة الملك التى على أرومة السعادة بالدم . وبالرغم من أن كسرى كان شديد التأوه من عشقها إلا أنه كان دائم التفكر فى القتال الذى كان قد فعله معهم ، وكان يظن أن حب الأخوة والأبوة سوف يحرضها يوماً ما على بعض الزوج ، وإن تذكر أعزائها لن يذهب أبداً من حنايا خاطرها ، عندما جاء كلاهما إلى بيت خلوة العشرة للمداعبة والملاعبة على سرير السعادة ، مد كسرى يد الشهوة بالانبساط وهو فى قمة النشوة والنشاط ، حتى يحتضن أفخاذ المحبوبة بالحبل المسكى ، يرتشف عدة قبلات من فم المحبوبة الصغير ويلتهم اللوز بجوار الشراب . فنظرت المعصومة . فرأت خادمات استار الحضرة ومستورى حرم الخدمة أعنى الخادمات قمريات المنظر وبنات زهرة النظر اللاتى كن قد وقفن على يمن ويسار السرير ، واصطففن مثل بنات النعش ونجم الثريا حول مركز القطب فخجلت كل الخجل من نظراتهن ، وفى نفس الوقت قفز إلى خاطرها ونصب عينيها : أن كسرى أنوشروان عندما صدقت جواذب رغبته بمشاهدة صاحبة الجمال من منظورات فراش العشرة . نظر فرأى فى ذلك البيت زهرية النرجس قد وضعت وسط

زهريات الرياحين . فسحب ستر الحياء على وجه مروءة الرجولة وقال : إنى لأستحى أن أباضع فى بيت فيه النرجس لأنها تشبه العيون الناظرة[١] وقالت فى نفسها :

إنه برغم كل أعذار الرجولة قد استحيا من حضور النرجس الذى ولدته أمه أعمى ؛ فإذا لم أبال بحضور أزهار الياسمين والأرغوان[٢] التى نبتت وهى ترى أفضل من النرجس فى مراقبة أحوالى ، وإن لم أبالغ فى مغالاة بضاعة البضع فإن هؤلاء العذارى صاحبات الشعر المسكى سوف يطلن لسان الطعن فىّ مثل السوسن . وبالرغم من أنهم قالوا : جدع الحلال أنف الغيرة[٣] إلا أننى لا أملك طاقة لهذا التحمل أو وجهاً لهذا الخجل . ورفعت يدها - فى تلك الحالة - إلى وجه كسرى فوقع من طرف السرير . فتخيل أن موجب هذه الحركة ومهيجها هو حقد الأب والأخ الذى تمكن من داخلها ، وأنها دائماً سوف تخرج الرأس من جيب الفضول بحيلة ما ، وهذا نفسه مثل على أنه : لايحب اقتناء السيئ فى البيت وخاصة الزوجة . ثم دعا إيراجسته الذى كان وزير الملك ومستشاره . وبعد أن قال له سبب غضبه على زوجته ، وأمره أن يحملها ويقتلها . فتصرف الوزير فى ذلك الوقت الذى كان الملك فيه قمة غضبه على إلا أنه لم ير الالتزام بحرفية الأمر . ثم حملها فى ستر الحرمة إلى بيته وظل متردداً بين تأخير ذلك الأمر وتقديم إشارة الملك . أرسلت المعصومة رسالة إلى الوزير على لسان خادم أن قل للملك : لو أننى مذنبة فإن هذه النطفة

(١) الفرس يطلقون «النرجس» كناية عن عين المحبوبة .

(٢) كناية عن الخادمات اللاتى سبق وأن ذكرها صراحة .

(٣) قال ﷺ ليلة زفّت فاطمة إلى علىّ رضي الله عنه ، وهذا حديث يروى عن الحجاج بن منال يرفعه الميلقى ، مجمع الأمثال جـ١ ص ٢٩٠

الطاهرة التى فى بطنى من صلب طهارتكم لا ذنب لها ، وهى حتى الآن ماء بسيط ، لم تتركب مع أجزاء التراب الآدمى المخلوط بالمعصية فليس من اللائق سحب رقم المؤاخذة عليه وإجراء قلم القضاء عليه . لأن هذا الطفل الذى يحضره بيت دولتكم من عالم الغيب بالدعاء . فإنك قد دعوته ، وكنت قد طلبت قدومه بأدعية الليل ، واستدعيته بأوراد وروده ، فاسمح له حتى يأتى ، ولو كنت تفكر أن لهذا الطفل الضيف أم طفيلية ، فليس من باب الكرم أن يمدوا يد المنع آمام طفيلى الضيف .

أيهاب الحبيب : لا تفعل الفعل الذى تندم وتخجل لفعله

فذهب الوزير لخدمة كسرى وطلب الأمان لحامله حمل الأمانة حتى وقت وضع الحمل . فلم يقبل كسرى وأمره قائلاً : أذهب وأوصل هذه المهمة إلى القضاء وهذا المثال إلى الإمضاء[1]. فعاد الوزير وعندما تأمل فى حقيقة الأمر ، لم يجد رخصة لهذا الفعل من مفتى العقل ، وكان يعرف أن كسرى سوف يظهر حب الولد ذات يوم فى داخله الذى هو مظلم بدخان نار الغضب الآن ؛ ويندم على قتل (الولد) الذى هو سبب ضياء عينه ، ويعلم أننى كنت واسطة ذلك الفعل . ورأى أن الثواب هو أن يدبر مكاناً خفياً عن نظر الخلق لا يراه سوى الشمس والقمر من فتحة جداره ، وأوكل حفظ ورعاية ذلك البيت الذى كان فيه مقامها إلى حارس ، ورتب كل ما كان لازماً من أسباب المعاش من كل يحتاج إليه وجهزه على وجه المصلحة . وعندما تمت التسعة أشهر ، وأظهر البدر ليلة التمام الوجه من خلف عقدة اليأس . ونزل المحبوب من فوق كتف مرضعات الفطرة إلى حجر قابلة الدولة ، وكانوا يربونه كذلك فى ذيل حواض الحظ حتى وصل إلى سن السابعة .

(١) كناية عن تنفيذ أمره بقتل الزوجة .

وذات يوم كان كسرى يتنزه فى مكان الصيد . ظهر فى الصحراء شاة مع حمل وكبش ، وعندما أطلق الجواد مثل الريح العتية من مهب التبختر والنشاط وجعله يجرى بالقرب منهم واضطر الثلاثة إلى منحنى جبل . وسحب سهماً وصوبه نـحو الحمل . فجاءت أمه إلى الأمام حتى تصـبح درع الآفة . وعندما صوب السـهم على الأنثى ، جاء الكبش فى الأمام حـتى يكون مانعاً للقضـاء على الأنثى ، فوضع كسرى إصبح التـعجب بين أسنانه من ذلك الموقف ورمى القوس من يده وتذكر صورة حال الزوجة وإهلاكها مع الولد الذى كان فى بطنها ؛ وقال لنفسه : فى الوقت الذى للحيوان الوحشى مثل هذه الرحمة والشفقة لدرجة أنه جـعل نفسه فداء لولده ، ويكون للكبش كل هذه الرحمة والرأفة على الأنثى لدرجة أنه يستقبل البلاء حتى لا يصيبها ؛ أرقت دم فلذة كبدى بيدى ، ولم أرحم الزوجة التى لم يكن لها مثيل بين نساء العالـم في حسن الصورة وطهارة الصفـة ، كيف أطلب استساغة لهذا الغصة ومرهماً لجرح هذه القصة ؟

إن الشخص الذى يلتفت بوجهه عن الصدق هو الذى يندم على فعله

وعندما عاد كسرى من الصيد ، دعا الوزير إلى خدمته ، وحكى له قصة حيوانات الصيد واشتكى له الألم الذى أصاب قلبه من تذكر الزوجة والولد والتحسر الذى ناله على موتهم . فقال الوزير : ليس فى اليد سوى الصبـر . ثم نهض وذهب إلى البيت ، وزين الأمير الصغير بالزينة اللائقة والحلية الفائقة وفواخر الثياب اللائقة من المفرق حتى الأخمص . كمـا رتب لأمها كثيراً من مـختلف أنواع الحرير

وحقائب الملابس الجميلة بالإضافة إلى الهدايا الأخرى من الملبوس المركوب وغير ذلك وأتى إلى خدمة كسرى ضاحكاً مستبشراً وعن وجه الصباحة مسفراً .

أنظر إلى هذه الوردة النادرة التى تفتحت لنا ، غير أنها لا يمكن أن تبدى اللون أو تخفى الرائحة

أيها الملك ، إن ذلك اليوم الذى أمرت فيه أن يكسروا ذلك الصدف مع الدر ويدفنوا تلك الوردة مع البرعم فى التراب ، ويقطعوا تلك العلاقة التى بين الأب والأم ، فكرت فى ندم الملك وجريمتى ، وتوقفت فى تنفيذ ذلك الأمر حتى وقت الوضع ، وبعد تسعة أشهر جاء الولد الذى يتفوق على كل إمرأء العالم مثل الوزير الذى يقضى على دور الطابيتين فى الشطرنج ويهدد الملك . والذى أتى بالفأل الحسن وكوكب السعد وقد رصد المنجم - فى نفس الزمان - طالع ولادته . فهذا هو تاريخ الميلاد وطالع المولود .

فيا أيها الملك : أننى لم أفضل إهلاك الأم التى أنجبت مثل هذا الولد منقطع ، النظير وأعدت الاثنين كليهما بالسلامة ، وأحضرت المسك مع النافجة والغصن مع الزهرة ، فدهش كسرى من سماع تلك الحال وخر مغشياً عليه ، وغاب عن وعيه حتى إنه لم يدر ماذا كان يسمع ، وعندما أفاق إلى وعيه قال :

أهـلاً وسهلاً بالتى جـادَت عـلىَّ بِعلة
أهلاً بها وبوصلها من بعد طُول الهجرةِ
أدرْ المُـدامَ وغنّنى أهـلاً وسهـلاً بَالـتىَ

ثم قبل المنة - التى كانت فى مقابل مثل هذه الخدمة - من الوزير وصنع كل ما كان ممكناً من تكريم جانب الحرمة وإعلاء جاهه ومنزلته ، وجعل رأيه مزيناً عروس الدولة وفاتحاً لعقدة مشاكل المحنة وذخيرة وقنية يوم الحاجة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم إنك إذا ما استطعت تنبيهه وإبعاده عن موقع أغاليط الخيال وتخاليط لوهم ، فإنه يرجى إحسان الملك من تلك الناحية (العين) ولن يكون هناك أى ندم على كل ما جعله فى إطار حسن المكافأة ، ومن ثم تستطيع أن تصل وبسرعة من خلال تلك الخدمة إلى الترفع بالمرتبة السنية والتمتع بالحياة الهنية .

قال الفأر : لقد أصبت ، ولا يتردد العقل فى قبول وتصديق ذلك الكلام مطلقاً ولكن من أنا فى الرفعة - وأنا آتى فى تلك المجموعة التى ينتظمها عقد الموالى والخدم ، وأعد من موالى الخدمة - حتى أصير مخصوصاً بشرف المثول على هذه الأعتاب وبدالة أى آلة وبإرشاد أى أرشاد أطلب هذ المقام ؟ وباعتداد أى استعداد أجلس فى هذا المعرض ؟ «إنك لا تجنى من الشوك العنب»[1] لقد سترت القدم أعواماً فى ركن الخمول هذا بذيل العزلة ، ونفضت الذيل من غبار مثل هذه الأطماع ، فاسترحت نهارً من طلب هدف ليس لى .

ونمت فى الليل سعيداً بعيداً عن حفظ الشئ الذى لا أملكه . وأنا لا أعلم اسمى بسبب معرفة الملوك ، ولا أرجح هذه المعرفة على إنكار نفسى فى مثل هذا الواقعة النكراء والداهية الدهياء ، ولا أتصدى للأمر الذى هو خارج عن مجال وسعى وزائد عن قدر إمكانى .

(١) أى لا تجد عند ذى المنبت السوء جميلاً والمثل من قول أكثم يقال أراد : إذا ظلمت فاحذر الانتصار فإن الظلم لا يكسبك إلا بمثل فعلك : مجمع الأمثال جـ ١ ص ٨٦ .

ولم أطلبْ مَداهُ ومَنْ يُحاول　　مَناطَ الشمسِ يعرضُ للسُقاط

وقد قيل : صحبة الملك وجـواره مثل الحوض الساخن ، يتمنى البعيد عنه أن يدخل فيـه ، ويتمنى أن يخرج منه كل من جلس فيه ساعـة وتأذى من لذع حرارة مائة وعـدم مناسبـة هوائه . وكذلك الناظرون الذين يرون حضـرة الملك ورونق الحاضرين من بعـيد ، فيعلقون اليد فى الحبائل والوسـائط ويطلبون الأسباب والوسائل حتى ينضموا بأى حيلة وأى وسيلة إليهم .

والصواب الذى يأتى بالغرض ويؤدى المطلوب هو أن يـبحثوا - بألطف الوجوه - عن الفاصل الذى يجـعل بينهم وبين خدمة الملك سداً منيعاً . لكن لأننى أراك متعلق الخاطر متعمق الفكر فى هذا الأمر ؛ فسوف أبوح لك بهذا السر بشرط ألا تسند هذا الكلام إلىَّ ، ولا تروه عنى . فتعهد الثعلب بتنفيـذ هذا الشرط . فحكى الفأر - تفصيلاً - الحديث الذى به الدب إلى الجمل ، ووضع أمـامه سعاية الدب فى الإفساد ومناقشة الجمل فى طلب الصلاح كما مضى . وأوضح له أنه مهما ألقى (الدب) من شـوك تسويل الحيلة والغيلة فى طريق سليم الطبع سلس القياد ، فلن يؤثر فيه قيد أنملة أو مثل رأس الشعرة برغم كل هذه الطيبة فى القلب ، ولن تتعكر مـوارد صفائه من خبث ذلك الشيطان المارد . ولن تنقطع مادة ألفته بصورة الباطل .

وعندما سمع الثعلب هذا الكلام مفصلاً مستوفياً من الفأر ؛ فرح وذهب إلى بلاط الملك سعيداً ودعا للـملك قائلا : لتدم حياة الملك إلى الأبد ، إن الأيام التى كنت محروماً فـيها من خدمة هذه الدار ،

ومحجوباً عن جمال هذه الحضرة ، كنت أتفحص فيها أمر الدب والجمل ، وأتصفح حاليهما . وخرجت فى النهاية من مقام التحير والتوقف ، وأطلعت بدقة على حقيقة المكابدة وحق المجاهدة لدى كل منهما .

فلو سمح لى الملك وأذن بالحديث أخبرته . فقال الأسد : طالما أنك موجود والحمد لله ، فأنت من الرواة الثقات فى مسار الأخبار ومضارها ، واستماعنا لقولك فقط راجع فى إفادة اليقين على تواتر الجماعات ، ويغنينا عن البحث .

فحكى الثعلب للملك ما جرى من الأحداث ، من البداية حتى النهاية ، فأماط نقاب الشبهة عن وجه الاجتهاد .

فعندما شاهد الملك جمال العيان فى مرآة الخبرة ، التفت الملك إلى الغراب وقال : والآن : ما جزاء الدب ، وما جزاء أفعاله الذميمة ، وماذا يجب أن يكون ؟

فقال الغراب : الرأى هو أن يدمر الملك بعقد اجتماع ملئ بأصناف الخلق من عوام وخواص وصغار وكبار وحقراء وأشراف ، ثم يجلس الملك على العرش ، ثم يأمر بأن يقول كل شخص جلس فى بساط الحضرة كل ما عنده من جزاء مستحق للمذنبين ، ولا يكتم كلمة الحق ؛ حتى يكون محقاً ومعذوراً فى كل ما يأمر به . وأنهوا ذلك اليوم بهذا التدبير والتفكير .

وفى اليوم التالى الذى نزلت فيه زهرة الأنجم على ريح الصباح ، وتألقت واجهة بيت الأسد فى مزرعة بنفسجية اللون ، وجلس الأسد فى بلاط الحشمة نضير الوجه مثل البنفسج الطبرى وورق الزهرة الطرى ، وأخذ فى تزيين درر العبارات بماس شقائق اللهجة ، وأخذ

فى التفتح بشقائق البهجة كالربيع ، وافتتح الحديث قائلا : قال رسول الله ﷺ « لا تجتمع أمتى على الضلالة» ، ويحمد الله كلكم ورعون وزاهدون ، وكلكم فى ملة المتقين وعباد للحق . وقد أديتم لى حق الاتباع على طاعة الله ورسوله لأننى من أولى الأمر[1] وسلكتم طريق الأثر «الناس على دين ملوكهم» .

وطالما أنكم مجتمعون ، واتحدتم على كلمة الحق لأن الذى سلك مع أخ له طريق معاشرة واحد أوقاتاً طويلة ، وبذل له كل الوداد ، وضيق نطاق الاختلاط وعنق الصحبة حتى جعله لا يسع ثالثاً معهما فى أسرار المحبة والعداوة ، وزين الظاهر بحيلة الوفاق ، وملأ الباطن بحشو حيلة النفاق .

وأراد أن يلقيه بتعبئة الاحتيال وتعمية الاستجهال ، ويصيبه بالفخ الذى لايستطيع دوران الفلك - بأى سحر - أن يحل عقدة إبرامه وإحكامه . حتى يأمرك - على سبيل الإطلاق - يجب عليك أن تقصد روح الملك المشفق والمخدوم المنعم لإهلاكه . فإن لم تفعل ، سبقت داعيه قصده ، فتبصر نفسك فى عقدة حبل القضاء المعقدة ، وذليل مخلب بلائه ، لأن تغير خاطره بشأنك لن يكون فى المقام الذى يتصور معه توقفه عن إهلاكك أبداً . ولأن العقل التوفيقى والبصيرة الغريزية هما زمام الانقياد لمن هو حسن الخصال سليم الخلال كريم الطينة ، فإنه يأخذ بيد خبيث الطوية سيئ الأخلاق ، إلى سبيل السداد وطريق الرشاد ؛ حتى يدير وجه القبول عن كلامه ، وظهر الإعراض إلى أمره .

(١) إشاره إلى قوله تعالى «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» النساء ٥٩

نعم إن دم اختراعه وحيلة خداعه سوف يصبح مضطرباً ، ويصير نادماً ، لأنه يخشى تمزق ستر وجهه ، وظهور سوء وجهى نفاقه ، وأن يعرف المخدوم خباثته عن طريق فراسة الذهن أو تجسس راغبى الخير المخلصين المشفقين . وتقديم ذلك المشؤوم المرجوم باللعنة - كالمهجوم على الظنة - بقدم التجاسر ، ويواجه الخصم بالمكابرة «كالمهدر فى العنة[1]» ، فيقلب عليه غدر فعاله وثورة مكره . ولا يأتى مطلقاً على خاطره قولهم «وكم حجة تأتى على مهجة» فأى نكال يستحق ؟ وأى جرح وعقاب يستوجب ؟

فقال حاضرو الحضرة فى صوت واحد : إن كل من يرسم بمثل هذا الغدر ، ويشار إليه بمثل هذه الصفة غير المحمودة ، الأولى به أن يخرج من بين طوائف شعب الدولة حتى لا يؤثر ريح مكيدته ولون عقيدته على الآخرين ، وحتى لا يصاب الناس ببلاء أقواله السيئة ، وأفعاله القبيحة . وكل من يفكر فى تلف نفس الملك ، ويريد إلحاق الضرر بروحه ، ويكون عاقاً بمثل هذه الكيفية ، لا يليق بجنايته سوى السيف الذى يمزق أشلاءه ، ولا يمكن إزالة قذارة وجوده عن أعراض أحباب هذه الدولة وأصدقائها إلا بحد السيف . ولا عجب فى ذلك لأن أى واحد يلقى شرارة قدح - من جانبه - فى تلك النار ، فإن الناس سوف يسقطون عليه سهام الملامة كالمطر من كل جانب ،

وَمَنْ دعا الناسَ إلى ذَمِّهِ ذَمُّوه بالحقِ وبالباطلِ
مقالةُ السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائلِ

(١) المهدر : الجمل له هدير ، والعنّة : مثل الحظيرة تجعل من الشجر للإبل ، وربما يحبس فيها الفحل عن الضراب . ويضرب هذا المثل للرجل لا ينفذ قوله ولا فعله .

الميدانى مجمع الأمثال جـ ٣ ص ٢١

ثم قالوا : لا نعلم من الذى أوقع هذا الخذلان بهـذا الشخصى سيئ الطالع ، سيئ الجوهر ، فاسـد الرأى ، قبيح الوجه ، أعمى البصر ، فى هذا الطريق ؟ ومن الذى أصابه بهذا الخزى والخسار ؟

فقال الثعلب : برغم أن الدب هو المجرم ، واتضح البرهان على جرائمه بالأدلة والحجج التى سمعناها من أهل الثقة المعتمدين . إلا أن الفأر إلى هو شخص حسن المحضر ، مشهور بالصدق والأمانة ، وإن لم يكن معدوداً من خواص الخدم ومحسوباً من جملتهم فهو معروف بين أقران جنسه بمـختلف المحامد والمآثر ، وها هو حـاضر ، فليقل يعرفه ولا يخف شيئاً .

فلم يكن هناك بد للفأر سوى قول الصـدق وإظهار سر الأمر . فقال إننى أشهد أن هذا الجمل الهيون الهين ، اللين ، مؤمن الأصل ، سليم السريرة ليس له أى ذنب . أما ما ينقشه الدب على ذلك الشمع ، كان يعتقد أنه سيصبح كنقش الحجر على حاشية خاطر ناقة صالح ، وقبلمـا يعرف الملك - بعين الحدس والفـراسة - ذلك النقش على صفحات حال الجـمل ، كنت أعرفه ، لكننى كنت واثقاً أنه لن يظل خفياً . فأطلقت عنان لسان الفضول بحكاية تلك الفصول ، وقلت : ما لم يسـأل الملك عن هذا الأمر ، فلن أصرح بهـا ، ولن أتصدى لذلك الأمر .

كناطحِ صخرةٍ بقحافِ[1] رأسِ

(١) يقول العلامة القزوينى : لم أظفر به فى مجمع الأمـثال ، ولم أجد فى كتب اللغة قحافاً فى جمع قحف المسموع فى جمعه أقحاف وقحوف .
القزوينى : حواشيه على مرزبان نامه ط ليدن ص ٢٥٨ .

وعندما سمع الدب هذه الشهادة ، خارت قواه ، وشلت حركته . وقال للفأر : إننى لم أرك أبداً ، ولم أعرفك ، ولم أجلس معك فى معاهد أو فى مشاهد . فكيف تدّعى علىّ شهادة زور ؟

قال الفأر : صدقت ، لكننى لدى بـيت بجوار تلك الغرفة التى كنت تخلو بالجمل فيها ، وسمـعت كل ما دار بينكما من محاورات ومفاوضات فى ذلك اليوم ، وكنـت أنكر مكراً كلام واحد معروف مثلك ، هو من معارف المملكة وأركان الدولة ، تجيز التفكير والسعى فى تمهيد يتضمن سبب هلاك ذلك المخدوم الذى له كل أيادى سوابق المكرمات عليك فى توفير حظوظ خدمتك ، وتوفير جنب حشمتك ، والذى أوصلك من منزل الخساسـة إلى هذه المنزلة . وتجعل هذا مع الشخص الذى يعول عليك فى كل هذه الأمور ، لتقتلع حياته بمعول الكذب والخداع ،

فلا زالَ أصحابى يُسيئون عِشْرَتِي وَيجْفُونَنى حتَّى عَذَرتَ الأعاديا
فوأسفــا حتَّــام أرعــى مُضَيـعــاً وآمــن خَــوانُ وأذكــرُ ناسيــَاً

وعندما انتهى الفأر من أداء شهادته ، وخرج من عهدة واجبه . أمر الملك أن تجتَمع الوحوش والسباع ، ويمزقوا الدب بعذاب أشد من كل عذاب ، وقتل آلم من كل قتل بعد قطع لسان اللعن وسنان الطعن بالأسنان والأنياب . فاجتمعـوا ومزقوا الدب ، وفصلوا أعضاءه عن جوارحه ، وأكلوا من كباب كبـده وشربوا عليه من دمه ، الذى كان عندهم ألذ من أى شراب .

أما الجمل فقد زاد وجاهة ورفعة وجاهاً بين رؤساء الدولة وهامات المملكة .

وتلك هى نهاية الجهلاء الغادرين الذين يبادرون بخيانة الملك ، ويوزعون على الأصدقاء سم النفاق فى قدح الصحبة حلو المذاق ، وهذا هو جزاء العقلاء والأمناء الذين يحافظون على حق الإحسان والبر بحسن المعاملة والعاقبة للمتقين .

انتهى باب الجمل والأسد الزاهد ، وسوف نذكر بعد هذا الباب ، باب العقاب والحجلتين . ليؤمن الله تعالى مورد إنعام الملك لسيد العالم من ورود الفار غير الشاكرين ، والجاحدين غير المعترفين بالحق . وأعمى بصر الحقود الحسود عن ملاحظة جمال حضرته فى مراقد الغفلة حتى صبح القيامة ، بمحمد وآله الطاهرين .

الباب التاسع

فى أمر العقاب وآزاد چهره وإيرا

فى أمر العقاب وآزاد جهره وإيرا

قال الأمير سمعت أنه كـان هناك جبل على حدود آذربيجان ، معروف بإرتفاعه ، ومشهـور بأنواع النبات والحشائش، وقد زحفت أجناس الوحوش والطيور من مختلف الأماكن إلى معاطف سفح هذا الجبل ، ونزعوا الملابس من يدى جـريمة الحوادث ، وأقاموا بين تلك المراتع والمرابع فى لطف ونعيم . ورحلوا من مجاورة الإحتياج وفشل الفقر إلى سـاحة منشأ الخصب والراحة . حيث فـتح جالسوا الليل والسحر طبلة العقاقير باسم منابت أرضه ، وفتحت نفحات ريح الصبا والشمال بفضل رائحة هوائه الفائحة نافجة الأزاهير . وأخذ الخضر[1] زلال أنهاره من ماء حيـاة ذوقه (أى هذا المكان) . وأصبح إدريس[2] راغباً فى ظلال أشجاره عن ظل طوبى ،

أرتـكَ يـــدُ المزنِ آثـارَهـــا وأخرجَت الأرضُ أسرارَها

هـــى الخلدُ تَجمعُ ما تَشْتَهى فَزُرْها وطــوبى لمن زَارَها

وكان هناك بين لزوج من طائر الكبك(٣) فى ذلك الجبل ، اسم الزوج «آزاد جهره» والزوجة «إيرا» وكل عـام فى فصل الربيع ، عندما يغلى دم الرياحين فى عـروق الأرض وتصرخ أذن الآفاق من زمـزمة

(١) الخضر هو العبد الصالح الذي صاحبه موسى عليه السلام ، والذى ورد ذكره فى القرآن الكريم .

(٢) إدريس عليه السلام ، هو أحد أنبياء الله عز وجل «وهو الذى يسميه العبرانيون خنوخ النبى ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن أدم ، وهو الذى سكن صعيد مصر » عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٧٨ ط الثانية مكتبة دار التراث القاهرة د . ت .

(٣) الكبك : طائر فى حجم الحمامة ، رمادي اللون ، جناحه يشـترك فيه اللونان الأحمر والأسود ، لحمه لذيذ ، يعيش فى سفح الجبال ، تضع أنثاه بيضها فى فصل الربيع . (فرهنك عميد) .

الطيور خلف ستر العشاق ، نهض عـقاب - كان متوطناً جبل قارن ، وكان ملكاً على طيـور تلك النواحى - للتنزة والمشاهدة ، ثم يأتى في كوكبة من جوارح الطيور وكواسر العـقبان إلى ذلك الجبال ، فيصطاد ولدى هذين الكبكين ، فـيقعـا كل عام فى ركن أحـزانهم من فراق كبديهما ، وتلسعهما دموع القلب والعين كالإبر . ويبدلان لباس الحرير الملون بلباس الغـراب الأسود ليكون لباس مأتم ، ويبكيـان ليلاً نهاراً وبكاءً مؤلماً بدلاً من ضـحك النشاط والطرب الذى كان مـركوزاً فى غريزتيهما ويقولان :

لابد لقلبى المجروح من مئات الآلاف من العيون ، حتى يبكى على كل ابن بواحدة .

أنا طائر حزين الـقلب ، إذ وضعنى الفلك على سـيخ الكباب فرحمتنى النار وبكى علىّ السيخ .

وذات يوم جلس كلاهما لتدبيـر الأمر ، وقالا : لقد مرت علينا سنون العمر ، وتحطم ريش النشاط وجناحـه ، فكل عام نضع بيضة ، ونوصل الأفراخ إلى بلوغ الطير ، يخطفهم هذا العقاب من أمام أعيننا ، ولا نستطيع دفع ذلك بأى وسيلة وعـن قريب سنقطع نسلنا ، وسوف يُسَوَّدُ بيت أملنا بدخـان القلب الأسود ، وسوف ينقطع ذكـرنا بسبب جرح مخلب هذا العقاب ، ومع أننا بقينا مصانين فى وقاية تحرز الحال عن وقع صدمته ، وأضاء الله تعـالى أعين قلبينا بكحل اليقظة والفطنة حتى نتنبه لمفاجأة قهره .

إلا أنه إذا أنزل القضاء بقيت عين الحزم مغلقـة ، فيجعلنا أسيرى مخلبه وكسرى قناة صولته ، فما فائدة هذه اليقظة إذن ؟

فقال آزاد جهـره : الصواب هو أن نرحل من هذا المكان المخوف ونختفى فى مكان آمن ، حتى نستطيع نحن وأولادنا أن نحيا فى راحة

من عــوارض أمثــال هذه الحــادثات . لأن وضع مدخــراتنا فى حــضن الآخرين الذين ليسوا من شعب أصولنا وفروعنا أمر صعب ،

تؤديه مذموماً إلى غير حامد فيأكله عفواً وأنتَ دفينُ

وكيف نعيش سعيدين بــدون الأولاد الذين هم عُمُدُ الحياة ، وثمار شجرة الأمانى ، وكل شعرة من شعرهم هى شريان متصل بالروح ؟

وذاك لأن المرءَ يحيا بلا يدٍ ورجلٍ ولا تلقاه يحيا بلا كبد

قالت إيرا : هذا الكلام صحــيح ، وكلانا مشترك فى صــفقة هذه المحنة والنعــمة ، وكلانا منــغمس فى عين هذه الواقــعة ، ومبــتلى بألم البلاء « ولم يعرف مرارة الثكل إلا من ذاقه» .

إننى لم أكن غافلة عن هذه الفكرة التى فكرت فــيها ، والتى توافق آراء العلمــاء وتأتى فى نسق واحــد مع أفكار الحكمــاء وأرباب العلم . حيث إن سهــام أوهام العقلاء إنما تصدر عن قوس واحدة قــاصدة هدفاً واحداً . ولقد قــالوا :إن العقل يشبه الحصن الحــصين الصعب المنال الملىء بالمنافع ، كل من يبــحث عن المنافع فــيه ، يســتطيع أن يصل إليهــا من طريق واحد .

وضرب قــدم المعاملة والمعــاشرة فى مسلك المحــبة والعــداوة وسبل الخوف والرجاء ومذاهب اللطف والعنف مع العقــلاء له هذه الصفة نفسها ؛ لأن خــيط رضــاهم وسخطــهم إنما هو من باب واحــد . ومن ثم يمكن الحصــول عليه بسهولة بخــلاف الجهلاء إذ إن دواعى طبع أفكارهم غــير منضبطة ، ولا يستطيع صاحب الكفاية الإمساك بعنان خواطرهم الفاسدة وهواجسهم المبعثرة .

إنى لآمن من عدوٍ عاقلٍ　　　وآخافُ خِلاً يعتريه جنونُ

فالعقل فنٌ واحد وطريقُه　　　أدرى وأرصد والجنونُ فنونُ

غير أن شجرة المحبة المغروسة في أرض الوطن علامة الإيمان ، واقتلاعها أمر صعب بحكم أن بيتنا يقع بعيداً عن منازل الطيور الصائلة وعن أماكن باحثى الفتنة الضوارى ، وقد نجونا من مصادمات مهاجمتهم ، واسترحنا من ملاطمات تعديهم . فالأولى هو البقاء هنا ؛ لأننى أخشى إذا نحن انتقلنا من هذا الوطن ألا يناسبنا هواء الغربة ، ونبعد عن مسقط رأسنا ، متوهمين المنفعة فإذا بنا نخسر رأس مال العافية ؛ لأن نفس التقدير ليس فيه - ولا يسع - أكثر من هذا فى قالبنا ، ولا تأتى بنتيجة من مقدمات الأغراض سوى الحرمان .

لا يمكن أن نحصل على أربعة من عشرة بسبب غشك واحتيالك[١]

وحينما يوجد فى هذا المكان قوة كقوة شياطين الضلال تذهب وتدعو خيال النفس إلى الرغبة المستحيلة فهذا علامة عدم النضج والفشل .

لماذا تطلب شيئاً لست فاقدة

ومثلما يبرأ مزاج العليل من عقابيل[٢] العلة ، وتصير حالته إلى الأفضل ، ويصرف النظر بعيداً عن مشتهيات الطبع ، ويقدم حمية الرجولة مع حمية آماله ، إذ أن الرجل الحر ينسب المروءة إلى نفسه

(١) هذا البيت لا يناسب السياق الذى أتى فيه .

(٢) العقابيل : بقايا العلة والعداوة والعشق ، وقيل هو الذي يخرج على الشفتين غبّ الحمى ، الواحدة منها عقبولة والجمع عقابيل . (لسان العرب) .

لينجو من ضيق هذا القبض والبسط حينما يخطو خطوة واسعة في مراده ويتلو الحرية فى رفض الشهوات . أما محنة واقعة الأولاد التى تتجدد كل عام هى واحدة من وقائع الأيام التى لابد أن تصيب البشر . لأننا جميعاً معرضون لضرر الآفات وموطئ مختلف صدماته ، فنفوسنا هى منزل كوارثه ومحلها .

وعندما نتذكر الانفصال عن العلائق ، والانقطاع عن الشعائر والانتقال من المنشأ والمولد ، تصبح آلام فراق الأولاد سهلة علينا . لأن الدنيا حبلى بالحوادث وتلد كل لحظة حادثة . فلنتخيل أن ولادة أولادنا وأكل العقاب لهم إحدى هذه الحوادث التى لا مفر منها . ومثل هذه الأم غير الرحيمة التى تكون لها مثل هذه العادة طيلة حياتها وهى « تطعم أولادها وتأكل مولودها » .

ومعلوم أن الولد - من الولادة حتى الوفاة - ليس سوى سبب لألم الأب والأم ، فعندما يكون فى مرحلة الطفولة لا يبقى طرفة عين دون مراقبة لأحواله ، ومحافظة على دقائق تعهده ؛ وعندما يصل إلى مرحلة البلوغ يصبح صرف الهمة كلها لضبط مصالحه ، فيرجحون ترتيب أمور معاشه على كل المهمات ، وإذا حدثت له حادثة - والعياذ بالله - ولم يوجد لذلك الجرح مرهم ، ولا لهذا السم ترياق ، حينئذ يمكن أن نعرف أن الولد هو أكبر شاغل من شواغل إيجاد السعادة ، وأشد قاطع من قاطعى طريق الآخرة ، ولشرح هذا المعنى يأتى قوله تعالى «إنما أموالكم وأولادكم فتنة »[1] . فإذا مُنِحَت الأذن السمع الحقيقة من هذه

(١) التغابن : ١٥

الكلمات التى ينطق بها لسان الوحى ، سوف تعلم أن وجود الأولاد فى نظر الحكمة مثل بقية أنواع الزينة المزيفة الأخرى ، من مال ومتاع الدنيا التى هى أدوات الزينة التى كتبت على ظواهر حال الآدمى ، وليس لها أى وزن ، ومن ثم فليس هناك فرق بين الطفل الجاهل عابد الخيال الذى يلعب بدمية العروس التى صنعت من الخشب ، وبين من يسعد قلبه من المطلوبات الأخرى ببقاء الأولاد وتجميلهم ويصف الله تبارك وتعالى هذا الأمر بقوله «أنما الحياة الدنيـا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد »[١] .

وكما أن ذلك الطفل غير المميز - فى حـالة شغفه بتلك اللعبة - ينشغل عن آداب النفس الأخرى ، فإن الـرجل لا يستطيع تحصيل أى شئ من أسباب النجاة فى حالة الحياة أو فى الممات ، عندما تكون همته على أمر الولد وقلبه مـشغول بأحواله ، ويبقى محرومـاً محجوباً عن مطالعة جمال الحقائق فى الأمـور ، والوقوف على دقائق أسرار الباقى والفانى وقوله تعالى «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً»[٢] إشارة مُقَرِرَةٌ لما سـبق ، وبرهان صريح وبيان ساطع على ذلك الذى يلزم كـذخيرة عمل لطالبى السـعادة الأبدية ، والذى يمكن تقديمه فى يوم القيامة «يوم لا ينفع مال ولا بنون »[٣] .

(١) الحديد / ٢٠
(٢) الكهف / ٤٦
(٤) الشعراء / ٨٨

شئ آخر ليس من أعلاق الذهب والفضة أو الأولاد والبنات ، وهو - يا فلان - عندما نتـذكر عذاب الصداقات غـير المجربة وعناءها ، وتحمل جور الأجانب وظلمهم ، وأخلاقهم غير الحميدة ، والعيش دون اختيار والحركة والسكون بلا قاعدة أو قانون هو من لوازم الغربة . حيئنذٍ ، نعرف أن كل ما نملكه هو السعادة التامة والأسباب المعيشية المنظمة .

ولو تنفذ هذا العزم وتصل إلى ذلك القصد الذى تقصده ، يمكن أن تطل محنة من مكان الأمل الذى جعلته هدفاً لك ، وتملك عيون الراحة جميعها النعـمة التى ذهبت من اليد وانمحت بقدم الاستنكاف ، والتى لاترى عوضاً لها .

كم نـارِ عـاديةٍ شُبَّت لَغيرِقرى   على يفاعٍ وكم نورٍ بلا ثمرِ

هَوِّن عليك أموراً أنت تَنكرها   فالدهرُ يأتى بألوانٍ من الغِيَرِ

قال آزاد چهره : كل ما قلته خلاصة الحكمة ، ورأس مال العلم ، وحاصل تجـربة الأيام ، ومؤكد بإشارة العـقل وأحكام الشرع ؛ لكن لايمكن أن تغط النفس فى نوم الذهول ، أولا تأمـن طوارق الآفات ، وخوارق عادات الأيام ، التى تأتى من خلف سِـتر القضاء بكل أنواع الألعاب الخـفية . لأن نازلة الدهر لا ترسل - مطلقاً - رسـولاً قبل مجيئها ؛ فتكونى عالمة بوقت نزولها ،

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأولهِ   إن الحوادثَ قد يَطرقْنَ أسحاراً

ولو أن هذا العقاب - عياذاً بالله - يأخذ واحداً منا ذات يوم ، فأى لذة يجدها ذلك الذى يبقى بعد فوات الحبيب الأمين والمؤنس الرحيم ،

ما حَالُ مَنْ له واحداً　　　يُؤخذ منه ذَلك الواحدُ

وعندما يقع فى حبس الوحدة ، هل يقـابل أنس صحبة ألف سنة مع الأحباب القدامى بساعة من وحـشـة الوحـدة ، فتخيلى صورة هذه الحال . ولله در من قال :

إن الحمامة الحزينة وحيدة مثلى ، ما نامت وما نمنا من بكائها

هى تبكى وأنا أقول لها ، ليس حزينا من يستطيع التكلم

لا قدر الله ، ولا كان ذلك اليـوم الذى يجب علينا أن نكابد مثل هذه الحرقة ، وتغنى فيه أغنية أنين الفراق ، ويجب أن يعلم أن كل من يعطى ظهر الاستظهار إلى القـدر ويترك الدعاء والطلب ، ويتكئ على وسادة الاعتماد ، ويلتفت بوجهه عن القدر ، يكون مثل الرجل المكارى الذى يخفف حمل الحمار من ناحية ، ويثقلها من الناحية الأخرى بحجر فوق الحمل ، فأنى له أن يستقيم حمله ، فالطلب والقدر مثل الميزان ، نظيراً وعديلاً له فى العسر وفى اليسـر ، بل هما أخوان وضعاً أيديهما معاً فى طريق المرافقة ، وعقدا العنان فى العنان ، لدرجة أن هذا بلا ذاك لا يتقدم من بـلاط العـدم إلى ساحـة الوجود ، والآخر بدون الأول لا ينتقل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل .

إذن يجب علينا قبل أن يفلت الأمر عند حد التدارك ، ويصبح فى مضيق الاضطرار ، أن نستعد ونتسلح للذهاب إلى مقام آخر ، حتى إذا ما أتى وقت الولادة ووضع البيضة ، نسـتطيع أن ندبر مسكناً وبيتاً ،

ونرتب أسباب احتضانهما ،

دمِّث لنفسك قبل النوم مضطجعاً[1]

قالت إيرا : كل ما تقوله مبنى على قـواعد العقل ، ومقبول فى مقاعد السمع لكن لطالبى الدنيا وباحثى المراد العاجل قانوناً آخر وأصلاً متفرداً فى اقتناص الأهداف وتحصيل الأغراض .

فالبعض يجره ويوصله إلى المقصود بلا جهد ، والبعض لا يحصل لهم شئ دون كد وسعى ، وكم من أشخـاص ظلوا بلا نصيب بسبب تسويف الكسل ، وكم من أناس وقعوا فى عثار العجلة فلم يخرجوا من بادية الأمل الظالم .

بالحرصِ فَوتنى دَهْرى فوائَده   فكلما ازدتُ حِرصاً زادَ تفْوِيتاً

وجهدنا مع العقـاب ، وتفكيرنا في طريق دفعه ، صفـقة يمنعها رائحة الدم . لأن طير قوته يطير من وجه النسبة إلى أوج الثريا . ومقام ضعفنا فى حضيض الثرى «وأين الثرى من الثريا» . وقد قيل إن كل من يقاوم خصماً قوى الحال ، عالى اليد فسوف تأتى نكبته على يده ، ولقد ضربوا مثل هذه الصورة بتلك النملة حقـيرة البنية التى عندما يصبح لها جناح ، تثار داعية نهوضها من زواياها المطمورة المظلمة فتخرج وتتخيل أنها تستطيع أن تطيـر بذلك الجناح الذى تملكه ، إلا أن الحيوان الذى

(١) ويروى (لجنبك) أى استعد للنوائب قبل حلولهـا ، والتدميث : التليين ، والدماثة والدّمث : اللين ، ويروى أن عائشة بنت أبى بكر رضي الله عنها ذكرت عمر رضي الله عنه قالت : كان والله أحوذياً نـسيجاً وحده ، قد أعد للأمور أقرانها ، للميدانى : مجمع الأمثال ، جـ ص ٤٦٦ .

يصل إليها أولاً يجعلها طعاماً لنفسه «إن أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين» .

وكل ما هو مخفى فى طى مكامن الغيب ، وسوف يظهر بمظهر المكونات ، لا يعرفه أحد اليوم ، وهذه الطاحونة التى تطحن العالم على رأسنا ، وعلى رأس هذا العقاب - الذى جرنا إلى هذا البلاء - تدور فى مدار واحد .

وكل من له نظر دقيق ، وينظر فى دوران هذه الطاحونة يعرف أنها سوف تسحقه مثلنا ، دون أن يدرى . وينتهى دور هذا الجائر ، ويمكن أن ينتهى أمره إلى مقطع الانتهاء ، ومن ثم يأتى خلاص حالنا منه .

مهلاً أبا الصقرِ فكم طائر ... خرَّ صريعاً بعد تحليقِ
زُوجْتَ نُعمى لم تكُنْ كفؤها ... آذنها الله بتطليقِ

قال آزاد چهره : هذه فكرة غير بعيدة عن تدبير الحكماء المجربين ، وكذلك ليست بعيدة عن أخلاق الزمان المعهودة . لكن من يكفل وفاء العمر بتحقيق المقاصد ، ومن يضمن غدر الأيام الكامن والمتوقع ؟!!

قبل الزمان وفاء صديقى ، فأين لى بضامن للعمر الطويل ؟

والرأى هو أن نتوجه إلى مملكة العقاب ، ونقدم له كل ما يقتضيه الوقت فى طلب الأمان واستنجاح النفس من جناح رحمته ، لأنه وإن كان سفاكاً للدماء وصائداً للخلق ؛ فإن له صفة الملوك التى تميل إلى علو الهمة . والعطف على ضعفاء الخلق ، والعفو عن منطلق رأس

كمال القدرة . مع أنه لا يكون له مدد الاستظهار من أمثالنا ، ولا يزيده مكاننا منه افتخاراً ، فهناك الكثير من العبيد الذين يريدون تكثير سواد الحشم ، ونحن بمثابة نقطتين على تلك الحواشى . وربما نستطيع أن نجد الرزق فى خط دائرة العبودية ، وأن نجعل لنا علاقة فى أوساطهم .

قالت إيرا : يا فلان ، إننى أعجب لك ، فأحياناً تلقى بأسهم غيب الفكرة الصائبة كلها على صميم الغرض ، وأحياناً توزع الخاطر فى كل ناحية ،

تلونْتَ حتَّى لستُ أدرى أريحُ جنوبٍ أنت أم ريحُ شمالِ

وكل الآلام والمحن التى أصابتنا بسبب ملاقاتنا ليوم واحد مع العقاب ، ومع ذلك تسحبنى معك بسلاسل الجهد وحبائل الجد إليه ،

شكوى الجريحِ إلى الغربانِ والرُّخَمِ(١)

أنت قائدى وكيف يكون حاكماً من ليس له وزير

لكم حكايتك في ارتكاب هذا الخطر تشبه حكاية السمكة مع صياد السمك . فقال آزاد چهره : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) هذا الصراع من بيت للمتنبى في قصيدته التى يذكر فيها مسيره من مصر ويرثى فاتكاً والتى مطلعها :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم وما سراه علي خف ولا قدم

والبيت هو : ولا تشك إلى خلق فتشتمه شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

المتنبى : الديوان ، جـ ٢ ص ٤٠٨ ، ٤١٥

والرخم : جمع رخمة والهاء فيه للجنس . . . وهو طائر يشبه النسر في الخلقة . ومن طبعه أنه لايرضى من الجبال إلا بالموحش منها ، ولا من الأماكن إلا بأسحقها وأبعدها من أماكن أعدائه . والأنثى منه تبيض بيضة واحدة راجع كمال الدين الدميرى : حياة الحيوان الكبرى جـ ١ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ط حجازى القاهرة ١٣٦٧ هـ .

حكاية صياد السمك والسمكة

قالت إيرا : زعموا أن طائراً صغيراً أكلة السمك ، بلغ الشيخوخة ، وقلت قوة حركته ونشاطه ، وفترت لديه دواعى الصيد . وذات يوم لم يجد غذاءً وانزعج من الجوع ، ولم يجد بداً من الذهاب إلى جدول . وجلس هناك مترصداً يبغى الرزق حتى يصيد من أى جهة صيداً من سوائح الغيب فى شبكة مراده . وبينما هو جالس إذ مرت عليه سمكة فوجدته مريضاً متألماً . فتوقفت وتلطفت معه فى السؤال عن صورة حاله ، فقال «ومن نعمره ننكسه فى الخلق »[1] ، إن كل من تسحقه الأيام تحت أقدام الحوادث ، وتذبل وردة شبابه بسبب انقلاب خريف العمر ، وتبدو آثار هذه الشيخوخة ووهن الأعضاء وضعف القوى البشرية على جلده ، فلابد أن تتزلزل أركان بنيته ، وتتغير أخلاط طبيعته ، ويخفض جرح منجنيق الحوادث المتعاقبة المجئ من هذا الحصار المرتفع نشاط الحواس كما قال ذلك الصوفى حى القلب .

أحمل على ظهرى ثقل من الأيام ومن ثم يأتى كل فعل منى غير طيب ! !
عزمت الروح على الرحيل فقلت لا قالت فماذا أفعل فى بيت يخسف ؟

واعلمى أن سفينة العمر عندما أرست بالساحل ، وغابت شمس العمر على رأس جدار الفناء ، لم يبق للرجل - بأى وجه - سوى التبتل والطاعة والتوبة والإنابة ، وطلب قبول المتاب والرجوع بحسن المآب . ولا حيلة له سوى الإغتسال من جنابة الجهل والظلم ، وغسل سواد الإجرام والأوزار فى الوجه بدموع التوبة والاستغفار التى تأتى

(١) يس / ٦٨ .

ما أقبحُ التفريطَ فى زمنِ الصِّبا   فكيفَ به والشيبُ فى الرأسِ شَامِلُ

والمقصود من هذا الكلام هو أن أؤكد أن جواد هواى قد اقتلع أسنان الطمع ، وافترس جارح طير الأمانى شاهين الشوكة ، ومضى الوقت الذى كانت همتى فيه مقصورة على حطام الدنيا ، وصرفت أغلب أيام العمر فى جمعها وتحصيلها ،

فأين القلب الذى ينهض فى طرب العبادة ؟ وتعلو فيه يد التغلب على صيد المراد ؟

وقع الأمر مع الجرعة فى كأس العمر ، فأى سكير يسكر من هذه الجرعة ؟

وهذا الوقت هو وقت القيام على عذر التقاعد فى الأيام السالفة ، لقد جئت اليوم بغية التحلل من أسماك هذه النواحى التى طالما أغرت على عشائرها وأترابها غارات مفاجئة ، ووقع على عاتقى حمل مظالمهم ومغارمهم ، وبالرغم من ذلك يبعدون عن طريق الثأر ، حتى وصلوا إلى درجة مثوية العفو ، وأبرأوا ذمتى من قيد المآثم ، ووصل الأمل فى التسامح إلى الوفاء وعندما سمعت السمكة هذا الفصل مرة واحدة ، جعلها قيد شراك الخديعة . وقالت : بماذا تأمرنى ؟ قال : أن تبلغى هذا الكلام الذى سمعتيه منى إلى الأسماك ، ولا تندمى على هذا السعى ، حتى إذا أجابوا ، أمنوا سطواتى وغارات تعرضاتى فى مساكنهم . ويحصل لك فائدة هذا الأمن والسكون من فتور الأيام وفتنتها ضمن هؤلاء «وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى»[1] .

فقالت السمكة : أعطنى يد الأمان وصافحنى أنْ تفى بهذا الحديث حتى يزيد اطمئنانى وإيمانى بصدق هذا القول ، ويكون جديراً

(١) النجم : ٣٩

بالاعتماد . لكن قبل المصافحة ، كيف أصافحك ؟ فقال : خذى هذا النبات واربطى فمى جيداً حتى تأمنى وتفرغى من هذا الأمر . فأخذت السمكة النبات وأقبلت حتى تربط فمه ، فأنزل صياد السمك منقاره والتقطها من الماء وأكلها ، «ورب شارق شرق قبل ريقه»[1] .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه لا مصلحة لنا فى قربنا من العقاب أو مجاورته ،

أنفاسُه كذبٌ وَحشوُ ضَمِيره دَغَلٌ وقُربته سِقامُ الرُّوحِ

قال آزاد جهره : اعلمى أن الريح أحياناً تكسو حلة الربيع والأزهار وأحياناً أخرى تهب من فوق رأس خرقة الخريف البالية . والنار أحيانا تحرق من يقربها أو يجاورها ، وأحياناً ترشد الضالين وفاقدى السبيل ، والماء يذهب الظمأ ، وأحياناً يحطم السفن مثل اللقمة فى حلق أمل المسافرين ، وكذلك التراب ينبت رأس سنان الشوك الحادة ، ويربى الورد الخضرة الجميلة .

واعلمى أن الرضا والسخط ، والقبض والبسط ، والقهر واللطف ، والحلم والغضب ، الخشونة والدماثة ، كلها من عوارض حال الإنسان ، وخميرة عجين أصل فطرته المركبة من هذه الأجزاء والأخلاط التى ذكرتها .

وجائز فى العقل أن العقاب مع كل خشونة أخلاقه وقبح وجهه ، عندما يرى ضعفنا وقدرته ويشاهد ذلنا وعزته ، يتقدم بخفض جناح الكرم ، ويسدل قوادم الرحمة وخوافيها علينا ، ويبدل سوء الأخلاق بحسن المعاملة ،

(١) ورد «ربما شرق شارب الماء قبل ريه» فى مجمع الأمثال ، وقد ذكره فى أمثال المولدين ، الميدانى : مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٨٠ .

لكلِّ كريمٍ عادةٌ يَستعيدُها

قالت إيرا : أخشى مغبة ذلك ، لأن للعقاب دم التسرع وروح الصيد ، فعندما يراك لا يعطيك مهلة لطلب الأمان ، ويضيق عليك مجال الاستمهال إلى درجة أنك عندما تنظر تجد نفسك مقيداً ببئر الندامة ، وتجد أوصال السلامة ممزقة على مخالبه كما وقع لابن عرس مع الغراب . قال آزاده چهره : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية ابن عرس[1] مع الغراب

قالت إيرا : زعموا أنه كان فى الغابة التى كان قد وضع صباغ القمر رياحينها فى إناء الملونين ، وفتح عطار الصبا زجاجات مسكه بين بائعى العطور مثل الياسمين بيت الغراب فى رأس الشجرة التى تنتمى نسبتها الصحيحة إلى أصول الطوبى وفروع السدرة . وهكذا كان مرتفع الهامة ، عالى الهمة . لا يضع رأسه إلا فى معارج الرفعة ، ولا يخفض رأسه - مثل كريمى الفطرة - أمام أى إنسان ويعطى أصول الراحة من ظلها للمتعبين مثل العظماء .

يلتذ جانبُه بأنعمِ مقطفٍ ... منه وساكنُه بأكرمِ معْطفِ
والورْقُ بين مُحلّقٍ فى جَوِّه ... طرباً ومنحط عليه مُرفرفِ

وذات مرة مرّ ابن عرس فى تلك النواحى ، فوقعت عينه على ذلك المقام فراقه منظره ، ودهش من مشاهدته ، فضرب قلبه فى ذلك المكان خيمة الإقامة ، ودق أوتار الرغبات فى أرض ذلك

(١) حيوان من فصيلة الثدييات ، أكبر من الفأر المنزلى ، رمادى اللون آكل للثعابين ، يظهر فى آسيا وأفريقية وخاصة بلاد الهند ، كان المصريون القدماء يقدسونه ، يسمى عند الفرس رأس وآسو ويسميه العرب (ابن عرس). فرهنك عميد .

الموضع ، وأسس بيتاً له فى جذع شجـرة الغراب ، واستقر فؤاده على ذلك ، وقال لـنفسه : وجـدت مأوى فلا تركـله بالقدم ، ووجدت هدية فلا ترفضها .

إن الذهاب كـثـيراً فى السـراب ، وإرسـال عين التـمنى فى كل جانب ليس من اختيار العقل ، فـيجب أن أقيم فى روضة هذا النعيم «إذا أعشبت فانزل» [1] . وفى النهاية ، جلس وأخرج دواعى الطلب من قلبه . فانتفض قلب الغراب من مكانه بسبب جلوس ابن عرس ، وداخله الوجل من مزاحمته ، وقال فى نفسه : لابد أن يكون لى الآن طريق لإزعاج هذا الخصم ، وارتجاع أبواب إقامته فى هذا الموطن الذى يمنحنى محصول الأمانى ومنحول العمر ،والحياة .

بِلادٌ بها نِيطتْ علىَّ تمائِمى   وأولُ أرضٍ مَسَّ جلدِى تُرابها

ثم قال لنفسه : يجب التـفكير ، فكل من يكون ضرورى له دفع العدو يجب عليه أن يخطو أولاً فى سبيل الانبساط ، والابتداء بالتردد والمخالطة ، وفتح طريق التآلف والتعاطف حتى يعرف عيار أمره بمعيار الاختـبار ومحك الاعتـبار ، ويعرف مقـدار ضعفه وقـوته مع العدو والصديق ، ويعرف مدى غضـبه وسخطه ورضاه وأثر ذلك فى أحوال الناس فيما يرجع إلى المصلحة والمفسدة .

ونزل بهـذا التفكر من فـوق الشجرة ، وذهب إلـى ابن عرس ، وحيّاه بأدب وحياء ، وسلم عليه ، ففكر ابن عرس فى وصف الناس للغراب بسوء الجوهر وقذارة المحـضر ولؤم الطبع ، ونحن دائماً ما يكره

(١) عشبت فـانزل » أى أصبت حاجتك فاقنـع ، يقال : أعشب الرجل ، إذا وجد عشـباً واحصب إذا وجد حصباً ، للميدانى : مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٣٧٧

كل منا الآخر . أما سبيل العداوة والمناقصة فهو مقبل . سترنا كل الأغراض ولم يبتهج كل منا لرؤية الآخر ، إذا لم يكن قط بينى وبينه علاقة حب وألفة .

ولا شك أنه جاء بسوء القصد ونية الكيد ، فلو أضعتُ الفرصة وغفلت عنها ، فربما نجح فى تدبيره ، ولا يفيد انتباهى فيما بعد «احفظ ما فى الوعاء بشدة الوكاء» . فالأولى هو أن أقيد يد قدرته وقدمها عن قصده ، وأنظر ماذا يفعل !![1]

فنهض من المكان وأحكم المخالب فى جناحيه . فقال الغراب : أيها الشاب ، إننى رغبت مخلصاً فى مجالستك . وجئتك راغباً فى مشورتك الخيرة وخصالك الطيبة ، وقلت لن يكون فى هذا الاجتماع أى مكروه ، ولن يتمخض هذا الاقتران عن أي حضور .

وكنتُ جليس قعقاعِ بن شوْر ولا يَشْقَى بقعقاعٍ جليسُ[2]

وبما أنه ليس هناك عداوة سابقة فيما بيننا ، وما زالت الصحبة موجودة حتى الآن ، وهى غير مكدرة بشائبة ضرر لاحق ، فما مبرر هذا القصد والإيذاء ؟

قال ابن عرس : صدقت أيها الغراب ولكن ، لأن كل ما تفعله معلوم لدى ، فكيف ألقى بنفسى فى الخطأ ؟

ففكرة ضمير كل إنسان تكون سمير أحوال العدو والحبيب ، وخاطرى مطلع على سرك كما أطلع ذلك الماشى على سر قلبى الفارس ، فقال الغراب : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) يضرب فى الحث على أخذ الأمر بالحزم ، الميدانى : مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٦٧

(٢) يقال : هذا القعقاع بن عمرو ، والصحيح قعقاع بن عاشور وهو ممن جرى مجرى كعب بن مامه فى حسن للمجاورة ، فضرب به المثل وقال فيه الشاعر هذا البيت ، الميدانى : مجمع الأمثال جـ ٣ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

حكاية الماشى والفارس

قال ابن عرس : سمعت أنه فى وقت من الأوقات ، ربط تاجر كثيراً من الأقمشة ، ووضعها على ظهره حتى يذهب بها إلى قرية ليبيعها ، فتصادف سيره مع فارس ، فتعب الرجل من تحمل الحمل ، وأثر فيه التعب ، فقال لذلك الراكب : لو أخذت هذا الحمل أمامك حتى استريح بعض الوقت فلن يكون هذا بعيداً عن قضية الكرم والفترة .

قال الراكب : لا شك أن التخفيف عن ذوى الأحمال يكون لها ثقل فى ميزان الحسنات ، ويمكن أن يوصل إلى جنة الخلد «فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية»[1] ، غير أن هذا الحصان لم يأكل راتب اليوم من الشعير ، ولم ير الرعاية حسب القاعدة ، ومن ثم ليست لديه تلك القوة ، فإذا وضعت عليه حملاً زائداً فسوف يتألم . وفى أثناء الكلام لاح أرنب فأطلق الفارس حصانه فى إثره ، وعندما مضى ميلين أو ثلاثة فكر فى نفسه قائلاً : إذا كنت أملك مثل هذا الجواد فلماذا أسرق أقمشة ذلك الرجل ، وأذهب من زاوية إلى حيث أريد ؟

والحق أن تاجر الأقمشة قد فكر في نفس الشئ وفى الوقت ذاته قائلاً : إن هذا الراكب لو أخذ أقمشتى وجرى فكيف أصل إليه ؟ وعندما عاد الفارس إليه ثانية وقال له : هلا أعطيتنى الأقمشة حتى تستريح بعض الوقت !! فقال التاجر له : اذهب فقد فكرت فيما فكرت فيه ، ولست غافلاً عنه .

قال ابن عرس هذا الكلام ثم ذبح الغراب وأكله ،

(١) القارعة : ٦ .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى لا تفكر فى الأمن من جهة العقاب ، ولا تأمن خطفة صواعقه ، ولا تظن أن الذهاب إلى ذلك المقام والحصول على ذلك المطلب سهل الأخذ ، ولن يكون نصيب أى قدم تزلف إلى عتبة قصر التمنى هذا سوى القصور ،

يُعد من أنجمِ الأفلاكِ مَوْطِنُها   لو أنّه كانَت تَجْرِى مَجَارِيها

قال آزاد چهره : لقد أكدنا فى غير موضع ملوكية وعظمة المنشأ وأصالة الأصل ، وعلو الهمة ، وكرم النجاد وتأثل النسب لهذا العقاب ، وتكرر هذا التأكيد عدة مرات ، ومن ذلك أنه لا يأكل كل من مد اليد إلى بيته أو أهله وأوكانه ، وأخذ ذيل إقباله ، والتجأ من يد تعرف آفات المخالفات إلى جنابه وحضرته ، وحاشاه أن يضع سمت هذه الدناءة على ناصية همته ، بل إنه يأمر بالتمكين والتكريم لكل من قصده بشرط الخضوع والخشوع والتواضع والعبودية ، والالتزام بكل ما يكون من واجبات وآداب الحضرة ومراسيم الخدمة .

واعلمى أن سراً عظيماً مختفياً فى خاصية الكلام الذى يظهر أثناء وقت التأثير فى طباع الرجال ، مثلما للثعبان الملون من النفاق أثناء الخروج من جحر الكمون والسكون من لين الماس ونعومته وحد السهم وجدته ، كما لان متن السيف والحد القاطع .

وإننى والحمد لله لدى آلة الاستعداد كاملة ، وأدوات هذه الأهلية تامة عندى ، والرأى أن نذهب إلى خدمته ، وبعد أن يتيسر طريق الوصول وتقبيل اليد ، وتتحد هذه السعادة بحسن الإتفاق وأحكى له فصلاً فى أمرنا على وجه يستقبله القبو ، وبعد ذلك تصبح العاطفة والرأفة رديفاً لذلك .

فأوجز لكنه لا يخلّ   وأطنب لكنه لا يمل(١)

والخلاصة أن إيرا عندما سمعت كلامه بسمع المصلحة ، وأطلقت عنان الاسترســال على يد اختياره ، وقالت بما أن كـفه الذهاب قد رجحت ، ورأيت أن من الواجب تجنيــح سهام العزيمة ، فـبسم الله «وإذا عزمت فتوكل على الله » . أما إذا تم ذلك الاختصاص ، وتزين وجه المراد بذوائب وصال تلك القربى ، حـينئذٍ يجب التحلى بعدة خصال ، وتحمل عدة أحمال تكلفاً .

الأولى : وجوب تقديم أمر الملك على جملة المقاصد ،

الثانية : أن تتلقى أوامره بصورة التعظيم والتوقير .

الثالثة : أن تعمل علي تحسين أمره وتزينه على الوجه الذى يزيد معه اتباع الأفعال المقبولة ، والإمتناع عن الأخلاق المرذولة .

الرابعة : أن تجتهد فى صيانة عرضك عن وصمة الخيانة .

الخامسة : أن تعرف قصور خدمتك عن حقوق نعمته .

السادسة : إذا أخطأت خطأ لا يسلم منه أحد فقم بالاعتذار عنه بسرعة ، ولا تسمح له أن يصيــر من قاذروات المزبلة كى لا يستحيل دفعه وإزالته .

السابعة :احفظ وجهك أمامه بعيداً عن التقطيب ، وكلامك بعيداً عن مرةٍ .

الثامنة : إياك ومصادقة أعدائه بأى وجه من التأويل .

(١) ينبغى أن يكون الضمير مناسباً .

التاسعة : كلما زادك تقريباً فى الصحبة ، فازداد فى التواضع أمامه ، ولا تتقدم عليه .

العاشرة : إذا استعملك فى مهمة فلا تطمع فى أجر ، ولا تشوه وجه حسن الخدمة برذيلة الطمع .

وكانت السنن والقواعد الكسروية الفارسية تتلى - كل علم من أجل هذا ، وكان من أعظمها أن كل شخص مرتبته ويعرف قدر النعمة ومقام همة الملك ، ويتعظ بذلك . قال آزاد چهره .

شرح سنن كسرى فارس

قالت إيرا : سمعت أن صاحب الإقبال من أكاسرة الفرس الذى كانت خصائص العدل والإحسان دليلاً واضحاً على وفور دينه وعقله ، وكان ملكاً بعيد النظر ، حسن العادات ، صحيح الفكر ، عادلاً غزير العلم .

وأمر ذات يوم فأقاموا احتفالاً ، وجمعوا الناس من أطراف المملكة وأوسطها من جيش الخواص والعوام ، العالم منهم والجاهل ،المذكور والخامل ، البعيد والقريب ، وصاروا جميعاً فى صعيد واحد بالصحراء ، وجعلوا لكل واحد مقاماً معلوماً ، ومرتبة مقدرة وأجلسوا الجميع على اختلاف الطبقات صفاً صفاً ، وصنعوا كل ما كان مشتهى الطبع ومنتهى الأمل من ألوان الأطعمة ، ورتبوا وركبوا عدة ألوان من الأطعمة جميلة المذاق ، والأشربة جميلة الطعم ، وقدموها فى أطباق لطيفة ، وأوانٍ نظيفة ، حتى غارت منها أباريق الجنة .

وفرشوا المكان بالفرش تلو الفرش ، ومدوا سماطاً تلو سماط ، حتى زاد الحسد عند الأبسطة المفروشة والزرابى المبثوثة فى صحن وصفة رعاية الأضياف فى الفردوس على ذلك .

ووضعوا المائدة التى لم يسمع عن مثلها السامعون ، ولم ير مثلاً ونظيرها الناظرون ، وجلس طائفة من أهل الديوان ومسئولى الملك والدولة من أجل عرض مظالم الخلق أمام المائدة ، حتى يعطوا جزاء عمل كل واحد وفق معايير الشرع وحدوده . وكانوا يخاطبون كل واحد خطاباً يوافق العرف .

وجلس كسرى على عرض المملكة ، وأمر فخرج منادى الجمع ، وقال : أيها الحاضرون افتحوا جميعاً عين البصيرة ، ولينظر كل واحد منكم من أهل المائدة وحاضرى الديوان إلى المرتبة التى هى أسفل منه ، وإلى الدرجة الأدنى ، ولا ينظر إلى الأعلى .

لأن كل من يرى من هو دون مرتبته سوف يرضى ويسعد على على ما يملكه ، ويشكر الله على مقامه .

فنظر جميع الخلق من صدر جالس المحفل حتى نهاية الصف في حال بعضهم ، وطالع كل واحد - بعين الاعتبار - علو درجته ونزول منزلته الآخرين ، حتى آخر الصف الذى كان موضع أهل المظالم ، وكان من تلك الطوائف من نُظر أليه فى معرض العتاب ومجرد الخطاب ، وذلك الشخص الذى كان جديراً بالزجر والتعزير ، ومن كان مصاباً بمثل ذلك النكال وتلك العقوبة ، والذى كان مصاباً بمثل هذه العقوبة كان يرى حال الأشخاص الذين - عِوَذاً بالله - يصلبون ويقتلون وتجرى عليهم مختلف العقوبات .

قَسَمَتْ يَـداهُ عَفْـوَهِ وعِقـابَـه قِسْمَـين ذَا ويـلاً وذاك ويـلاً

وهذه العادة كانت قائمة ومعهودة ، منذ عهد ملوك الفرس الأول ، وظلت هذه العادة مستمرة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تشكر الله فى كل حال على المرتبة التى تكون فيها ، وأن ترضى عن المنعم والمنتقم بما ترى وأن ترعى حق العبودية ، والسلام .

قال آزاد چهره : أنت لكل قوم هاد وبكل ناد للحق مناد وحقيق عليَّ أن أقتدى بآثارك وأهتدى بأنوارك ، فكل ما أمرت به ، وأظهرتيه ، كان من غزارة ونضارة الرأى ، وكان زبدة جوامع الكلم الفصيح وعمدة قواعد العقل والحصافة ، وأنا قابل للأمر وممنون لك ، ثم جعلا الأمل الذى يأتى محلاً قابلاً للفكر ، حائزاً للقبول فى مستقبل التمنى ، ويصبح وصول المقصد مع حصول المقصود فى عنان واحد ، واستقر رأيهما على التوجه إلى العقاب . فواصلا السير بالسرى ومستبدل السهر بالكرى ، وأسلما بساط الهواء وبسيط الصحراء ، حتى وصلا إلى جبل قارن فى جوار العقاب .

وصول آزاد چهره إلى المقصد
وطلب الطائر الذى كان يدعى
"يهه" وحكاية أحواله له

أجلس آزاد چهرة إيرا فى مكان معين ، وذهب لطلب «يهه» الذي وإن كان صغير الجسم ، لكنه كان يتمتع بمكانة العظماء فى الدولة ، وكان متميزاً بين علماء الملك في معرفة دقائق الأمور ،

ومبرزاً فى أنواع الفنون والعلوم ، حتى وجده وعندما وصل إليه بدا من مرآة منظره جميع محاسن المخبر فى المشاهدة ، فتبادلا التحية السلام اللذين كانا من وظائف تبرعات الإسلام ، ومثل الصديقين اللذين لا يوجد بينهما سر ، وجدا طريقاً إلى خلوة بين السلوة ، ومثل المتحدين فى الصوت جلسا فى ستر المحرمية ، وأزالا العقد عن جبهة الأمانى ، وأظهرا السرور برؤية كل منهما للآخر ، وسأله يهه : أين نشأت وما مسقط رأسك ؟ وما هدفك وما مقصدك ؟ ومن أين شددت ركا العزيمة ، وما هو اتجاه النية والفكر ؟ قال آزاد چهرة :

ففى سَمَرِي مدٌّ كهجرك مُفْرِطٌ وفى قَصتى طولٌ كصغلك فاحشُ(١)

أجلس معك وأبوح لك بالهموم ، وأستريح فى حجرة وصالك

أعلم أن مولدى كان فى أحد جبال أذربيجان ، الذى كان غاية فى الجمال والبهاء ، أكثر ضحكاً من مبسم أوائل الشباب ، وأنضر من موسم نعيم الحياة ،

الأرض آبنوس[٢] من الشمس والظل ، جميلة كشفتى الطاووس وصافية كعين الديك

كل عام يولد مع الطفل زهرة مهده ، والمطر هو لباس عهده

وعندما دارت الأيام علينا ، وأعادت العادة عند الموفقة ، نهضت من أمام صدمات الحوادث ، وجلست خلف زاوية مغمورة مع شتى أنواع اليأس والفشل وسحبت القدم فى ذيل الصبر مع زوجتي التى

(١) هذا البيت مناسب للهجاء ، ومن ثم فهو مقحم هنا وغير مناسب لسياق المدح .

(٢) مأخوذة من الكلمة اليونانية ابانس EBenos ، وهى شجرة موجودة فى الهند والحبشة ، ورقها ورق الصنوبر وزهرها زهر الحناء ، خشبها متين جداً ، يقال لها فى العربية آبنوس أيضاً . فرهنك عميد .

كانت معى ، وقنعت بزاوية عن رواق الدنيا ، وجعلت حلقة القناعة فى أذنى ، فاسترحت بمؤانستها عن أوانس حور الصين ، واقتصرت بمجالستها عن مجالس ملوك وسلاطين الشام واليمن ، إذ كانت نغمات حديثها فى ستر العشق والمحبة أطيب عندى من أغاريد القديسين ، وكنت بهذا السماع أسعد من جميع إخوان الزمان . ومضيت بما كتبه قلم التقدير فى ديوان المشيئة وما أثبته على أوراق رواتب القسمة وجعلت نصب عينى قولهم «ثلاثة تحمى العقل والنفس الزوجة الجميلة والأخ المؤانس والكفاف من الرزق » لأن هذه الثلاثة المشار إليها قد حصر فيها اختيارات عقلاء العالم ، وقد قصر عليها النظر دون جميع فواضل الحاجة وزوائدها ، وكنت أحصل بحضور زوجتى على كل هذه الثلاثة .

أما بحكم أنه كل عام كنت فى مصائد الطيور ، وكنت شريكاً لهم فى مصائبهم بمصيبتى . فكلما جاءنا ولد ، ووصلنا من مصباح المحبة قرة عين ، أظهرت ثمرة الفؤاد من حديقة العشق ، كانت المفاجأة ، وكانت ريح عاصفة من قواصف قيد الصيادين تأتى بغارة ليلية ، فتقطع آمالنا فى العين والقلب .

فانتهت طاقتى على يد تلك المحنة ، وعرفت أن صلاح الحال كامن فى أن نغير - بصواب رأى زوجتى - المنزل والعش ، وقلت : المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد ، أما التحول عن معرض هذه الآفة التى لايمكن التوقى أو التصون منها ، فلن يكون إلا بالذهاب إلى مكان يكون لنا فيه عين الخلاص . وكلما كنت أقرر هذا المعنى ، كان لا يتحول لرأيها عنان لموافقة هذا الصواب ، وكانت لا ترى إمضاء هذه الفكرة . وجرت بيننا معارضات ومشاورات كثيرة ، حتى

فرغنا من إطلاق كل أسهم النزاع - التى كانت فى طبيعة عصيان كل منا - فى تلك المفاصلة على بعضنا البعض .

وفى النهاية قرأت عليها على سبيل التسامح والتفادى : هذا آخر ما فى الجعبة ، قرأت على من رأس الإنصاف والرجوع عن الإصرار والتمادى : أعطيت القوس باريها[1] ثم أسلمت زمام الانقياد من قبضة العناد إلىَّ . ورأت من الواجب إرخاء عنان الاختيار وتسليمه لى فى الشدة والرخاء .

وفى الحال ضربنا خيمة الارتحال . ووصلنا هذه الساعة إلى جلال هذا الجناب الكريم ، وحمى المكرم ، بعد عدة أيام ، سلكنا وقطعنا بساط الصحارى والفيافى بقدم القوادم والخوافى ليلاً ونهاراً ، ونجونا من آلاف من شراك الخداع ، وتركنا مائة ألف حبة طمع حتى وصلنا إلى هنا ،

وَجَدْنا من الدُّنيا كريماً نؤمه ... لدفعِ مُلمٍّ أو لنيلِ جزيلِ

وإن لم تكن بيننا سوابق خدمة ، لكن تعارف أرواحنا له قدمه فى مهد الخلق ، فقد حدث هذا التعارف بمؤتلف جواهر الفطرة ولا نملك شيئاً آخر ونحن واثقون أن تلك الصداقة القديمة الأولية سوف توصلنا إلى خدمة ملك الطيور ، وإن كانت رفعة مكانه أعلى من مستوى طيران أهليتنا وأن «دونه بيض الأنوق»[2] ، لكنك سوف تقوم

(١) فى مجمع الأمثال «أعط القوس باريها» أى استعن على عملك بأهل المعرفة والحذق وينشد :

يا بارى القوس بريًا لست تحسنها ... لا تفسدنها وأعط القوس باريها

الميدانى : مجمع الأمثال ، جـ ٣ ص ٣٤٥

(٢) الأنوق : الرخمة ، وهى تضع بيضها حيث لا يوصل إليه بعداً وخفاء . يضرب للشئ يتعذر وجوده ، ويقال أيضاً دونه النجم ، ودونه العيوق ، الميدانى : مجمع الأمثال ، جـ ١ ص ٤٦٤

بفائق العطف والرحمة وتجعل مقامنا مصاناً فى جوار إقباله من جوائر الطيور الصائدة والضوارى المفترسة . قال يهه :

عهدى وعهدك على ذاك القرار الذى كان ، وتلك العين هى تلك الحاملة للدمعة التى كانت

والحمد لله أن نظر الضمائر تساوى واتفق فى الجانبين ، وأن حاصل الاطلاع على سرائر كل منا ، كان سعيداً ، ثم إنك فتحت باب السعادة ، وأحضرت فتوح الروح ، فليكن ذاك انتقال السعادة وليكن هذا نزولاً مباركاً ، وبما أنك أظهرت التمسك بحبال اهتمامنا ، فيجب أن تكون هادئ البال فارغ الخاطر من جميع الشواغل .

ولتأمل فى أن تكون أرض هذا التحول هى منبت لآلئ الدولة الجديدة ، ومسقط رأس سلالة السعادة .

لأن هذا الملك ، وإن كان مأواه فى رءوس الجبال ، وإن كان قد تربى فى نعيم الظل ، وأنه لا يخلو من جسارة وغلظة ؛ إلا إنه بعيد عن آفة الحيل وفساد الضمير التى تنمو بكثرة مخالطة البشر والتواصل معهم . وكلما يرى لجوء ضعيف والتجاء محتاج لخدمته يصبح رحيماً ، رءوماً ، كريماً ، عطوفاً ، ويسرع فى تحويل عنان العناية ، وربما أكثر من هذا . وسنة الله تعالى : أن الضعفاء يتربون فى كنف رعاية الأقوياء ، ويجلس الأصاغر فى ظل الأكابر «بيض قطا يحمله أجدل»[1] .

والآن يجب أن ننتهز الفرصة فى هذه الساعة التى يمكن لك فيها أن تذهب إلى خدمته ، لأن القرب من الملك فى جميع الأحوال بعيد عن قضية العقل ، لأن مزاجهم اللطيف لطيف يقبل التغير بسرعة .

(١) الأجدل : الصقر ، والحضن والحضانة : أن يحضن الطائر بيضه تحت جناحه ، ويضرب هذا المثل للشريف يؤوى إليه الوضيع ، الميدانى : مجمع الأمثال جـ ١ ص ١٩٣

كما أن ماء سلسال اللطف الذي عجن به صلصال غريزته يترشح كل لحظة إلى نوع آخر . ويعلق به قليل من شوائب الكدرة ، فيتغير تغيراً فاحشاً بسبب مجاورة لهذه الشوائب وهنا يتضح قول النبى ﷺ «جاور ملكاً أو بحراً»[1] لأن طبع بحر وجود الملك أكثر البحار تأثراً بالغوائل . فسفينة صحبتهم تستطيع أن تجرى - وعليها أربعمائة أمل - وتصل بسلامة إلى الشاطئ .

أما عندما يثور وينزعج ، فإن قدم الخادم لو انتقلت فى هذه الحال إلى شرف الأفلاك ، فيجب أن يعلم أنه قد أشرف على الهلاك .

حظٌ جزيلٌ بين شِدقى ضَيغمِ[2]

واعلم أن هناك علامات يستدل بها على قبض الملك وبسطه ، وسوف أذكرها لك حتى تعلم الخطرات وتراقب الحركات ، وتواظب على حفظ تلك الأوقات التى يجب الحذر منه فيها .

إنه كلما رجع من الصيد مظفراً بصيد المراد ، قد امتلأت حوصلة الحرص بالغذاء ، وقد أخفى بواعث الشره التى هى أصل السفه من الداخل ، لا حيلة من أن يفتح الأجنحة وقت السؤال مثل جبهة الكرماء ، ويغمض عين الهمة عن مطامح طير الاحتياج ، ويدعو جملة الطيور الملونة وحسنى الصوت ، ويسعد مع كل نوع بسعادة مختلفة .

(١) يعنى أن الغنى يوقد عندهما ، يضرب فى التماس الخصب والسعة من عند أهلهما ، الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) يضرب للأمر المرغوب فيه ، الممتنع على طالبه ، الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٧٣ .

وكلما جلس صامتـاً ساكناً ، رأسه بين ردائه ، أو يكون عنقه مرتفعاً ، وآثار عدم الاستقرار ظاهرة على شمائله ، فلا شك أن يلوى عنان عزيمة الصيد ، الطائر سنان المخلب والمنقـار ، فهذا وقت ينبغى أن يخلى ميدان السـماء من كل الطيور التى تطير عـالياً لجولانه هو فحسب ، لأنه يوصل غياث مستتـسرات البغاث من مواقع الهيبة إلى أذن النسر الطائر والواقع ، فيستوى الجميع فى البلاء .

هكذا قال لى أحد الأذكياء ، ألمعى العقل والرأى والفكرة
أن النمر يجن من الحقـد ، حينما يرى الغزال على فراشـه

فيجب أن تقول فى الحضرة - حينئذ - فصلاً لائقاً للحال موافقاً للوقت ، فيزيد ميل الملك بإصغائه إلى هذا الكلام .

فقال آزاد چهـره : لا شك أن اللسان الذى هو سفير الضـمير وترجمان الجنان ، لا ينبغى أن يقـول الكلام إلا إذا كان مقبولاً لدى أسماع السامعين ، حتى يأخذ مكاناً فى مقاعد قبول أسماعهم . ومن ثم يعلقون مرصـعات ألفاظه ومعانيه كالعـقد والقرط فى عنق وأذن الانقياد ، والأولى أن تحـافظ على عظمة ناموس العلم ، وأن تزين سوق الكلام بزينة الصمت ،

وإن لم تُصبْ فى القولِ فاسْكُتْ فإنَّما سكُوتُك عن غيرِ الصوابِ صوابُ

يجب أن تنظم الدر فى سلك الكلام ، وإلا فالخرس أفضل من الكلام .

ولقد نصحك عقلك نصيحة محكمة فكن حسن الكلام أو أبكماً

وأنا واثق من توفيق الله عز وجل ، ومدد تربيتك ومعاونة عقلك ، وأنه لن ينقص أى شئ من شرائط آداب الحضرة فى ربط الكلام ، وعرض الحاجة والمحافظة على مراسم التعظيم أو التهوين ، والله المسهل لذلك .

فانطلق يهه من هناك إلى خدمة العقاب ؛ ورجع على الفور ، وأخذ معه آزاد چهره .

صفة الجبل الذى كان موطن العقاب وشرح مجلسه

عندما وصل إلى هناك ، وقعت عينه على الجبل الذى كان غاية فى الارتفاع ، لدرجة أن العين كانت تستريح عشرات المرات فى مصاعده حتى تصل إلى ذروته الشاهقة ، وأن حارس الوهم كان يتصبب عرقاً من جبهته أثناء قطع مراقى علوه ، وأن سهم النظر كان لا يتجاوز منتصفه ، وأن سلم السماء لا يصل إلى زاوية سقفه العالية . حتى أن فلك البروج كان يربط زناراً على وسطه فى منطقة الجوزاء من حقده عليه ، ووقع للشمس مثلما وقع للقمر نار حسد فى البيدر عند عنقود الثريا ، كان الوهم يتعثر أثناء ذهابه إليه ، وكان العقل يخاف ويرتعد إن أشار إليه .

وخرقاء قد تاهتْ علَى مَنْ يرومُها ... بمَرْقَبِها العَالى وَجانبِها الصعب

يـزرُّ عليهـا الجـو جيبَ غمامة ... ويلبسها عـقـدًا بأنجمه الشهبِ

إذا ما سَرى برقٌ بدتْ مِنْ خلاله ... كما لاَحَتَ العذراء من خلل الحجبِ

فمشى «يهـه» فى الأمام التزاماً بقواعد الحجابة ، وكان «آزاد چهره» يسير خلفه التزاماً بشروط المتابعة ، ويقول :

لكلٍّ إمام أسوةٌ يُقتَدى به وأنتَ لأهلِ المكرماتِ إمامُ

حتى عبروا معارج الجبل ومدارجه ، ووضعوا أوج الشمس فى حضيص ظله ، وعندما وضع قدم المقصد على السطح الأعلى ، كان ملك الطيور جالساً - مثل سليمان - فى حفل فى مكان يشبه نزهة الخلد . وكان الشاهين[1] وهو أمير سلاح الطيور الجوارح يلبس قلنسوة ذهبية ، ويرتدى لباساً مزركشاً ، وكان ناهضاً عند مقعد السلطان بجوار رأسه متفاخراً .

كان الطاووس[2] قد وضع مروحة من ريش الأجنحة الذهبى على الكتف ، وكان السقاء قد جاء فى قلنسوة الأديم اللامعة ، وفتح عقدة سقاء الحوصلة ، ونثر الماء المعطر فى ساحة البلاط وكان الغراب قد أشعل نار خده ، ودهن وجهه بالدخان ، وكان الدراج يبحث عن السكين والكباب والطبق .

وكان البلبل يعزف لحناً غريباً مثل الموسيقار جارك[3] . وصنع الصلصل[4] مع آلة العصفور لحناً ، وصنع صفير ألحان الألف حكاية لحن اللهو والطرب . ووصل صوت آذان الديك إلى آذان الذين

(١) جمع شواهين وشياهين ، وليس بعربى ولكن تكلمت به العرب ، والشاهين ثلاثة أنواع : شاهين وقطامى وأنيقى ، والشاهين فى الحقيقة من جنس الصقر ، تكون حركته من العلو إلى السفل شديدة ولذلك ينقض على من غير تحويم .
عزيز العلى العزى : الطير فى حياة الحيوان ص ١٢٩

(٢) طائر معروف وتصغيره طويس ، وفى طبعه العفة وحب الزهو بنفسه والخيلاء والإعجاب بريشه ، لا سيما إلا إذا كانت أنثى ناظرة إليه ، تبيض أنثاه بعد ثلاث سنوات ، عزيز العلى العزى : السابق ص ١٥٣

(٣) اسم دور موسيقى ، (المعجم الفارسى الكبير) .

(٤) الصلصل : الفاختة وهى واحدة الفواخت من ذوى الأطواق ، وهى طيور من فصيلة الحماميات . وهو أصغر من الحمام ، الدميرى حياة الحيوان الكبرى جـ ٢ ص ١٩٦ ، ١٩٨ .

يجلسون فى صدر صـفوة الملكوت ، وليس الببغاء خفـاً من الحجر الفستقى فى قدمـه ، وقد بدأ بعبارات أعذب من السكر فى حكاية عجائب البحر الهندى . وكـان الهدهد - الذى هو رسول الحضرة - يلبس قلنسوة حريرية مزركشـة ، ووضع مكتوباً بلسان الطيور على رأسه . وكان العـقعق[1] يأتى بالأخبار من جـميع أرجاء الدنيا - كالسفير - بالملابس الأطلسية وكان الحاضرون قد أخذوا الفأل السعيد بزواجر الطير ، وازدان المجلس بهذا السرور . فدخل «يهه» - حسب القاعدة السابقة - وعرض حال مجئ آزاد چهره إلى خدمة البلاط فى أبهى رداء . وأظهر أن شخـصاً مقبولاً ، وخـادماً مخلوق للملوك وقائلاً للخير ، وعالماً بالسنن والعادات ، ذا كفاءة عالية ، وفناناً وقد جاء من مسافة بعيدة ، اقتلع جذر المؤالفة من قلبه لذلك المسكن الذى كان يملكه ، وترك الموطن والمولد ، واستظل من حرارة هواجر أحداث الزمان بجناح هذه الدولة ، ولجـأ إلى كنف هذا الجناب الرفيع ، فلو أذن الملك دخل ، وأصبح مخصوصاً بشـرف تقبيل اليد . فثار لذى الملك داعية صدق الرغبة ، وأمر بأن يدخل .

---

(١) كثعلب ، ويسمى كندشاً بالشين المعجمة ، وصـوته العقعقة ، وهو طائر على قدر الحمامة ، وهو على شكل الغراب ، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، وهو ذو لونين أبيض وأسود ، طويل الذنب ، وفى طبعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلى ، الدميرى : جـ ٢ ص ١٤٨ ، ١٤٩

اتصال آزاد چهره بخدمة الملك
والأحاديث التى دارت بينهما

دخل آزاد چهره مرتدياً الملابس الهندية والنيسابورية المرقعة مثل الصوفى ، وبدا فى الأنظار متحلياً بتأديب الذات وتهذيب الصفات مثل العقل المخلص والروح المشخصة ، ووصل إلى تقبيل اليد ، وتأثر من شدة وقار الحضرة ، وتعثر فى أذيال الدهشة ، وذهب إلى المكان الذى خصص لهه ، ووقف فيه وقال :

وفوقَ السرير ابنُ الملوكِ إذا بَدا — يَخرُّ له من فرط هَيبته النـاسُ
وذاكَ مقـامٌ لا ثوفيـه حقَّـه — إذا لم يَنَبْ فيَه عن القَدَمِ الرأسُ

فأطلق «يهه» اللسان كعادة المساعدين ، وقال من أجل تشجيع آزاد چهره وتوسيع مجال التبسط : كل ما تلبسه جميل مثل جناح الطاووس ، وكل ما تقوله حسن مثل لحن العندليب .

وكل ما تظهره وتأمر به - وبحمد الله - وهو قدوة للعقل ، وقبلة عقلاء العالم ، فلا تبخل بالنصائح والوصايا على سمع الملك ، التى يكون لها دور فى تعديل الأمور وتقويم الأحوال ، بل تكون دستوراً له ، وقل دون أن تتحاشى كل ما يجول بخاطرك من أجل كشف البلوى وبث الشكوى ، وشرح المظالم وعرض الحاجات ، لأن مجال الأمل واسع ، وسجال الكرم فائضة .

يامن بسبب إنصافه يستقر مقراض الكبك على ذيل وجناح العقاب
فالعقل لا يتحير لو صارت حبة التين على شراك لحلق الغراب بفضل عدلك.

لقد وضُع لى - أنا العبد - الـنعل فى نار فراق هذه الحضرة[1] بسبب الاشتياق ، كما تمثل خيال خدمة الملك أمام عين القلب . جعله الله مفر لاجئ الحوادث وملجأ متعبى المكاره . بل إن القلب ظل أما لحن قافلة صورته أعواماً حتى وصل إلى هنا .

واليوم قطعت الصورة - أيضاً - جبالاً كثيرة ، مرحلة بعد مرحلة ، وبعد طى المسالك وقطع المهالك ، ووجدت معنى المشاركة والعبودية كلاهما معاً ، وقد أوصلنا إليه سبـحانه وتعالى من مسفٍ صحبة من لهم صفة البوم وشئوم المشاهدة إلى مطار همة هذا « الهمُا» مبارك الظل .

والأمل منفسح حتى أعمل شـفاء كل العلل ، وأسد كل الخلال بهذه السدة المنيفة والساحة الشـريفة وأرى كرم الاستراحة في حوزة احتماء هذا الحرم مـن شر المكايد وآفة المصايد ، وأجلس هادئاً لأنهم قالوا : إن الرعية تشبه الأطفـال الصغار ، والملك العادل يشبه الأم الرحيم التى لا تعرف لهم حافظاً ولا رقيباً من ماء الأيام ونارها سوى نفسها .

بنو مطر يوم اللّقاء كأنهم أسودٌ لها فى غيلٍ خَفَّان أشبلُ
هم يَحفَظونَ الجَارَ حتَّى كأنما لجارهِم فوقَ السِّماكين منزل

قال الملك له : فلتهدأ ولتسـترح ، وبعد الفراغ من وضع عقاب العقوبة على متكأ الاستراحة ، وملتجأ هذه الساحة ، يجب عليك إن تنقل الأثاث والأمتـعة والكنوز والمدخرات من محـمولات الأثقال ومنقولات الأحمال ، من ذلك البيت إلى المكان الذى تختاره ، فقال آزاد چهره :

(١) كناية عن عدم الاستقرار والاضطراب .

حيثما سِرتُ لا أخلّف رَحلاً من رآنى قد رآنى ورَحْلِى

ليس معلوماً لدى الرأى العالى ضعف حالى ، إذا كان بيتى دائماً على معبر سيل الحدثان ، وفى معرض طوفان الظلم . وعندما لجأت إلى جبل الكرم «جودى»[1] ، واحتميت بحصن العصمة ، وجئت من مضيق ذلك العسر والفشل إلى فضاء هذا اليسر والنجاح . فقديما سرقوا أثاث البيت وأمتعته فى ظلمة البيت ، ولقد قرأت فى يد نهبهم ونهيبهم ومصادراتهم «ليس فى البيت سوى البيت» .

نعم ، والزوجة هى التى أم الأطفال ، قد لفت الكبد بحرقة فراقهم ، ووجدت عدة أعين ومصابيح أمام عين الميت والمقتول ، كنت قد جئت بها معى ، وهى جالسة فى البيت ، حتى تصدر إشارة الملك بدعوة أو رفض ، رعاية أو إهمال ، وطالع التحويل الذى فعلناه يبدى تأثيماً عظيماً من مطلع شمس الجلال .

قال الملك : طالما أنت هنا ، فكن سعيداً ، وأجلس الزوجة التى هى أجمل من أى جوهر - فى أى مكان تريده فى حريم الأمن والاستقامة وستارة العافية والعفة من أجل معصم العيش وساعده . لأن دور الجور والظلم قد وصل إلى النهاية ، وأفل مصباح المحنة ، وظهر لأيام الحزن نتيجة طيبة .

وإن البلايا إن توالت تولت

خدم آزاد چهره ، وصلى ، ودعا بالدعاء الذى كان من عادة هذه الوقت ، ورجع ، وجاء أمام إيرا ، وحكى لها حكاية الحال كلها ،

(١) إشارة إلى الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح - عليه السلام - المذكور فى قوله تعالى : (واستوت على الجودى) هود : ٤٤

بكل ما حدث ، وشرح لـها بأى تبجيل واحترام استُقبل به عندما وصل إلى بلاط الملك وأى جذر اهتز لوروده !! وكيف اغتنم مقدمه !! وأى أبواب وفصول قـد تقررت عن وصوله ونزوله . فـتذكرت إيرا الحياة السابقة بسبب استـماع ذلك الكلام ، واستبشار تلك الحال ، والاستظهار الذى تم بسـبب تلك الدالة التى حصلت ، واهتمت بما يجعل زوجها مستمراً فى خـدمة أعتاب الملك الميمونة ، مأموناً من الحوادث . ومن ثم قرر آزاد چهره وإيرا أن يبـنيا مسكناً ومأوى فى معاطف كنف عاطفة الملك ودولته ، ثم وضعا القلب فى ذلك المأمن على وطن .

رجوع آزاد چهره إلى خدمة الملك وإيراد النصائح

عاد آزاد چهره فى اليوم التالى إلى الخدمة ، صبيح الوجه نجيح السعى ، وضئ المنظر ، مـقضى الوطر ، وقد مـد بساط الثناء ، وأوصل الدعاء إلى سماء الإجابة ، وقال :

لتكن أيامك كلها سعيـدة لأن الأيام والأمور كلها طيبة فى ظل حكمك

الان صارَ لى الزمانُ مساعداً   ووصلتُ فيك حبائلَ الآمالى
فبلغت غاياتِ الأمانى دُونكم   وأرحتُ من حطٍّ ومن ترحالِ

ثم استعطفه الملك استعطافـاً نضراً ، ورحب به ترحيباً جديداً ، وأخلى المكان من الأغيار ، وقـال له : بالرغم من كون «يهه» نديماً قديماً ومناداً ملازماً ، ومناجياً منجياً ، وكافياً لكل الخيرات ، وإننى

لا يزيدنى سعادة إلا بآثار مقاماته الحـميدة دون بقية خلصاء الدولة ، ولا أرغب إلا فى محاضراته من دون جـملة جلساء الحضرة ؛ لكن لأن نسبـة المحبة التى بيننا قـد زادت وتوطدت إلى هذه الدرجة ، وحصل لنا الوقوف على جبلة حالك وأهلية كمالك ، ونهض التوقف ، وسمعنا عن بحثك عن الصلاح ، وجمعك للصواب فى كل باب ،

جـاء العيـانُ فألـوى بالأسـانيد

أريد أن تنصـحنى - الآن - بعدة كلمـات من ضوابط أمـور المصلحة فيما يتـعلق بمناظم الدين والدنيا ومعاصم الآخرة والأولى ، حتى أعمل بها وأنتهى إليها.

وصية آزاد چهره وختم الكتاب

قال آزاد چهره : لله - سبحانه وتعالى أمران وضعا لعمارة الحياتين : الدنيا والاخرة ، أما الأول : فهو العقل . وأما الثانى : فهو الشرع . فإن أردت عمارة الدارين ، فيجب أن تكون مـطواعاً لهما . فالعقل الذى يحكم هذه الدنيا يجتهد فـى ترتيب معاش هذا العالم ، ويأمر بالاجتهاد فى الأخذ بالأسباب كما قال البستانى لكسرى . قال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حـكاية كسرى مع البستانى

قال آزاد چهره :سمعت أن كسرى خرج ذات يوم لمشاهدة الصحراء ، فرأى بستانياً عجوزاً ، وبالرغم من شيخوخته وأن مدينة وجوده مفتوحة للخراب ، وقد اقترب مجئ مـلائكة الخبيـر له ، وخرج مـن العمل اثنان وثلاثون طاحونة كلهم بجوار بعض ، لكن فرع أمله كان يزهر من جديد فى خريف العمر وأثناء سـقوط ورق العيش ، وكان ينبت على

شاطئ عين حياته خط أخضــر بعد ذهاب ماء الطراوة . وكان يغرس شجر التين فى أخريات مراتب شيخوخته . فقال له كسرى : أيها الشيخ : إن الجنون ينهض عادة من الشباب والصبا ، أما أنت فقد جعلته فى زمن المشيب ، فالوقت هو زمن اقتلاعك لأصل وجذر العلائق من هذا المنبت الخبيث (الدنيا) وغرسك للشــجر فى مكان السعادة (الجنة) فأى مكان لهذا الهواء الفاسد والهوس الباطل؟ الشجرة التى تغرسها ، متى تستطيع أن تأكل من ثمرها ؟ فقال العــجوز : غرس الآخرون فأكلنا ، ونحن نغرس ليأكل الآخرون . زرعوا وأكلنا ، وزرعنا ليأكلوا ، وعندما نتأمل فالكل مزارع للآخر . فتحير كسرى من وفور علمه وحضور جوابه حيرة شديدة ، وقال : أيها العجوز : لو أبقــوك مدة فى حديقة دنيا الكون والفساد حتــى تأتينى من هذه الشجرة بثمرة على سبــيل الهدية ، سوف أمنحك خراج هذه الحديقة .

والخلاصة أن الأمل قد أوفى ، فأثمــرت الشجرة ، وذهب بهدية للملك منها ، فوصل الوعد إلى الإنجاز .

وقد قلت هذه الحكاية حــتى تعلم أن أمر عمــارة هذه المزرعة مفوض إليك ، فلا تسمح للرعية ألا يعمروها ولا أن يعمروها الخزينة بغير الريع الذى يأتى من الزراعة .

فإذا مضى الملك على هذه السنة والسيرة ، ويكون انتهاج سبيله على هذه الوتيرة ، فلا يجوز للأتباع اتباع غــير مراسمه ، بعد ذلك تعيش الرعية آمنة ، والملك معــموراً ، والخزانة غنية ومن ثم لا يلزم الملك خراج من المظلومين ، ولا يصبح ملوماً مذموماً فى أفواه الخلق «بيد خاطية وأخرى عاطية» .

أما الشـرع الذى أسلموا له الدار الآخـرة ، فلا يهـتم بأمور هذه المزرعة وخـرابها وعمـارتها إلا قليلاً . ولـو أعطوه الدنيا بما فيـها أو أخذوها منه . فلن ينظر بطرف عين الهمة إلى ذلـك . فلا يضع شيئاً يذهب به الآخرون ، ولا يضع ذخيرة يأكلها الآخرون ، والنبى ﷺ يقول «الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على رب بشر» .

وما يكون أمام تفكيره وغاية طلبه سوى اللذة الباقية بمطالعة عالم القدس ، والبهجة الدائمة بالقرب من جوار الجبروت .

أيها الملك : إن هذا المكان الذى تجلس فيـه يجب أن تسمع دائماً وتنتبه جيـداً : فإنك وإن كنت على قلعة متمكنة فضـاؤها متقابل مع قلة الفلك ، فلن يمـنع قارورة الدعـوة التى يدعـونهـا فى السحـر ، «واتقـوا من مجـانيق الضـعـفاء» الذى يحـذرون وينذرون به سـاكنى الأعالى .

فعندمـا يحرك النشاط ملك السلطنة ، فـيتناول سلاح الصـيد ، ويتوجه بطالع السـعادة والطائر الميمون إلى مكان الصيـد ، فيجب ألا ينسى رؤسـاء موكب العـزيمة وصيـة «ادخلوا مسـاكنكم حتى تصـبح الأطفال الصـغيرة لـلطيور التى لم ترب فى بيـضة ملكك إلى الآن ، ولم يطيروا تحت أجنحة حمايتك ، ضحـية القهر تحت مواطئ الجيش ومحاشر الحشر » .

وبالرغم من أنهم احتقروا ذلك العصـفور المسكين ، مادة الشهوة ومدد قوة التناسل ، فإنه لا يسمح بإسالة دمائهم من أجل قضاء شهوة واحدة ، ولا يسمع تشنيع ونفير لسان العصافير فى ديوان العرض فقد جاء فى الخبـر الصحيح «من قتل عصـفوراً عبثاً جاء يوم القـيامة وله

صراخ عند العرض يقول يا رب سل هذا لم قتلني من غير منفعة » .

واعلم أن غيرة الإله نفسه على عكس ما هو مشهور على الألسن بأنه يجعل كثرة التوالد من نصيب الضعفاء ويعاقب الأقوياء بخنجر عقوبة العقم .

بُغاثُ الطيرِ أكثرُها فراخا   وأُمُّ الصقّرِ مِقلاةٌ نَزُور (١)

فيجب على الملك ألا يغفل عن حيازة خمس خصال ، حتى إذا أخفق في إصابة عشرة أهداف ، فإنه سوف يكون من الملوك الأول أيضاً :

الأولى : أن يجود ويمسك بطريقة لا تخل بميزان العدالة .

الثانية : أن يَحفظ للرضا والغضب وقتَه ومقامَه ، وأن يصون عرضه من وضع الشئ في غير موضعه .

الثالثة : ألا يُرجِّح مصلحته الخاصة على الصالح العام .

الرابعة : ألا يجعل يد الجيش مستعلية على الرعية .

الخامسة : أن يكون طالباً للعلم أكثر من طلبه لأي شيء آخر وأن يكون أعلم من أي شخص .

لأن له من كل علم خيراً ، يبقي الملك بعظمته ويصبح تاج كسرى عالياً ، عندما يكون العالم أمامه فقط للذكرى كل ما أخذته الأيلم ، يبقى الكلام في العالم فقط للذكرى عندما يصبح الحديث متصلاً ، فإنه يجدد قصة الماضي القديم ليجعلك الله عالماً منيراً ذكياً ، حتى يكون العلم لروحك درعا

(١) البيت للعباس بن مرداس في قصيدة له مطلعها :

ترى الرجل النحيف فتزدريه   وفي أثوابه أسد مزير

أحمد أمين ، عبد السلام هارون : شرح ديوان الحماسية ، مجلد ٢ الحماسية رقم ٤١٩ ص ١١٥٣

فـعندما أنهى الـكلام إلى هذا الحـد ، أمـر الرعـيـة أن يأخـذوا آزاد چهره ، حتى يصير زمام التصرف والتدبر فى تدبير الديوان والبلاد فى يد كفايته ، واعترف كافة كفاة رعاة الملك والدولة به كوزير للملك :

فيـا حسنَ الزمانِ فقد تَجلَّى بهذا اليُمن والإقبال صَدْرُه
فقلْ فى النَّصلِ وافقه نِصابٌ وقلْ فى الجَوِّ أشرقَ منه بَدْرُه

فليـجـعل الله - تعـالى - ظل ملوك العـالم مـلك بنى آدم الأتابك الأعظم ، مظفـر الدنيا والدين ازبك بن مـحمـد بن ايلدكـز متـمتـعاً بالتفكيـر الحسن فى أمر الدين والدولة ، لأن سر ضـميره تلا : «رب اشرح لى صدرى»[1] ودعا دعاء «واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى »[2] حتى استجيب بجلوس سيد العالم ، ربيب الدنيا والدين ، معين الإسلام والمسلمين أبو القـاسم هارون بن على فى صدر وزارته . وجاء عـقد الإخوة الذى عقـد فى الأزل - مع تفويض هذه الوزارة - من مـشيـمة قـدرة التوأمين. اللهـم اشـدد بـه أزره وحـط عنه وزره بالنبى محمد وآله وصحبه .

(١) طه : ٢٥
(٢) طه : ٢٩ ، ٣٠

خاتمة الكتاب

خاتمة الكتاب

يجب أن يعلم المحققون الصادقون غير المتأملين للعيب الباحثين عنه - وتأمل العيب عيب - أن أكثر هذه الكتب التى ألفها العجم ، وبخاصة «كليلة ودمنه» موضوعة على سياق واحد ، وسيق الكلام فيها على نسق واحد وإن كانت لمبدعه فضل التقدم بل تقدم الفضل ، إلا أنه يشبه الحديقة التى لا تجد فيها سوى ثمرة واحدة وإن كانت للأذواق معسولة وللطباع مقبولة ، ويشبه البستان الذى - وإن كان يجعل المشام معطرة والأنوف معنبرة - لا تستطيع أن تشم فيه سوى رائحة ريحان واحد ، وعمل هذا العبد مشتمل على عدة أنماط من أساليب الكلام المزين والعبارات المزخرفة ، فهو يشبه الجنة المليئة بالألوان المختلفة من أزاهير المعنى ، وأشكال رياحين الألفاظ ، وأجناس فواكه النكات ، وأنواع ثمار الإشارات ، فيكون لكل حس حظ من هذه الأنواع ، ولكل ذوق نصيب من هذه الآحاد « فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين» (١) .

ويأتى هذا الكتاب متفرداً بين الكتب للخصائص الآتى ذكرها :

أولاً : لا يوجد به شوارد الألفاظ وأصناف الكلمات العربية غير المستعملة والتى يمجها السمع وتأباها النفس .

ثانياً : أنه خال تماماً من الأمثال والشواهد العربية والفارسية التى أوردها الآخرون فى كتبهم . وهكذا كان محترزاً من استعمال ممضوغهم من الكلام وممصوصهم منه . إلا على سبيل الندرة ، ومن ثم لم يشم الورد المشموم الذى لمسته يد الآخرين .

(١) الزخرف : ١٧ .

ثالثاً : إننى تناولت الموضوع الواحد المعين فى مواضع كثيرة ، وبأوصاف مختلفة على طريقة التزيين التى لا تكرر الكلمات السابقة إلا ما شاء الله ، وكثيراً ما يوجد فيها خصائص جزئية أخرى تصبح معلومة عند بعيدى النظر دقيقى الرؤية وقت مطالعة دقائقها . أما إذا فكّر أحد القراء فى إمضاء فكرة على مقام أو مقامين وترك الباقى ، بحيث لم يصل بمطالعة وافية من الصدر إلى العجز ، فسوف تفوت منه كثير من نوادر النكات وصوادر النتف التى صدرت عن كريم خدر الخاطر وعطر العبارة .

حَفظتَ شيئاً وغَابت عَنك أشياءُ

ولقد جئنا إلي الهدف الدقيق الباعث على تحرير هذا الفصل ، والذى يطرز كُمَّ مفاخر الكتّاب منه ، ويأتى ترتيب هذا الوصل الذى يُزَخْرَفُ أواخر الكتاب به ، وهو أن نزيل سبب التأخر فى كتابة هذا الكتاب ونحل عقدة التعسر التي حدثت لهذا الأمر وأن نوصل هذا العذر من لسان إملاء الحال إلى الوضوح .

وذلك هو أن الملك سيد العالم ربيب الدنيا والدين ، معين الإسلام والمسلمين عزَّ نصرهُ ووُقِى من غِيَرِ العْصرِ عصرهُ ، الذى كان التوفيق رفيقاً لطريق مساعيه دائماً ، والذى يملك فى نفسه رسالة مفتوحة من قوله تعالى «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[1] قد علم أن ليس هناك شئ يخلف أثمن وأعظم من التقرب إلى الله الذى نقشت محامده على صحائف الذكر ، وذهبت المكارم إلا من

(١) الحشر : ٩ .

الدفاتر ، وعرف دون شك - أن الجاهلين المسوفين والكسالى المتوقفين لن يرفعهم تأجيل الآمال مع تعجيل حوادث الأحوال .

أخذ الزمن متاعهم منهم بسرعة، حتى لا ينالوا منه أى شئ

والخلاصة أنه عزم بنية خالصة ، وطوية صادقة على أن يثبت أعظم بر وأفضل حسنة فى صحف محاسن الأعمال ، وأن يسجل حجج الآخرة فيها ، وفى النهاية جاءت جميع أفكاره المباركة مقصورة على جامع تبريز لينشأ فيه داراً للكتب ، كوعاء ملئ لطفاً وظرفاً وهكذا ارتبطت الروح بالروحانية وتزينت بحسن المبانى ، لدرجة أنك لو قلت إن ساكنى رواق البيت المعمور يستحسنون تلك العمارة ، لا يلزمك الاستغفار من هذا القول . فما يلقاها إلا ذو مقام كريم ، ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم وبالرغم من أن بعض السلف - فى العهود المتقادمة - قد تبرعوا وجعلوا محازن كتب فى هذا الموضع إلا أن روابط هذا النظم قد ضعفت ، وصارت شرائط ذلك الشمل غير مرعية ، فوصلت يد تطاول الزمن إلى تفريقه وتبديله بسرعة .

وكذلك عاد إلى الشتات جموعها

وهكذا لم يبق من موات ذاك الخير سوى الرميم والرفات ، ولم يصلح راتقو هذا البساط الأغبر وهذه السجادة الخضراء ممزقة الأجزاء إلا بنسج العنكبوت . وبحمد الله ومنّه صارت كل نسخة من هذه النسخ - جعلها الله من الباقيات فى صالحات أعماله - فى الحقيقة حلية فى ناصية ذلك العاطل ، وبياض غرة تلك المنسوخات الباطلة .

وَصَفْتُك فى قواف سائرات وقد بقيتْ وإن بقيتْ صفات
أفاعيلُ الورى مِن قَبلِ دُهمٌ وفعلُك فى فَعِالهمِ شَيات[1]

والحق أنهم قد جمعوا فى حظيرة الأنس هذه ، لا بل حديقة القدس جميع غرر المصنفات وأوضحها ، وحشروا فيها أرواح التأليفات ، ونظموا فيها شعب كل العلوم وأفنان جملة الفنون التى يحتاج إلى الإفادة منها خواص الناس وعامتهم .

ففى العربية وأقسامها تشتمل على المركبات والمفردات والنحو والتصريف ، وهذه الأقسام تشبه السوط الذى لايمكن ترويض الحصان العربى إلا إنه ، كما تشتمل على أنواع البراعة والبلاغة نظماً ونثراً التى استمدوا منها الأساليب المختلفة لقالب أى صياغة ووقع تعلق ذوق كل واحد وطبعه على أسلوب خاص .

كما اشتملت على المذهب الذى عليه مدار مصلحة العالمين وانتماء حكام الشريعة إلى أحكام فروعه وأصوله ، والذى يقع سيفاً فاصلاً بين الفضوليين والصادقين وقت الفصل بين الحق والباطل .

كما تشتمل على علم الكلام الذى من مهماته إثبات وجود الصانع وقِدم ذاته مع كونه فاعلا مختاراً بخلاف ما يقول الظالمون تعالى عنه علواً كبيراً ، وبيان حدوث العالم على سبيل الإيجاد بريًا عن الصورة والهيولى .

(١) البيتان لأبى الطيب المتنبى من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدى يقول فى مطلعها
فدتك الخيل وهى مسومات وبيض الهند وهى مجردات
المتنبى : الديوان ج ١ ص ١٥٣

ومنهـا أيضاً تقـرير بعثـة الأنبياء بـواسطة جبـريل وإرسال الله - سبحانه وتعالى - له بالوحى والتنزيل ، وإقامة البراهين والحجج على حشر الأجساد وأحوال المعاد . تلك الحجج والبراهين التى يبحث عن معرفتـها العقول والنفوس بقدر النور الذى فـاض على أساس خلقتهم فى بيت الفطرة .

وفيها أيضاً من علم التفاسـير والأحداث المنقولة عن نقلة الشريعة والحكمة وحملة العرش عن العظمة ، وسالكى بادية طلب الحق الذين لايملكون سوى مصابيح الهداية التى يحملونها من هاتين المشكاتين فى ظلمات وأوهام الذريق خـيالاته التى يصعب الخـروج منها بدون هذه المصابيح ولا يمكن الخلاص من مفاوز الشبهة دون الاستضاءة بنورها .

وفيـها أيضاً من علم الطب الذى نطـق لسان النبوة بفـضله حيث قال عليه الصـلاة والسلام : «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان» وليس لمدبرى أمر الإنسان من قانون إلا قانون هذا العلم ، ولا يستقيم أى تصرف للعـقـل فـى ولايـات الأعضـاء السبعـة وكذلك الجـوارح إلا باستقامة المزاج على حد الاعتدال ، ولا تتيـسر استقامته إلا بإقامة هذه الصناعة .

وفيها أيضاً من علم النجوى الذى تعود منفعته على الخلق كافة ، فيحـتاجون إليه فى مـعرفة مواضع النجوم وتأثيـرات نظر عداوتهم : لأنهم ربطوا نقش الشئ هذا المصنع الكونى بالفـساد فى العالم العلوى (أى عالم النجـوم) فكل شئ يحدث هنا بفعل القـدرة والسنة الكونية يتولد من الأجرام الفلكية ، فمثلما يعالج الطبيب الأشخاص فى وقت الصحة والعلة ، فالمنجم يعالج الأحوال فى وقت السعادة والنحوسة .

كما جعلوا فيها كثيراً من أنواع الرسائل ، ودواوين الأشعار ، وتاريخ الدين والدول ، ومجارى أحوال الملك والملل ، والسفن المشحونة بالفوائد والفرائد بفضل رجال الزمان الذين كان بحر همتهم قد خرج من سواحل الآفاق لطلبها من أقطار وزوايا الشام والعراق .

ومن ثم نضدوا فيها ما يقرب من ألفى مجلد ، فأصبح ذكره الكريم (أى الملك) مخلداً بهذه المجلدات ، لكنه أخذ فى ذمة همته طلب الباقى .

وفى الوقت نفسه وضعوا عدة مصاحف معتبرة عقود الدر المنثور ، كتب كل واحد منهم بخط أجمل من جعد وطرة الحور اللائى يسجد أعشار وأخماس الكواكب فى حواشى الأفلاك السبعة تبركاً بمشاهدة جمالهن ، وكذلك أجمل من التاج المرصع الذى يوضع على مفرق العروس ، ووضعوا تلك العلائق والنفائس فى حلية وزينة .

وعندما حدث هذا على أحسن نظام وأيمن حال ، ووصلت شجرة العمل الطيبة فى هذه البقعة المباركة إلى مقام إدراك الثمار خصص (أى الملك) عشرة نسّاخ لمهمة النسخ ، ومنحهم أسباب الراحة والتفرغ حتى يلازموا هذا الموضع الشريف على مرور الأيام ، ويأخذوا النسخ التي تكون محل نظرهم وعملهم من كل صوب ، ومن ثم يوصلون مآثره ومكارمه إلى سمع الأكابر والأصاغر .

وكنْ حديثاً حَسنا ذكره ... فإنما الدهرُ أحاديثُ

وفى هذا الحال تماماً جاء «مرزبان نامه» أيضاً من طى الكتمان إلى مظهر الوجود . ومن المعلوم أن الإعداد الزائد كان سبباً فى تأخيرها وتعويقها حتي اقترنت خاتمته (أى خاتمة الإعداد) بفاتحة التوفيق الذى تحقق بفضل الملك سيد العالم ، وصارا (أى خاتمة الإعداد وبداية

التوفيق) بعنان واحد .

وهذه بضاعة مزجاة فى جامع تبريـز قد أضيفت إلى ذخائر السعادة ، فيـغيث المسـتغيـثين بـ «أوف لنا الكيل»[1] من عام القـحط كرمـاً بصاع الاصطناع ، ويكمل نصـاب كل صـاحب نصـيب ، فـيكون هذا صلة القلب وابن الروح التى تخرج من سجن بين أحزان الخاطر مثلما كان مع يوسف ، قيد عوائق الأيام ، ولذلك فالمشـتاقون لوجهه والمنتظرون لجبل عطائه جالسون وألف يد وألف قلم حاد ليقطعـوا اليد والبرتقال معاً من الانبهار بمشاهدة وجـهه وعذاره ، ويكتبون قصة جمـاله وأحواله الماضية فلو أصبحت ناصية إقباله موسـومة بوسم القبول فى حضرة الملك العالم عزيز ذلـك الوقت - أعظم الله - شأنه ، وصـار ممكنا من تمكين «إنك اليوم لدينا مكين»[2] فسـوف ، يرعى شكر ذلك القـبول والرفعـة بسنة «ورفع أبويه على العرش»[3] أعنى أن الملك سيـد العالم لو يلحظ بعين الرضا لطيفة واحدة فى جميع هذه الأوراق ويحلها محل الرضا ، ويعفو عن باقى العثرات فيها ، فإن الجـواد قد يعثر ، (لأعطى كثيراً) لأن كرام السلف الذين تركـوا اسم الكرم على الملك أعطوا عـشر خـزائن مقـابل لطيفة واحدة من لطائف هذا العبد .

فأين محمود[4] زماننا ، إذ هناك فى كل زاوية مائة عنصرى[5]

« تم الكتاب بحمد الله»

(١) يوسف : ٨٨

(٢) يوسف : ٥٤

(٣) يوسف : ١٠٠

(٤) يقصد السلطان محمود الغزنوى الذى اشتهر بحبه الشعراء ومنحهم العطاء الواسع .

(٥) يقصد العنصرى أحد شعراء السلطان محمود الغزنوى .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتّاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت . لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت . نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت. أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت . أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت . بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت . ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت . وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية . تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت . عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت · سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت . مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت . صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت . محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت . شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت . شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت . جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علوى	ت علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت . جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت . جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت . على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت . محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٠٤٣ / ٢٠٠٠



مرزبان نامه

يشتمل هذا الكتاب على لطائف الحكمة وفوائد
الفطنة ، كى يتخذه الناس عامة دستوراً لمعاش دنياهم
ومعاد أخراهم ، ويرجع إليه الملوك ليستأنسوا به ،
ويستفيدوا من مطالعته ، ويستكملوا منه سياسة السلطنة
ويستخلصوا من زواجر وعظه ونصحه أخلاق المسايرة
وحكمة المعاملة وذكرى سيرة الأيام وانقلاب الدهور
والأعوام ، فألّفه الأمير على ألسنة الوحوش والطيور
والإنس والجن والشياطين ، وجاء الملطىُّ فأنس من هذا
الكتاب عُريًا من حلية العبارة وجواهر الألفاظ الحجازية
الزواهر ودُرر غرر الأمثال والأشعار العربية ، فكسا
مناكب عبارته بجلابيب مواهب خاطره ، لتزداد فى
مطالعته رغبة مستفيدى الأدب ومقتبسى ألفاظ العرب
من متعلمى صنعة الإنشاء والبلاغة والفصاحة ، وقد نهج
الوراوينى نفس المنهج ؛ فنقل الكتاب بدون تغيير اسمه ،
وتصرف فى عبارته وزينها بالأشعار والأمثـ
والفارسية حتى أصبح فى صورته الحاضـ
سلامة العبارة وسهولة اللفظ وسلاسة البيان
به من تشبيهات واستعارات نموذجاً عالـ
الفارسى فى عصره قبل أن يدانيه فى ذلك كتـ